مصطفى نعمان حسين البدري

الإمام مصطفى صادق الرافعي

ساعدت جامعة بغداد على طبعه

مطبعة دار البصري تلفون ـ ٨٩٢٧٩



بسم الله الرحمن الرحيم

« ذلك هُدى الله يَهْدي بهِ من يَشاءُ مِن عبادِهِ ولو أشركوا لَحبطَ عنهم ما كانوا يعملون *

أُولئكَ الذين آتيناهُمْ الكتابَ والحُكمَ والنُّبوّةَ ، فإن يَكفُرْ بها هؤلاءِ فقدْ وكَّلْنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين *

أُولئك الذين هَدى الله فبهداهُم اقتدِهْ »

الآيات ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ من سورة الأنعام





إرسموا شخصَ الوفا ثم انظروا من بعدُ رسمي

لو يسمى في الأنام الحبُّ ما اختار سوى اسمي

الأدب

للإمام مصطفى صادق الرافعي ـ رحمه الله



من الأصول الاجتماعية التي لا تتخلف ، أنه إذا كانت الدولة للشعب، كان الأدب أدب الشعب في حياته وأفكاره ومطامحه وألوان عيشه ، وزخر الأدب وتنوع وافتن وبني على الحياة الاجتماعية!.. فإن كانت الدولة لغير الشعب ،كان الأدب أدب الحاكمين وبني على النفاق والمداهنة والمبالغة الصناعية والكذب والتدليس ، ونضب الأدب من ذلك وقل وتكرر من صورة واحدة .

وفي الأولى يتسع الأديب من الاحساس بالحياة وفنونها وأسرارها في كل من حوله ،.. إلى الاحساس بالكون ومجاليه وأسراره في كل ما حوله .

أما الثانية فلا يحس فيها إلا أحوال نفسه وخليطه ، فيصبح أدبه أشبه بمسافة محدودة من الكون الواسع لا يزال يذهب فيها ويجيء حتى يمل ذهابه ومجيئه .

والعجب الذي لم يتنبه له أحد الى اليوم من كل من درسوا الأدب العربي قديماً وحديثاً ، انك لا تجد تقرير المعنى الفلسفي الاجتماعي للأدب في أسمى معانيه إلا في اللغة العربية وحدها ، ولم يغفل عنه ـ مع ذلك ـ إلا أهل هذه اللغة وحدهم !..

فإذا أردت الأدب الذي يقرر الأسلوب شرطاً فيه ، ويأتي بقوة اللغة

صورة لرقة النفس ، وبدقته المتناهية في العمق صورة لدقة النظرة الى الحياة ،..
ويريك أن الكلام أمة من الألفاظ عاملة في حياة أمة من الناس ، ضابطة لها المقاييس التاريخية ، محكمة لها الأوضاع الانسانية ، مشترطة فيها المثل الأعلى ، حاملة لها النور الالهي على الارض .

.. وإذا أردت الأدب الذي ينشيء الأمة إنشاء سامياً ، ويدفعها الى المعالي دفعاً ، ويردها عن سفاسف الحياة ، ويوجهها بدقة الابرة المغناطيسية الى الآفاق الواسعة ، . ويسددها في أغراضها التاريخية العالية تسديد القنبلة خرجت من مدفعها الضخم المحرر المحكم ، . ويملأ سرائرها يقيناً ، ونفوسها حزماً ، وأبصارها نظراً ، وعقولها حكمة وينفذ بها من مظاهر الكون الى أسرار الألوهية ..

إذا أردت الأدب ـ على كل هذه الوجوه من الاعتبار ـ وجدت القرآن الحكيم قد وضع الأصل الحي في ذلك كله !..

وأعجب ما فيه أنه جعل هذا الأصل مقدساً ، وفرض هذا التقديس عقيدة ، واعتبر هذه العقيدة ثابتة لن تتغير ..

ومع ذلك كله لم يتنبه له الأدباء ، ولم يحذوا بالأدب حذوه ، وحسبوه ديناً فقط ، . وذهبوا بأدبهم الى العبث والمجون والنفاق ، كأنه ليس منهم إلا بقايا تاريخ محتضر بالعلل القاتلة ، ذاهب الى الفناء الحتم !..

والقرآن بأسلوبه ومعانيه وأغراضه لا يستخرج منه للأدب إلا تعريف واحد هو هذا : إن الأدب هو السمو بضمير الأمة .

ولا يستخرج منه للأديب إلا تعريف واحد هو هذا .

إن الأديب هو من كان لأمته وللغتها في مواهب قلمه لقب من ألقاب التاريخ ؟

الإمام
مصطفى صادق الرافعي

للرافعي شخصية فريدة ، تتمثل بروح عربية مؤمنة ، تفيض شاعرية ، وتشرق بياناً ، وتتألق فناً ، وتعمر القول بوجدان سليم ، وتقبل في نفس عصامية حازمة ، تنطلق مع الحياة الانسانية المثيلة بقيم رفيعة ، وأخلاق ثابتة وأهداف سديدة ، بمحاولات تغنى بالتجربة ، وتشرف بالوسائل وتنضج بالحكمة .

وقد اتخذ من السمو بضمير الأمة صراطه القومي ، الى المثل الأعلى الذي جهد من أجله حياته الأدبية كلها ، الشعرية الوجدانية ، والنثرية التقويمية والنقدية منها ، التي تتصدى للعصر : تهدمه من جوانبه الضعيفة لإعادة بنائه على أسس سليمة من المتانة والقوة ، والاستعداد الوثيق لحملة التطهير الماضية على أشُدّها في إرادة التغيير من أجله ،.. وكأنما جعلها كالمدار الفلكي من حوله ذلك المثل القويم .

ذلك أن الرافعي ـ رحمه الله ـ كان قد انتظم الأدب الاعتقادي في معاناة واجدة ، عند بيان ملتزم ، ينتصر للعروبة وقيمها وخصائصها في مجالي لغتها وفنون آدابها ، وما تضمنه من مقومات الفكر ومباديء العقيدة ، والسمات التي تطبع الأمة بطوابعها وتفردها بين سائر الأمم ، في هـذا العصر المتحول العصيب الذي يقذف بالأفكار ، ويوزع المذاهب ، وينوء بالآراء ويكاد

وهو فى سبيل ثبات القيم العالية ، وغناها بالمثل الرفيعة وعمران الضمير يتمزّق بوجهات النظر التي تنذر بالأخطار ،.. أو يحتــدم مع الأيام ، أو ينبهم في أحداث غلبت عليه صفته من التاريخ .

القومي بالإيمان ، والسمو بالوجدان العربي .. قــد آثر فلسفة خاصة ، وتحرّى الفهم المستوعب ، وقصد حدّية هادفة ، يرقى إليهــا بروح آسية ، وقلب طبّ ، وعقل متدبر حكيم .

ومن أجل هذا وذاك كان يجتهد أن يفرد آراءه ويؤنق وجهات نظره ، ويجلو بنات أفكاره ، ويطبع فنون قوله ،.. وقد يُلزم نفسه بمـا لا يلزم أحيانًا ، من نفحة شاعرة . وعبارة تحفل أسلوبًا وتشرق في بيان عربي مبين ، وربما تقطر ظارفًا وهي ترفل بالمعاني وتنتظم مع الحيـاة الوليدة في العصر عند شبه كُلية فيهـا رأي يذهب ، وخلوص نية يثبت ،.. ولهــا تقوى مطمئنة ، وبها انتصار مبدأ وعنوان عقيدة ، ومنها ينطلق هدف رفيع ، ويصطف سموٌّ بالايمان يرقى بـه فى اعتقادية عالية الى أبعد ما يشرق إليه قلبٌ عربي شهيد .

ولعل فى هذه المقالة التي تقدمت الكتاب بسماحة ، بعباراتها الريّـقة التي تتساوق في نغم النثير الرافعي ، والتي وافت مسابقة البيان والتمهيد ، لتوجز من ثم هدفًا في الرسالة ، وتستنجز غاية في التوجيه ، بما تشف بـه عما وراءها من حلو النداء ، وطيب المضمون وجملة المحتوى ، وبما تعمره في الأدب العربي من متـانة الأساس ، وقوة البناء وتصوير النفس الراضية فى خلجاتها الدقاق ، وزهو المعاني بالصور الجميلة التي يلدها البهاء في جلال ، فيستوعبهـا الضمير قبل الخيال وتطمئن إليها الارواح .

وبما فيها أيضاً من تقرير علمي يتصف بالاتزان المنصف، والعدل الواضح الحكيم ؟.. وبما يسلكها فيه من المذهب المتسم بالصدق والصراحة والحجة القائمة على الحيثيات التي لا تبخس الناس أشياءهم .

ولما لها من دقة الأداء بالسحر الحلال، وإقبال الغنى بالمثال، وحلاوة البلاغة مع الجمال ؟.. على ما جاءت به من معروف المفردات، واتساق العبارات وعلمية الأسلوب، وبراعة إنفاذ الحكم .

ولعل في ذلك بعض ما يصوِّر لنا من شخصية الرافعي، ويظهر روحه الانسانية ويعرض أدبه الاعتقادي، ويشف عن ضميره القومي النبيل .

* *

كان لا لمثل الرافعي الأديب الفذ والحجة، الثبت من دراسات منهجية تكون بمتناول أبناء الأجيال اللاحقة كالدليل ؟.. فتبعث فنّه حياً، وتمضي بأدبه سوياً، وترقى بشعره ومعانيه، في ازدهاء، وتحلّق معه في خياله العظيم تخترق الآفاق !..

وكان لا بد من إعادة النظر في تقويم آثاره، واستعراض فنون قلمه، أمام التبدل الحضاري، والتحول في المفهومات والقيم، والتغيير الذي تعانيه الانسانية بعامة، والحياة العربية بخاصة ؟.. ولا سيما بعد ذيوع المذاهب الآتية، وشيوع المنهجية التي تتحرى التوثيق العلمي، وتقتصد في البحث والمقارنة .

* *

وكان لا بد من تجلٍّ أمام هذه الكثرة الغُثاء من محاولات الانتهازية الخرقاء في التلفيق والتصدي، وما تعانيه من مساومات التزبيف والتحريف، التي

رانت على الفكر العربي بخاصة، فأرهقته بالتعلاّت، وآذته بالنظريات المترجمات،.. تحسب أن تجعله تبعياً في أحسن أحواله،.. ولا سيما بعد الذي أقلق الحياة الوجدانية للعرب، ومسّ مكامن الشجن من شعورهم النفسي، وهزّ ضمائرهم في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري وبعد مأساة العروبة في الانفصال بالأقاليم، والضياع في فلسطين،.. ذلك أن هذه الانتهازية الأدبية المنافقة ما تبرح تحاول بغفلة وبسوء منقلب نسف القيم، وتبديد الاعتبارات،.. ثم المسخ المشوه للتجديد والتنظيم.

ولما كان من بين الحركات الهادفة، النهوض بالدراسات المنهجية المقوّمة لجوانب الضمير القومي للأمة العربية: ثباتاً أمام هاتيك المحاولات الغزوية الكاثرة، والأساليب الملتوية بالتقليد العاثر، والطرق التي تلتفّ بالمكر والتضليل وهي تسعى لحجب الروح العربية عن الجهاد والحياة، والحيلولة دون بعث قوة الابداع فيها،.. فلا تتأتى لها الاندفاعة العبقرية المتميزة التي تأخذ لها مكانها في صفّ الحضارات.

فكان لا بد من تقويم علمي لمثل هاتيك الحركات الهادفة، ومدارسة منهجية بقيم جديدة ترقى بالتراث الفكري للأمة إلى ما يجعله متميزاً على سواه من آثار الأمم الأخرى.. بالفضل والسعة.

والامام الرافعي بما ينفرد فيه من الشخصية العلمية للأدب والفكر العربي الاعتقادي، وبما يتسم به من السجية القومية الواضحة، وبما يتسامى فيه من الروح المؤمنة العالية، وبما يسمو عنده من الوجدان الذي يرقى بضمير الأمة الى التجلّي والامتياز،.. يُمثل مجالات متسعة لمثل هذه الدراسات، ومغنىً لا مثيل

له بين المغاني ،.. لِما يتمتع به فنُّه وأدبه وشعره من طاقات الفكر، وآثار الاعتقاد، وثمرات الايمان تنتظم دُنى قوليةً أثيرة على الأمة.

وكم كانت أمنيتي مشرقةً أن تسبقني موافقات دراسية لجوانب الرافعي الأديب، أو رحاب الرافعي الشاعر، أو آفاق الرافعي الناقد، أو مجالي الرافعي المفكر وصاحب الرأي الإمام..

ولكني وجدت - والأسى يحزُّ في نفسي - أن بيننا وبين هذه الدراسات مرحلة إعدادية رائدة؛ كان لا بد أن أتولاها بنفسي، أما محاولاتي الدراسية الأخرى في شعره ونثره،.. بعد أن رأيت أكثر من تصدوا للرافعي في دراسة أو نحوها - في حياته ومن بعد وفاته - لم يتعدّوا تعريف الدكتور محمد صبري وبضع صفحات لطيب الذكر الاستاذ صديق شيبوب، ومصنَّف المرحوم محمد سعيد العريان في «حياة الرافعي» .. عليها يدورون، ومنها يجترّون مع بضع سطور أخرى في رثائه تقول: يرحمه الله!.

وهكذا وضعت على عاتقي مهمة أن أتجشم العناء، واختلف على المغاني، واضطرب مع الأحوال.

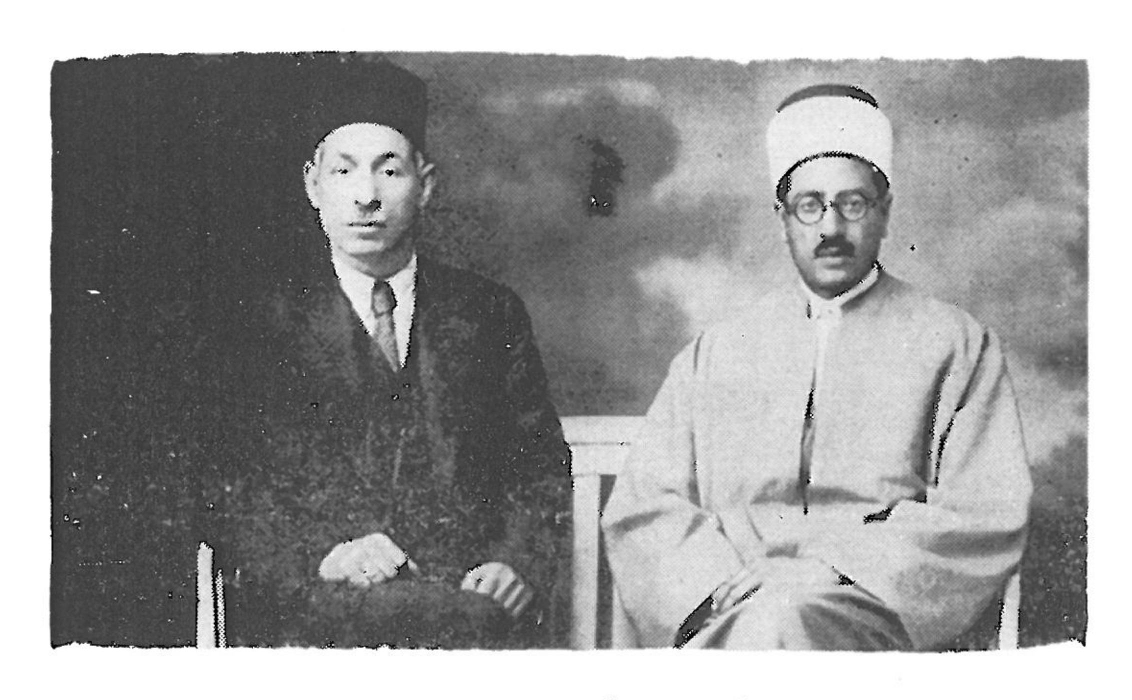
وقد وجدت الانتظار في الأستاذ الفضيل عمر الدسوقي رأس الدراسات الأدبية في دار العلوم المحروسة. وكأني وإياه على موعد مع القدر، كان يُخيّل فيه لنفسه أن يتولى مهمة الكشاف الصادق، ويفتش بين تلامذته الكُثر عمن يقوم بهذا العمل الأثير.

وحين قدمت له نفسي لحمل هذه التبعة.. أخفى غبطته السامية، وراح يحاورني في عظم المسئولية التي قد ينوء بها كاهلي في مثل هذه المخاطر الدراسية..

وكاد يُظهر لي شيئاً من التردد يصرفني عنها أو يختبر ، وقد أحسست يومها أن الدسوقي يحاول معي ترجمة الحماسة إلى عزيمة فيها ثبات مقدرة وجلاء عنوان ، وصبر جهاد .. فدعوت الله مخلصاً أن لا يخيب لي ظناً معه ، وأن لا يحزنني أمامه عند الرافعي العظيم .

ولم أكد أمضي خطوات في القراءة والتتبع والاستيعاب والمطالعة التي تعوض لي ما فاتني دراسته في مرحلة سابقة ،.. حتى وقفت بعد عام في شبه امتحان - إن لم يكن قد سماه لي ، فقد عرفته وأدركت مراميه وأبعاده ،.. ليوافق من ثم على إختياري الموضوع ويترك لي محاولة منهجته بتوفيق ، فكان هذا الكتاب المدخل الذي يعرض نفسه ، وكتابان آخران بعده أحدهما يعرض للشعر عند الرافعي مذهباً وفناً ، والثاني يهم أن يحصر التجديد والمحافظة للنثر العربي عنده بتعريف جديد ... وبذلك أرجو أن أكون قد أديت عن الأمة العربية الصابرة بعض فرض الكفاية الذي يرفع الاثم عن أبنائها - والله ولي التوفيق ؟

مصطفى نعمان حسين البدري



صورة فريدة تجمع بين الأمام مصطفى صادق الرافعي
والأستاذ الكبير محمد بهجة الأثري - عند زيارته له في طنطا
في ربيع آذار ١٩٣٦





للاستاذ الكبير

محمد بهجة الاثري



في الوطن العربي الكبير ، من ضفاف الخليج الى شواطيء المحيط ، حركة في التأليف والترجمة والنشر ناشطة دائبة ، تبشر بإشراق فجر وضيء لنهضة عظمى تنتظم آفاقه . وليس بضائر هذه الحركة ما يلاحظه النقاد السوداويون المغرقون في التشاؤم على بعض إنتاجها الشاب من ضعف وهزال ، فإن ذلك سيختفي ولا ريب مع مرور الزمن كلما قويت واشتدت وتعاظمت شأناً ، ولكن يضيرها ألا يكون في الإنتاج الشاب الذي تنتجه الجزلُ الحظوظ من المادة الثرّة المعطاء ، والحسَن الجميل الموسوم بطابع الاجتهاد

والتجويد والإتقان ، أو يكون فيه من ذلك القليل ولا يزداد نوعه باطراد .
ووجود هذا الطراز الجيد متحقق وموفور ، لا جدال في ذلك ، ولا سبيل لأحد الى إنكاره ، وإنه ليزداد يوماً بعد يوم سَمتاً فوق سَمت ازدياداً يبعث التفاؤل بقيام النهضة المرتقبة ، ويشيع الرجاء فى نمائها وازدهارها في مؤتنف الأيام .

وهذا البحث الذي بين يديك ، وأنت ستقرؤه فترتاح الى حظوظه من الجد والاجتهاد والصدق ، هو وأمثاله في هذه الحركة الناشطة الدائبة من الإرهاص الذي يتقدم بين يدي أنواء الخير بشيراً يقوّي هذا الرجاء . وإنه ليسرك أن ترى الشباب يتقدمون الموكب رافعين الرايات بالأيمان ، ويقدمون الشاهد تِلوَ الشاهد من بينات مشاركتهم الجادة في هذه النهضة ، ومنها هذا البحث الموعب .

وهو من صنعة شاب نابه من طلائعهم فى العراق ، يؤرخ به أديباً عظيماً من أفذاذ الدهر .. أدبه فكر ثائر مشبوب ، وعقيدة أصيلة مُثلى ، وعلم يتوارث ويتدارس ، وفن خالد يَثرَّى به العقل والقلب .

صنعه بأعين « دار العلوم / جامعة القاهرة » ، ووقف من نقاشها له موقف الواثق بنفسه ، المُدْلي بحجته ، المطمئن الى صدق بحثه وصدق اجتهاده فيه ، وخرج من ثم ظافراً بما طمح إليه من درجة علمية ومن تقدير واستحسان . ثم ودَّع هذا الجهد في إعداده ، ليستقبل جهداً آخر مثله أو أعنف منه وأثقل تكاليف في إخراجه وتقديمه الى العربية وقرائها أثراً مرموقاً .. شاهداً على جده ودؤوبه فى هذا الجد دؤوباً أناله بعض آرابه فى المجد العلمي ، ومثالاً من تعلقه بأسباب القوة وبالممتع اللذّ المفيد من شؤون الأدب والحياة .. هذا التعلق الذي

تراه في اصطفائه موضوعه وتوفيقه في هذا الاصطفاء ، ثم في حرصه على بلوغ الغاية منه بتقصيه مواده وموارده ، وضربه في نواحيه ، وإيغاله في أغواره ، نفاذاً الى تبيين سماته وتحقيق وجوه خصائصه ومزاياه .. وصورة لنفسه ، جميلة الملامح ، يستعلن فيها إخلاصه لأمته ولغتها وبيانها ، كما تستعلن فيهـا أوضاح الوعي والفهم ، وتشف عن طيب الطوية وصفاء الضمير .

وأحسب أن هذا التوفيق الذي أصاب منه الباحث ، هو وليد الحب والصدق فيه والصدور عنه . والحب إذا صدق أتى بالأعاجيب ، فهو إذ يصيب شغاف قلب يصب في صاحبه الارادة والعزم والمضاء ، ويريه الحزن الوعر سهلاً من الدمائث اللينة فيعتسفه ، والعصي الجامح طيعاً هيناً سهل القادة فيقدم عليه إقداماً يذلله ويحول عسره الى مياسرة .

ولقد أحب صاحب هـذا البحث ، إذ هو طالب ناجم في أفق عربي إسلامي خالص ، أدب « الرافعي » حباً أخذ عليه أقطار عقله وقلبه ووجدانه وهام به هيام الوجد والفناء الصوفي ، فعاش به وفيه وله .. مستقرئاً له وقارئاً مدمناً قراءته ، حافظاً روائعه عن ظهر القلب ، متحدثاً به ، ومتجاوباً في أعماق نفسه وشعوره مع بلاغته وما تحمل من فن وفكر وعقيدة وفلسفة ، وتجلو من حق وخير وحب وجمال ؛ حتى تشربه وتمثله وهضمه . ثم هتف به هاتف من نفسه أن يكتب فيه ويؤرخ صاحبه ، فعزم وأمضى العزيمة ، ودأب الى الغاية رويداً رويداً غير متلبث ولا وانٍ ، وجهد جهده في ذلك في السنين الطوال ، الى أن بلغ مما أراد مُناه ، واستولى على الأمد ، واستوى له هذا البحث الموعب في « سيرة الرافعي وعصره » ودراسات أخرى في « الشعر عند الرافعي » وفي « الرافعي الكاتب »

تجلي خصائص هذا الانسان العبقري ، وتكشف عن وجوه أدبه وعن براعته في الخلق والابداع وما آفرى بهما من فري ، وتصف تجديده في بنية الأدب الحديث وصبه القوة والحياة في تركيبه الفني والنفسي والفكري ، وتدل على أثره العميق في ذلك وفي بعث الثقة بأصوله وينابيعه ، وعلى جهاده حين تناوح حول الأمة العربية إعصار هذه الشعوبية الرعناء في محاولتها إسقاط أدبها بالنيل منه ومن تاريخه ومن أصوله وينابيعه ، وإيهان معانيه في القلوب بالتشكيك في لغته وفنه وبلاغته ومُثله ، وبما يلقي عليه من زور القول وفاسده وباطله ، قصداً إلى انتزاع الثقة به من نفوس الأجيال الناشئة ، لتنسلخ من نوازعه وسلطانه ، وتدخل تحت سلطان آداب أمم أخرى تحقق الاستسلام لما وراءها من أغراض طواعية وخضوعاً .

على هذا النحو مثّل الباحث هذا الأديب العظيم إنساناً وكاتباً وشاعراً ، وصوّره في كامل صفاته وخصائصه ومزاياه إماماً يقتدى به .

وهو قمين بأن يتدارس ليعرف كيف يكون العبقري ، وأدبه أحق أدب بأن يُراجع ويحتفل له ، ويولى ما يستحقه من عناية ، ويجعل في موضع الرعاية من الجامعات ومن الأدباء المفكرين : يَصلون آفاقهم بأفقه ، ويجددون دراسته ، ويمحضونه من خالص جهدهم واجتهادهم ، ويكشفون أسرار قوته ، ويبعثون فنه العبقري ؛ ويضعونه في مكانه الطبيعي من حقائق هذا العصر ، الذي استعلن نوره بينها جهيراً ممتدّ الشعاع عاليه ، وفي نصابه الحق من الأدب الحديث ومن الأدب العربي كله ومن الآداب العالمية أيضاً ، كما يفرض البحث المنهجي ، وكما يتقرر تحت مجهر النقد والتحليل والموازنات .. بعيداً عن متناوح العواطف

والشهوات والأهواء ، وفي مُنتأى قصي عن نزعات العصبيات وعن سلطان التوجيهات المستترة وراء الضباب .

وأدب القوة والصـــدق في الأداء عن الوجود القومي ومقوماته من فن وفكرة وعقيدة، أول شيء تشتد الدواعي الى التماسه وتمثيله وبعثه في المحنة الحاضرة، إذ الوجود القومي كله يصطلي الجمرة ، ويستعد للكرة بعد الفرة المنكرة ، ويحتاج أشـد الاحتياج الى حشد كل أسباب الثبات ، بل الوثوب بقوة وشموخ الى « معركة المصير » .

ويوم يتهيأ هذا لدراسات الباحثين الجادين ، ويكون ارتياد القوة المعنوية والتماس مصادرها هوى النفوس، وتبرز من ذلك معالم الحق والصدق في « تقويم » أقدار الأدب الصحيح والادباء الاصلاء ، يختفي هذا «الأدب» الضاوي السقيم الذي يتسلل الى الفكر العربي ، وينقطع دابر الدراسات الهزيلة بما تلقاه من الصدود : ما قام منها على الحطب والقش من هنا وهناك ، وضمرت فيها شخصية الكاتب تحت ركام النقول ، وما كان منهـــا مظهراً للعصبيات صادراً عن التوجيهات المتخفية الرامية الى تغليب هـذا « الأدب » المتهافت المريض روحاً وبياناً ، بالانفاق عليه ، والسعي في إذاعته ونشره ، والكتابة في أربابه من كل من خفّ ميزانه وشال ، وحفهم بهالات الاكبار وألقاب العباقرة العظماء ، قصداً الى هذا التغليب .. وتظهر مكان ذلك ، بشعور عميق من تقدير القيم المثلى ، هذه الدراسات الجادة للأدب الأصيل القوي المتحرك الوثاب ، وللأدباء الكبار الذين يرفعون راياته في الوطن العربي ، ويمثلون أصالته الفنية والنفسية والفكرية، ويبعثون به الشخصية القومية الواعية التي تستوي قائمة مستقلة بفكرها وعقيدتها

وإرادتها حرة طليقة من عبودية التبعية وإسار التقليد والمحاكاة ؛ وهما من صفات القرود ، ويكون من المثل التي يرسمون شباب القوة والتماسك وثبات الضمير في رسوخ وشموخ أمام التحديات ، كما يكون النزوع الدائم الى الكمال والسمو والتطلع الى منازل الكرامة وعزة الحياة .

وأنا إذ أضع أدب الرافعي في الصدارة من الادب ، قديمه وحديثه ، وأراه حقيقاً بالمراجعة الدائمة والدرس الموصول ، فذلك بأنه الادب الرفيع الذي يتحقق هذا كله به ، وهو يجود به في سخاء عظيم وعطاء كريم لا حدود له . ولا ريب في أن العناية به وبما يكون من مثله من أدب ، ويجري مجراه في التيار القومي الدافق ، وهو تيار إنساني حضاري نبيل ، إنما هي عناية بالوجود القومي ، وتثبيت له ، وإبقاء عليه ، وإبراز لشخصيته في الأسرة الانسانية ، ولمثله بين مثل الامم إبرازاً يعين على فهم حقيقته ، ويدعو الى الاقبال على قيمه والاعتزاز بمشاركته بها في البناء الحضاري العالمي .

وهل بك من حاجة ، وهذا البحث بين يديك يحدثك عن صاحب هذا الأدب الرفيع ، أن أسلف اليك بعض القول في أدب الرافعي هذا ، يقرّب صورته الى ذهنك ، ويصلك بمثله ومدركاته ، قبل أن تقبل على البحث وتمضي فيه ؟

لعل في نفسك شيئاً من حب هذا وحب توفيره لك ؛ وأنا في هذا التقديم إنما أستطيع أن أؤدي لك خطوط الصورة العامة لهذا الأدب ، وأوجزها بما يشبه الرمز والايماء .

وأذكر من شأن هذه الصورة العامة ما يبدهك منها أول وهلة ، هذا المزاج الخاص في أدب الرافعي الذي تحسه في جملة بنيته وتركيبه الفني والنفسي

والفكري مهيمناً على بلاغته ، جارياً في عروق ألفاظة المتخيرة ، وجمله المحكمة الرائعة المحبرة وما تخلقه حولها من جو يتحير على أسرّته وقسماته ماءُ الوضاءة وإشراقة الروح النبيل . ثم ما تراه فيه من هذه الخصائص الفنية ، وقد اجتمع له منها ما تفرق في سواه من الأدب المتعارف ، ومنها ما لا سابقة له في الأدب القديم ولا نظير له في الادب الحديث مما تميزت بـه أوضاحه وكان منه مذهب متفرد في الأدب ،على ما حفلت به مذاهب الادب في قديم الزمن وحديثه من مزايا فنية وفكرية ، ومن أساليب بيانية متنوعة أرى لها كما يرى غيري شأناً، وأجد في خاصية كل فن منها كما يجد غيري لوناً باهراً له بهجة وعليه رواء ، ومذاقاً حلواً وطعماً لذاً ونكهة طيبة .

والأدب الصحيح الصحة كلها هو ما اجتمع له الفن والأسلوب والطبع والفكر والروح ، وائتلفت فيه هذه العناصر ائتلاف العشق ، وصيغت صياغة مؤثرة نافذة . ولكل عنصر من هـذه العناصر أسباب ووسائل لا مناص من توفيرها له ، وخاصيات تميزه .

وقد اجتمع هذا كله في أدب الرافعي فكانت له خاصية العلم وخاصية القوة والتأثير بفضل قوة الطبع وسداد الفكر وسطوة الروح . وكل هـذا إنما يدين لفضل أدوات الاديب الكاملة التي اجتمعت له على نحو ما اجتمعت لقرائح المطبوعين من عظماء أدباء العربية كالجاحظ والتوحيدي وأبي نواس والبحتري والمتنبي والمعري وأضرابهم ، وهم كثرٌ لا يأتي عليهم العد والحصر ممن أوفوا من البلاغة والتأثير على الغاية ، واستولوا على الأمد بأيدٍ وقوة ، وأبرزوا عبقرياتهم فى أروع معارض البيان وأقواها وأخلدها بفضل ما مكنت هذه الأدوات الكاملة

لهم منه . وهي كما مكنت لهؤلاء أن يصوغوا عبقرياتهم على هـذا النحو الرائع ، وكتبت لها أن تسعى إلينا على أعناق الدهور ، وضمنت لها الخلود بين جملة آثار الأدب الانساني الرفيع . مكنت للرافعي بما ارتوى منها وملك من ناصيتها أن يسمو بفنه ، ويخلد أدبه وفكره في أبلغ سطوة بيانية وأرقى أسلوب يزخر بقوة الأداء ، ويحفل بالمعاني الحية والأفكار النـــيِّرة ، وبالتوليد والخلـق للصور والابتداع المثل ، وأن يذهب جملة أدبه من شعر ونثر وبحث ونقـد وتأليف مذهباً عزيزاً في بلاغة الأدب موسوماً بالسحر والجمال .

أما الفكر الذي وعاه هذا الفن الرافعي ، وخلدته كتبه ـ وهو فكر يؤزره العـــلم والعقل والقلب ـ فقد حدد الرافعي نفسه مذهبه فيه ، واتجاهاته العامة ، وطبيعته ، والقبلة التي يتجه إليها ولا يفارقها عقله وقلبه ووجدانه ، وأجملَ صورة ذلك كله فأحسن في إجماله التعبير عنه ، وصدق الصدقَ كله ، وذلك إذ يقول :

« أنا لا أعبأ بالمظاهر التي يأتي بها يوم ، وينسخها يوم آخر . والقبلةُ التي أتجه إليها إنما هي النفس الشرقية فى دينها وفضائلها فلا أكتب إلا ما يبعثها حية ، ويزيد في حياتها ، ويمكن لفضائلها وخصائصها في الحياة ، ولذا لا أمسُّ من الآداب كلها إلا نواحيها العليـا . ثم إنــه ليخيل إليّ دائماً أني رسول ، بعثتُ للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه » .

وأنت إذ تقرأ فكر الرافعي حيث طالعك بـه في كتبه ومقالاته تحس وراء هذا الفكـر قوىً تتآزر معه ، وتشد من عضده ، وتظهر سطوته . وهي : روح قوي يهيمن عليه ، وعقل فلسفي مبدع يفرض سلطانه ، وقلب رقيق فياض يملي أشواقه وعواطفه ونبله .

ولقد أستطيع أن أجمل ذلك في معارض ثلاثة :

معرِضٌ تتجلى فيه الشاعرية وفلسفة الحب والجمال ، ويبدو مظهراً رائعاً لشيء جديد تتعرّفه العربية لأول مرة على هـــذا النحو في « حديث القمر » و « رسائل الأحزان » و « أوراق الورد » و « السحاب الأحمر » وكثير من مقالات « وحي القلم » . وهو يرينا الحب عند الرافعي الأصـل الذي بنى عليه أدبه منـذ عُلّـقه وعلق هوى « عصفورة كفر الزيات » ، ونفض عليه عبقر من ألوانه وخياله وسحره وهو في نحو العشرين من ربيع حياته . وهو عنـده ـ كما يلاحظ مؤرخه الأول (العريان) أسبغ الله عليه غلائل رضوانه ـ غير ما عند الناس . « هو عند الناس حيلة الحياة لإيجاد النوع ، ولكنه عند الرافعي هو حيلة النفس الى السموّ والإشراق ، ومادة الشعر ، وجلاء الخاطر ، وينبوع الرحـة ، وأداة البيان » . والرافعي بهذا الادراك السامي لمعاني الحب وانتفاعه به في أدبه مدين لطبيعة مَرْباه ووراثته واكتسابه من جدوده وبيته . وهو حين أخذه من معناه الواسع ، خرج بـه الى السمو والاشراق ، وأدار من حوله في روائعه فلسفته الخاصة في الحياة والدين والاجتماع حتى جعلها فلسفة الحب والجمال، وصح له أن يرسل بيته المشهور ، يصف نصيبه من هذا الحب الفلسفي الصوفي العفيف :

قلبي يحب ، وإنمـــا　　　　أخلاقه فيـــه ودينُهْ

ومعرض ثانٍ يجلو نوازعه النفسية والاجتماعية وإنسانيته ورحمتـه وعطفه وطلبه الاصلاح ، كما يجلو مداركه القومية ومراميه العليا ونوازعه الحرة . وتستعلن الوجهة الأولى في « المساكين » ، وتستعلن الوجهة الثانية في معاركه الأدبية المشهورة ولا سيما ما دار منهـا حول أصول الأدب العربي والتـاريخ الاســلامي

والقرآن ولغته وبيانه، ومثَّلته مقالات «تحت راية القرآن» أو «المعركة بين القديم والجديد» وكثيرٌ من أناشيده وأغاريده.

ومعرضٌ ثالث تبرز فيه وجوه معرفته وعلمه الواسع بعلوم العربية والعلوم الاسلامية واطلاعه على الآداب الاوربية وآيات الفكر الانساني في الفلسفة والأدب والاجتماع والتاريخ، وتمثُّله وهضمه ذلك بوعيه وإدراكه المستقل، وآثار ذلك منبثة فى كل ما كتب ونظم وألف. وتبدو قدرته العلمية في ذروتها فى كتابه «تاريخ آداب العرب» كما يبدو فيه ابتكاره فى تناوله له من نواحيه الفلسفية وأصوله العليا مما لم يسبقه اليه سابق ولا وُجِد له ضريب يدانيه لا فيما كتب الأوربيون ولا فيما كتب أدباء العربية.

وهكذا قام أدب الرافعي فناً وأسلوباً وفكراً على حقائق خالدة هي من عبقرية الأمة كل الأمة كحقيقة الحياة في الجِبْلة (PROTOPLASM): جِبْلة الأنواع من إنسان وحيوان، وحقيقة النسغ في عروق الشجر والثمر والنبات، ونهض بها بناؤه المحكم الرائع شاهقاً شامخاً بين أدب العصر الحديث وأدب عصور العربية جمعاء.

* * *

وهذا البحث، مدخلٌ الى أدب الرافعي، وليس هو في صميم هذا الأدب، وإن استبانت ملامحه وأوضاحه في ثناياه.

إنه يتحدث عن «الرافعي» الانسان العبقري الذي وهب العربية هذا الأدب الرفيع، وأجدَّ عليها خلال سبعة وثلاثين عاماً فنَّه المتميز الجديد.

وإنه لعبءٌ ثقيل باهظ هذا الذي اقتحمه الباحث الفاضل، فعنيَّ نفسه

حمله فلم ينُؤْ به ، وأمرٌ شاغلٌ هوى الشباب عن مثله : يستبد بالوقت ، ويذهب بالراحة التي يتوسد ذراعها الشباب في العادة إخلاداً الى الكسل وفراراً من العمل .

ولكن إذا عظمت النفس ، وعصف الطموح بالرأس ، استخفّت الأثقال ، وطلبت الجد ، وسعت له ، واستطابت فيه الجهد والنصَب .

ولقد اجتمع لصاحب هذا البحث في نفسه هوى في العمل ، وطموح الى المجد ، وحب للُبانة حاكت في صدره ، فمضى مجاهداً في الطلب ، وأقبل على بحثه بهذه النوازع التي تتصرف به هائماً فيه : يتقصى لبنائه كل شاردة وواردة من أمره ، يطلبها في بغداد ، ويسعى لها الى مصر ، يسهر ليله يديرها في فكره ، ويُمضي فيها نهاره في المكتبات العامة معتكفاً في زواياها بين مخزون الكتب والصحف والمجلات ، ينفض غبارها ، ويدمن تقليبها وقراءتها ، ويمد عينه هنا وهنا لينتزع من ثناياها ما تقع عليه من شيء يتصل ببحثه فيثبته . ثم يمضي الى بيأة الأديب العظيم ودارة عشيرته الأقربين وأهله ، يتسقّط فيها أنباءه من أفواه خلطائه ، ومن أهل بيته وأولاده وحفدته : يحابيهم بالمودة الخالصة ، ويستنبئهم أخباره خبراً خبراً مما غاب في صدورهم سراً لم يُفضَ به ، ويطلب المطويّ من كتبه ورسائله وأوراقه ليكشف فيها خبيئاً غاب عنه ، فتفتح له الأبواب الموصدة والقلوب ، ويعطى مناه ، ويمضي حفيّاً بما ظفر به من أرَب ، قل أو كثر ، ويضمه الى أشباهه ونظائره مما اكتسب ، ثم يعكف على ذلك كله يصنفه ويبوبه ، ويتدارسه فناً فناً ، ليخلص الى تسوية بحثه ويتخذ لهذا البحث طريقة منهجية يجري به عليها جهد طاقته ، لامّاً أطرافه ، موغلاً في أعماقه ، يقارن

الخبر بالخبر ، ويثبت الرواية الصادقة ، ويكتب الرأي الذي يراه ، ويقيم على هذا وذاك ما ينشيء من بحث .

وقد كتب صديقي الأستاذ محمد سعيد العريان ، طيب الله ذكراه ، قبل ثلاثين عاماً كتابه « حياة الرافعي » ، وهو أول كتاب يؤرخ الرافعي ، فأدى عنه خبره في رؤية رآها أو رواية رواها ، ولم يكتب فيه رأياً رآه .

أما المؤرخ الجديد ، فمذهبه فيما كتب فيه له شأن آخر غير هذا كما نبهت عليه ، فليست طريقته سرد الخبر ، ولكن بحثه ونقده وتوجيهه والإستنباط منه والتعقيب عليه بالرأي . هذا ، إلى أنه استقل بجهده الخاص في تقصي الروايات ، وقد وقع إليه منها ما لم يقع الى العريان ، واستقرى ما كتبه الكاتبون في « الرافعي » له أو عليه ، وأجاله في ذهنه ، ثم كتب عالماً بالموارد والمصادر .

وهو يتحدث أول ما يتحدث عن « عصر الرافعي » فيطيل حديثه إطالة تستغرق زهاء ثلث البحث ، ويكثر فيه الاستطراد ، ويتناوله بطريقته الخاصة ، ويعرض حقائق التاريخ ، وينقد منها ما يرى نقده ، وينفض على نقده من الحماسة في بعض الأحيان شواظاً ، وهو يقف « بالرافعي » عند كل جانب من جوانب عصره – وقد تناول منه الحالة السياسية ، والبيأة الاجتماعية ، والحياة العلمية والثقافية ، والحركة الفكرية والأدبية وما سماه انطلاقة الشعر الحديث – ويثبت في ثنايا كلامه شواهد من نظيمه ونثيره ، ومن رأيه وفلسفته ، ليستبين تفاعله مع عصره ، وارتفاعه بعبقريته وعلمه ووعيه فوق ما اضطرب في آفاقه واختلف عليه من مظاهر الضعف ، وفوق ما تخبط فيه كثير من معاصريه من تقليد وما تورطوا فيه عند الأخذ والنقل والتأثر وقلة التمثيل والهضم لما

يقبسون من آداب الأمم الاوربية : من زيف وضلال وانحراف ، أو كما يقول .
ويعاود الحديث في هذا الشأن بعد حين فيعقد فصلاً مقتضباً يذكر فيــه ما أفاد الرافعي من عصره من أطايب العلوم والآداب وآيات الفكر الانساني في الفلسفة والتاريخ والاجتماع ، ومن معطيات الحضارة الجديدة ، وكيف كان يلقف ذلك بنهم ، ويلتمسه من سبيل الترجمة عنها إذ تخيّفه الزمان فلم ينله شهادة من جامعة !! ولم يمكن له من تعلّم لغة أجنبية !! فيمثل ذلك ويهضمه بوعيه ، وتبرز آثاره في فنه ، ولكن فى مزاج خاص يرتفع عن التقليد ، ويمده بالطاقة التي تقوّي ملكاته ، وتغذي وعيه واستقلاله الفكري ، ولا يطويه التأثر به في سلطانه ، وإنما يتسامى الى المرتبة الاجتهادية العليا ، ليطبع أدبه وفكره وعقله الاجتماعي بطابعها الخاص .

وحين يفرغ من عصر الرافعي ، يعمــد لأسرته وهي موصولة النسب بالخليفة العظيم « الفاروق » ، فيؤرخها فى قديم وفى حديث ، ويذكر من يذكر من رجالها ويسرد أسماء العدد العديد منهم ، وهم يتصفون بمختلف الصفات من العلم والفقه والأدب والشعر والسياسة والصحافة والقضاء ، ويفصّل القول في ذلك ويمتد نفسه فيه ، ليضع يده على سر عبقرية « الرافعي » ، ويكشف عن أثر الوراثة وفعل الاكتساب في ملكاته ، ويصف الطابع الذي ألقــاه المربي والقيم المتوارثة في الأسرة على وجهته فى الحياة ومذهبه الاعتقادي فى رسالته الفكرية التي صار بهـا إماماً .

ثم يخلص الى « الرافعي » نفسه ، فيتحدث عن سـيرته من ولادته الى وفاته : يصف تنشئته وتعليمه وتربيته ، ويتحدث عن سيرته فى البيت وفى الوظيفة ،

وعن حياته فى دنيا الأدب والفن ، ويصوّر صورته الخلقية والنفسية ، ويتناول روافد ثقافته ويذكر أثرها في اتساع آفاقه وعمق معانيه وقوة بصره بأدب العرب وبالآداب الأوربية ونزعات الكتاب الاجتماعيين من الأوربيين ، ويعرض لقصص حبه وعرائس أحلامه من أديبات العصر البارعات الأدب والحسن ، وهي أعجب شيء فى حياة الرافعي ، ويوثقها بجديد الكتب والرسائل ، فيورد منها الشيء الكثير مما يوافي بأضواء جديدة تكشف سرائر هـذا الحب وسَرَحات خياله فيه التي انتهت به الى ما قدمت من تساميه به وإدارته عليه فلسفته الخاصة في الحياة والدين والاجتماع حتى جعلها فلسفة الحب والجمال .

ويصل هـــذا بالتحدث عن آثار الرافعي الشعرية ، وآثاره النثرية ، فيتقصّاها أثراً أثراً ، ويعرّف بها ، ويصف فنونها وصفاً جامعاً ، ولا يخليه من نقد ونقاش لبعض المعاصرين في شأنها ، ولكنه يرى ذلك يستوعب كتاباً برأسه ، فيرجيء التفصيل فيه الى طبعة جديدة .

هذا كله مما أصبته في هذا البحث ، قد حبب إليّ الاستجابة لرغبة كاتبه أن أكتب هذا التقديم له على عُرف العصر .

ولست أدري إذ أثنيت في ثنايا هـــذا التقديم على جده واجتهاده فيما كتب أكنت مقتصداً في الثناء ، أم كنت مسرفاً متجاوزاً حـــدود القصـد والاعتدال ؟! ولكنني على كل حال مطمئن الى أنني أصدر فيما قلته من شيء عن غير الصدق واليقين . وعن هذا المورد الصافي الذي يروّيني نبعه ، سأصدر فيما وددت أن أفضي بـه الى صاحب البحث من رأي مجمل في كليات البحث وفي شيء من جزيئاته التي أراها مهمة جداً ، ليستوفي الحسن من أطرافه ، والكمال

كله ، ما استطاع صاحبه إليه سبيلا .

وأنا معجب بأسلوبه وقوة أدائه ورصانة تعبيره وإحكامه ، وليته ـ إذ بلغ هذا المستوى ـ احتاط له أكثر فلم يأذن لهذا الترخص في أشياء من ألفاظ اللغة ، ومن شوائب « المطبعة » أيضاً أن يتسرب إليه .

وأنا معجب كذلك بالتزامه العمود المنهجي في البحث . ولن يذهب بطرافة إعجابي هـذا ما ألاحظه عليه مما يغلبه من الاندفاع والحماسة في بعض الأحيان فيما زج بين البحث الموضوعي والنقد التاريخي والنبر العاطفي الذي يخرج بـه إلى الشدة فيقسو بعض ألفاظه ويعنف ، ولا سيما حين يتصل الشأن بالعقيدة أو بالقومية أو بالرافعي نفسه . ولست أجادل في أن عصرنا يحمل في طبيعته من نوازع العدوان والبغي ، ومن ظلم للعروبة والاسلام وتعمد لرجالها العظماء بالإساءة شيئاً عظيماً لا يطاق احتماله ولا يُصبر عليه ، ولكن مواجهة ذلك بسكينة العلم ووقار الحلم وجلال الحجة أشبه بالبحث المنهجي ، وألصق بالحكمة ، وأدعى الى الفلج ، وأدنى الى إحداث التأثير المطلوب . ولو تورط « الرافعي » رحمه الله في أشياء من هذا العنف حين واجـه خصومه وخصوم عقيدته مكرهاً لا بطلاً ومدافعاً لا بادئاً ، وكال لمن عنفوا عليه الصـاع صاعين وانتصف منهم وأبلغ ، وليته إذ حشد طاقاتها كلها وقذفهم ببيناته الدوامغ ، وقف عند ذلك ، ولم يخرج الى مثل ما جبهوه بـه من أسلوب ، وقد كان هذا أشبه بـه .

وألاحظ على البحث شيئاً آخر ، ذلك هو اتساعه في الجزئيات ، وإقحام الباحث أشياء عليه يبدو بعضها ضعيف المناسبة في سياقه ، ويبدو بعضها غريباً عنه او كالغريب . ومن هذا ما يلقي ظلا من الجنف عن الحق كالإشارة الى دراسة

حب المتنبي في « المقتطف » واتهام مبدعها بصدوره بها عن « الرافعي » انسياقاً من الباحث مع المحكي له من ذلك افتئاتاً وظلماً ، وكم للمعاصرين من أشباه هذا التجريح الظالم بعضهم لبعض . ومن نوافل الأشياء أن أدل على مكانة كاتب هذه الدارسة البارعة بين الأدباء ، فما مثله وهو هو علماً وبياناً وبصراً بالنقد والتحقيق بالذي يصدر عن غيره وإن كان الرافعي العظيم . وعهدي بباحثنا ورصانته وارتياده الحق أنه سيفعل ما أشير به عليه من اطّراح هذا وأشباهه فيما يستأنف من طبع بحثه .

تلك مآخذ طفيفة ، بجانب إحسان الباحث ، سهل خطبها ويسير تلافيه ، وما أراها تثقل على كاتب له في الإجادة آثار وحسنات ، أُزجيها اليه مشفوعة بالتقدير أن أتاح لي فرصة أنتهزها للوفاء لذكرى صديقي العظيم .

تحية لروح « الرافعي » وذكراه .. إنه نفحة من نفحات الله في الانسانية ، وحناناً إلى أدبه فهو ضمير حيّ خالد في عقل الأمة وقلبها ووجدانها ، وإلى جهاده نبراساً يشع النور ، ومصدر قوة يستمد منه الضعفاء والمستضعفون ؟

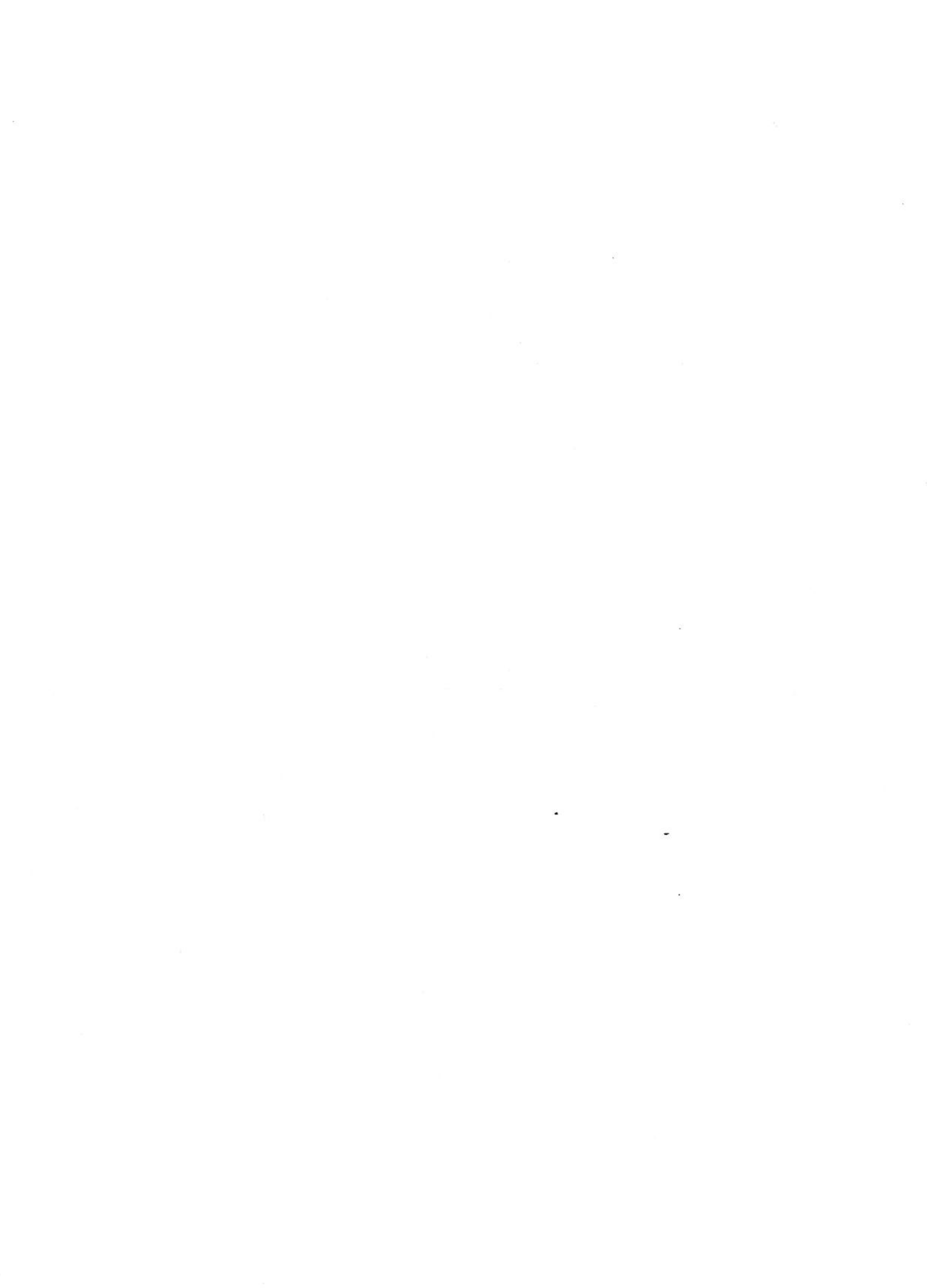
يرحمه الله تعالى .

بغداد ـ ٩/٥/١٣٨٨ هـ   محمد بهجة الأثري

٥/١٢/١٩٦٨ م

الباب الأول

عصر الرافعي



لم يزدحم قرن من الزمان بالعنفوان السياسي ، والتحول المصيري ، والانقلاب الاجتماعي ، والتوزع القيمي ، والافتراق الأعتقادي والبحران الفكري ، .. كما ازدحم عصر الأمام مصطفى صادق الرافعي ـ رحمه الله .

لقد كان عصراً عصيباً ، مفعماً بالمآسي ، وضائقاً بالأحداث ، زها فيه وليد الثورة الفرنسية (*) ماشاء له زهوه وخيلاؤه ، وعانت منه البشرية عامة ، ودنيا العروبة خاصة ، مالم تعانه حتى في عصورها السحيقة الموغلة في القدم ، والمندثرة مع النسيان والضياع !..

(*) ما تزال هذه الثورة تتمتع بنفوذ في الدراسات التاريخية والفكرية ، ..

وقد استطاعت الغزوية الأوربية العائدة أن تمتد بها الى مناهج التعليم في الديار العربية ، حتى أشبعت أفكار الناشئة بشعاراتها ، وسير رجالها ، .. بحيث انزلق أحد الكتـاب ينعت النبي محمد « ص » « بنابليون السماء » !

وقد تنبه أحد الأدباء العرب الى هذه الحقيقة بعد ان رأى أبناء الأمة يعرفون عن « فولتير » ما لا يعرفون عشر معشاره عن الأمام الشافعي مثلا !

ولكن لم ينظر الموضوع أحد من ناحية النقد التقويمي ، الذي يتحرى الأساس ! ،.. ذلك ان الصليبية الحائرة والصهيونية الماكرة قد اجتمعتا في هذه =

مسخت في هذا العصر جغرافية العالم وخرائطه ، واعيد تلوينها غير مرة بتواريخ جديدة ،. واجتمعت أمم ، لتحيل أخرى سواها أمماً !.. وتفترق ، ولتحاول بعض من سواها من ثم الحياة القومية بجهاد ومعاناة ! ..

= في هذه «الثورة» وكان من لقاحها « الاستعمار الذي سوغت فيه دول أوربا لنفسها الاستيلاء على الشعوب باسم هذا الوليد المتمدن ! .. وانظر روما والقدس - لموشي هيمي (حاييم) الذي نشر عام ١٨٦٢م . ذلك الذي تعشق الثورة الفرنسية هذه وذهب يقول : ان ماعلينا عمله اليوم لأعادة تأسيس وطن اليهود ألقومي أن نحتفظ دائماً بالأمل الذي بدأ في الثورة الفرنسية ، في بعثنا السياسي وان نوقظ هذا الأمل كلما نام ، ..

فاذا مكنتنا الحوادث التي تتأهب للوقوع في الشرق من البدء عملياً في إعادة إنشاء دولة يهودية ، فان الخطوة التالية ستكون انشاء مستعمرات في ارض الأجداد وهو عمل لا شك في ان فرنسا ستمد له يد العون » أ هـ ثم راجع أدولف هتلر في كتابه كفاحي - حول حقيقة هذه الثورة .

الفصل الأول

الحالة السياسية

لقد اصاب الخارطة السياسية للوطن العربي عدوى الألوان التي صبغت الأقطار الأوربية ، منذ كانت المطامع الصليبية العائدة بصورتها الاستعمارية الأخيرة (١) تلتف حول الجزيرة العربية فى وقت سابق لهذا القرن (٢) ولا سيما بعـد ان تمكنت إنجلترة من ترصيع تاج ملكتها بألمع درة ، وهي ماسة الهند ! .. وامتدت يد فرنسا في الهند الصينية (٣) .. وكان لا بد لهما من تأمين طريقهما الى هناك ، ولو بالاستحواذ على شطآن الوطن العربي (٤) ومن ثم دياره وأمصاره ! ..

وقد استطاعت بريطانية ـ من ناحيتها ـ عقـد معاهدة لندن ، التي حصلت لمصر بموجبها على « استقلال ذاتي » في الأدارة يمكن لحكم أسرة محمد علي (٥) في

---

(١) مصطفى الخالدي وعمر فروخ ـ التبشير والاستعمار ص ٤٥ ، ص ١١٤

(٢) محمد عزة دروزة ـ الوحدة العربية ـ ص ١٥٤ وما بعدها .

(٣) مصطفى الخالدي وفروخ ـ التبشير والاستعمار ص ١٢٨

(٤) محمد عزة دروزة ـ الوحدة العربية ص ٢٢٤ وما بعدها

(٥) جورج أنطونيوس ـ يقظة العرب ط ٢ ص ٨٠

سابقة انفصالية خطيرة ؟ .. مبيتة في ذلك جريمة تاريخية منكرة ، تظهر بعد هـذا بقرن ونيف في مأساة فلسطين ! ... ثم واصلت ـ من ناحية ثانية ـ إتصالاتها بالمنطقة العربية على يد وكالاتها التجارية والقنصلية ، ومواضع أقدامها التبشيرية - البروتستانتية ـ الأنجليزية ـ ، التي تسابق أقدام فرنسا « الجزويتية » (١) .. في التسلل الى جسم الدولة العثمانية ، التي أرهقها الزمن وغلبت عليها رقعة الأرض (٢)

وقبيل هذا التاريخ كانت فرنسا قد جربت التحرش بالدولة العثمانية لجس النبض ؟ فألقت بكلكلها ومبادىء « ثورتها » على جزائر المغرب العربي استعماراً غاشماً وغادراً (٣) وكأنهما كانتا تسابقان الأرثوذكسية القيصرية ـ الروسية في هذا المحاولات الدنيئة .

وبعد ذلك بربع قرن مدت أصابعها ـ فرنسة ـ الى لبنان ـ حيث الموارنة والكاثوليك : لتسبب في احداث فتنة طائفية رعناء بين المسلمين والنصارى عام ١٨٦٠ م فتتخذها ذريعة تفسح فيها لنفسها المجال الذي تزعم فيه حماية النصارى ، وتأخذ لمتصرف (محافظ) بيروت من الدولة العلية نصرانيـــته أولا ، وتفرنسه اليسوعي من ثم بسابقة خطيرة (٤)

ثم التفّت حول المغرب في تونس .. بقروض دفعت الى فتنة داخليـــة

(١) الخالدي وفروخ ـ التبشير والاستعمار ص ٤٥ ، ٥٤

(٢) ساطع الحصري ـ الدولة العثمانية والبلاد العربية ص ٢٤

(٣) محمد عزة دروزة ـ الوحدة العربية ـ ص ١٥٦

(٤) نفس المصدر ، وانظر جورج أنطونيوس ـ يقظة العرب ص ١٢٦ ، وانظر عبد القديم زلوم ـ مصرع الخلافة .

عام ١٨٦٤ م ، وانتهت بتدخلها السافر (١)

وكان محمد سعيد « الخديو » قد منح نائب قنصلها بالاسكندرية - فردناند دليسبس - إمتياز حفر قناة السويس قبل هذا بعقد من السنين ! ..

وقد استطاعت فرنسا وانجلترة من ثم ان تلقيا بشباك القناة معاً على مصر - الصيد الثمين - يوم فرغت خزائن «الخديو» - المستقل بمصر حوزة عن الدولة - وارتكس بحمأة الديون عام ١٨٦٩ م (٢)

وحوالي هذا التاريخ كانت - شركة الهند الشرقية - في البصرة و بغداد تحاول مع القنصل البريطاني أن يعملا معاً على زيادة عدد المترددين على مكاتبهما من اليهود المنتفعين ، وغيرهم من ضعاف الخلق الأعاجم والنصارى .. وحتى المسلمين (٣)

وخلال ذلك الفصل من أيام الأمة ظهرت حركة إنفصالية في اليمن يقودها إمام الزيدية ، . . ولا تستطيع الدولة العثمانية قمعها ، . وإنما تظهر بواقعها الذي تضطر الدولة العلية الى الاعتراف به عن عجز غير خاف (٤)

وفي الوقت الذي كانت فيه انجلترة تتحين الفرصة للانفراد بمصر حوزة ، كانت يد فرنسة تمتد لاستكمال أسباب الحماية تلقيها على تونس والمغرب . . حيث حاصرت قصر الباي ، وأرغمته على توقيع معاهدة تبيح لها ما تشتهيه من أطايب

---

(١) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ١٧١ ، وكذلك الخالدي وفروخ - التبشير والاستعمار ط ٢ ص ١٣٥ الخ .

(٢) عبد الرحمن الرافعي - عصر اسماعيل ج ٢ ص ٩٠

(٣) عبد الرزاق الحسني - تاريخ العراق الحديث ج ١ - المصالح الاجنبية ص ٤١ ، وكذلك - محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٢٤٦

(٤) أمين سعيد - ثورات العرب ص ١٤٢ ، الهلال مجلد عام ١٨٩٢ م

البلاد عام ١٨٨١ - ١٨٨٢ م (١) .

فقد استغلت فرنسة حوادث حدود في تونس ، وانتهزت إنجلترة فرصة عند ثورة الجيش العرابية ، التي كانت قد فرضت على الخديو توفيق وأركان حكمه - نظام الشورى ، وتسليح الجيش بعد ان اضطر الثوار الى مظاهرة عابدين في ٩/٩/١٨٨١ م ، إذ ان الخديو لم يستجب لمطالب أحمد عرابي التي قدمها باسم الأمة في ١٥/١/١٨٨١م (٢) ثم خيانة توفيق الظاهرة ، وطلبه حماية الأنجليز ! . . (٣)

فكان يوم ١٢ آذار - مارس في تونس ، و ٥ حزيران - يونية في مصر ١٨٨٢ م . وافتعال حوادث معينة تسوغ لهما مثل ذلك التدخل السافر ، كالذي حدث في ١١ تموز - يوليه ، . . وما أدى من ثم الى تسمية « المسألة المصرية » في مؤتمر الأستانة المنعقد بعد هذا التاريخ (٤)

وما كانت مصر على استعداد تام للمعركة ، ولا كان في بال الثوار مثل هذه الخيانة ، . . فباغتهم الأنجليز غدراً بمعركة التل الكبير في ١٣ أيلول - سبتمبر ١٨٨٢م - التي دخلوا بعدها القاهرة في اليوم التالي دون كبير عناء (٥) بالرغم من التشبث في

---

(١) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ١٧١

(٢) يصادف هذا اليوم ولادة الامام الرافعي في الأول من رجب ١٢٩٨ هـ

(٣) كرومر - ترجمة عبد العزيز عرابي - الثورة العرابية ص ٨ - وعبد الرحمن الرافعي - الثورة العرابية ص ٢١٠

(٤) عبد الرحيم مصطفي - تاريخ مصر الحديث - المسألة المصرية ص ١٨٥

(٥) عبد الرحمن الرافعي - الثورة العرابية ص ٤٤٨ وما بعدها

محاولة الأعاقـــة ؟ التي كانت ربما تكلفهم ردم القناة عنـد الأسماعيلية (١)

وليس من توارد الحوادث ـ أو من قبيل الصدف كما يعبر عنه خطـأً ـ ان يكون أحتلال مصر في هذا التاريخ ، الذي ظهر فيه كتاب الصهيونية الأول الموسوم بـ « التحرير الذاتي » الذي أصدره « بنيسكر » على أثر ما أحاق باليهود في دول شرق أوربة ـ روسية وورومانية وبولندة (٢) . . وانما كان ذلك الحلقة الثانية في السلسلة البريطانية الملتفة حول مصر بالذات من الدنيا العربية ، منذ أن مهد أمثال نوبار (باشا) في عهد اسماعيل للانتكاسات المالية والأقتصادية التي جاءت فيهـــا تتمة الحلقة لما كان قد بدأ بتكليف البلاد طاقاتها كما مر ! . .

لقد كان ذلك بالرغم من مظاهر البعث الثقافي والفكري التي أشار اليهـا المؤرخون فى ذلك العهد (٣)

* *

ولا يفوتنا أن المقاومة ، والاتحاد العام بين قوى الأمة لم يفتر في انتفاضات ، تتخلل ذلك التاريخ في حركات وطنية ، واخرى ثورية متلاحقة ! مثـــل التي قادها الأمير عبـــد القـــادر الحسيني في الجزائر ١٨٣٢ ـ ١٨٤٧ م ضد فرنسا الثورة (٤) .. وعلي بن خليفة في تونس ١٨٨٢ ـ ١٩١١ م (٥) وأحمد عرابي في مصر (٦) وحركة محمد أحمد الذي «تمهدى» فى السودان ١٨٨٥ ـ ١٨٩٦م والتي

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) كمال رفعة ـ الاستعمار والصهيونية ص ٥

(٣) الياس الأيوبي ـ تاريخ مصر في عهد اسماعيل جـ ١ ص ٢١٨

(٤) ، (٥) محمد عزة دروزة ـ الوحدة العربية ص ٤٠٨ ، ٤١٧

(٦) انظر في ذلك ـ عبد الرحمن الرافعي ـ أحمد عرابي ومحمـــود الخفيف ـ الزعيم المفتري عليه ومذكرات احمد عرابي .

كان بسببها ومضاعفاتها إضاعة الكثير من أجزاء الوادي لقماً في أشداق الاستعمار بين الايطاليين في الحبشة (أثيوبيا) والبلجيكيين في الكونغو ، والأنجليز في أوغندة(١) ولا سيما بعد هزيمة خليفة عبد الله التعايشي ، الذي أرسل باللواء النجومي الى وادي حلفا في رمضان ١٣٠٦ هـ - ١٨٨٩ م - في معركة « توشكي » الشهيرة (٢) .

.. على ان ظهور الزعيم مصطفى كامل ١٨٩٠ - ١٩٠٨ في حركة « الحزب الوطني » كانت فتحاً مباركاً في كبريات نقاط التحول بالحركة القومية ، لا لمقاومة الانجليز فحسب ، بل إضاءة لخطوات العمل المباشر في النهضة الحديثة (٣) ولا سيما بعد ذلك « الاتفاق الودي » الذي عاد بين فرنسا وانجلترا عام ١٩٠٤ م (٤) وقد بذرت فيه بذور اقتسام الوطن العربى من ثم فى الحرب الكبرى . هذا في حين كان المشرق العربي - فى الجزيرة والشام والعراق - ورجالاته

(١) (٢) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٤٤٣ - تم القضاء على الحركة المهدوية الأخيرة في السودان بقيادة انجليزية وحملة مشتركة مصرية - انجليزية ، .. عقدت على أثرها اتفاقية الحكم الثنائي في السودان عام ١٨٩٩ م ، والتي ارتضخ لها الخديو عباس حلمي الثاني مهادنة منه للانجليز ، . . وكان من أسواء هذه الاتفاقية تصوير المصريين بالمستعمرين مشابهة للانجليز واقراناً بهم ، ورفع العلمين المصري والانجليزي في السودان معاً ، .. مما أدى اليوم الى مثل هذه الانفصالية الرعناء التي يعيش فيها شطر الوادي الجنوبي في اضطراب ، وغير قليل من قلة الاستقرار .

(٣) انظر عبد الرحمن الرافعي : مصطفى كامل ، وكذلك - ذكرى مصطفى كامل - جمع وترتيب صادق عنبر .

(٤) انظر عبد الرحمن الرافعي - مصطفى كامل ص ٣١٤ .

يلتفون حول دعاة الاصلاح في الادارة العثمانية ، عند جمعية الاخاء العربي ـ التركي أو داخل جمعية الاتحاد والترقي نفسها ، ويكادون يذوبون في صفوف العثمانيين .

إذ لم تكن تجول في رؤوسهم فكرة التحرر الاقليمي ـ على الاقل ـ ضمن الكيان الاسلامي كما هي حركة الحزب الوطني في مصر ! .. وحتى الدعوة الى « اللامركزية » لم تكن عندهم في مثل الوضوح الذي كانت عليه في صفوف المصريين من رجالات جمعية العروة الوثقى، والجمعية الخيرية ،.. وحتى جمعية «شمس الاسلام» التي نهض بها في مصر ـ واجهة علنية لحزب اللامركزية ـ الشيخ محمد رشيد رضا ،.. بالرغم من الفواجع الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تكلف أبناء الديار العربية بعامة نكالاً مما يقترفه الحكام الاتراك [1] .

ذلك أنهم كانوا يحسبون مثل هذا التحرك أو الأنعطاف في مسألة الحكم،.. إنفصالاً [2] لا تستعد له الامة بحال ،.. ويرون فيه خروجاً على وحدتها في الصورة الاسلامية التي كانت عليها دولة بني عثمان ! ..

ومن أجل ذلك يذهبون مع الاتراك في محاولة تسويغ مواقف هؤلاء الحكام من قضايا الامة بعامة ، وديار الوطن العربي الذي راحت بعض أقطاره تنفصل في

---

(١) ساطع الحصري ـ البلاد العربية والدولة العثمانية ص٦٨ ، و كذلك جورج انطونيوس ـ يقظة العرب ص ١٨١ .

(٢) الدكتور محمد بديع شريف ـ دراسات تاريخية في النهضة العربية ص ١٧ ، ١٠٠ وما بعدها .

وانظر كذلك محمد سعيد العريان ـ احاديث قومية ـ فصل الحركة الانفصالية الاولى ص ٢١٥ .

استقلال داخلي مزعوم، لتستضعف من ثم وتستخذي أمام لبوات الاستعمار ..

كما في اليمن والجزائر ومصر ..

وقد يلتمسون التعلات لمثل الموقف المتفرج الذي اتخذته الدولة العثمانية بغفلة وسوء طوية من مأساة ما يحدث أمام عينيها، كالذي أصاب العرب في الأندلس، ومكن للاقوام الرومية من مكدونية وقبرص «١»

ولا بد من الاشارة هنا الى الحركة العربية الثائرة في الجزيرة العربية، التي قام بها الحنابلة بزعامة محمد بن عبد الوهاب في وقت سابق لهذا التاريخ، والتي حسبها بعض المؤرخين بمثابة موجة عربية جديدة تطلع في دنيا الجزيرة العربية «٢»

فقد تعاون محمد بن عبد الوهاب مع محمد بن سعود رأس الاسرة السعودية على ان يمتد سلطانه ويشمل الجزيرة وما حولها .. حيث وقفت الدولة العثمانية - من الحركة - حائرة بائرة! ..

ولو لم تكن في مصر يومها حركة عربية - مصرية أخرى يقودها عسكريا إبراهيم «باشا»، لكان لتلك الحركة - الوهابية - شأن آخر في التاريخ العربي الحديث «٣»

---

(١) راجع محمد رشيد رضا - العرب والاتراك المنار مجلد ١٢ ص٩١٣ وكذلك توفيق علي برو - العرب والاتراك ص٣٨ .

(٢) محمد أسعد طلس - تاريخ الامة العربية - الجزء الاول - الموجات السامية ص٧ .

(٣) ابراهيم «باشا» من افراد القيادة القلائل في التاريخ، وهو ابن السيدة أمينه علي زوج الخديو محمد علي، من زواجها الاول بالتاجر الحلبي .. وقد سمي ابراهيم على الخديو محمد علي تبيناً في باديء الامر، ثم غلب المؤرخين احتسابه الابن الأكبر لمحمد علي مع ما كان يظهر من تقارب عمريهما - أنظر مذكرات النبيل عباس حليم في المصور ١٩٥٥م

ويلوح لنا أن الدولة العثمانية كانت قد نظرت الموضوع من زاوية حادة، تمليها عليها طبيعة تكوينها العسكري، وقيامها في العالم الحضاري آنذاك.. فعمدت أن تضرب الحركة السعودية ـ الوهابية بالقوة المصرية، ليضعف كلاهما أو أحدهما... ولكنها خابت أملا..

فقد لحق ابراهيم (باشا) بالحملة التي قادها طوسون بن محمد علي في آذار ١٨١١ م، وتبعه بعدها الخديو محمد علي نفسه حاجاً عام ١٨١٢ م ـ وبتجهيز آخر عام ١٨١٦ م، قضى فيه على الامير عبد الله، وأوقعه في الاسر، وتم له النصر حتى أضحت الجزيرة تابعة لمصر من الناحية الادارية والعسكرية «١»

وبذلك تم إيقاف الموجة النجدية الجديدة، وتعاظمت قوة إبراهيم العسكرية، وظهرت بوادر زعامة عربية فيه من ثم، ولا سيما بعد وضوحه قومياً في الديار الشامية، وتقربه من العرب ـ الذين هم أحق بالحكم في رأيه وبهم وحدهم يستطيع بعث الحياة في الحكم الاسلامي «٢»

فقد كان تحرك هذا القائد العظيم نحو الديار الشامية لامر عسكري يعيد فيه هيبة السلطان، ثم تطور الحال، فزحف الى دمشق وحلب، ووصل أطنة ـ ولولا تدخل الجهات الاجنبية التي سعت للصلح بين الخديو والسلطان،.. ولولا خشية محمد علي نفسه من طموحه فلربما استطاع ان يعيد بنيان الدولة العربية «٣»

---

(١) جميل الخانكي ـ أعلام النهضة الحديثة ـ الكتاب ٩ ـ ٣ ص ٥٤٧

وكذلك ـ « « ـ « ١٠ ـ ٤ ص ٥٧٦

(٢) نفس المرجع • (٣) جورج انطونيوس ـ يقظة العرب ص ٨٢ ومابعدها في ما سبق ص١٦ ، وكذلك المقدسي الاتجاهات الادبية ص١٦.

ومما تجدر الاشارة إليه أيضاً ويتصل بسبب من هذا، أن التحرك السعودي الثاني عام ١٩٠٤ م ، الذي أحدث فتنة نجد،والمساجلات الملحمية ما بين آل رشيد وآل سعود قدترك الدولة العثمانية ساكنة لا تحرك شيئاً ..حتى أطمع فيها الحلفاء «١»

ومع ذلك كله وكثير آخر غيره مما لا يتسع المجال لذكره ، .. بقي المشارقة العرب على رأي الولاء أو قريباً منه طيلة عهد السلطان عبد الحميد الثاني - رحمه الله - «٢» لا يرون له بديلا ،

قال الامير شكيب أرسلان من قصيدة :

دولة حجة الزمان على الخلق بها دون مرية إلزام

ليس للشرق غيرها فبنوا الشرق طراً بدونها أيتام

لا ترى دولة هزالا وضعفاً حولها المسلمون والاسلام

وعلى راسها خليفة عصر دهره تابع له وغلام

وقد التفت نحو هذه الظاهرة جورج انطونيوس في كتابه « يقظة العرب » حين قال :

« لم يكن من شأن الدور الذي اتخذه السلطان عبد الحميد لنفسه وهو دور الخليفة الورع - ان يكسب ولاء الملايين من رعاياه عن رضى منهم فحسب ، بل كان من شأنه أيضاً الفوز باجلال ملايين كثيرة أخرى من المسلمين المقيمين خارج مملكته - كذا - والتابعين لبريطانيا العظمى - كذا - وفرنسة وروسية - تأمل !

وربما كان يستهدف الفوز منهم بأكثر من الاجلال ، .. لقد كان يطمع

---

(١) انظر الهلال - تموز - يولية ١٩٠٥ .

«٢» الدكتور محمد بديع شريف - دراسات تاريخية في النهضة العربية ص١٧

أن يصبح رأس العالم الأسلامي بالاسم والنفوذ ، .. ومما لاشك فيه أن أي نجاح تصيبه هذه السياسة كان لا بد من أن يزيد مركزه قوة في الميدان الدولي » .

ويضيف الى ذلك قوله « .. وعلى المبدأ القائل بأن القداسة تبدأ في البيت أحاط حياته الخاصة بأطار من التقى والتقشف ، فكان يقوم بجميع «الطقوس» - يريد الشعائر الاسلامية - بمثابرة شديدة ، وقد قضى على العادات الفاسدة التي غلط فيها أسلافه ، إذ مارسوها - بحزم ومهارة ، وأحاط نفسه برهط من الفقهاء كان يتمتع بعضهم بشهرة ونفوذ ، فعمد إلى تسخيرهم لتوزيع الصدقات ، والوعظ والدعوة اليه» (١)

وهذه عبارات لو لا ما اندس فيها من نظرة صليبية تعمدت كلمات خاصة . لجاءت صورة تدق في التعبير الواقعي لمعاناة السلطان. (٢)

فقد كان من سياسته التودد التي أبداها للعرب ، وكون شرفائهم محل عنايته ، وأهل رعايته في عاصمة الاسلام « إسلام بول» حتى لقد أضحت الخلافة وكأنها ممثلة بسلطانه وعلم النبوة كأنه يد صولجانه : قال شوقي فيه :

إيه عبد الحميد جلّ زمانٌ ... أنت فيه خليفة وإمام

ما رأت مثل ذا الذى تتبنى الـ ... أقوام مجداً ولن ترى الاقوام

رافع الضاد للسهى هل قبولٌ ... فيباهي النجوم هذا النظام

قامت الضاد في فمي لك حباً ... فهي فيه تحية وإبتسام

«١» جورج انطونيوس - يقظة العرب ص٦٨ . «٢» انظر في ذلك - مصرع الخلافة لعبد القديم زلوم فصل خلع السلطان وكذلك جواد رفعة - الخطر المحيط بالاسلام ص ١٤٢

وقد نقل عنه أنه كأن بسبيل إحياء سنة السلطان سليم بتعريب الديوان وجعل العربية اللغة الرسمية للدولة «١» ومن ثمّ السعي لتعريب الخلافة نفسها وصرفها عن الاتراك المحدثين الذين ما رعوها حق رعايتها ، . . وينسب ذلك كلّه الى أرومته العربية التي يرتبط بوشائجها عن أمه الزكية . والى ذلك يشير شوقي في قوله :

ان عبد الحميد سيف نضته   آل عثمان هاشميٌّ المضاء

ومن أجل ذلك أيضاً كانت حظوة الشريف حسين بن علي ، ومكانة أبي الهدى الصيادي ، وغيرهم من فضلاء العرب ، . . وكذلك محاولته تدبهد الشريف فيصل بن الحسين واخوته لديه في العاصمة (٢) فلابدع أن نرى الرافعي يقول من بعد :

يامالك الشرقين يارب النهى   يا آمراً في العالمين وناهي

ياصاحب الحرمين يامولى الأنا   م وحامي الدين الحنيف الزاهي

يا راغماً أنف العداة بحكمة   قدغادرت ركن الممالك واهي

ولكن سرعان ما اصطدم العالم الاسلامي بأنقلاب جمعية « تركيا الفتاة » الى جمعية الاتحاد والترقي التي سارعت بالانقلاب في العاشر من تموز - يوليو ١٩٠٨ وعودة « الدستور » وكأنة المشكلة الرئيسة (*) وظهور التتريكية الطورانية من ثم ولا سيما بعد مجزرة الاستانة في ٣١ آذار - مارس ١٩٠٩ م وخلع السلطان عبدالحميد وحل جمعية الأخاء العربي - التركي (٣) .

«١» محمد شيد رضا - المنار جـ٦ م ٢ - المحرم ١٣١٨هـ - نيسان ١٩٠٠

«٢» جورج انطونيوس - يقظة العرب ص١٣٩ .

(٣) نفس المصدر السابق - ص ١٨٢

(*) من النزعات السياسية التي ظهرت في العصر الحديث - شرعية الانقلاب=

فمنذئذ راح العرب يفتشون عن أنفسهم ، ويتنادون للانتظام في جمعيات أدبية وسرية ، ومنتديات عسكرية ومدنيـــة ما بين عامي ١٩٠٨ م و ١٩١٤ م . كالجمعية القحطانية ، والعربية الفتاة ، والعهد وغيرها (١) .

وهذه الأنعطافة في الحركة القومية هي التي انتظمت العرب من ثم وقربت الامة العربية من الثورة ، بعد أن أدخلت الفكرة في حيز النشاط والعمل لأبتناء « الدولة العربية » بعيداً عن العثمانيين ، . . ولا سيا بعد أن يئس العثمانيون العرب ــ أو كادوا ــ من تعريب الخلافة أو إيجاد الكيان العربي ضمن الدولة العثمانية الاسلامية نفسها (٢) ، وبعد أن أضحى تعريب الخلافة ضربا من المستحيل مع جماعة الترقي ــ الماسونية ــ التي أرادت صرعها من أول يوم (٣)

= من اجل شعارات؛ لا تلبث ان تكون فصولا لمأساة حكم مستبد آخر أفظع وأنكى باسم هذه الشعارات . ومن ذلك ما حدث في تموز ١٩٠٨م من الانقلاب العثماني ، وعودة الدستور ، وظهور الثالوث الصليبي ــ الماسوني «حرية. عدالة . مساواة» التي طمست الطورانية معانيها من ثم ، بحيث ما زال الناس يترحمون على ما سبق من عهد رغم ما صور وهول من أسوائه! . قال الفاروقي من قصيدة يصور بها المآل:

كنا نعلل بالدستور أنفسنا ... بفارغ الصبر ذاك اليوم نرتقب
حتى اذا جاء لم يحدث لنا حدثاً ... ولا استجيب لنافي مطلب طلب

(١) انظر في ذلك أحمد عزة الاعظمي ـ القضية العربية ، ومصطفى الشهابي ـ القومية العربية ، وساطع الحصري ـ نشوء الفكرة القومية ص ١٦٤

(٢) أنظر ـ جورج أنطونيوس ـ يقظة العرب ـ الفصل الرابع والفصل الخامس ـ ففيهما تفصيل كبير .

(٣) انظرعبد القديم زلوم ـ مصرع الخلافة ـ فصل ـ جمعية الاتحاد والترقي .

ومن ناحية اخرى كان العالم نفسه يعاني من تحركات عسكرية ، ومحاولات وطنية جرّتها الحروب عبر القارات ولاسيما بعد الحرب الروسية ـ اليابانية ١٩٠٣م وما سببته في عرقلة المواصلات البرية والبحرية ، وشيوع الغلاء والجوع (١)

وقد أرسل الرافعي في ذلك اشعاراً عديدة منها مايقف مع اليابانيين باعتبارهم شرقيين حتى ليقول :

يا منهضي الشرق نصر الله يتبعكم   وإن كفرتم .. فما الكفر من خذلا

سرّ الأنام عقول في رؤوسهم   والله أكرم من ان يخذل العقلا

ويقول بعد الصلح بينهما فى عام ١٩٠٥م :

وغيٌ وسلام للمطامع والهوى   وان قيل أوثان وقيل صليب

حتى لقد قال في قصيدة أخرى يصف من حال الناس في تلك الأيام :

ومن نكد الأيام فى حتف صرفها   لذي الحكم أن يبلى بمن يتحكم

صغار وأوباء وبؤس وقد أتى   لشقوتنا هذا الغلاء يتمم

وفي هذا المضطرب العالمى الرهيب والاحتدام العربي الغريب ، والذي يكاد ينغلق في دورانه حول نفسه ، كان « الاستعمار » ماضياً في أشواطه الباقية ، ممتداً بجبروته على المشرق والمغرب ، يلقف من أفريقية البلدان ، ويزدرد فيآسية الموانيء والخلجان ! . . ولا سيا بعد أن أطارت صوابه أمريكا ودولتها الناشئة ، وتركته في غيرها من التخوم والاصقاع يفتش له عن اماكن أخرى ! . .

إذ نجد ـ بالرغم من إرتقاء عباس حلمى الثاني خديوية مصر بعد وفاة أبيه

---

(١) انظر صحف تلك الايام ، ومنها المقتطف والهلال. نيسان ـ ابريل ١٩٠٤م

(توفيق) عام ١٨٩٢م ، ومحاولته التقرب من القوى الوطنية فى البلاد غير مرة
ـ لا يستطيـع فى ذلك حولا ولا قوة ، لأنه لم يكن يملك من الأمر شيئاً ، . .
بعد أن غدا « كرومر » المندوب السامي البريطاني في مصر ١٨٨٣م ـ ١٩٠٧م .
الحاكم الأول مع وجود الخديو والوزارة المحلية والتشكيلة المدنية الأخرى . .
ماضياً في السياسة التي رسمها للنهوض بمصر وتحويلهـــا الى دولة حديثة باسلوبه
القسري الذي ضمنه من ثم كتابه (مصر الحديثة) (١)

وكانت الحركة اليهودية قد مرت بمراحل ، زار خلالها (مونتيفور) أرض
فلسطين عام ١٨٣٨م ، وحاول هايمي ربط « روما وأورشليم » بالدولة اليهودية
التي أعتبرها مبتدأة بالثورة الفرنسية . . (٢) وأخـذ ينسكر يدعو اليهـــود
للتحرير الذاتي ـ

وفي تلك الأيام الغائمة نشر الصحفي النمساوي تيودور هرتزل كتابه « الحل
الصهيوني » ـ ١٨٩٥م الذي رأى فيه قيام دولة اليهود على ارض تكفي أمه محترمة (٣)

كما انعقد المؤتمر الصهيوني العالمي عام ١٨٩٧م الذي أجمع على أن تكون
فلسطين هي أرض الدولة اليهودية (٤) وقد حدث بعد اتفاقية الحكم العثماني ـ
الأنجليزي ـ المصري ، فى السودان عام ١٨٩٩م ووقوع حادثة « فاشودة » (٥)
أن حصل « اتفاق ودي » بين انجلترة وفرنسة عام ١٩٠٤م . جاء فيه العمل على
فصل العروبة في آسية عنها فى افريقيا بلقاء خاص مع الصهيونية ، حيث اقترحت

---

(١) عمر الدسوقي ـ في الأدب الحديث ج ١ ص ٨٠ وما بعدها ... وقد ترجم الكتاب الى العربية . (٢) محمود كامل ـ عروبتنا ص ٧٤ ، ٧٥

(٣) كمال رفعة ـ الأستعمار والصهيونية ص ٦ (٤) المصدر نفسه .

(٥) فاشودة : في جنوب السودان وكانت فرنسا قد احتلها متسابقة مـع =

بريطانية تأسيس مستعمرات لليهود في سينا عملية أولى في هذا الفصل (١)

غير أن بريطانية عادت بعد هذا ـ لسبب غير واضح بل لعله مناورة محكمة اليهودية ـ تحاول أن ترى على الصهاينة أن يجعلوا من أوغنــــدة محطة تجمع أولى لليهود (٢) ولكن المؤتمر الصهيوني الذي اجتمع عام ١٩٠٨م رفض هذه المنـاورة ـ المتباطئة ـ وأصرّ على تعيين (ارض الميعاد) في فلسطين (٣) .

وهنا وقع الأنقلاب العثماني في العاشر من تموز (يوليو) ١٩٠٨م بحركة الأتحاديين المعروفة (٤) فقد يئس هرتزل من الحصول على امتيازات دينية لليهود

= حليفتها في الوقت الذي كان فيه كتشنر يقود الحملة المصرية للقضـــاء على دولة الدراويش في السودان فثارت الحادثة حفيظة بريطانية ، . . ثم جرت التسوية المشار اليها باطلاق يد فرنسا في الجزائر والمغرب كما تحتفظ انجلترة بوادي النيل ـ انظر محمد عزة دروزة ـ الوحدة العربية ص ٤٤٤

(١) كمال رفعة الاستعمار والصهيونية ص ٦

(٢) ، (٣) كمال رفعة الاستعمار والصهيونية ص٦ ـ وقد يكون السبب هو في يأس هرتزل من الحصول على اراضي في فلسطين يقر السلطان عبد الحميد بيعها !

(٤) بدأ الأنقلاب بتيار أثار هياجاً عاماً في بعض الولايات العثمانية ، إضطر السلطان عبد الحميد أن يتلافى الحرب الأهلية ، فأصدر أمره باعادة الدستور الذي كان قد عطله بعد تشريعه بسنتين عام ١٨٧٨ حفظاً للدولة من الضياع في الديمقراطية السياسية السائبة ! كما أمر بالاعداد للانتخابات وأطلقت المدافع احدى وعشرين إطلاقة في العاشر من تموز ١٩٠٨م .

ويظهر ان مثل هذا التدبير الوقائي لم يرض المجموعة المحافظة من سواد الأمة وقد خشيت منه على الصورة الأسلامية للدولة ، . . فاهتبلتها العناصر الدسيسة فرصة للايقاع باركان الدولة الذين لا يرون في التغيير الدستوري فائدة ما ، ان لم يكونوا يرون عكس ذلك ، . . وقد ثار الجنود وبعض الفقهاء وعدد غير قليل من العرب العثمانيين في آذار ١٩٠٩م مطالبين بالغاء الدستور والاجراءات الأخرى=

= واعلان الشريعة المحمدية ›.. محاولة منهم لأعادة هيبة السلطان والحيلولة دون تمكن الدول الكبري من العهد الجديد .

ولم يجد الخليفة بدآ من الاستجابة فسارع الى تأليف حكـــومة جديدة ، وأطلقت المدافع مئة إطلاقة وإطلاقة .

ولما وجد الأتحاديون أنفسهم أمام حقيقة كبرى ، تحاول أن تأخذ بخناقهم ، وتلقي بهم في مهاوي الرذيلة مع الخونة والمجرمين ، .. سارعوا الى بذل جهود لهم أخيرة يعاونهم بها « الماسون » بتفتيق ذهني يهودي ، يخشون معه انتكاسة حركتهم الأنقلابية وافتضاح أمرها ! .. فدسوا بين الجماهير الثائرة مجموعات من أنصاف المجاذيب والخونة والمأجورين - تعمل على تلطيخ الحركة الأسلامية المضـــادة للاتحاديين الماسون ، بأعمال ليست منها في شيء ، .. مع أولئك الذين عنـــاهم الشاعر بقوله :

خلوا الطريق لمعشر عاداتهم　　　حطم المناكب كل يوم زحام

كما تلفتوا فيما بينهم ليجدوا ضابطاً (عربياً) يقود فصائل أخرى من الجيش ، ليزحف على العاصمة في نيسان ١٩٠٩م ، ويدخل الفريق محمود شوكة ومعه عارف حكمة و « كارسو » قارصو اليهودي على السلطان عبد الحميد في قصره بيلدز يطلب اليه التنازل حقناً لدماء الأمة وبإسمها ، .. وتوطيداً للمشروطية « العهد الجديد » .. وقد أطال عبد الحميد النظر اليهم ، .. وسألهم عن مهمة قارصو في الأمة ! .

وهكذا جاءوا بأخيه محمد رشاد وقد جاوز الخامسة والستين من عمره ، وهو بعيد عن السياسة ليكون ألعوبة بأيديهم ، وليقوموا من ثم بجزرتهم الرهيبة التي ما أنصفها المؤرخون حتى اليوم ! ..

وانظـر في ذلك جواد رفعـــة - ترجمة وهبي عز الدين - الخطر المحيـــط بالاسلام ص ١٤٦ .

وكذلك عبد الكريم زاوم - في مصرع الخلافة : وساطع الحصري - البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٩٥ وما بعدها .

وكذلك جورج انطونيوس - يقظة العرب ص ١٧٥ وتدبر !! ..

في فلسطين يقرّ بها السلطان عبد الحميد، حيث استطاع العرب ـ رغم جميع المغريات المادية ـ تبصرة السلطان بحقيقة المؤامرة ، .. وكان من فضائله محبة العرب وسماع آرائهم والأستئناس بأفكارهم كما قدمنا (١) وكانت قد جرت محاولة اغتياله غير مرة!..

ومن هنا اكتنف الغموض حركة الأتحاديين أولا ، وأشارت اليهم أصابع الأتهام ـ بالرغم من التهريج السياسي والأعلامي الذي ما يزال يظاهرهم الى اليوم ! .

ذلك أنه لم يكن خافياً أن للدول الأوربية يد وراء الأحداث التي سميت على الدستور في الدولة العثمانية ، فقد سبقتها محاولات إحلال القوانين المدنية ، .. التي لجعتهم فيها الدولة بمجلة الأحكام العدلية التي بوبت الفقه الاسلامي على الطريقة المحدثة في المواد القانونية ، مما لا مجال للافاضة في الحديث عنه هنا .

كما ان « الماسون » (*) كانوا يؤلفون القسم الأعظم من أفراد جمعية الأتحاد والترقي هذه ، ولهم اليد اليهودية الطولى فيما أصاب الدولة من ثمّ بما في ذلك التريكية الطورانية ، التي أبعدت العرب العثمانيين أنفسهم عن الجمعية ، وحلت منظمتهم الأخرى « الأخاء العربي ـ التركي » .. الخ مما أسلفناه (٢)

على أن من مضاعفات ذلك الأنقلاب ما كان بدء في تلك المجزرة الرهيبة التي أعقبت أحداث آذار ١٩٠٩ م ودخول الدولة العثمانية الحرب الى جانب الألمان وما تلى ذلك من أحداث مزقت الوطن العربي والاسلامي (٣)

---

(١) أنظر جورج انطونيوس ـ يقظة العرب ص ١٣٩ ! ـ وعروبتنا ص ٧٧

(٢) أنظر بديع شريف ـ دراسات في النهضة العربية الحديثة ص ٨٨

(*) الماسون : او البناؤن الأحرار ـ كما يحلو لهم ان ينعتوا أنفسهم ، ..

ومن ناحية أخرى نجد الحركة الوطنية في مصر تنمو بموازاة هذه الخطوط المبطنة ، وكان لظهور الزعيم مصطفى كامل ، وحركة الحزب الوطني الذي ما فتيء

=ويزعمون انهم اقدم جمعية في العالم نشأت منذ عهد الرومان الذين كانو يضطهدون عمال البناء .. وانتظم معهم من ثم المضطهدون الأخرون الذين كانوا ضحـــايا الفتح العربي الأسلامي ! .. ومن هنا كانت « انسانية » هذه المجموعات تجتمع في الألحاد للعروبة ودينها ،.. فهي تقتل في منتسبيها التفكير المنتج ، والعقل المدرك وتسيرهم في درجات . . حتى الثالثة والثلاثين وتترك الدرجة الرابعة والثلاثين لرئيس المنظمة الصهيونية العالمية يتربع عليها ، فيكون الأفراد الماسون من سائر الملل والديانات تحته في الرتبة ، وتبعاً له في العمـــل والتدبير وانظـــر في ذلك ما أخرجه أبو صادق من مصنفات في الموضوع عن دار البصري .

(٣) يزعم بعض المؤرخين أن الانقلاب العثماني كان قد فاجأ الدول الكبرى « الأوربية » بغرابة أربكتها سياستها ! ولكن المتأمل فيما أعقب الانقلاب الأثيم من حركات الانفصال والاقتطاع في الولايات العثمانية ، يدرك مدى هذه - المفاجأة المربكة !! - التي تضحك من مؤرخيها .

وتأمل في استقلال بلغاريا انفصالا بعد عودة الدستور العتيد مباشرة ، وكذلك الحاق البوسنة والهرسك بالنمسة ، واستيلاء اليونان على جزيرة كريت ، ثم قبرص .. وزحف ايطاليا على طرابلس الغرب وضياع جزر البحر المتوسط في الأرخبيل وما تلى ذلك من الأنفجارات الداخلية ...

١ ــ الثورة الغربية في الحجاز والشام والعراق ؛ وما أدت اليه

٢ ــ الحركة الكمالية التي استغلت الروح الوطنية والاسـلامية بدء في جبهة قومية عريضة .

٣ ــ مصرع الخلافة ! . وما صنعه في ذلك اهل الردة من اليهود المتمسلمين

يناوىء الانجليز بأقرار السيادة العثمانية، وعدم الاعتراف بشرعية الاحتلال، ثم إقتراف الأنجليز مذبحة (دنشواي) (*) حتى غدا الشخص مصطفى كامل شأن عظيم، أصبح فيه أمل

« الدونمة » مع مصطفى كمال .

ففي وقت سابق كانت الدولة العثمانية قد آوت اليها عدداً من اليهود بعد الذي أحاق بهم بعد مأساة العرب في الأندلس ولكنهم لم تكن تستقر بهم الحياة غرب الأناضول حتى بدأوا يعدون المتاعب للدولة العلية ؛ فأرادت إجلاءهم ، .. ولكنهم سرعات أعلنوا اسلامهم وعصموا دماءهم وأموالهم؛ .. وكتموا يهوديتهم سراً ، لتظهر آثارها من ثم في المحافل الماسونية ، والجمعيات السياسية والسرية كجمعية تركية الفتاة (الأتحاد والترقي) فيما بعد .. ثم انهم أندسو في الجبهة الوطنية ووقفوا من خلف مصطفى كمال وحماقاته ؛ التي صرع بها الخلافة الاسلامية – وانظر مصرع الخلافة لزلوم .

.. إذ لم تكد توقع معاهدة لوزان مع إيطاليـــة حتى كانت ولايات البلقان - في اليوم نفسه - قد انفرطت ، وزحفت إيطاليا على ليبيا عام ؛ ١٩١١ ، وسقطت ادرنة في آذار – مارس ١٩١٣ - حتى بكاها شوقي في قصيدته :

يا أخت اندلس عليك سلام   هوت الخلافة عنك والاسلام

وبذلك قضى مؤتمر لندن على الدولة العثمانية - الدستورية - المشروطية ؛ التي فاجأت أوربة ودولها الكبرى بانقلابها - الدستوري و - اربكت - سياستها ودولها كما يتورط أن يوهم نفسه أمثال ســـاطع الحصري - البلاد العربيـــة والدولة العثمانية ص ٩٧ ، وجورج انطونيوس يقظة العرب ص ١٨٠ وما بعدها . .

راجع في ذلك - عبد القديم زلوم - مصرع الخلافة ، وضياء الدين الريس - المسلمون ٢ – ٣ ص ١٢٣ . .

(*) دنشواي قرية في شبين الكوم ؛ يكثر فيها الحمام ، وقد قصدها نفر من=

مصر القومي لا منازع ولا سيما بعد أن أخذ هذه الحادثة أروع مثل ، وشنها حرباً شعواء على المستعمرين لا هوادة فيها ، واسمع صوته الانجليز في بلادهم ، . . وأجبر « كرومر » على الاستقالة أمام شعور قومى متدفق بدأ مرحلة جديدة من مراحل الجهاد والمقاومة (١) .

ومن هنا نفهم أيضاً لماذا قاوم الأنجليز دعوة الحزب الوطني الى سن دستور خاص لمصر (٢) ، ولماذا كانوا قد طاردوا زعيمه الثاني محمد فريد من ثمّ ، وحكموا عليه بالسجن غياباً لكتابته مقدمة ديوان الشيخ علي الغاياني «وطنيتي» يومذاك (٣) حتى اضطروه أن يؤثر المنفي الى أن توفاه الله عام ١٩١٩م (٤)

= الضباط الانجليز في ١٣ حزيران - يونية ١٩٠٦م لصيد الحمام ، فأصابت رصاصة منهم امرأة ، وأحرقت اخرى بيدراً (جرنا) فأثار هذا الطيش حقيظة الاهالين الذين تصدى لهم الضباط بأسلحتهم ، وقتلوا شيخ الخفراء ، فدافع الناس عن أنفسهم بالحجارة والطوب حتى جرح أحد الضباط في رأســه ، ولاذ ومن معه بالفرار ؛ فأصابتهم ضربة الشمس التي تسببت في موت احدهم .

وقد هول الانجليز من الحادثة ، وقبضوا على عدد من الاهالين؛ قضت محكمة عسـكريه باعدام أربعة منهم وسجن سبعة عشر . انظر عبد الرحمن الرافعي - مصطفى كامل ص ١٩٧ وما بعدها .

(١) عبد الرحمن الرافعي - مصطفى كامل ص ٢٣٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٣٢

(٣) عبد الرحمن الرافعي - محمد فريد ص ٢١٩ وانظر ما كتبه محمد سيد كيلاني في كتابه طه حسين الشاعر والكاتب من تفصيلات في الموضوع نقلها عن صحف ذاك العهد .

(٤) عبد الرحمن الرافعي - محمد فريد ص ٣٦٨

وفي غمرة الأحداث المتتابعة التي أعقبت الأنقلاب، الذي تكشفت فيه حقيقة القوة السياسية، والعسكرية للدولة العثمانية أمام تلك المعنويات التي كانت تهابها دول أوربة ـ استطالت دولة الطليان بعدوانها على الصومال، وزحفت جيوشها على ليبيا (طرابلس الغرب) عام ١٩١١ (١) .

وكانت هنالك مقاومة باسلة للشريف الادريسي وعمر المختار ،.. حيث لم تستطع تركية الثبات وتركت جيوشها الجبهة لتنشغل فى مكان آخر (٢) وكذلك أنهك المتطوعة المجاهدون من عرب المشرق(٣)

وقد خلد الشعر العربي تلك المقارمة الضارية ، فكان الرافعي أسبق الشعراء في القول والاستنفار ، حتى ليكاد ـ وهو يستلحق أنفاسه من توالي الفجائع والاحداث ـ أن يرسم طريق الثورة المؤمنة التي تعيد الأمة سيرتها من الكرامة والقوة فيقول :

لا بدّ من ثورة رجافة حنقاً	هوجاء لا نظرٌ فيها ولا فكر
يمشي بها الموت مجنوناً وكيف خطا	فليس إلا قبورٌ ثم تحتضرُ
لا بدّ من غضبة إن ثار ثائرها	على الشياطين من جن الفلا ذعروا

.. ويصرخ الثأر في دمه ، ولكنه يحترز مما قد يلحق به من معانيه الجاهلية فيقول :

ثأر تعاظم فيه أن يقال له	ذنب ـ مخافة أن الحلم يغتفر

(١) ساطع الحصري ـ محاضرات في نشوء الفكرة القومية ص ٤٦

(٢) محمد عزة دروزة ـ الوحدة العربية ص ٤٤٠ ـ وقد كف الأدريسي، وظل المختار في المقاومة حتى عام ١٩٣٠م ، وبالقبض عليه غدراً انتهت المقاومة .

(٣) شكيب ارسلان ـ شوقي ـ ص ٣٥

ثأر العرين إذا جاعت ثعالبه فلم ير السهل فيه الضيغم الهجر
ثأر اليتامى وثأر الثاكلات وثأر الخدر يفضى ، وثأر العرض يشتهر (١)

وأكثر الشيخ محمد عبد المطلب من شعره في هذه الحرب ، وقال الزهاوي ،.. وأرسل شوقي قصيدته الرائعة في عمر المختار التي يقول في آخرها :

في ذمة الله الكريم وحفظه جسد ببرقة وُسِّد الصحراء

.. ثم كانت الحرب التي إندلعت في أوربة أولا بسبب مقتل الأرشيدوق فردنان وزوجته فى حزيران - يونية ١٩١٤ م فقد زحفت جيوش النمسة على الصرب (٢) وتوالى دخول الدول الى ساحاتها ،.. حتى قامت على النطاق العالمي المعروف ما بين الحلفاء والألمان ..

وكان من حماقات أنور وطلعة وغيرهما من اركان الحكم الجديد فى الدولة العثمانية أن دخلت الحرب الى جانب الألمان ، . . ومكنت الدعاية الألمانية من أفئدة الناس حتى ليكادوا يحسبون غليوم الثاني امبراطور المانية حامي حمى المسلمين وناصرهم ، حيث قال الرافعي :

.. ومزقت للأسلام والشرق دولة تملى بها ملكٌ وسرّ سريرُ
لقد كان عون الله فيها ونصره ففارقها مذ قيل أنت نصير

* * *

تمكنت من عرنينها فاستقدتها بجبلي بلاء ، « قائدٌ ووزير »
وأطفأت ماضيها « بطلعة أنور » فيا أنور لم يبق في اسمك نور .. (٣)

---

(١) الرافعي - السيف العثماني - المقطم ، الهلال ديسمبر ١٩١١ .
(٢) محمد عبد الله عنان - مأساة مايرلنج - طبعة دار المعارف وفيه تفصيل كبير
(٣) الرافعي - غليوم الثاني - المقتطف - كانون الثاني - يناير ١٩١٩م .

.. وقد تمكنت بريطانيا من استغلال هذه الحرب أبشع استغلال ، فواصلت هي وفرنسا تطبيق إتفاقها الودي لعام ١٩٠٤، وراحت هي توقع بسلاطين وأمراء وشيوخ الجنوب والخليج العربي في حبائلها بمعاهــدات واتفاقيات تتجـدد فيها الألتزامات مع طواريء الظروف والتفســيرات ، وتبيح لها طرق المواصلات التجارية والحربية وتحمى اساطيلها وتمون جيوشها (١)

وفي وقت سابق للحرب كان جواسيس فرنسا وسفراؤها يحاولون التحرش بالدولة العثمانية ، كحادثة الارصفة المشهورة التي اشار اليها الرافعي بقوله :

وغرّ فرنسا أن ترى الليث باسمًا ... فلم تدر حتى لج فيها « سفيرها »

وجار عليها الدهر شعثًا خطوبه ... فهب لها عبد الحميد يجيرها . .

بصير بنور الله في كل أزمــة ... تردّ عيون الصيد حسرى شعورها

أيجلوك يا عضب الشبا ما هذت به ... وقبلك ما ضر النبي هديرها (٢)..الخ

وكذلك محاولة إغتيال السلطان عبد الحميد بعد فشل هرتزل من الحصول على وعد منه يمكن اليهـود من فلسطين أو أراضيهـا (٣) وفي تلك الأيام جرت محاولة للأجهاز على روسية القيصرية بثورة شيوعية. (١٩٥٠)

---

(١) محمد عزة دروزة ـ الوحدة العربية ص ٢٢٤

(٢) الرافعي ـ الديوان ج ١ ص٣٤

(٣) أنظر ما سبق ـ وقد قال شوقي :

هنيئاً أمير المؤمنين فإنمـا ... نجاتك للدين الحنيف نجاة

وهكذا التقت قوى الشر والخيانةفأوقعت الدولة العثمانية في دوران الحرب والضياع بالتجزئة والأندحار ، بعد ما كادت لها بالمؤامرة المستمرة حتى أجهزت عليها من ثم .

وكانت الحلقةالوسطى فيهذهالسلسلة الأجرامية لدول الاستعمار انانتهزت بريطانية فرصة قيام الحرب ، فسارعت في ١٨ كانون الاول - ديسمبر ١٩١٤ م الى إعلانالحمايةالأنجليزيةعلى مصر،وزوال صفة السيادة العثمانية الشرعية عنها(١)

ومن أجل تثبيت ذلك عمدوا في اليوم التالي الى خلع الخديو عباس حلمي الثاني - وقد كان فى أورية خشية أن يعود إلى محاولة التقرب من القوى الوطنية ثانية ، .. وأقاموا حسين كامل باسم سلطان مصر (٢)

وليقفالأنجليز بالمصريين من ثم ضد محاولة الدولة العثمانية استعادة مصر الى الحظيرة العثمانية عام ١٩١٥ م فى حرب الترعـة المشهورة ، حيث حاول أحمـد جمال (باشا) والي الشام أن يعبر قناة السويس فاخفق مرتداً الى فلسطين (٣) .

.. وكانت آخر أيام العثمانين في عهـد عبد الحميد تحاول أن تلد الحياة العلمية والعملية في ديار الاسلام فاستقدم الخبراء من أوربة لدراسة أحوال البلاد وكيفية

---

(١) أنظر بلاغات الوكالة البريطانية في الهلال ٢٣ - ٣٢٦ ؛ ومما هو جدير بالذكر أن المرحوم أمين الرافعي كان قد أوقف جريدة- الشعب - التي كانت تنطق بلسان الحزب الوطني -كيلا ينشر نبأإعلان الحماية ، فيعتبر كالمقربهاواقعاً ! .

(٢) عبد الرحمن الرافعي - ثورة ١٩١٩م ، مقدمات ثورة ١٩٥٢ص١٥٦ وعزة دروزه - الوحدة العربية ص ٢١٠ .

(٣) مذكرات جمال باشا السفاح ص ١٦٣

أعمارها واستثمار كنوزها وخيراتهـا وكان في من استقدمتهم الدولة العثمانية المبشر المهندس الانجليزي « وليم ولكوكس » ،.. الذي درس مشروعات الري في العراق والجزيرة ما بين عامي ١٩٠٣ - ١٩٠٤م ،.. وقدم تقاريره الضافية في هذا الشأن مما أسال لعاب الأستعماريين الأنجليز الى مثل هذه الكنوز في أراضينا البكر.

كما كان للأرساليات التبشيرية والقنصلية، واليهود وغيرهم من الخونة والجواسيس كثير مما تحتاجه الدراسات الأجتماعية لأحوال البلاد ..(١)

حتى وأتت ظروف الحرب من ثم ومكنت ابريطانيا أن تنزل جيوشهـا في البصرة وتبدأ عمليات احتلال العراق والجزيرة الى الفرات الاعلى لتلتقي وحليفتها فرنسا، في تجديد الأتفاق الودي بمعاهدة (سايكس - بيكو) التي مزقت الوطن مناصفةً بين الحلفاء ؟ .. ومايزال يعاني من مخلفات الأحتلال والحماية والتبعية الى اليوم ما يعاني من مشكلاته التي رافقت تلك المراحل الغزوية ،.. والتي تظهر اليوم في العقد الفكرية، والأنتكاسات السـياسية والأنواء الأقتصـادية، والأسواء الأجتماعية ،.. التي تستهلك جهد الطاقة الثورية للأمة.

وقد تمكنت فيه جيوش الاحتلال البريطانية المختلطة من البصرة والعمارة ،.. ولكنها توقفت عند الكوت تجاه مقاومة ضارية أبداها المحاصرون العرب في الجيش العثماني، وضربوا فيها الأمثال في البسالة والمروءة، حتى أعاقوا قوات الجنرال تاوزند عن التقدم، ثم أسروه في حركة التفاف بارعة أفقدته صوابه حيث

١- محمد رشيد رضا - المنار ١٨ رمضان ١٣٢٢ هـ

أعلن إستسلامه .

ولولا خيانة من بعض ذوي النفوس الدنيئة ، والخور الذي دب في عزائم الضباط الاتراك وألقى في روعهم أنهم يدافعون عن غير بلادهم، لكان في انتصار العرب في الكوت فاتحة عهد للتحول في الجبهة .. ولكن !

وعلى أثر هذه الهزيمة الشنعاء بالذات التي عانتها جيوش بريطانية ، وإندحار الحلفاء في معركة « غاليبولي » في الأناضول [1] .. تلون الحلفاء، وتفتقت الذهنية الأنجليزية عن لعبة جديدة يجرون فيها أحلام العرب [2] إذ لم يبق أمامهم غير أمير مكة ــ الشريف حسين بن علي ــ وقد عرفوا عنه موقفه من إنقلاب الأتحاديين وخلافه لزعماء الدولة العثمانية في دخولهم الحرب الى جانب الألمان ، . فهيأوا له « ستوزر » ثم « مكماهون » في القاهرة يراسلانه ، ويلمس الأخير منهما مكامن الشجن من أحلامه في الاطماح القومية ،.. فيستحوذ عليه من ثم (٣)

ولا سيما بعد الحماقات الطورانية التي أقدم عليها أحمد جمال « باشا » السفاح في نقل الفرق العربية من الديار الشامية، ومحاكماته التي أصدر فيها أحكام الاعدام في القوميين العرب [4] غير مفرق بينهم وبين من اندسوا في صفوفهم من جواسيس

---

(١) محمد عزة دروزة ــ الوحدة العربية ص ٢٣٥

(٢) نفس المصدر ــ ومما يجدر ذكره أن الرأي العام في مصر كان منصرفاً عن هذه الاحلام الثورية للعرب ، ومشغولاً بأحواله الداخلية الخاصة في الاحتلال والحماية ، وكان هاتيك حالة مقصورة لذاتها !

(٣) أنظر ملحق جورج انطونيوس ــ يقظة العرب ، وكذلك عمر أبي النصر ــ جهاد فلسطين العربية لترى هاتيك المراسلات .

(٤) محمد عزة دروزة ــ الوحدة العربية ص ٢٤٠ وما بعدها

فرنسا « المجرمة الحرة »(١) وبالرغم من تعهداته للشريف فيصل بن الحسين بعدم تنفيذ الاحكام ولكنه فعلها (٢)

وهنا بلغ السيل الزّبى، وجاوز الحد إلى الربى، وكان الشريف في ضيافة الأيوبيين في الشام فثارت ثائرته وخبط كوفيته وعقاله على الارض، وقال كلمته التي سارت مثلا للروح العربية الثائرة : لقد طاب الموت ياعرب ! .. (٣)

وما كاد يعود الى والده في الحجاز، حتى انفجرت الثورة العربية رسمياً في التاسع من شعبان ١٣٣٤ هـ (١٠ حزيران - يونيه ١٩١٦) بحركة قومية تستهدف استعادة السلطان العربي في الحكم، وإقامة الخلافة العربية وبناء الدولة الاسلامية الجديدة رداً ثائراً على تلك الأجراءات التعسفية، والتصرفات الهوج، التي عاد يمارسها « الاتحاديون » الأتراك «٤»

وقد تمكنت الثورة من الحامية التركية في الحجاز وسارت حتى العقبة التي أطار سقوطها بيد الثوار صواب الحلفاء، فسارعوا الى عقد معاهدة «سايكس-بيكو» السرية، وجيش الانجليز المصريين بقيادة الجنرال آلنبي الزحف على الديار الشامية ومساندة قوات الامير فيصل -ظاهراً- وموازاة الجيش العربي ومسابقته في دخول دمشق عاصمة الأقليم ليجعل لهم مثل هذا السبق صفة الاحتلال التي ثبتوها بمصر «٥»

---

(١) عبد العزيز رفاعي - أصول الوعي القومي ص٨٤ وأنظر مذكرات جمل

(٢) جورج انطونيوس - يقظة العرب ص٢٨١ وما بعدها ..

(٣) المصدر السابق

«٤» المصدر السابق ص٦٨٥

«٥» محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٣٢١

ولكن يظهر أن الأمير الهاشمي كان من الحيطة بمكان ، فقد سبقت طلائعه وراء الجيش التركي المندحر فى أفظع هزيمة وانسحاب عرفها فى تاريخه ، ودخل الامير دمشق، واعلن من هناك قيام الحكم العربي ،.. كما طلب الى الضباط الأنجليز مغادرة البلاد بعد انتهاء مهمتهم.. ولما أدرك الأنجليز ما وراء ذلك من عزائم ـ وقد رأوا زخم الثورة القومي يمتد لهيباً يكتسح كل ما يعوقه.. تفتقت ذهنيتهم عن أسفين يكون لغما فى قلب الثورة .

وهكذا اعلن بلفور وعده المشئوم فى الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧م لليهود بنظرة العطف البريطانية التي عهد لهم بأعداد فلسطين وطنا قومياً .. (١) . وذلك فتّاً فى عضد الثوار العرب، الذين أهملو ذلك فى باديء الامر ، حتى أذاعت الثورة الروسية عام ١٩١٧م بعض أوراق الاستعمار ومنها معاهدة سايكس ـ بيكو فاقام العرب المؤتمر السوري والعراقي من ثم فى تموز ١٩١٩م معلنين قيام الحكم العربي فى جميع انحاء الديار السورية بما فيها فلسطين ، مع الاتحاد الكامل السياسي والاقتصادي بالقطر العراقي وبحدودها التي كانت أيام الولايات العثمانية وتسمية الملك فيصل (٢) مغفلين بذلك النظر فى « الوعـــد » برفضه جملة وتفصيلا ومعتبرين إياه غـــير ذي موضوع ! .

وقد تم إعلان هذه الدولة فى ٨ آذار ـ مارس ١٩٢٠ م بصفة واقعيـــة . وكانت هناك فرحة طائرة ملأت قلوب العرب أجمعين فى مشهد قومي رائع

---

(١) كمال رفعة ـ الأستعمار والصهيونية ص ١١

(٢) محمد عزة دروزة ـــ الوحدة العربية ص ١٢١ وكذلك جورج انطونيوس ـ يقظة العرب ص ٣٢٨

لا مثيل له (١) .. بالرغم من بعض العوائق والمنغصات التي لا تخـلو منها حركة ثورية جادة (٢)

وكانت يـد فرنسا مطلقة فى المغرب العربي ، تستضيف الجزائر مستوطنين فرنسيين من شذاذهم ومتعطليهم (٣) وترى فاس زحف قوات لتأمين التجارة وحماية السلطان ! .. وبعد ذلك في ١١ آب ١٩١٢م قبل يوسف الامتثال لفرنسا بعد تنازل أخيه عبد الحفيظ ،.. فأقتسمت مراكش هي وأسبانيا حماية (٤)

ولم يكد يولد الظرف الصهيوني الأخير حتى سارعت أميركا الى دخول الحرب مع الحلفاء ، متذرعة بمبادىء « ويلسون » الشهيرة القائلة بحرية الشعوب في تقرير المصير خشية امتداد الايام في الحرب، وانقلاب ميزان القوى ، وضياع المكتسبات والفرص التي تهيأت للحلفاء في الغرب حتى هاتيك الساعات .

وفي تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩١٨م انتهت الحرب ، وكانت ديار العروبة ومواطن الاسلام قد أضحت نهباً مقسماً بين الحلفاء ، مستعمرات أو محميات أو هي

---

(١) محمد عزة دروزة ــ الوحدة العربية ص ٣٥٩

(٢) كان جمهور الموارنة والكاثوليك في بيروت، قد قابلوا رفع العلم العربي على سارية دار الحكومة في بيروت بالأمتعاض الشديد ، ولم يهدأ لهم روع إلا عندما رأوا الجيش الفرنسي يحتل لبنان !.. فأستقبلته نساؤهم بالأحضان ؛ ورحل البطريرك الماروني الى باريس يثبت أقدام الاحتلال ! . ليتسبب من ثم بمأساة ميسلون ٢٤ تموز ١٩٢٠ وانهيار الحكم العربي في الشام ـ انظر دروزة ص ٣٤٩ وما بعدها

(٣) محمد عزة دروزة الوحدة العربية ص ١٦٠

(٤) محمد عزة دروزة ــ الوحدة العربية ص ١٨٥ وما بعدها .

في انتظار بقايا التصفية !.

وما كادت الحرب تضع أوزارهـــا ، حتى كان الوطن العربي وديار الدولة أجمع تئن من وطأة الاحتلال الذي أناخ بكلكله وكل قواه ، يبدد ثرواتها ، ويقسم أقاليمها ، وينغص عليها فرص الحياة والاجتماع والوحدة !..

وإزاء هذا المال الذي إنتهت إليه الامة بعد الحرب كان لابد من اندلاع المقاومة المحلية ،.. استكشافاً لحقيقة وجود أبناء الأمة في هذا العالم الجديد !..

فكانت مصر أسبق الأقطار في إعلان السخط على المحتلين ، والانطلاق بالثورة الوطنية ـ ولا سيما بعد فشل العرب في اللحاق بمؤتمر فرساي يستعرضون فيه مالهم من أوراق العهود والمواثيق مع الحلفاء ـ .. لتأخذ مكانها من معاهدات الصلح والتصفية ، .. ولكن هذا المؤتمر أصم أذنيه عن سماع الاصوات الضعيفة والمغلوبة وأوصد الأبواب في وجوه الشعوب المنكوبة ، واقر الحالات الجديدة ، وسعى الى تسمية الدول المستعمرة والحامية للبلدان العربية والأسلامية (١) بما لا يتعارض مع إتفاق الحلفاء الودي في عام ١٩٠٤م .

فقد حاول سعد زغلول وبقية من زعماء مصر الذين كانت علاقتهم بالأنجليز غير علاقة الحزب الوطني النافرة والتي تأبى إلا الجلاء (*) ـ السفر الى مؤتمر الصلح للدفاع عن قضية « مصر » فأبى عليهم السير ونجت ان يزودهم بجوازات ســـفر

---

(١) محمد عزة دروزة ـــ الوحدة العربية ص٢١٢ ، ابراهيم شريف ـــ الشرق الاوسط ص ١٠٤ وما بعدها .

(*) عند إعلان الحماية البريطانية على مصر ،. التي القبض على أركان الحركات الوطنية ، ولم يصب سعد منها شيء !! فتأمل .

« مصرية » واستخف بهم الى الدرجة التي ساء لهم فيها عم يتحدثون ؟ وبأسم من ينطقون ؟ ! .

ثم كان ما كان من السعي لاعتقالهم و نفيهم الى مالطة، ،حتى انفجرت الجماهير في القاهرة بمظاهرات تعلن فيها غضبتها على المحتلين ، .. وامتدت بها الى انحاء القطر حتى البستها ثوب الثورة الوطنية في آذار ـ مارس ١٩١٩م .

وكانت شرارة التهب فيها الشعور القومى ، وعم الاضطراب البلاد .. حتى لم تعد قوى الحماية البريطانية تستطيع المحافظة على النظام ، .. فاضطر الانجليز الى مناورات يطلقون فيها سراح سعد ويسمحون له ولرفاقه بالذهاب انى شاؤوا (١) .

في الوقت الذي سعت فيه حكومة « لندن » الى أن تؤلف لجنة « ملنر » تدرس فيها الحالة في البلاد وتقدم مقترحاتها بهذا الخصوص، .. ولكنها اخفقت أيضاً امام ثبات الشعب وتمسكه بمطاليبه المشروعة . وانفجار الثورة ثانية في نيسان ابريل ١٩٢١م . (٢)

وقد أسهم الرافعي بهذه النهضة الوطنية في إرساله النشيد القومى على لسان الجمهور ، والذي كان له أبعد الأثر في جمع صفوف الأمة ، وفيه يقول :

الى العلا . . الى العلا بني الوطن	إلى العـلا كلُّ فتاة وفتى
إلى العلا في كلِّ عصر وزمن	فلن يموت مجدُنا كلا ولن

«١» عبد الرحمن الرافعي ـ ثورة سنة ١٩١٩ ص ١٠٤ وما بعدها .

«٢» أمين سعيد ـ ثورات العرب ص ٢٢ .

والذي يصور فيه الوحدة الوطنية بقوله :

إيماننا كنيسة ومسجدا دين اتحاد للبلاد وهدى
وكل ما في العمر يوماً وغداً وكل ما نملك المجد ثمن .. (١)

على ما سوف نفصل القول فيه عند الكلام على آثاره الشعرية .

ولكن حدث عقب عودة سعد زغلول في نيسان - أبريل ١٩٢١م أن ظهرت بوادر الانقسام في الحركة الوطنية ، .. وكاد يتحول فيها غضب الأمة وثورتها على المحتلين الى شعارات حزبية حمقاء تتشبث بالأشخاص وتشعل نار الفتن الداخلية . (٢)

وقد أشار الرافعي الى ذلك بقوله « .. اما الحالة السياسية فقد أفسدها اهلها، .. لأنه لا فلاح لامة يعلن بعضها بعضاً اصاً مقدساً (٣)

كما ادت مواقف سعد الفردية الى إنقسام الوفد نفسه (٤) ولا سيما حين تألفت (ميلشيا) اطلقت على نفسها اسم « جنود سعد » تتصدى لكل من يخالفه الراي وقد آذى بها مناوئيه من أعضاء الحزب الوطني خاصة الذين رفضوا قبول مبدأ المفاوضة من غير جلاء القوات المحتلة ، .. وقد جاء نعت هذه الكتائب على لسان صادق الرافعي - بعد تصديها لأمين الرافعي لسان الحزب الوطني بقوله :

« استفاض بين الناس ان معالي سعد باشا ذو جنود .. وانه هو وقبيله يطلقون اسم « جنود سعد » على فئة أمده الله بها تنصره بالرعب وتبتلي خصومه بالأذى

---

(١) أنظر الرافعي - الرسائل ص٦٧ ، ٧٠ ..

«٢» عبدالرحمن الرافعي - في أعقاب الثورة المصرية ج١ص١٠ ، ٣٠ ومابعدها

(٣) الرافعي - الرسائل ص ٧٩ .

«٤» عبد الرحمن الرافعي - في أعقاب الثورة المصرية ج١ ص١٦

وتندسس الى مكروههم بأنواع البلاء ..

ولقد كان العرب من جاهليتهم الى إســـلامهم إلى عجمتهم يطلقون لفظة «جنود سعد» التي يفخر بها الرئيس! على الحشرات والهوام المؤذية ، التي يجيء بها الصيفُ وينشر بها اللذعات واللسعات والمؤذيات ، .. الى ما يجلب الأمراض ويدني العلل وما عسى أن يكون سـببا في وباء مجتاح ، أو بلاء يحلق الناس حلق الشعر .. الخ) (١)

وبالرغم من ذلك كله فقد مضي سعد على شاكلته ينتهز فرص إخفاق الاتفاق بين الانجليز والمنشقين عليه ليجمع الجماهير اليه ، ويؤلف لنفسه قوة شعبية تقلل من شأن معارضيه وتعزلهم عن طريق الكفاح الوطني ، .. ولكن لم تكد تفشل حكومة عدلي يكن في مفاوضات، لندن (٢) حتى اعتقلت السلطات المحتلة سعد زغلول ونفته الى جزيرة سيشل ـ شمال شرقي مدغشقر ثم نقلته الى جبل طارق(٣)

وقد حاول امين الرافعي ان يوحـد الصفوف إزاء هـذه الحالة المتردية ، وكادت تعود الوحـدة الى الوفد، .. ولكن (إلنبي) اقبل يفاوض عبد الخالق ثروة لاعلان تصريح ٢٨ شباط ـ فبراير ١٩٢٢ م قاضياً بألغاء الحماية على مصر والأعتراف بها (مملكة مستقلة ذات سيادة) في مناورة (يقصد بها التغرير بالامة

---

(١) الرافعي ـ الأخبار ـ نوفمبر ١٩٢١ ، رسائل الرافعي ص٧٧ .

على أن أمين الرافعي هو الذي كان وراء سعد في ظهوره السياسي أنظر عبد الرحمن الرافعي ـ في أعقاب الثورة جـ٢ ص٢٨٦

(٢) عبد الرحمن الرافعي ـ في أعقاب الثورة المصرية جـ١ ص٢٤

(٣) نفس المصدر ص٣٠ .

واستمالة نفر من أبنائها للاستعانة بهم على تنفيذ سياسة الأنجليز على حد ماجاء في بيان الحزب الوطني آنذاك.

وهكذا إنقلب السلطان احمد فؤاد الى ملك في آذار ـ مارس ١٩٢٢م وصدر بعد ذلك ماعرف بدستور نيسان ـ ابريل ١٩٢٣م الذي جرت بموجبه الانتخابات العامة في كانون الثاني ـ يناير ١٩٢٤م بعد عودة سعد ورجال الحزب الوطني من منافيهم.. والتي جاءت بأغلبية وفدية ساحقة، أظهرت فيها الأمة نضجاً سياسياً واعياً تلتف بهمن حول الزعيم سعد زغلول، قال فيه الرافعي يومها مشيراً الى دعوته في في تربية الضمير القومي للأمة:

يا سعدُ ما حلّ مصراً قبلها بطلٌ	كانت قلوباً وأرواحاً عساكره
قد كان ظاهر هذا الشعب باطنه	فاليوم باطن هذا الشعب ظاهره
تركته بالضمير الحرّ مندفعاً	أمر الهدى.. ما الضمير الحر آمره
ولن يهون بشعب أو يعز به	في كل ما ناله إلا ضمائره
إن الضمير جناح حين تحبسهُ	يرى السما كلها في الحبس طائره(١)

كما وضع على لسان سعد نفسه نشيده القومي الثاني الذي يقول فيه:

إسلمي يا مصرُ إنني الفدا	ذي يدي إن مدت الدنيا يدا
أبداً لن تستكيني أبداً	إنني أرجو مع اليوم غداً
ومعي قلبي وعزمي للجهاد	ولقلبي أنتِ بعد الدين دين

(١) نشيد سعد زغلول الرافعي ص٢١٢

لك يامصر السلامه   وسلاماً يا بلادي

إن رمى الدهر سهامه   أتقيها بفؤادي

واسلمي في كل حين

ولكن وزارة سعد لم تعمر طويلا ، فسرعان ما اصطدمت بالمندوب السامى - إلنبي - عقب مصرع السردار، .. فقدمت إستقالتها بعد عشرة شهور لتخلفها حكومـــة زيور (الانقلاب الأول) التي أظهرت الاستخذاء امام السلطات المحتلة بحيث سارعت الى حل المجلس النيابي ، وحاولت تأسيس حزب (الاتحاد) زيادة فى أسباب التخاذل والانهزام - لتزعم من ثم الولاء للقصر (١)

* * *

اما الدولة العثمانية فقد كان الحلفاء قد إستعادوا قوتهم بعد هزيمة «غاليبولي» وتحول الحرب الى جانبهم، .. فاحتلوا الاستانة فى تشرين الثاني - نوفمبر ١٩١٨م، .. ودخل جيش اليونان أزمير بعد انتهاء الحرب في ايار ١٩١٩م ،. فرأى الوطنيون الترك أن بلادهم مهددة بالتمزق ، .. فتولوا تنظيم الجهاد الوطني وانشيء المجلس الكبير الذي انقاد له الشعب التركي بعد ما تقدم إليه الفقهاء ورجال ابطال مثل كاظم بكـير وعلى إحسان ونور الدين وعمر فوزي قبل أن ينظم إليهم مصطفى كمال فقطعت هذه الجمعية علاقتها بالاستانة وقد كانت مستسلمة لمطاليب الحلفاء بتوقيعها معاهدة سيفر (٢) التي اعتبرتها الجمعية الوطنية فاشلة ، ونشبت الحرب بين

(١) عبد الرحمن الرفعي - في اعقاب الثورة ص٢١٢ وأنظر سعيد العريان - حياة الرافعي ص١٦٨ .

(٢) راجع الدكتور ابراهيم شريف - الشرق الأوسط ص١٩١٠٤ وما بعدها

القوات الوطنية التركية والجيش اليوناني ، فظفر الترك باليونان في عدة معارك أهمها « أين أونو» في كانون الثاني- يناير ١٩٢١م و «سقارية » في آب ١٩٢١م و « دملو بيتار »آب ١٩٢٢م التي قذف بعدها الترك بالأروام (اليونان) إلى البحر واضطرّ الحلفاء الى إبرام معاهدة « لوزان » للصلح مع تركية الجديدة وتسوية الحالة في الشرق الأدنى عامة (١)

وكان لأخبار الحرب الأستقلالية التركية هذه صدى في الشعوب العثمانية ـ ومنها الأقطار العربيـة . فكان الأدب والشعر يستبقان الأحداث في القول . . ومن ذلك قصيدة أحمد شوقي :

الله أكبر كم في الفتح من عجب	ياخالد الترك جدد خالد العرب
يوم كبدر (!) فخيل الله راقصة	على الصعيد وخيل الله في السحب
هزت دمشق بني أيوب فأنتبهوا	يهنئون بني حمدان في حلب
ومسلموا الهند والهندوس فى جذل	ومسلمو مصر والأقباط في طرب
ممالك ضمها الأسلام في رحم	وشيجة وحواها الشرق في نسب
ولا أزيدك بالأسلام معرفة	كلّ المروءة في الأسلام والحسب(٢)

وفي البيت إنتباهة عبقرية ، تذكر وتخشى لم يتنبه لها سواه ـ حقاً لقد كان

(١) شكيب أرسلان ـ شوقي ص١٢٢ ،وعبد الرحمن الرافعي - في اعقاب الثورة المصرية ج١ ص٧٥ ، وانظر مقدمة الشوقيات لمحمد حسين هيكل ، على ان المؤرخ عبد القديم زلوم له وجهة نظر تستحق التأمل في كتابه « مصرع الخلافة »

(٢) أحمد شوقي ـ الشوقيات .

شوقي شاعر العصر الحديث ، .. وقال الرصافي في بغداد :

سمي المصطفى لازلت تعلو ... الى أوج يطاول كلَّ أوج

نصرت على بني اليونان نصراً ... أقام الغرب في هرج ومرج

فدُر كالشمس في فلك المعالي ... وحل من الكمال بكل برج (١)

أما الرافعي فيجمح به الخيال في شطحة يخيل فيها له أن مصطفى كمال هذا سيف من سيوف الله فيحلق في ذلك الخيال المجنح الوثاب ، ويملأ محتوى قصيدته معاني ، ويتفلسف قوة وضعفاً .. ويعود الى مفهوم القوة العسكرية التي كانت طابع الدولة العثمانية المميز ، فيتنفس فيه . وكأنه يترجم عن ثورة قومية تستعر في صدره . ولم يكن يعرف موقعها من العالم العربي ـ الأسلامي . فتشبه له الدعوات السياسية القائمة يومها في « اللامركزية » وتعريب الخلافة . وتجديد الدولة الأسلامية .. غير الذي يهم .. فيقول :

يد الله مدت ـ وهو فيها مهندٌ ... على عنق اليونان تفري وتغمد

نضتهُ فهزته فبثت فرنده ... فأهوت به فهو القضاء المجسد

ولله مثلُ الأنبياء صوارمٌ ... تروح وتمضي حيثما الحقُّ يكسدُ

رماهم به رمي السماوات رجمها ... على المارد العاتي مضى يتمرد .. الخ (٢)

ولكن لم تكد توافي الظروف مصطفى كمال وتظهره على بقية رفاقه ، الذين سعى الى طمس أخبارهم وبطولاتهم من أول يوم .. ويأخذ ميثاقاً من الحلفاء

---

(١) الرصافي ـ ديوان الرصافي .

(٢) الرافعي ـ الاخبار ـ ٨٠٢ ـ ١٩٢٢ م .

في « لوزان » حتى مكن لأهل الردة « الدونمة » من نفسه وللماسون من سياسته ..
فأقدم بحماقة طورانية أخرى على إلغاء الخلافة ، ونفي الخليفة وحيدالدين من البلاد .
واقتصر بالحكم على الأناضول .. وبذلك صدقت نبوءة الرافعي من أن تركية
« لا تحكم على رجل واحد من غير الترك » .. وأنها ضاقت بحماقة أنور » (١)

وزاد مصطفى كمال هذه الحماقات بأقدامه على قطع كل ما له صلة بالعرب حتى
الدين الأسلامي الحنيف وحروف اللغة ، ويوم الجمعة الفضيل (٢) في شعوبية
مرذولة عزل بها تركية عن عالمها الطبيعي مع المسلمين ! .

وقد ترجم شوقي خواطر الأمة الأسلامية إزاء هذه الأحداث برائعته التي
رثى بها الخلافة حين قال :

عادت أغاني العرس رجع نواح	ونعيت بين معالم الأفراح
كفنت في ليل الزفاف بثوبه	ودفنت بين تبلج الأصباح
ضجت عليك منابرٌ ومآذنٌ	وبكت عليك ممالك ونواح
الهند والهـة ومصر حزينـةٌ	أمحا من الأرض الخلافة ماح؟!
ياللرجال لحـرة مـوءودة	قتلت بغير جريرة وجناح .. (٣)

(١) الرافعي ــ الرسائل ص٥٦

(٢) ومما يؤسف له ان هذه الحماقات الكمالية ماتزال تتشبث بالترك الى اليوم حتى لتكاد تسيطر على قوى التفكير المؤمن عندهم بالرغم مما أصابهم بسببها من الانقطاع والفجيعة وسواها ..

(٣) أحمد شوقي ــ الشوقيات .

وأرسل الرافعي غير حديث منظوم ومنثور. جمع بعضها الجزء الثالث من وحي القلم في مقالات: تاريخ يتكلم بعد كفر الذبابة وكلمة وكليمة .

* * *

وكان مكر الحلفاء في المشرق العربي مكراً كباراً . وتبييتهم كان أفظع وأشنع وإجهازتهم على عروبته كانت أنكى وأمر .. بحيث لم تستطع واقعية الحكم العربي الجديد في الحجاز والشام أن تتلافى ذلك المكر والتبييت والأجهاز ـ ما دام مؤتمر الصلح يقف وراء الحلفاء يمكن للأستعماريين من البلاد بالانتداب والحماية والتعاهد بعد الأحتلال والتبعية .. وكأنهم الأوصياء على تقرير مصاير الشعوب ..

وبالرغم من مباديء « ويلسون » التي جرته بها بريطانيا ليدخل طرفاً في الحرب الى جانب الحلفاء .. فان هذه المبادي ما لبثت أن انكشفت على العالم بمقررات مؤتمر الصلح الذي أقر للحلفاء بكل ما سبق لهم الاتفاق عليه ، لتوزيع مناطق النفوذ فيما بينهم، بعد تصفية الدولة العثمانية ، ودحر المانية ، ومن ثم تقويض الحكم القيصري في روسيا ! وإلهائها عنهم بأوضاعها الداخلية أمام الثورة البلشفية؛

وهكذا وجدت فرنسا ـ المجرمة الحرة ـ نفسها ثانية في متصرفية بيروت .. وجيوش الجنرال غورو تزحف على دمشق ، وتنسف الحكم الفيصلي في وقعة « ميسلون » التي استشهد فيها وزير الحربية يوسف العظمة في ٢٤ تموز ١٩٢٠م (١) .

وما زال السوريون الى اليوم يعيشون في حنين الى تلك الأعراس القومية

(١) راجع الحصري ـ في « ميسلون » .

التي دامت سنين من الحكم العربي ١٩١٨ - ١٩٢٠ .. كحنينهم الى عهد بني أمية الظهير! .. وربما زادوا عليه الآن حنيناً آخر لأيام الجمهورية العربية المتحدة التي كانت فيها سورية الداخلية إقليماً! ..

لقد أضطر الملك فيصل إلى ترك البلاد بعد مقاومة يائسة، واتجه مع وزير خارجيته عبد الرحمن الشهبندر الى مصر. ثم سافر من الأسكندرية الى أوربة محاولا أن يقتحم مؤتمر الصلح، ويذكر المؤتمرين بمواثيق وعهود قطعها الحلفاء على أنفسهم للعرب .. ولكنهم تركوها وراءهم ظهريا! .. (١)

وبعد ذلك توالت الثورات في سـورية الداخلية، يقودها صالح العلي فى اللاذقية تارة، وينفجر بها ابراهيم هنانو في حلب تارة أخرى، .. وتعود فتندلع في وادي حوران، فيقتل رئيس الوزراء - علاء الدروبي - وكل من تعاون مع فرنسا في تقويض الحكم العربي (٢) .. حتى كانت الثورة الكبرى فى تمـوز - يوليو ١٩٢٥م التي امتدت من جبل العرب وعمت الديار السورية كلها سنتين من المقاومة الباسلة، .. كادت أن تؤتى ثمار الأستقلال، .. وهكذا بقيت سورية فى مدّها القومى، وجزرها أمام وطأة الأحتلال الفرنسي الأثيم حتى قيام الحرب الثانية، وسقوط فرنسا أمام زحف القوات الألمانية، .. ومن خلال ما اعترى

---

(١) عبد الرحمن الشهبندر - ذكريات العهد الفيصلي في الشام المقتطف - ١٩٣٤م وقد طبعت اخيراً بعنوان مذكرات الشهبندر، ودروزة - حول الحركة العربية الحديثة ج١ ص١٣

(٢) امين سعيد - الثورات العربية ص ٧٠

فرنسا وإنجلترا من مناوبة الاحتلال لسورية أيام الحرب، خرجت سورية من ثم ظافرة باستقلالها (١) .

أما القسم الجنوبي من سورية المعروف بفلسطين، فنظراً لمكانة الآثار التاريخية المقدسة عند اليهود والنصارى ، فقد كانت هنالك خطة صليبية جديدة لاقتطاعه من الوطن العربي الاسلامي بالاحتلال والانتداب ثم تمكين الصهيونية منه بعد حين ..

وفي عام ١٩١٩م عقد المؤتمر الفلسطيني القومي رفضاً إجماعياً لوعد « بلفور » ثم ألحقه بمؤتمر آخر في الثامن من آذار ١٩٢٠م عقد البيعة للملك فيصل الأول ، باعتبار فلسطين جزء لا يتجزأ من الديار الشامية .

ولما نسف الفرنسيون الحكم العربي في دمشق ، عاد المؤتمر ثالثة لينظر في حدود فلسطين التي ظهرت آنذاك - بانقسام الديار إنتدابا - وجدد رفض الوطن اليهودي، وبدأ الشعب المقاومة في آب عام ١٩٢٩م، .. فكانت حوادث العنف ، التي اتسمت بالحزم والثورية ، ومن أشهرها حادثة البراق والتي توالت بعدها كتب الانجليز البيض والملونة ؛ لحل المشكلة الفلسطينية الناشئة ، حتى كانت الثورة الكبرى ما بين عامي ١٩٣٦ - ١٩٣٩ (٢) التي أوقفها إندلاع الحرب العالمية الثانية ، وتمكن الانجليز من مصر والعراق بمعاهدات تحالف ! مهدت لهم سبيل السيطرة التامة على فلسطين .

---

(١) راجع في ذلك - كفاح الجيش العربي السوري

(٢) راجع عمر ابى النصر - جهاد فلسطين العربية ، صبحي ياسين - الثورة الكبرى وامين سعيد - ثورات العرب ، وعزة دروزة - الوحدة العربية ص ٤٨٩ وما بعدها ..

أما لبنان ـ المتصرفية والبلد ـ فقد حرص الموارنة والكاثوليك على الأحتلال الفرنسي ، وآثروه على الحكم العربي الذي قابلوه بامتعاض عند رفع العلم العربي على سارية المحافظة ببيروت (١)

ولكن مقاومة المسلمين والأرثوذكس للأحتلال الفرنسي برزت في الاستفتاء الامريكي عام ١٩١٩م والذي خرج بنتيجة الرغبة في الوحدة التامة مع سورية الداخلية . (٢)

* * *

وأما في العراق ، فقد سبقت الأشارة الى الثورة العربية في الحجاز التي مكنت الحلفاء من استرداد أنفاسهم في الحرب واستجماع قواهم بعد هزيمة الأنجليز في الكوت ، فلملموا شعث قواتهم وأنجدوها بحملة مختلطة أخرى بقيادة الجنرال « مود » الذي إخترق نحو بغداد في ١٧ آذار ـ مارس ١٩١٧م فاتحاً « محرراً » للعرب من الأتراك !! .

وحاول الأنجليز استفتاء الشعب في موضوع الحكم عام ١٩١٨م،.. وتكشفت نواياهم عن عزم بالحاق العراق بالهند أو حكمه بأمرة برسي كوكس عميد الأستعمار في خليج البصرة ،. .

ولكن المقاومة القومية استمرت في طول البلاد وعرضها ، ولا سيما في شمال العراق (٣) ، . ثم إندلعت بعدها ثورة عارمة في الثلاثين من حزيران ـ يونية

---

(١) محمد عزوة دروزة ـ الوحدة العربية ص٤٧٣ وما بعدها

(٢) نفس المصدر ص٤٨٢ ..

(٣) عبد المنعم الغلامي ـ ثورتنا في شمال العراق ..

١٩٢٠م بعد أن قتل الشيخ ضاري الحاكم السياسي « لجمان » . . ورفع العلم العربي في أنحاء القطر ، . . وأصطدم الثوار بالقوات المحتلة في الثاني من تموز ٩٢٠ م ، وأستمرت الحالة الثورية خمسة شهور كلفت المحتل الكثير في وقائع بطولية بلغ فيها الأندفاع والحماسة درجة التهور ، . . ولا سيما في معركة الرميثة (الرارنجية) . . وقد عقد بعدها مجلس الوزراء المؤقت البيعة لفيصل بن الحسين ملكاً دستورياً على العراق من الموصل حتى الخليج [١]

هذا في الوقت الذي سارت محاولاتهم لتقوية الملك عبد العزيز آل سعود وتصفية حكومة الهاشميين في الحجاز !.

وبالرغم من مناورات الأنجليز حول شكل المعاهدة ، فقد أستطاع فيصل وبعض رجاله التخفيف من صورة صك الأنتداب على طريقته السياسية المشهورة في جملته (خذ وطالب ..) .. حتى وصل بها صيغة معاهدة ١٩٣٠م التي دخل العراقُ بعدها عصبة الأمم باعتباره دولة العرب الحديثة المستقلة عام ١٩٣٢م (٢)

وقد بعث أحمد شوقي قصيدته في هذه المناسبة التأريخية أنشودة على لسان محمد عبد الوهاب يقول فيها :

يا شراعاً وراء دجلة يجري بدموعي تجنبتك العوادي
سر على الماء كالمسيح رويداً وامش في اليم كالشعاع الهادي ..الخ

* * *

هذا في الوقت الذي سلكت فيه يد فرنسا العاتية سبلا شتى في قطع الصلة بين

---

(١) عبد الرزاق الحسني ـ تاريخ العراق الحديث جـ١ ص٤٢
(٢) محمد عزة دروزة ـ الوحدة العربية ص٤٤٦ وما بعدها .

المغرب العربي والمشرق وتاريخ العروبة (١) ، . .

فقد فتحت باب التجنس لدمج السكان العرب بالحياة الفرنسية نفسها ،.. وقد اعتبر المسلمون في الجزائر مثل هذا ردةً وكفراً ، وقاطعوا المتفرنسين فلم يعودوا يصاهرونهم ، ولم يسمحوا لموتاهم أن يدفنوا في مقابر المسلمين (٢) الى ألوان أخرى من المقاومة السلبية الحادة .

وفي تونس تواثب على زعامة الحزب الدستوري على باش وعبد العزيز الثعالبي الذي أزعج مؤتمر الصلح (٣) وما بين عامي ١٩٢١م ـ ١٩٣٢م لعبت فرنسا أدواراً جهنمية في تبديد الثورة العارمة ، وفي الأطباق على البلاد بارهاب فظيع ، كذلك الذي مارسته في سورية (٤)

وفي مراكش ثار ماء العينين ، ومع ان ثورته فشلت ، إلا أن روح التمرد والمقاومة بقيت حتى عام ١٩١٥م (٥) كما ثار في الجنوب موسى حمو ، وخالدا بو القاسم النفادي الذي استطاع أن يستمر في المقاومة حتى عام ١٩٣٥م (٦)

هذا بالأضافة الى ثوارت في جبال الأطلس حتى عام ١٩٣٣

---

(١) مر بنا أتفاق فرنسا الودي مع انجلترة عام ١٩٠٤م

(٢) محمد عزة دروزة ــ الوحدة العربية ص ٣٢٦ ، ٤٠٨ ، وما بعدها . .

وأنظر البشير الأبراهيمي في في (أحاديث البصائر) . .

(٣) محمد عزة دروزة ـ الوحدة العربية ص ٤١٧ .

(٤) المصدر نفسه ص ٤١٧ .

(٥) المصدر نفسه ص ٤٢٥

(٦) المصدر نفسه ص ٤٢٦

ومن خلال الأحداث كانت تضطرب السياسة المصرية مابين الاحزاب التي فرخها حزب ـ ذوي المصالح الخاصة ـ (الامة) فى الوفد ، والاحرار الدستوريين ثم « الأتحاد » ، إضعافاً للحزب الوطني وتبديداً للمباديء القومية والوطنية التي ثبت عليها فى مقاومة سلبية باسلة .

وكان لشخصية أمين الرافعي ومواهبه زمام الامان في اتجاه السياسة الوطنية كلما أحاق بها أو تمزقها ظارف من الأحوال المتعاقبة ! . .

فقد رفع عقيرته إزاء ما ترتب من انحدار الحالة السياسية فى البلاد على عهد الانقلاب الاول (حكومة زيور) ـ ودعا في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٢٥ الى وحدة الصفوف ، إنقاذاً للبلاد التي عطل فيها الدستور وتناحرت الاحزاب ، . .

ولم يكن أمين يتوقف عن إلحاقه في هذه الدعوة ـ وبعد صدور بيانات للوفد والاحرار الدستوريين تؤيد مذهب أمين الرافعي والحزب الوطني ، اجتمع المجلس النيابي (المنحل) في فندق الكونتننتال ، وقرر عدم الثقة بالوزارة (١)

ولم تستطع الوزارة التشبث بالبقاء مع تعنتها ومحاولاتها الترقيع غير مرة ، . . حتى عقد المؤتمر الوطني برئاسة سعد زغلول نفسه في شباط ـ فبراير ١٩٢٦م (٢) واصدر قرارات أذعنت لها الحكومة ، وأجريت الانتخابات وفق مرسوم الانتخاب المباشر وفاز الوفد ـ وإن لم يخل فوزه من أنانية على حساب الآخرين(*) وتألفت وزارة

---

(١) الرافعي ــ في اعقاب الثورة ج١ ص ٢٣٦ وما بعدها .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٣

(*) بالرغم من أن دعوة الأئتلاف كانت للحزب الوطني وأمين الرافعي، .. إلا أن الفردية السعدية والأنانية التي أتصف بها حزب الوفد أبت إلا القصد في تصفيه « الحزب الوطني » على مراحل ، .. وفي هذه الانتخابات أصرت على إقصاء عبد الرحمن الرافعي عن دائرته في المنصورة ــ مذكراتي ص ٥٨

عدلي يكن الأئتلاف الاولى ـ ، وعادت الحياة الدستورية ، التي يشير إليها قول الرافعي :

وبعثت دستور البلاد وكان من أوراقه قد لف في اكفان

بعد ان تنحى سعد عن رئاسة الوفد كي لا يصطدم بالأنجليز ثانية .

وعندئذٍ أصبح سعد زعيم الامة لامنازع تشرئب إليه الاعناق من كل مكان ويقـــدم صادق الرافعي اليه كتاب « اعجاز القرآن » ليقول فيه كلمته المشهورة « بيان كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم »

وأمام هذا الائتلاف ، ومظهر وحدة الصف عرض محمد نجيب (باشا) وظيفة « شاعر الملك » الفخرية على الامام مصطفى صادق الرافعي ، فتقبلها عرفانًا بالجميل وأرسل في الملك فؤاد قصائده التي استهلها برائعته التي يقول فيها :

ما بين آنٍ في الزمان وآنِ تهدى لمصر هدية الرحمن

بموفق ملك عليهـــا مصلح أو فاتح بطل لها معوان

يأتي وفيه من الرحيم مراحم بعثت لما في مصر من أحزان

في كشفِ معضلة وردّ ملمة ودفاع طارقة من الحـــدثان

الله يشهد أن مصراً موطن متقدس في أفقه النوراني (١)

وقد استطاع أن يعبر فيها عن وجهات نظره السياسية والأجتماعية ومقارناته التأريخية من خلال الأسم الملكي على ما سوف نعرض له (٢)

---

(١) المقطم ـ ١١٥٠٥ ـــ ١ رجب ١٣٤٥ هـ .

(٢) أنظر محمد سعيد العريان ـــ حياة الرافعي ص١٦٨

ولكن لم يكد سعد ينتقل الى الرفيق الأعلى في آب ـ اغسطس عام ١٩٢٧م ويلحق بـــه أمين الرافعي فى ٢٩ كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٢٧م حتى عادت الانانية تستشري فى صفوف هاتيك الاحزاب (*)

فقد خلف مصطفى النحاس سعداً في رئاسة حزب الوفد، ثم ارتقى الوزارة باسم حزب الاغلبية النيابية في آذار ـ مارس ١٩٢٨م (١) مما دفع حزب الاحرار الدستوريين الى عدم التورع عن خيانة الائتلاف والتآمر عليه مع النفوذ الانجليزي والقيـــام بالانقلاب الثاني وتأليف وزارة محمد محمود (باشا) بعد إقالة النحاس في حزيران يونية ١٩٢٨م . (٢) والى ذلك يشير الرافعي بقوله :

لا يلومنّ مستبـد اذا ما	نفسه أخرجت له مستبدا
أعظموا البرلمان والشعب فيه	أن يعدوا الانصاف خصماً ألدا
أكبروا البرلمان والشعب فيه	ان يسموا فيه من الشعب (وفدا)
ان فرقا ما بين انصار شخص	يتولاهم وأنصار مبدا (*)

وأعاد محمود صورة مأساة الامة التي لقيتها على عهـــد (زيور) وحزب الاتحاد عام ١٩٢٤م، .. فسارع الى حل البرلمان، وتعطيل الدستور (٣) وحكم

(*) وقد لاحظ صادق الرافعي ذلك في المقالين البليغين الذين رثا بهما سعد زغلول وزين الشباب أمين ــ على ماسوف نعرضه في مكانه من الدراسة

(١) عبد الرحمن الرافعي ــ في أعقاب الثورة جـ٢ ص٤٣

(٢) » » » » جـ٢ ص٥٠

(٣) » » » » جـ٢ ص٥١

(*) صادق الرافعي ــ الأخبار ٨ اكتوبر ١٩٢٨م .

البلاد بالحديد والنار (١) غير ملتفت الى الاستنكار الذي أذاعه الحزب الوطني، والنداء الذي وجهه حزب الوفد (٢)

ومضى في هذا الاندفاع أكثر حين عمد الى تثبيت النفوذ البريطاني، ومحاولته اصدار تشريعات من شأنها ان تضرّ بالمصلحة القومية للبلاد (٣) والى ذلك يشير قول الأمام الرافعي:

في مصر من عنت السياسة عقدة في كل آونـــة تجر حبالا
من شدّها زادت به عسراً ومن أرخى تزد من ضعفه استفحالا..(*)

ولكن محمود (باشا) اصطدم بالامة بعد مفاوضاته هندرسن وموافقته على مشروع معاهدة تبقى فيها جيوش الانجليز بمصر وتقر الحكم الثنائي في السودان(٤)

ويظن أن اتصالاما بين الوفد والانجليز أدي الى قبول شروط الوفد في النظر بالمعاهدة بعد عودة الحيـــاة النيابية (٥) واستقالة محمود وتأليف وزارة عدلي الثالثـــة،.. التي أجرت الانتخابات أواخر عام ١٩٢٩م وجاءت بأغلبية وفدية أيضاً (٦) أعادت النحاس الى الحكم ثانية (٧)

(١) عبد الرحمن الرافعي ـــ في أعقاب الثورة ج٢ ص٧٤ وما بعدها.
(٢) « « « « ج٢ ص٥٤ وما بعدها.
(٣) « « « « ج٢ ص٧٢ وما بعدها.
(٤) « « « « ج٢ ص٨٣
(٥) « « « « « ص٩٥
(٦) « « « « « ص٩٧
(٧) « « « « « ص١٠٠
(*) المقطم ـ شوال ١٣٤٧هـ

. . ولكن حدثت مشادة بين الوزارة والقصر أودت بها استقالة . . وهيأت للانقلاب الثالث أن يقهر الأمة (١)

وهكذا جيء باسماعيل صدقي خصم الدستور الالد، والمستهتر الأول بحقوق الشعب الذي أعاد المأساة، فألغى الدستور وعطل الحياة النيابية. كما ألغى الانتخاب المباشر ومجالس البلديات والنقابات وأعلن دستوراً آخر يكون منة من الملك للشعب (٢) وألف من وزرائه حزباً سماه على (الشعب) كما فعل حسن نشأت في حزب (الاتحاد) سنة ١٩٢٤ (٣)

وكانت سنوات عجاف، زورت فيها الانتخابات، وعطلت الصحافة، وكمت الافواه (٤) وخلف على الحكم بعد صدقي عبد الفتاح يحيى وكان أضعف من الهوان (٥)

وقد اضطر القصر بعدها الى أن يعهد لمحمد توفيق نسيم بتأليف الوزارة - نوفمبر ١٩٣٤م، التي حاولت ترضية الشعب بالغاء دستور صدقي (١٩٣٠) وحل مجلسيه الشيوخ والنواب (٦) ولكن دستور ١٩٢٣م بقي معطلا ! !

وقد بقيت الحالة كذلك حتى عادت المظاهرات تجتاح البلاد . ويصيب الطلبة منها نصيب الغرم بالنار والرصاص ولا سيما بعد تصريحات صموئيل هور وزير الخارجية البريطانية بعدم صلاحية دستور ١٩٢٣م وان دستور ١٩٣٠م لا يحقق

---

(١) الرافعي — في اعقاب الثورة جـ٢ ص١٠٨

(٢) » » » » » ص١٣٠

(٣) » » » » » ص١٤٢

(٤) » » » » » ص١٥٢ - ١٦٣

(٥) » » » » » ص١٨١

(٦) » » » » » ص١٩١

رغبات الامة (١)

وهنا ظهر افتقاد الامة لصوت أمين الرافعي في دعواته الى وحدة الصف ،.. ولكن أخاه عبد الرحمن الرافعي ، سدّ ذلك الفراغ بسعيه وحافظ رمضان ونداثه الموجه الى الامة بهذا الشأن (٢) بعد رفض النحاس للفكرة !.. (٣) بدافع من أنانية خلفاء سعد !.. ثم عاد فقبل المشروع !

وهكذا تألفت الجبهة الوطنية من الوفد المصري والحزب الوطني والاحرار الدستوريين والشعب والاتحاد . وحتى المستقلين (٤) ، وقد نجحت في عودة دستور عام ١٩٢٣م (٥)

ولكن جزاء سعي عبد الرحمن الرافعي لم يكن بأفضل من نصيبه في إئتلاف عام ١٩٢٦ م (٦) فقد عاد « الوفد » يصر على إبعاده عن الحياة النيابية إمعاناً في تصفية الحزب الوطني ومبادئه !..

وفي كانون الثاني ـ يناير ١٩٣٦ انتهزت الأحزاب «الاحرار والاتحاد والشعب» الفرصة لتنحية وزارة نسيم . ولكنها فشلت في تأليف وزارة إئتلافية ! (٧)

ثم ألف علي ماهر الوزارة التي أجرت الانتخابات في أيار ـ مايو ١٩٣٦ م

---

(١) الرافعي ـ في اعقاب الثورة ج٢ ص٢١٠

(٢) إنظر المقطم ٢٨ نوفمبر ١٩٣٥ ، وكذلك الأهرام ١٥ ديسمبر ١٩٣٥م

(٣) الرافعي ـ مذكراتي ص٨٦

(٤) الرافعي ـ مذكراتي ص٨٨ ـ في اعقاب الثورة ص٢٠٣

(٥) الرافعي ـ في اعقاب الثورة ص٢١٠

(٦) « « « ص٨٩ وقد مر بنا ذلك

(٧) الرافعي ـ في اعقاب الثورة ج٢ ص٢١٢

عقب وفاة الملك فؤاد في ٢٨ نيسان ـ أبريل ١٩٣٤ م ـ وقد جاءت كذلك بالأغلبية الوفدية ! .. (١) التي سارعت بعدها وزارة النحاس الى عقد معاهدة ٢٦ آب أغسطس ١٩٣٦م (٢) التي شابهت المعاهدة العراقية نوعاً ما و دخلت بموجبها مصر عصبة الامم دولة مستقلة . . . وسماها النحاس ـ عفا الله عنه ـ وثيقة الشرف والاستقلال! .. بالرغم من معارضة الحزب الوطني لها الذي اعتبرها غير شرعية! ..

وقد رغب ومهاشبان الوفد الى الامام صادق الرافعي أن يؤلف للحياة الاستقلالية الجديدة نشيداً فكان نشيده العظيم الذي عرف بـ « النشيد القومي » :

حماة الحمى يا حماة الحمى   هلمّوا هلموا لمجد الزمن
لقد صرخت في العروق الدما   أموت أموت ويحيا الوطن

والذي سبق النشيد الفائز بالجائزة الاولى شهرة وذيوعاً لما اتصف فيه من الثورة والقومية بحيث استهلت الثورة العظيمة (٢٣ يوليو ١٩٥٢م) عهدها بأعماله ثانية على المدارس والنوادي .. على ما سوف نفصله في مكانه

* * *

.. وعلى هذه الحالة السياسية التي مرّت بنا من الحماية والاحتلال والنفوذ ، الى الثورة والمقاومة ،. والاستقلال واشكاله الصورية والاقليمية ، كانت خارطة الوطن العربي تلون ما بين الحربين العالميتين .

وقد أعادت الحرب الثانية ، التي اندلعت في خريف ١٩٣٩ م الكثير من هاتيك الصور ، بما أعقبها من مآسي وفواجع دونها مآسي وفواجع الحرب الأولى . . والتي ما زالت مستمرة إلى اليوم ! . .

---

(١) الرافعي ــ في اعقاب الثورة جـ٢ ص٢١٧

(٢) الوثائق والمعاهدات ــ اصدار الايام الدمشقية ص٤٠٩

وكانت ايام العرب فيهما توزع بين آلامهم وآمالهم ، . . حتى كانت ذيول المأساة التي أخذت بخناقهم وحركتهم القومية ، فى قيام دولة اليهود في فلسطين.. يوم إختتمت بريطانية وحلفائها سلسلة حلقاتها فى استعمار الوطن العربي بما أقدمت عليه من انسحاب مبيت ليلة ١٥ أيار ـ مايو ١٩٤٨ م ، . . لتبدأ فصلا جديداً في المأساة القومية للأمة العربية ، . . التي يعاني منها مليون فلسطيني يعيشون لاجئين بعد ان سلبتهم « الأمم المتحدة » « ومباديء حقوق الانسان » « وتقرير المصير » وطنهم الذي سكنوه عشرات المئات من السنين ! . .

. . ينظر هؤلاء . . وينظر وراءهم مئة مليون عربي ، وبضع مئين من ملايين المسلمين . . انفجار الثورة الفلسطينية التي تستعيد الوطن الحق من براثن « الأمم المتحدة » وشرعتها ومبادئها ! ! . .

على ان قيام الحياة القومية فى السياسة العربية ، عقب تحول الانقلاب العسكري في مصر عام ١٩٥٢ م الى حركة ثورية أعادت وادي النيل الى الحظيرة العربية ، . . بعد ذلك الأضطراب السياسي والاقليمي ، . . قد أثار بوادر العروبة من جديد في اجتماع إعتقادي وليد عرف بالقومية العربية بين الأنحاء العالمية ، . . وهي تمتد فى انحاء الوطن العربي تستخلصه لنفسها من براثن الأحتلال والتبعية ، وصور الأستعمار ، وذيول المعاهدات والمواثيق ، ـ وأنواء التجزئة والأقليمية ، وأخلاط الحزبية ، وأوضار الانحراف ، وأفظاع الشعوبية ، والوان السياسات المتهرئة ، لتمضي به نحو الوحدة والاستقلال على آمال من الحرية والاشتراكية ومباديء من العقيدة والنظام ، تعيد بنيان الكيان الأجتماعي للعرب من جديد ، . ليؤدي دوره فى الحياة ، ويبلغ رسالته للعالمين .

وأرى ان مشابهة ما تقوم الآن بين خطوات الثورة العربية المعاصرة ، وبين احلام الرافعي ، ولا سيما في قيام الجمهورية العربية ، تلك التي تحدث عنها بقوله :

﴿ . . وما أراها إلا ستنهض في مصر وسورية نهضة من يستجمع ، وربما شهد الناس دهراً يصلح أن يسمى فيه ما بين العراق والأطلنطق « جمهورية اللغة العربية » وما هو ببعيد ، والله غالب على أمره ﴾ (*)

علي ان هذه النهضة ، وذلك الاستجماع ، وصلاح الدهر ، هي الشغل الشاغل لضمير الأمة وللحركة القومية العربية وبحرانها الفكري في دنياها القائمة اليوم . .

(*) الرافعي ـ الهلال ـ شباط ـ فبراير ١٩٢٠ م ٤٠٠ ص ـ وقد يعجب المرء كيف تجري لفظة الجمهورية على لسانه ، ومصر والأقطار العربية الأخرى ، تتأرجح يومها بين الولاية والسلطنة وأحلام المماليك ؟ !

الفصل الثاني

البيئة الاجتماعية

كانت الأمة العربية قد عانت الأمرين من التسلسل الأجنبي والنفوذ الشعوبي، . . ولاقت من صروف الأحن وتوالي المحن، ما لو ابتليت به أمة لاندثرت في زوايا التاريخ، ولأصابها من الاهمال ما ينسيها وجودها، ويجعلها بخبر كان ! . . ولكنها بقيت خالدة على الحدثان كأن في وجودها معجزة ربانية ! . .

فقد اندمس اللون الفارسي في الحياة العباسية حتي كاد يطغى على مظاهر الحياة العامة للناس، ثم لحقة الشكل التركي بصورة من الفروسية اولا والتسلط من ثم، . . مما أدى في النهاية الى ضياع كثير من صفات الحكم العربي، بين نفوذ دويلات البويهيين والصفويين والسلاجقة والغزنويين والعبيديين (الفاطميين) والمماليك بأطوارهم حتى العصر الاخير .

وكان استسلام الامة للحكم العثماني كالمحصلة لتلك العهود التي سلفت فانحدرت بها الى ما انتهت اليه من خضوع وضياع !

ولكن كان من فضائل هذا العهد العثماني إعادة جمع الامة في وحدة يقبض عليها السلطان ، وتهيمن عليها القوة العسكرية ، . . ذلك ان دولة بني عثمان نفسها قامت بالاعتبار الحربي ، وما برحت عنها هذه الصفة تعتمدها لتصفية الاوضاع التي قطعت اقطار الاسلام وأوصال الوطن بحكم الطوائف (١) .

على ان الاهمال لجوانب الحياة الاجتماعية الاخرى للامة ، قد أدى الى ضعف النظام الحيوي لهاتيك الجوانب ، وآذى الاقتصاد القومي ، وأضر بموارد العيش ، وأركس البلاد في مضاعفات من التخلف والبدد وفقدان الرخاء ، . . فقد كان هم الدولة العثمانية الأول في الحفاظ على مظاهر الصورة العسكرية ، وعدم الانتقاص من القوة الضاربة ، . . بل ترك الناس وشؤونهم يديرونها بأنفسهم (٢)

وفي سبيل تهيئة الموارد للجند ، وتموين الجيوش راحت تضارب في الاقتصاد والتجارة ، وتجازف بأنواع الزراعة التي هي عماد حياة الامة في ذلك الحين (٣) ، . . وتهمل الصناعة ، او تنصرف عنها ! حتى لجأت الى قبول انظمة الاقطاع ، غاضة النظر عن اسوائها ، فهي تجتزيء الاراضي المنزوعة من اهليها ،

---

(١) محمد رشيد رضا - الوحدة العربية - المنار ج ٦ - م ٣ - المحرم ١٣١٨ هـ وما بعده .

(٢) عمر الدسوقي - محمود سامي البارودي - ص ١٩ .

(٣) راجع عبد الرزاق الهلالي - قصة الارض في العراق والشام - العربي - ٦٧ ، ٦٨ . وكذلك عبد الرزاق الظاهر - الإقطاع والديون في العراق -

او الاميرية ـ تمنحها باللزمة بألوف الافدنة لرؤساء العشائر كما فى العراق والشام (١) او تطلق فيها اليد لقواد الجيش من الضباط الاتراك او المماليك في حق التصرف (٢) ، ولكن من الناحية الثانية فقد تمكنت الدولة من مسح جميع الديار والأمصار بهذه الوسيلة (٣) .

وقد كان من نتائج هذا ان توزعت صفوف الامة في طبقات واضحى تبدد الطاقات وضياع العبقريات وإفلات فرص التكافؤ .. اشبه بالمسلمات الاجتماعية في تلك البيئة . ومما زاد في تلك الحال سوء اعتماد الاقطاعيين للارض واعتبارها « ممالك » لهم تتداول فيما بينهم بالهبة والشراء بما فيها من ثروة حيوانية او طاقة بشرية !! ..

مما أدى من ثم الى تفاوت اجتماعي خطير بين صفوف الامة وطبقاتها . ولم تعد هناك قيم عامة للانسان ! .. وإنما تتحدد هذه القيم تبعاً للطبقة التي ينتمي اليها الفرد !

فكانت مصر في عهد محمد علي وأولاده « مزرعة كبيرة خاصة بهم وبحواشيهم يديرها مشرفون من قبلهم يسمونهم « الملتزمين » يجبون لهم خيرات البلاد ويرهقون الفلاحين بالطلبات ويأخذونهم بالقسوة والعنف حتى يحصلوا منهم على ما التزموا به .. ويوفروا لأنفسهم ايضاً رغيد العيش (٤) .

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) محمد صبيح ـ قصة الارض في الاقليم المصري ـ

(٣) عمر الدسوقي ـ البارودي ـ ص ١٩ .

(٤) المصدر السابق ص ١٧ .

ولكي يؤمن شر خروج العشائر على طاعة الوالي او السلطان في الشام والعراق كانت يد الشيوخ « السراكيل » والوكلاء .. تمتد حتى الى اموال الفلاحين الخاصة (١) .

« وكانت الضرائب كثيرة تتجدد على الدوام وغرامات تفرض بغير نظام حتى بلغت حداً لا يستطيع معها الاهالي الاداء لشيء مما يفرض عليهم ! .. ولم يكن هناك وقت معين لها ولا قاعدة وإنما هي على حسب اشتهاء الحاكم فتارة يجبرون على أداء أموال السنة كلها واخرى يطلبون فيها بضرائب السنة القادمة في منتصف الحاليه ولا محيص لهم عن الأداء ! ومن تأخر .. عوقب بالحبس والضرب او انتزع منه المال قهراً الى آخر ذلك من المعاملة الخشنة القاسية » (٢) .

ومما يزيد ذلك سوء أن هذه الضرائب كانت تعطى بالمزمة ايضاً ، الموظفين الاداريين وكان الفلاح من جراء هذه الاجراءات التعسفية والبطش والجبروت ـ بين حالين أحلاهما مر فهو إما ان يلجأ الى من يقرضه بالربا الفاحش إذا آثر الاحتفاظ بأرضه وسرعان ما تنتزع منه إجراءاً وتنفيذاً لعقود المراباة وإما أن يتركها ناجياً بنفسه (٣) وقد تبع ذلك ظهور فئات من المرابين اليهود والنصارى من الاجانب الذين مكنتهم الحماية والاحتلال من رقاب

(١) عبد الرزاق الهلالي ـ العربي ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) محمد عبده ـ تاريخ الامام ـ ج ٢ ص ٧٤ ـ اخرجه الشيخ محمد رشيد رضا ، وهي من مقالة نشرت في الوقائع المصرية تصف حال مصر عام ١٨٨٠م

(٣)

الناس حتى غدت كلمة « خواجا » عند الفلاح كالبعبع الذي يخيف الاطفال ! ..
وفي ذلك يقول الرافعي في نشيده الذي وضعه على لسان الفلاحة :

إياك أن تذكر لي «الخواجا» فقد رأيت جارنا « المحتاجا »
راح اليه ماله .. وماجا وباع حتى البط والدجاجا

* * *

إياك والرهن على الغيطان فتنزل الدود على الاقطان
وتفتح الابواب للشيطان وتجعل الهدم على حيطاني (١)

* * *

وهكذا حتى اضحت فئات قليلة تستأثر بالثراء الفاحش وبحبوحة العيش وتسرف في اللذات وتسكن القصور وتتزوج بالاجنبيات وتنظر الى السواد الاعظم من ابناء الامة نظرة السيد الى العبيد فلا تختلط بهم ولا تزاوجهم ولا تعمل لهم إلا بمقدار ما يهيء لها دوام الرفاهية (٢) كما أن اغلب هؤلاء السراة في هذه الفئات كانوا من غير العرب ! .

أما سواد الامة فالمتعلمون منهم ـ وهم قلة قليلة ـ يمثلون العنصر الصالح في المجتمع وكانت تغلب عليهم المحافظة على التقاليد والالتزام بالقيم والامتثال لاوامر الدين الحنيف .. وهم الذين غدوا من ثم عماد الحركات القومية والوطنية وعدة الامة في جهادها (٣) .

---

(١) الرافعي ـ النظرات جـ ١ ص ٦٩ .
(٢) محمد عطا ـ خليل مطران ص ١٦ .
(٣) عمر الدسوقي ـ البارودي ص ٣١ .

وأما غير المتعلمين - وهم الغالبية العظمى من ابناء الامه فى الارياف والمدن يعينهم في ذالك كثرة ما اوقفه المحسنون لذلك من العقار والاملاك والموارد الاخرى .. وذيوع لون من التكافل الاجتماعي تعارف عليه الناس فيما بينهم فيه المعونة والنصيحة والمصابرة وجبر الخواطر .. وكذلك ما انشىء من تكايا وربط وزوايا تؤوي اليها الفقراء والمساكين وأبناء السبيل .. ولكنها من ناحية اخرى اضحت بيئة صالحة لان يصبح الايمان بالكرامات والخوارق يقوم مقام الدين والعلم (١) .. بسبب من عسر تلك الايام وضن البيئة الاجتماعية بمستوى العيش الكريم على الناس .

كما أوقعهم سوء الحكم والجهل والمرض فرائس بيد المحتالين والمشعوذين والمرابين من الاجانب (٢) كما ألقى في روعهم الابتعاد عن وسائل التغيير على انماط الحياة نفسها .

فوظائف الدولة مثلا قلما كان يحظى بها احد من العرب (٣) لانها كانت نهباً مقسماً بين الترك وأبناء المماليك ، ولا سيما الوظائف العليا ..

والتخلف فى المحاولات الزراعية ، وفى المضمار العلمي لتطوير وسائلها الحديثة او تصنيعها .. خلق نوعاً من التقاليد الاجتماعيـة الباليـــة ، التي تأبى الانسلاخ او التبديل ، وحول الحياة نفسها الى حال من الجمود ، ادى الى التمزق

---

(١) عبد الرحمن الجبرتي - عجائب الآثار ج ١ ص ١١٣ .

(٢) احمد حسن الزيات - في اصول الادب ص ٤٣ .

(٣) محمد رشيد رضا - الوحدة العربية - المنار ، محرم ١٣١٨ هـ

في صفوف الامة ، وتفاوت طبقاتها بشكل لا يرتقه او يجمعه غير لون من الاحسان والصدقات العابر ، التي لا تنسى الفضل (١) .

تقوم الحرب في اقصى الشرق بين الروس واليابانيين عام ١٩٠٣ م فلا تترك الشرق العربي يفلت من ويلاتها ، حتى تعطل فيه التجارة ، وتشيع البطالة ، وتغلو فى الاسعار ، وتكاد تجتاحه بالمجاعة ! .

ويظهر الطاعون فى بورسعيد عام ١٨٩٩ م وينتقل الى الاسكندرية ، ٠٠ وينفذ الى البصرة فى الخليج ! فلا ينقذ الناس غير رحمة ربك !

وتجتاح الهيضة البلاد طولا وعرضاً ما بين العراق والشام ومصر ٠٠ فلا تجد من يقف أمامها في مكافحة او إتقاء ٠٠ حتى تضع حرب الاوبئة أوزارها بنفسها .

والى ذلك يشير شوقي بقوله :

ذاقت نواك وروعت بثلاثة بالدار بعد المحل بعد النار

وأراد بالنار ذلك الحريق الذي شب في ميت غمر ونظم في فجيعته العظيمة اكثر الشعراء حتى قال الرافعي :

أنتهم وراء النار كل فجيعة تسوق لهم في « ميت غمر » جهنما

إذا عصفت شددن مع الناس شدة فلم تبق بين البائسين منعما ٠٠ الخ

وتنقل جنود الاحتلال ـ المختلطة من جميع الاجناس الافريقية والاوربية والآسيوية ـ من الأوبئة الاخرى ما تقدمه للفقر والجهل الذي يضرب بأطنابه ـ شر ما يحتاجان اليه من ثالثهما ! ٠٠

---

(١) الرافعي ـ الإحسان الاجتماعي ـ المقتطف ، ايلول ١٩١٤ م

كل اولئك وكثير غيره من الانواء أوجد الواناً من التعاسة ، وضروبا من هوان العيش التفت اليها العربي الحديث فسما إنسانياً ، وقلما كان يطرقها او يلتفت اليها من قبل (١) .

وفي قصيدة الرافعي في « اطفال الشوارع » نبوءة تحذر ، وحقيقة تقرر في مثل قوله :

إنما شرد السلامة والامن صغار رُبُّوا على التشريد
ما رأى الحقد في الأبالس قوماً كصغارٍ غدوا كبار الحقود ..

الى أن يقول :

فاتقوها من فتنة سوف تدوي ببروق من جهلهم ورعود
فتنة تهدم الفضيلة والايما ن بالشر ماحقاً والجود

وكأنه ينظر في لوح الغيب فيما لقيته الحياة العربية من ثم بالانقلابات السياسية والحزبية !!

وإننا لنجد ان ثلث أدب الرافعي ـ على الاقل كانت مادته من صور ومخلفات وأسواء هاتيك البيئة الاجتماعية ، .. التي أجمل صورتها بمثل قوله:

صغارٌ وأدباء وبؤس وقد أتى لشقوتنا هذا الغلاء يتمم (٢)

وعسى ان نفي ذلك حقه في الفصل الذي عقدناه للموضوعية المحدثة في أدب الرافعي .

فلا عجب ان نرى بعد ذلك كله سقوط هيبة المسلمين من عيون اعدائهم ، ..

---

(١) محمد لطفي جمعة ـ الانسانية في الادب ـ الكتاب ج ١ م ٣ .

(٢) الرافعي ـ الديوان ـ ج ٢ ص ١٩ .

تلك الهيبة التي أخذوا صورتها معهم عبر التاريخ ، من لدن الفتح العربي المبين ، حتى الثباتة القومية الباسلة بوجه الغزاة الصليبيين التي دامت زهاء قرنين من الزمان !..

فقد عادت أوربة تفكر في استعمال البحر المتوسط من جديد (١) وفي سبيل ذلك زعمت لنفسها تعلةً أن تنتقل بالشرق العربي - الاسلامي من عصر مظلم الى عصر إحياء ونهضة ، وتملكها الغرور ، وأخذتها العزة بالاثم والكبرياء ، .. فركبت لذلك رأس العناد ومتن الشطط تؤثر ان تستبق بنفسها الى ذلك وباستعمال وسائل الاستعمار الدنيئة بما فيها القوة الغاشمة (٢) .

ولعل من أوائل من سوغوا لأنفسهم مثل ذلك التدبير بعض حملات التبشير ، والمحافل الماسونية ، التي كانت تنتشر في الاقاليم لتلتقط المتعلمين فتقتل فيهم مواهب التفكير المنتج وبوارق الالمعية والتوفيق ، .. ممهدة ومظاهرة من ثم لحملة نابليون العسكرية على مصر وديار الشام بعد ان منحته معطيات « الثورة الفرنسية » مسوغات التدخل والاحتلال والاستعمار بالمنطق التبشيري - الماسوني نفسه !..

ومن ذلك ايضاً ، وبالخطوات إياها تلك « الأقدام » القنصلية والتجارية الفرنسية في لبنان ، والانجليزية في بغداد والبصرة والاسكندرية (٣) .

---

(١) أحمد عبد الكريم - تاريخ التعليم في مصر ص ٣٤ .

(٢) احمد حسن الزيات - الرسالة ٣٥١ ، وانظر عمر فروخ ومصطفى الخالدي - التبشير والاستعمار - ص ١٩١ وما بعدها .

(٣) عمر فروخ ومصطفى الخالدي - التبشير والاستعمار - ص ١٣٢ .

ولكن هذه الاجراءات والمحالات للتدخل في شؤون الشرق الاسلامي قد أيقظت من الناحية الاخرى روح المقاومة الداخلية (١) وأثارت المناقشات الحادة بين الدول الاوربية نفسها ومحافلها وكنائسها (٢)! .. حتى ليجازف كثير من المؤرخين فى إرجاع ذلك الى جلبة الحملة الفرنسية ، التي هزت الشرق ، بما وضعته فيه من آثارها الثقافية ، والنزعات الثورية القومية . وقد فتحت عيون الامة عليها ـ وهي تحفل بالحياة وتهيم بها النفوس (٣) .

* * *

وهنا أدرك الحكم العثماني أن لا بد من التخطيط لسياسة إصلاحية تنتقل بالديار الاسلامية من الخراب والتخلف ، الى ما يدنو بها من العصر والحضارة العمرانية الجديدة .

وقد حاول بعض السلاطين ، ولا سيما بعد محاولات الدول الأوربية التدخل بشؤون الدولة العثمانية الداخلية عند معاهدة لندن عام ١٨٤٠ م .

كما نفذ بعض الولاة مشروعات في الاصلاح ، كالذي قام به مدحت باشا في العراق والشام ، وكذلك ما اقدم عليه محمد علي ومن أتى بعده في مصر . وكذلك محاولة أحمد جمال باشا في رسم خطة لبناء دولة حديثة في الشام والعراق

(١) عبد الرحمن الرافعي ـ تاريخ الحركة القومية ـ مذكراتي ص ٦٧ .

(٢) الوثائق والمعاهدات ص ٥٥ .

(٣) اسحق موسى الحسيني ـ محاضرات الموسم الثقافي في الكويت ـ ص ٢١٠ وما بعدها .

قبيل وأثناء الحرب الاولى (١) .

وقد كان في ارتقاء السلطان عبد الحميد الثاني عرش الخلافة الاسلامية فاتحة عهد جديد يدرك العصر ، ويهمُّ بالحياة العمرانية والمحاولات الاصلاحية ، التي تجدد شباب الدولة ، وتعيد « للرجل المريض » ماضي قوته .

وكان عبد الحميد ـ عفا الله عنه ـ قد رأى في الشكليات « الدمقراطية » كالمعوقات ، .. واعتد بنفسه ثقة ومخاطرة ، فنسف الدستور الذي أعلنه بعد سنتين من تشريعه ـ ١٨٧٨م ، وسعى بثبات وعزيمة الى دراسة موضوعية لبرامج إصلاحية شاملة ، لا تقف عند قطر ، واستعان بخبرات مهندسين وعلماء أجانب ، واعتمد قوته المعنوية في دفع هذه الحركة الى هذا السبيل .

ولعل كثيراً من المشروعات الاعمارية الضخمة التي قامت في الوطن العربي ، وتقوم بها القوى الثورية اليوم ... كانت خطوطها الأولى قد انتظمت في أيامه ! .. بما فيها مشروعات السدود والقنوات ، وطرق المواصلات البرية ،

ومنها ما لا يزال فكراً حتى الآن .. كمشروع الخط الحديدي ما بين العقبة والبصرة ، والقناة الموازية له حتى جنوب العراق (٢) .

وربما كان يمكن أن تغدو هذه البرامج منطلقات إصلاحية جذرية ـ وفي أسرع مما تمت به حتى أيامنا الحاضرة ـ لو مد الله فى حياة الدولة العثمانية ، ولم تجهز الدول الاستعمارية عليها بالانقلاب والحرب ثم التجزئة والتمزيق! فى الاحتلال ، والحماية ، أو التبعية والمحالفة ! .

---

(١) أنظر الوثائق والمعاهدات ص ١٧ .

(٢) محمد رشيد رضا ـ المنار ـ شوال ١٣١٥ هـ وكذلك رمضان ١٣٢٢هـ

وذلك أن مثل هذه الدراسات المهمة ، وما تكشفت عنـه من معلومات فريدة ونادرة ، . زادت في سـعار الاستعمار ، ونبهت أساطينه الى خطورة تنفيذها وعودة الحياة الثابتة الى الشرق العربي التي تفوت عليه مآربه ، .. فعمد الى محاولاته يغذ السير فى أشواطه اليها على الشكل الذي أوجزنا فيه الذكر عند كلامنا عن الحالة السياسية .

ولقـد كان لتمهيد الأرساليات التبشيرية أثر واضح ومتميز في تطوير مظاهر البيئة الاجتماعية في مختلف الاقطار والمحيط الذي تنشأ فيـه بخاصة . إذ تمكنت من طبعه بطوابـع جديدة ، . .

كما كان للبعوث التي أرسلت الى الاقطار الاوربية ـ وفرنسا بالذات ـ الأثر الاوضح في هذا المضمار .

ومن بين آثار هـذه وهاتيك كانت تمتد محاولات الدول النصرانية في المزيد من طلبات الحماية للنصارى فى الدولة العثمانية ، والتمكين لارساليات التبشير الأرثوذكسية ـ الروسية ، واليسوعية ـ الفرنسية والبروتستانتية الامريكانيـة والانجليكانية ، .. ثم افتعال الأزمات فيما بينها ، مضايقة الدولة في التحكيم فيما كان يشجر بينها ! .. (١)

ولم يكن بعض الولاة العثمانيين ـ في الديار الشامية بخاصة ـ حيث تكثر هـــذه الارساليات ـ يحسنون التصرف ، فقد كان يعوزهم النضج السياسي ، واللباقة في تناول مثل هذه الامور ذات الحساسية الحادة ! . إذ أنهم قابلوا

---

(١) أنظر عمر فروخ ومصطفى الخالدي في ـــ التبشير والاستعمار ـــ .

مثل هذا الاندساس الصليبي والمضايقه الغزوية بأيغار صدور المسلمين من الدروز ، فأثاروا حفائظهم فخفوا الى السلاح يعملونه في رقاب النصارى (جواسيس فرنسا والدول الكافرة) (١) غير مرة ،.. وكان من أثر ذلك أن عمـــد النصارى بعامة الى تسليح أنفسهم ، نشداناً للثأر . . وأثاروها فتنة عمياء سنة ١٨٦٠ م - بتوقيت خاص - امتد لهيبها الى داخل سورية حتى لم تعد تفرق بين مسلمين ونصارى بل تطحن كل من كان أمامها (٢) .

ومما يؤسف له حقاً أن الدولة العلية لم تعد تدرك يومها مدى تصرف ولاتها هذاك ، وما استطاعت أن تكبح جماح تهورهم الأحمق ، او تحاسبهم على تقصيرهم في حقوق أبناء الامة من الرعية . حتى دق قناصل فرنسا وروسيا الباب العالي نفسه مهددين بالتدخل المسلح ومشترطين الشروط ! . .

وقد تمكنت مواقفهم وتهديداتهم أن تسفر عن مثـــل نظام المتصرفية يفرض على لبنان لينكمش في حدوده ببيروت ما بين الجبل والبحر . فلا ثغر ولا سهل . . وإنما تمتد المحاولة لتقصر صفة المحافظ نفسها على نصرانية متفرنسة (٣).

وكان من أثر ذلك سوء الحياة ونكد العيش وقسوة لواقع الاليم ونزوح السكان الى المدن والسواحل ثم هجرة الكثيرين منهم الى وادي النيل وأفريقية الغربية والى ما وراء البحار في الأصقاع الامريكية بحثاً عن مجالي الحياة ومصادر الرزق (٤) .

---

(١) أنظر احمد جمال (السفاح) في مقدمة مذكراته .

(٢) عبد العزيز الرفاعي - في أصول الوعي القومي ص ٥٧ .

(٣) أمجد الطرابلسي - شعراء العروبة في الشام ص٦ .

(٤) جورج غريب - الهجرة وأسبابها - الأديب ، أيلول ، سبتمبر ١٩٤٩ﻫ

وكانت مصر ـ حيث الجوار واللغة ووحدة العادات والتقاليد والقرب والمعرفة بشؤون الحياة كالتي أهابت بأهل السعي من اولئك الى حيث الأمن والسعة والرخاء (١) .

وقد لقي حملة الاقلام من النازحين ـ بخاصة ـ أهلا وإخوانا لهم في وادي النيل . . فشاركوا فى الوظائف والحياة العامة ، وصهرتهم المصرية حتى عاشوا أوفياء لها تخالج قلوبهم آمالها وآلامها وكان لهم في الصحافة والأدب شأن جليل ـ ولا عبرة بالشواذ (٢) .

وقد التفت الرافعي الى ذلك فقال في « خيانة الوطن » وما هي عليه أخلاق الخونة وذممهم وما تنطوي عليه ضمائرهم من خواء :

يا من يخون الوطن المفتدي يطلب أن يغنى وأن يغنما

لو وازنوا الارض وأموالها بذمة ما بلغت درهمـــا

---

(١) أسعد طلس ـ مصر والشام في الغابر والحاضر ص ٨ وما بعدها .

(٢) عادل الغضبان ـ نجيب الحداد ص٩ ـ ومن أولئك الشواذ أصحاب بعض الصحف التي كانت ألسنة للمحتلين الانجليز والطامعين الفرنسيس ، والغزويين الأمريكان ـ كأصحاب الاهرام والمقطم والمقتطف وسواها .

وقد حدثني الشيخ محمود محمـــد شاكر عن بعض هؤلاء « الشواذ » وكيف كانوا عيوناً للإنجليز على الثوار المصريين والقوميين العرب من أبناء جلدتهم عام ١٩١٩ م . ووصف لي حادثة بعينهـا يوم اقتحم جنود الاحتلال أحد المتاجر المقفلة ـ في ميدان ابراهيم باشا ـ على بعض المجاهدين ، فقتلوهم هناك جميعاً نتيجة دسيسة دنيئة من أولئك « الشوام » الشواذ ! . .

أول من يزري على خائن — من يرغب الخائن ان يكرما
ومن ير المظلوم يرجو هنا — ظالمه . . فاعتده أظلمـا
كصاحب الشاء سطا الذئب في — قطيعه بغيـة ان يطعمـا
فجاءه ينصحه مخلصـاً — أن يطبخ الشاة لكي تهضما !

كما انتظم الحركة الوطنية في مصر زعماء من أبنائهم ولدوا فيها . . وفي مقدمتهم زين الشباب أمين الرافعي وعبد الرحمن الرافعي مؤرخ الحركة القومية الحديثة في مصر (١) .

كما رفع راية الاعتقادية القومية فيها أديبنا العظيم مصطفى صادق الرافعي ليجعل من مصر منطلقاً عربياً جديداً ، ومناراً إسلامياً تعشو اليه الأمة من شتى أقطارها .

ذلك أن السفر الى أرض الكنانة والسكن فيها لم تقتصر على النصارى فحسب ، بل شمل الكثيرين من أبناء الديار الشامية من المسلمين ، منهم من ينشد التجارة كالحلبيين والخليليين ، ومنهم من يطلب العلم في معاهد الأزهر الشريف كالرافعيين ، .. ومنهم من ينال الحظوة والجاه والسلطان ، ..

على أن منهم أيضاً من كان يفر بحريته من اضطهاد الولاة العثمانيين له ولأفكاره كالحكيم عبد الرحمن الكواكبي والشيخ عبد الحميد الزهراوي ، ومحمد كرد علي وعشرات آخرين غيرهم ، . يلتمسون الدعة والأمن في القطر المصري الذي يتمتع بشيء من الاستقلال الداخلي عن الدولة العثمانية ، .. زادته الأيام من ثم بصبغة الاحتلال والحماية الفرنسية فالبريطانية ! ..

---

(١) لاحظ فصل الرافعيين الآتي .

فى هذه البيئة غير المتجانسة إجتماعياً كان لعاب الاستعمار يسيل لامتلاك أجزاء من الدولة العثمانية المترامية الأطراف ، وبسط نفوذ الدول الأوروبية عليها او اقتطاع بعضها ، . . فكان ما كان من التسلل والاحتلال ونكبة البلاد بالأرزاء الأخرى ! . .

ومن ناحية ثانية فقد سعى المحتلون أنفسهم للقيام ببعض مظاهر الاصلاح على ما تمليه عليهم فكرة الاستعمار نفسها ، ولو بأعادة هيبة الحكم بالبطش .. لصرف أبناء الأمة عن المقاومة ، التي كانت بسالتها تقض المضاجع منهم ، وتزيد من إحتياطاتهم أمام الحركة الوطنية .

ومن ذلك يقول « كرومر » في كتابه « مصر الحديثة » :

« لقد سرت روح جديدة الى سكان مصر . وتعلم الفلاح كيف يمعن النظر فى حقوقه . وأدرك « الباشا » المالك أن لمن يجاوره من الفلاحين حقوقاً يجب احترامها . . حتى المدير (المحافظ) لم يعد يجرؤ على استعمال السوط المعلق فوق رأسه ، والذي كان يلهب به ظهور الفلاحين ! . .

وكادت تختفي السخرة المجانية وذهب الرق من الوجود ، وانقضى اجل المرابين .. كذا .. وأصبح للقانون كلمة بعد أن كان القضاء يباع ويشترى ، . . كما أحكم توزيع المياه .. حتى عاد المصريون يحبون أرضهم بعد أن كانت مجلبة لنكدهم وضياعهم . . الخ (١) .

---

(١) عمر الدسوقي – عن كرومر – مصر الحديثة .

Eral - Cromer - Modern Egypt Vol - 11 - PP - 55 - 75 .

وكان قد افتتح سد اسوان على عهد الخديو عباس في ١٠ كانون الأول – ديسمبر ١٩٠٣ م –

وقد أراد المحتل بذلك وسواه أن يتودد للشعب ويظهر له أن الاستعمار رحمة للناس تخلصهم من ولاتهم المستبدين وأوضاعهم المتخلفة وحياتهم النكدة .

وزاد فى ذلك أن سعى الى نقل مظاهر الحياة الجديدة في أوربة يغري بها أبناء الأمة العربية ليتطلعوا إليها ! فيأخذوا عنها .. فيستطيع بذلك أن يصرف طموحهم نفسه اليه من ثمّ ! ..

ولكن كان من الناحية الأخرى أن شاع إقتباس هاتيك المظاهر وتعلق الكثير بصور الاجتماع الأوربي وعاداته وتقاليده الوافدة .. وكان لما تنقله « الأوبرا » والأجواق التمثيلية والغنائية من صور الحياة في العالم الغربي أثره في نفوس الناس بعامة أمام مثل هذه الفنون .

على أن هذا التطلع لم يقف عند الأخذ والأستعارة بل سرى فى جوانب الحياة الأخرى بمظاهر براقة ، وألوان حضارية جديدة ، وأنوار مدينة متألقة .

فقد « غرقت البلاد فى موجة من التفرنج امتدت الى أصول الأخلاق والتقاليد ، فعصفت بها ، حتى غدت المقامرة والرشوة والمحاباة والمضاربة بالمال - وسواها من الأدواء الأوربية - مستحكمة تنفث بسمومها في شرايين المجتمع ! ..

وعاد التقليد فى المأكل والملبس ، وفنون البناء والتظرف ، والأخذ من الحياة الأوربية ما يصلح وما لا يصلح مفتونين بكل جديد ! . حتى العمارات راحت تخترق السحاب بعيداً عن الدور والقصور وفنون العمارة العربية الجميلة (١) .

وتراخى ميل المحافظة على التقاليد ، .. وكان من أثر فتح النوادي المقاصف ، والألعاب الرياضية وسواها أن امتدت موجـــة أخرى من التقليد

---

(١) عادل الغضبان - نجيب الحداد ص ١٤ والمختارات .

تصيب اللغة العربية ، يخلط فيها مرتادو هذه النوادي ألفاظاً من اللغات الفرنجيات تظرفاً وتأنقاً ، ومحاولة لوك الكلام بلهجات خاصة لا تخلو من لوثة وميوعة إن خلت من التخنث والرقاعة والفساد ! .

فلا عجب أن نرى بعضاً من الأدباء يتصدى لهذه الظاهرة ، وينظر الى مثل هذا التغيير بغير قليل من الاشمئزاز والامتعاض ! فنجد نجيب الحداد مثلا يخاطب فتى العصر بقوله :

بالله قل لي يا « فتى العصر » ماذا تركت لربة الخدر ؟ ! (١)

ولا يرى أمين ناصر الدين الرقيّ في الخلال الطيبة التي تجري مع الفطرة الاسلامية والروح العربية فيقول :

تسمونه عصر الرقيّ وما ارتقى سوى الشرّ فيه .. لا الخلال الاطايب

ويستفهم محمد رضا الشبيبي مستنكراً بقوله :

خداع وكذب واقتراف وقسوة وظلم .. أهـذا العالم المتمدن ؟ !

أما أستاذنا الرافعي فلا يرى الشرقي قـد أخذ من التمدين العلمي شيئاً ، وإنما سلك اليه سبيل التقليد الرقيع في « التمدن الأنثوي » . وهو مصطلح ساخر حاول فيه نعت العادات المستهجنة في التظرف في الأزياء والرقص والسباحة وما إليها ، فقال عن شبان الجيل :

تمدن والتمدن ما رأينا رذائل تشترى نقداً ودينا
وأخلاق بهـا ضحكت علينا لدن ذكرت تمدننا الأنام .. (٢)

---

(١) عادل الغضبان ـ نجيب الحداد ـ المختارات .

(٣) الرافعي - النظرات ج ١ ص ٤٣ .

ثم يعود اليهم في قصيدة أخرى عن « التخنث » يقول فيها :

أفي الشبان قـد مسخ الشباب ؟ أم الدنيا اعتراهـا الانقلاب ؟!

رأيت لبعضهم أمراً عجـاباً وليس كمثـله أمر عجاب

يسيل « تخنثاً » ويذوب لطفـاً فهل فى أرضنا رجل مذاب ؟!

وفيـه من الذكورة نوع حسن تتم بـه أنوثتهـا الكعاب

وهمته الثيـاب فليس يمشي إذا ما سـار بل تمشي الثياب .

تراهم تابعـين لكل أنثى وبين الشبه والشبه انجذاب (١)

ولا عجب أن نراه بعد ذلك يدرك نقص التمدين الحديث ، فيقول من قصيدة :

مضى زمن كانت به حاجة الورى لبعث نبي فى يديه الرسـائل

وذا زمن مسَّت بـه حاجة الورى ليبعث فى هذا التمدن فاضل .. الخ

ومن هنا ندرك مثل الموقف المتزن الذي يقفه الرافعي من الحضارة والمدنية الجديدة ، فلا يرى لها نقصاً إلا من ناحية « الفضيلة » .

ولعل فى المقدمة البليغة التي كتبها لرسالة الأديبة الفاضلة (الزهرة) في « الدخينة » والتي يقول فيها :

أيها الشباب إنما الحياة هي القوة على الحياة ، وليس من شيء يعينكم على تهاويل هذا الزمن العصبي إلا قوة الأعصاب ، فاحفظوها سليمة باقية على قانونها الطبيعي ، وجنبوها المسكرات والمخدرات والمدخنات ، .. واعتبروا هذه الرذائل في صورها الحية .. فأنكم لن تجدوا فى أهلها إلا العبودية للمادة الضارة المستحكمة ،

---

(١) الرافعي ـ التخنث ـ الحال ـ ١٠ تموز / يوليو ١٩١٩ م .

وأنتم تريدون القوة الغالبة لا الخمول البليد ..»

.. وذلك ما يكشف لنا عن المفاسد التي غشيت البلاد، فاستبيحت فيها الحرمات، وأهريقت المسكرات، وفشت المخدرات، ولعب فيها القمار بغير دار!.. واجترىء على الفضيلة والقيم فى أكثر من ناد! .. ويفسر لنا ذلك حقيقة بعض المواقف من الحضارة العربية التي نعتت بالتزمت والرجوعية، .. وكان الرافعي أقدر معاصريه فى تحديد موقفه كما مر.

وأما المرأة فقد كانت هنالك بعض الأسر تتعهد بناتها بتعليم خاص، وتربية أسرية محدودة تتلقى فيها الفتاة مبادىء القراءة والكتابة، .. وقد تتقدم في مضمار الأدب (١).

ولكن السواد الأعظم من النساء كان في زاوية من الاهمال لا تصلح فيه إحداهن لغير الرتابة في «مصلحة الكنس والرش» في البيت (٢).

وكانت الارساليات التبشيرية قد تنبهت الى ذلك، فسعت سعيها من اجل إنشاء المدارس الأهلية والخاصة في أنحاء مختلفة من الأقطار العربية، .. وسارع اليهود - في العراق - بخاصة الى التعاون مع هذه الارساليات او المسابقة معها، حتى لم تلبث أن انتشرت في الأقطار المصرية والشامية والعراقية مدارس الراعي الصالح والقديس يوسف وبطرس وغيرها من الأسماء التي ترتفع فوق

---

(١) جرجي زيدان - آداب اللغة العربية - ج٤ ص ٢١٤، وماري زيادة (مي) - المرأة الشرقية - المقتطف ١٩٢٥م، وانظر كتابها عن عائشة التيمورية.

(٢) حسن السقطي - نقد ديوان الرافعي - الجامعة ج ٤ أيلول / سبتمبر ١٩٠٦ م

لافقات تلك المدارس مشيرة إلى مذهب الارسالية نفسه وتبعتها ! ..

ولما كان من آثار الحكم العثماني التخلف في المضمار التعليمي وتربية المرأة بخاصة ، فقد طغى اللون الغربي من ثم فى مناهج التعليم ، .. وكانت هاتيك المدارس قد حملت الكثير من مدنية الغرب وحضارة أوربة تحت شعارات العلم والتقدم والتربية (١) .

ثم إنه كان للمرأة من بعد أدب ، وارتفع لها صوت فى الصحافة الناشئة بين صدى التقاليد ومن لقاح الفكر الجديد (٢) .

ولكننا يجب أن ننظر الى حركة « تحرير المرأة » التي أخذت مكانها من التاريخ ، بوجهة نظر تحليلية جديدة تقارنها او تقرنها مع الأحداث التاريخية الموازية لها ، والتي وقعت في ايامها ، ..

إذ لم يكد صوت مصطفى كامل يرتفع بالحركة الوطنية الى مثالية نضالية جديدة ، .. وتنعطف دعوة الشيخ محمد رشيد رضا الى تعريب الخلافة ، . حتى كانت الصهيونية تسارع الى عقد مؤتمريها الأول والثاني في نفس الفترة الزمنية ! . ويخرج كتاب قاسم أمين في « تحرير المرأة » عقب المؤتمر الصهيوني الأول بعام واحد ! .. فنجد أن نقد كتابه هذا وما احتواه من دعوة الى مساواة المرأة في الحقوق والواجبات بالرجل ـ كما في أوربة ـ على زعمه ـ مستدلاً بذلك على نصوص من القرآن الكريم اعتمد في آيات لم يحسن تأويلها ، وأحاديث شريفة

---

(١) عمر فروخ ـ الخالدي ـ التبشير الاستعمار ص ٨٠ ، ٢١٨ .

(٢) أنظر مقالة الآنسة (مي) المشار اليها .

لم يقو على تخريجها (١) .

وقد شغل كتابه هذاك والذي أتبعه به (المرأة الحديثة) الفكر العربي في الرد عليه وعلى ما استطال فيه من دعاوى .. عن الالتفاف القومي من حول الحركة الوطنية أولا ، او الوقوف بوجه المؤامرة الصهيونية فى وقت مبكر ! ..

كما نجد الدعوة الى السفور ـ وهو الطور الثاني من الحركة ـ تقوم وتشتد أيام الحماية البريطانية حيث تكمم الأفواه ، وينزل رجال الحركة الوطنية ضيوفاً على المعتقلات والسجون ، .. وحيث تتمخض الدنيا العربية كلها بثورة تستكشف فيها قوتها للحياة المستقلة العائدة .

وفي الوقت الذي كان فيه العرب بين نيران الحرب ومضاعفاتها ، .. وانفجار وعد بلفور في قلب الثورة العربية تظهر مجلة « السفور » لتشغل الناس بفتنة من الآراء والاجتهادات ، تتوزعهم فى مذاهب وأحزاب ! ..

وقد يكفي أن نذكر ما كان من أمر الاتحادات النسوية ودعوتها الى رفع « نون النسوة » وحقوق الانتخابات في البرلمانات المزيفة غداة المناحة القومية التي أعقبت الحرب الثانية وضياع فلسطين ، والتي كان من ذيولها خلق « اسرائيل » دويلة لليهود ..

ولم تخل هذه الحركة النسوية نفسها من التخليط (٢) كما أن دعوة قاسم أمين نفسها لم تكن تتسم بالتصريح ، .. وكان من أثرها ما تعانيه المرأة العربية اليوم من حياة يكتنفها الضياع من بعض أركانها ، وتكاد تبعد بها التقاليد والتقاليع

(١) أنظر فلسفة الطائشة للرافعي بوحي القلم ، وهناك شبه كبير بين تناول الماسون لآيات الكتاب المبين ، وبين الأسلوب الذي تخذه اليها قاسم أمين!

(٢) انظر قصيدة الزهاوي ـ مزقي يا ابنة العراق الحجابا ...

الجديدة عن طبيعتها ، أو تصرفها عن فهم ماهية المرأة نفسها ، مما لا مجال للافاضة فيه هنا .

ومن ناحية أخرى فان سير الحضارة الانسانية نفسها قد تقدم بالمرأة ، يغشى بها الميادين الاجتماعية والعلمية والفكرية ، . معلمة وطبيبة ومهندسة وموظفة ، حتى لتزحم الرجل في بعض الأحيان في مجالي رزقه في العمل ، وحتى التجارة والتسويق ، .. بعد الذي انفسحت فيـه أمامها أبواب الدراسة في الجامعات والبعوث مهيئة لها الفرص جميعاً ! ..

ولكن كما لاثت التقاليد والعادات المستوردة والوافدة بالشبان ، .. فقد لاثت أخلاق أخرى بالفتيات ، ... وقد تجاذب الأدب الحديث هذه وهاتيك فى آراء وأحاديث فيها وجهات من النظر ، تجتمع في ضرورة « تربية المرأة » وإعدادها للحياة في كرامة .

فنجد محمـد حافظ ابراهيم يظاهر قاسم أمين في دعوته ، فيقول في قصيدته :

كم ذا يكابد عاشق ويلاقي   في حب مصر كثيرة العشاق

.. من لي بتربية النساء فانها   في الشرق علة ذلك الاخفاق

الأم مدرسة أذا أعددتهـا   أعددت شعباً طيب الأعراق

وكأنما يتدارك نفسه بقوله :

أنا لا أقول دعوا النساء سوافراً   بين الرجال يجلن في الأسواق

.. فتوسطوا في الحالتين وأنصفوا　　فالشر في التقييد والاطلاق (١)

ونرى معروف الرصافي يدعو الى « تربية البنات » في قصيدته :

هي الأخلاق تنبت كالنبات　　إذا سقيت بماء المكرمات

تقوم إذا تعهدها المربي　　على ساق الفضيلة مثمرات

ولم أر في الخلائق من محل　　يهذبها كحضن الأمهات

فحضن الأم مدرسة تسامت　　بتربية البنين أو البنات (٢)

ومن ثم نلاحظ الرافعي ، وقد خص المرأة من أدبه وفنه ما يعمر مؤلفاً قائماً بذاته ، ففي الملاحظة الأولى ندركه يبدأ من المسلمات الأولية فى مثل قوله :

الطفـــل أول ما يفكر فى التي　　هي أمه حتى يشب ويكبرا

وتراه يفكر بعد ذلك فى التي　　هي قلبـه حتى يحب ويشعرا

ويظل يفكر بعد ذلك في التي　　هي زوجه حتى يزيد ويكثرا

ثم نجده يفلسف رأيه في المرأة فيدعي أن « كل الانسانية فى نصف

---

(١) حافظ ابراهيم ـــ الديوان جـ ١ ص ٢٨١ ط ٢ .

ويظهر أن حافظ كان قـــد أدرك خطر اندفاعته في تأييد دعوة قاسم أمين وقوله قبل هذه القصيدة بعشر سنوات :

أقاسم إن القوم ماتت قلوبهم　　ولم يفقهوا في السفر ما أنت كاتبه

الى اليوم لم يرفع حجاب ضلالهم　　فمن ذا تناديه ومن ذا تعاتبـــه

. . الخ ديوانه ط ١ جـ ١ ص ٨٣ .

(٢) الرصافي ـ الديوان

الانسان » (١) ويحكم عليها مسبقاً بمثل قوله :

فحسبك نيلاً قالة الناس أنجبت   وحسبك فخراً أن يصونك باب
لك القلب من زوج وولدٍ ووالدٍ   وملك جميع العالمين رقاب (٢)

وفى الوقت الذي يستنكر عليها « التبرج » (٣) و « الحسن المصنوع » (٤) ويحذرها بمثل قوله :

لمن تتبرجين ؟! وذي سبيلٌ   وما هي أفق شمسك او هلالك
أما تخشين أنك في طريق ؟!   يرف بها الحرام على حلالك
وإن الناس قد شهدوا نساءً   سواقط كلهن على مثالك !!

ويسخر لها من دعاة « تحرير المرأة » بقوله :

أهم أحرار هذا الدين فينا ؟!   وما بلغوا عبيداً عند مالك ؟! (٥)

ثم إذا بنا أمام دعوة من أكرم الدعوات الانسانية والقومية ، تلك التي جاءت متميزة فى قصيدته « الشرق المريض » إنصافاً للمرأة ، ورفعاً لمكانتها الاجتماعية الى الأمومة الراعية حباً وكرامة حيث يقول مستبقاً أكثر الشعراء في الموضوع ، وكأنما ينظر عن معاينة :

---

(١) الرافعي - النظرات ج ١ ص ١٠٤ .
(٢) « - الديوان ج ٢ ص ٣٩ .
(٣) « - التبرج - الحال - ٢٠ شباط (فبراير) ١٩١٩ م
(٤) « - النظرات ج ١ ص٩٢ .
(٥) مذهب الإمام مالك في الحرية مشهور ، وانظر قصة (أمراء للبيع) للرافعي .

ربوا لذا الشرق يا قومي ممرضة تحنو عليه بأحساس ووجدان

تطبه روحها ممـــا ألمّ بـه فإن أقتل داء الشرق روحاني

يرى عواطفها الأديان خالصة إذا تلعب أهلوه بأديان

ربوا له الأم يا قومي فلو وجدت في الشرق ما طاح في ذل وإهوان

تلك التي ترفع الدنيا وتخفضها بطفلها فهو والدنيا بميزان (١)

الى آخره مما قصرت عنه سائر الدعوات الأخرى لتحريرها او تجريرها وتحويرها بذلك الصراخ الهستيري غير المتزن الذي ظهر به (انصارها) المهلوسون ومدعو المطالبة بحقوقها ، ممن لا تزال تجد أفواههم لها سوقاً سياسية !

* * *

ولقد كانت دعوات الاصلاح الاجتماعي والحفاظ على القيم العلياء والخلقية الاسلامية ، وتقويم التقاليد العربية قوميـــاً ، تجتمع أحياناً ، .. او تنفرد في صيحات أهل الذكر والفكر من الأدباء والشعراء ، .. كما تبرز في جمعيات ، او تظهر من شرفات بعض الأحزاب ، لتسير بموازاة الحركة الوطنية والقومية جنباً الى جنب .

ولعل من اسبق هذه الجمعيات في عصرنا الحديث تلك التي ضمت جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده فى « العروة الوثقى » ، .. والتي انتظم فيها نخبة من ابناء الأمة في شتى اقطارها .

وقد كان لجريدتها اثر بالغ فى عرض الحقائق الواقعة في الديار الاسلامية ،

---

(١) الرافعي - المقتطف - كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٢ م .

والاشارة الى مواطن البدء والمنطلقات في الاصلاح العام (١) .

ثم لما قامت في الأناضول جمعية « تركية الفتاة » التي انقلبت فيما بعد الى جمعية « الاتحاد والترقي » . . تألفت في الكنانة جمعية « مصر الفتاة » حتى اقام عبد الله النديم بمكانها « الجمعية الخيرية الاسلامية » ، والتي عادت من ثم ثانية على اسمها نفسه هذه الجمعية التي ضربت المثل في التعاونية الاجتماعية التي عملت عليها في سريتها وعلنيتها ، مما يقدر لها بأعجاب بالغ ، ولا سيما فيما نحمل به آثارها الى اليوم (٢) .

وقد جرت من ثم محاولات عدة لتأليف الجمعيات الاجتماعية في مختلف اقطار الدولة العثمانية ، ولكن كان من اعظمها دعوة وميثاقاً تلك التي قامت بدعوة من الشيخ محمد رشيد رضا ، وعرفت بجمعية « شمس الاسلام » والتي انطلقت في العقد الثاني من القرن الرابع عشر الحالي .

وأحسبها قد جمعت بين ما عرف من الدعوة الى « اللامركزية » من أجل قيام كيان عربي متميز في الدولة العثمانية ، . . وبين روح دعوة « العروة الوثقى » الاصلاحية ، .. كما ضمت اليها نخبة صالحة من كرام العرب ، الذين كانت لهم اصوات في اليقظة القومية مسموعة ، كالسيد عبد الحميد الزهراوي والشيخ رضا شرف ، .. وسواهم من شتى اقطار العروبة .

ولم تكن تقبل احداً من حزب « تركيا الفتاة » ولا تبيح لغير اعضائها الحضور في اجتماعاتها ، قصداً في العمل المثمر ، وخشية من اندساس السفهاء ! ..

---

(١) تاريخ الأمام محمد عبده جـ ٢ ص ٢٣٩ وما بعدها .

(٢) عمر الدسوقي - في الأدب الحديث - جـ ٢ ص ٢٨٨ وما بعدها .

وقد وُشِّحت مجلتها « المنار » بتاج يرمز الى تتويج الخليفة العربي الجديد ، وابتداء من السنة الأولى شرع رائدها الشيخ رضا بكتابة سلسلة مقالاته الجبارة عن « الوحدة العربية » (١) ، . التي تميزت بالعمق التاريخي والفقهي الموضوعية المحدثة في الحركة القومية ، ..

ومما هو جدير بالذكر أن شانئيها من « الماسون » والطورانيين والشعوبيين الآخرين ، قد تصدوا لهـا منـذ ايامها الأولى ، وناصبوها العداء ، .. فزعموا تآمرها على السلطة العثمانية تارة ، وخصوصيتها في (القومية العربية) وانتقاصها للخديوية (المصرية) اخرى ، .. ولا سيما بعـد ان امتدت فروعها في الاقليم المصري ، والديار الشامية والحجازية ، وكادت تؤتي ثمارها الاجتماعية والقومية .. حتى قيل أنها كانت تحيا باسناد من السلطان عبد الحميد نفسه ، في محاولته صرف الخلافة عن العثمانيين ! (٢) .

وقد وقفت لهؤلاء واولئك بالمرصاد تفضح إدعاءاتهم « البنائية الحرة » بما فيها تلك التي يستدلون عليها بآيات من الذكر الحكيم ، (٣) وتسفه آراءهم المختلطة والتي ليس فيها شيء من وضوح العقيدة او سلامة الهدف ٠

ونجد الرافعي يبعث الى منشيء المنار برسالة يعلن فيها افتتاح فرع لها في

---

(١) راجع هـذه المقالات إبتداء من عدد المحرم ١٣١٨ هـ ـ نيسان ١٩٠٠م .

(٢) حدثني بذلك خالي السيد علي البدري - رح - في معرض ذكرياته عن التهم التي ألحقها الإتحاديون به غداة تنازله عن عرش الخلافة ! ..

(٣) أنظر المنار - ذي الحجة ١٣١٧ هـ .

طنطا يطلق عليه « جمعية السنة الاسلامية » (١) إيثاراً قومياً لمصطلح السنة على وصف الشمس ! .. يقول فيها : « نظرت فى المسلمين فرأيت من ذُكر قد اسقط فى يده، وفُتّ في عضده، وأقلع وأناب، .. ورجع وتاب، .. فأعلنت في الناس ان يجتمعوا لينتفعوا، .. وجعلت المقر مسجد البهي ـ قدس الله سره ـ والميعاد يوم الخميس .. ثم كتبت ورقة عليها « جمعية السنة الاسلامية » وأعطيتها لانسان، فأقبل في البلد وأدبر ونادى فحشر . . الخ .

ومما هو جدير بالذكر ان جمعيات وطنية وقومية كانت قد قامت في الفترة التي أعقبت المطالبة بالدستور العثماني ـ في مصر وسائر البلاد العربية الاخري، وفى العاصمة نفسها (الاستانة)، ومن اشهرها المنتدى العربي، وجمعية الاخاء العربي ـ التركي والعربية الفتاة، والجمعية القحطانية والعهد .. وسواها (٢) .

ولكن الطابع السياسي كان يغلب على معظمها . وقد استطاعت فيما بينها ان تعقد المؤتمر العربي الاول في باريس عام ١٩١٣ م الذي صارحت فيه حكومة الاتحاديين بضرورة تطبيق نظام الحكم المحلي في الأقطار العثمانية ليكون للديار العربية كيانها المتميز واقعياً ولضمان المحافظة على الوحدة القومية للدولة . . الخ (٣) .

---

(١) الرافعي ـ المنار ـ المحرم ١٣١٨ هـ ـ أيار ١٩٠٠ م .

(٢) راجع في ذلك ـ جورج انطونيوس ـ يقظة العرب، وعزة دروزة ـ الوحدة العربية ـ، وحمدي طربين ومصطفى الشهابي وساطع الحصري وكلامهم عن هذه الجمعيات في مؤلفاتهم القومية .

(٣) راجع المؤتمر العربي الأول ـ طبع دار الكشاف ١٩٢٩ م .

ومن الجمعيات ذات الصفة الاجتماعية الصرفة ، تلك التي ألفها النازحون السوريون في مصر والتي سميت بجمعية (الاحسان السورية المصرية) .. والتي إشتهرت بأسواقها الخيرية السنوية واحتفالاتها التي كانت تجمع فيها الكتاب والشعراء والخطباء ليتحدثوا في المجالي الاجتماعية والتعاونية ..

وكان الرافعي كالخطيب الدائم لها في كل احتفاء او مهرجان ! ..

ومن فوق منبرها ارسل آراءه الاجتماعية وميز دعوته الانسانية وكان يقارن بين ماوصلت اليه المذاهب الاجتماعية الكبرى في اوربة وبين ما نستطيع اخذه منها ونطبعه بطابعنا القومي الذي يميزه ، .. بدراسة احوالنا وأوضاعنا الاقتصادية والقانونية ..

ومنها كانت دعوته الى الاشتراكية العلمية والاحسان الاجتماعي .. وتعزية المساكين من المعذبين في الارض . كما سنفيض به في دراستنا الموضوعية المحدثة في ادب الرافعي (١) .

ثم لما كان من نتيجة الحرب ، فقد توقفت كثير من هذه الجمعيات واندثرت ولكن لم تكد تلوح في الافق انباء إنتصارات الجبهة الوطنية ـ التركية في الاناضول حتى عادت بعض العناصر التي تتشبث بالولاء العثماني الى تجمع جديد في (الرابطة الشرقية) التي حاولت الاتصال بالخلافة ـ وكانت لما تزل

---

(١) راجع الرافعي في الديوان جـ٢ ص ٢٦ الهامش ، وسركيس ـ جـ٧ تموز (يوليو) ١٩٠٥م . وتاريخ آداب العرب جـ ٣ ص ١٣٦ ـ المقتطف ١٩٠٩ م ... الخ ، المقتطف أيار (مايو) ١٩١٢ م ـ المساكين ص ٧٤ ، المقتطف أيلول (سبتمبر) ١٩١٤ م .

قائمة في الاستانة التي احتلها الحلفاء ! .

ولكن تنفيذ معاهدة سايكس ـ بيكو في تقسيم ديار الوطن (١) ، قد أوجد كيانات جديدة في الأقاليم قامت بحدودها معوقة على الرابطة ما تهدف اليه من إعادة ربط الأوصال .. كما أن مصطفى كمال نفسه قد أقدم على إلغاء حكومة الخلافة ، والاكتفاء بحكومة انقرة ، مما خيب الآمال من جديد وبعثر قوى التجمع .. ولا سيما حين أتبع ذلك الاجراء الأحمق بسلسلة من الحماقات الاخرى تقطع كل صلة للترك بالاسلام ، حتى حروف اللغة العربية ، ويوم الجمعة الفضيل (٢) مما كان لها اسوأ الآثار في حياة الأمة وشعوبها الاسلامية بعامة .

أما الحياة الحزبية فهي ظاهرة اجتماعية جديدة ، حاولت القيام على الطريقة المتبعة لمثلها في فرنسا بخاصة ، .. وكانت مصر أسبق البلاد العربية في هذا المضمار .

فقد تنادى بعض المخلصين عقب فشل الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي للمقاومة والمطالبة بحقوق مصر في السيادة الوطنية ، .. وظهر مصطفى كامل ١٨٩٢ م ـ ١٩٠٨ م بحركته التي عرفت فيما بعد في تجمع الحزب الوطني والذي تميز بثبات مبادئه ، وإخلاص رجاله ووضوح اهدافه وغاياته طيلة ستين عاماً من وجوده

ولكن فئات من المثقفين الجدد من « ذوي المصالح الخاصة » ـ كما كان يحلو لهم أن ينعتوا انفسهم ـ ، تجمعت هي الاخرى لتؤلف حزباً سياسياً يسمى على « الامة » وليكون موازياً للحزب الوطني .

(١) راجع المعاهدات والوثائق ص ٦٢ .

(٢) « عبد القديم زلوم ـ مصرع الخلافة ـ .

وكانت رائحة الانفصال عن الدولة العثمانية . وموالاة الانجليز والانفراد بمصر .. لا تختفي عن بعض اتجاهاته ، ولا سيما عند بعض اعضائه الذين كانت لهم صلات بالمحافل الماسونية والارساليات التبشيرية المنتشرة في البلاد ،.. والتي كانت تغذيها الوكالات والقنصليات الاوربية بالاضافة الى نشاط دار الاعتماد البريطانية في صفوفهم ! . (١)

على ان الحزب الوطني ومصطفى كامل بالذات لم يكن ليشغل نفسه بمثل المرضوعات الجانبية التي يحاولها هؤلاء ،.. ومضى في دعوته قدماً ، مؤمناً بالجامعة الاسلامية ، ومقراً بالسيادة العثمانية وعدم جدوى الانفصال بالاقليم المصري ، ودعا - فيما دعا اليـــه يومها - الى إنشاء مدارس الشعب الليلية ، التي تطوع للتدريس فيها رجال الحزب وشبابه (٢) .

وكذلك دعا في جريدته (اللواء) الى إنشاء (الجامعـة) في (فكرة وطنية انشق لها مكانها في الحوادث ، وبذلت لها الامة ما بذلت ، وشمرت لها وجدّ بها الجد (٣) .

ولكننا نجد ان (حزب الامة) يلقف الفكرة ،.. ويضع عينه عليها من اول يوم ، حتى لقد خرجت (الجامعة) تهادى من المحفل الماسوني في القاهرة (٤)

---

(١) محمد محمد حسين - اتجاهات الوطنية - جـ ١ ص٧٣ .

(٢) عبد الرحمن الرافعي - مذكراتي - ص ١٦ .

(٣) الرافعي تحت راية القرآن - ص ٦٨ .

(٤) عبد اللطيف حمزة - الصحافة والأدب - ص ٧٨ .

يزفها المثقفون ـ المتمدنون من ذوي المصالح الخاصة باسم الامة !

ثم مرت الحزبية بفترة ركود عقب الانقلاب العثماني وإعلان الحماية الانجليزية على مصر ، وأصاب زعماء الحزب الوطني الاعتقال والنفي .

وما كادت الحرب تضع أوزارها حتى عاد بعض هؤلاء ليجتمع من جديد باسم (الحزب الدمقراطي المصري) (١) يزحمون به تجمع (الوفد المصري) الذي كان مفروضاً أن يمثل الأمة فى جميع اتجاهاتها الوطنية ، ومطالبها في السيادة القومية ولا سيما بعد اندلاع الثورات فى مصر والأقطار العربية .

ولكن ما لبث (الوفد) أن اقتصر على فئة اخرى من (ذوي المصالح الخاصة) تعمل على حجب الحزب الوطني الذي يقاوم الاحتلال ويرفض الحماية ولا يقبل التبعية بديلاً عن الجلاء ! .

وما كاد دستور ١٩٢٣ يظهر حتى انفرط من هؤلاء وأولئك فئة اخرى تزعم الحرص على (الدستور) وتنعت نفسها بحزب (الاحرار الدستوريين) وتلجأ الى الصحافة والنشر تذيع فيها دعواتها بمجازفة وغير قليل من المبالاة حتى لم تخلُ واجهاتها فى الحقيقة والواقع من محط لنزول الأفكار الوافدة . وكأنما فرّخ فيها الاستعمار فكرياً بواردات أوربية متفرنجة تزعم تجديد الحياة والثقافة . والتغريب بمصر .. أو شرنقتها عن الأمة العربية فرعونياً .

ولم تقف مضاعفات الحبالة السياسية في مصر الى هذا الحد وإنما اتبع موقف الوفد وانفر اديانه ـ ولا أقول انانيات زعمائه ـ الى الانشقاق في صفوف السياسيين غير مرة أدت فيما بعد الى ظهور احزاب وفئات أخرى كالإتحاد

---

(١) راجع أدب الثورات لمحمود صادق ص ٢١ .

والشعب - ثم الكتلة السعدية .. الخ والتي ما برحت تتنازل عن أهدافها القومية وواجباتها الاجتماعية وتتعلق بالصورة السياسية حتى غدت الحزبية نفسها مرادفة المغامرات السياسية حسب ! .

ومما يلاحظ أن الحزب الوطني كان الوحيد بين هذه الأحزاب فى الثبات على المبدأ ، والقيام على رسالته الوطنية والقومية ، وتمسكه بالأهداف العليا للأمة، وإن هبط مستوى نشاطه الاجتماعي على توالي الايام ..

وقد لاقى زعيمه الثاني ـ محمد فريد ـ النفي والتشريد ، كما تلقى زعماؤه الآخرون الاعتقال والاهمال عقب إعلان الحماية ، ..

وبسبب من ثبات أمين الرافعي وإخلاصه .. تلقى إعتداء « مليشيا » الوفد المسماة بجنود سعد !..

وما انفكت الحزبية والأحزاب في الوطن العربي اجمع تلتف حول نفسها ، وتشقق صفوف الامة بمذاهبها وأفكارها وعجاجات رجالها ،.. وقد تنبه الرافعي الى ذلك فى سبق فكري لم يكن لمعاصريه من الأدباء والشعراء ، .. فقال من قصيدة :

تباين ما بين الرجال وكلهم   على زعمه بالأمر خير كفيل
فياعصبة الأحزاب ردوا حلومكم   وجروا على غير الثرى بذيول
وما أنتم في أمر شيء من الهوى   فما بال واش بينكم وعذول ؟!
وأحييتموها سنة جاهلية   عداء أصيل فيكم ودخيل

الى أن يحضهم النصيحة بقوله :

تحلّوا بأمر العلم واستجمعوا له قواكم فأن العلم خير دليل (١)

وكأنما كان ينظر من لوح الغيب حين يقول بعد ذلك بسنوات :

خلُّوا عن الشعب حراً وانظروا تجدوا بمصر ميزان هذا الشرق يعتدل (٢)

.. إذ ما كادت تندلع ثورة الجيش في ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢ م ، .. حتى رفعت عن الشعب تلك السلاسل التي أكثرتها المذهبيات الحزبية ، بعد أن افتضحت حقيقتها أمام الأمة ، وكادت تصرفها عن حقيقتها الاجتماعية .

* * *

وإزاء ما أحدثته حركة الأحزاب في الصحافة والفكر بعامة من هزة لا تخلو من تشكيك إعتقادي ، وضلال مبين ، .. يقتاده بعض المتفرنجين من واردات أوربة ، أمثال سلامة موشي ومبتسراته في الترجمة ونقل الآراء من غير نضج ولا تمثيل ، وطه حسين وإنتحاله لأساليب البحث ، وإلياس أبي شبكة ودعوته المتفرنسة . الخ حيث لم يكن يتصدى لهؤلاء وأولئك من ذوي الاتجاهات الأدبية والفكرية المشبوهة ، والتي لا تستوي مع النضج في قيم علمية تصيب هدفاً ، غير رجلين إثنين لم نكن أصلهما من مصر (١) .

أما احدهما فهو الامام مصطفى صادق الرافعي ، الذي نازل دعوات رجال حزب الامة الى العامية (٣) ووقف في وجه « تفرنجاتهم الدمقراطية » وما حبذته

---

(١) الرافعي - النظرات - ج ١ ص ٢٣ .

(٢) » - المقطم ١٩ ربيع الأول ١٣٤٨ م .

(٣) أنظر الرافعي - البيان - ١٩١٢ ، المعركة .

المرأة من الحياة الجديدة (١) ، .. وسفّـه كلّ مفتريات مواليدهم « الأحرار » في محاولة البحث والنقل ، .. وأظهر للامة حقيقة الامانة العـلمية في الترجمة والأخذ ، تلك الأمانة التي لم يكن يتحلى بها رجل منهم ولو بمقدار (٢) .

وأما الثاني فهو الامير شكيب أرسلان ، وقد كان له من منزلته القومية مجال الهيبة والرأي ، وقـــد مضى يظاهر الرافعي فى ثورته المؤمنة ، ومقاومته الباسلة .

وقد مكّن لهما وانضم اليهما رجل ثالث من الشام أيضاً هو الشيخ محب الدين الخطيب ـ حفظه الله ـ في مجلتيـه « الفتح والزهراء » بخاصة ومسلسلته « الحديقة » .. وكان لوعيه العلمي واستيعابيته للتاريخ ظهيراً عظيماً !..

ومما يغبط عليه حقاً أنهم وجدوا في مصر نفسها المجال الأرحب لمواقفهم القومية النبيلة الرائعة .

ويصف لي أحد من عاصروا تلك الايام كيف أن الانسان المصري كان يقف مشدوهاً او كالمستفهم السائل أمام ذلك البحران الفكري ، والصراع الحاد ، الذي يستطيع المساهمة الفعالة فيه ، ولا المحاولة الجدية في وقت ذلك الاتجاه المضلل المريب ، الذي احتسب عليه فرعونياً تارة ، ويونانياً أخرى (٣) .

---

(١) انظر الرافعي ـ الرسائل ص ٥٧ .

(٢) أنظر الرافعي في ـ المعركة تحت راية القرآن ـ وردوده على موشي وطه حسين .

(٣) راجع الحصري ـ الإقليمية ـ في مناقشته لطـه حسين وكتابه ـ مستقبل الثقافة بمصر ـ .

حتى ليقول الرافعي :

إنا لفي زمن يجيش بفتنـــة   في الدين تأتيه من الأركان
في كل دهر كان إبليس يُرى   فرداً .. وفي ذا العصر إبليسان !!(١)

ولكننا نجد من أثر هذه المواقف أن نشأت جمعية الشبان المسلمين في عام ١٩٢٧ م التي حظيت بالالتفاف الاعتقادي من حولها ، .. وانطلق منها نشيد الرافعي « شباب العالم المحمدي » وقد فاز بالجائزة الاولى ليصبح من ثم شعار الثورة الفكرية المؤمنة ، والذي يقول فيه :

يا شباب العـــالم المحمدي   ينقص الـكون شباب مهتدي
فأروه دينـكم كي يهتـدي   دين عقل وضمـــير ويـد (٢)

وكان من أثر مواقف الرافعي الانفرادية ، وعضد أرسلان ، ومساهمة الخطيب ، واقتصار « الشبان المسلمين » على الحفلات التاريخية والنبوية ، أن فكر معلم شاب في الاسماعيلية ، بضرورة تنظيم دعوة كبرى للاسلام في العصر الحديث ، وهكـذا انتظمت جمعية « الاخوان المسلمين » التي عمرت الاعتقادية القومية ، وظهرت على الملأ بصورتها العربية المؤمنة التي راحت تسابق انتشار جمعيات الشبان المسلمين فى مختلف الأقطار العربية والاسلامية (٣) .

ولـكن حدث أن أغريت بالعمل السياسي وساومتها الاحزاب ..

---

(١) الرافعي — المقطم — ١ رجب ١٣٤٥ هـ - ديسمبر ١٩٢٦ .

(٢) الزهراء - ج ٤ ص ٦١٢ .

(٣) أنظر الرافعي في قصة الأيدي المتوضئة - وحي القلم — ، وراجع الدكتور اسحق موسى الحسيني — الإخوان المسلمون .

فكانت تنتقل من طور الى طور حتى كانت الحرب الثانية ومأساة فلسطين ..
ولم يكد يستشهد رائدها الشيخ حسن البنا عام ١٩٤٩ م حتى دب اليها الوهن.
وتحولت الى جماعة حزبية حملت نفسها ودعوتها بسلسلة من الحماقات. يقدم
عليها موتورون وحاقدون في صفوفها حتى انتهوا بهـا الى ما لا تحسد عليـه
من مأساة !

ومما هو جدير بالذكر ـ بعـد أن غدت الدعوة القومية العربية عنوانًا
إجتماعيًا ضخمًا في الحياة النضالية والاعتقادية ـ أن جماعة من الطلبة العرب كانت
تنتظمهم دار العلوم المحروسة في تلك الايام تنادوا فيما بينهم الى تأسيس جمعية
يطلقون عليها اسم (الوحدة العربية) ذلك الشعار الوليد في الدنيـــا السياسية
للأقاليم العربية بعد الحرب . .

وهكذا تألفت من صفوف الطلبة تنتظم فتحي رضوان وصالح جودة
وعمر الدسوقي من مصر وكمال ابراهيم وبديـع شريف من العراق وتيسير
ظبيان وسامي السراج من سورية .

وقـــد اختارت هذه الجمعية المرحوم محمد علي علوبة ليكون رئيسًا لهـا
لعروبيته الظاهرة ولا سيما بعد اشتراكه بمؤتمر التوفيق بين السعوديين والزيديين
عقب حرب عسير ونجاحه في المؤتمر .

وبقيت هـذه الجمعية حتى انتقل صفوة أعضائها الى المملكة المتحدة طلبة
بعثات علمية فعادوا يتجمعون هناك ويحيون مع « الوحدة العربية » هدفًا وفكرًا
ويناصبون الاستعمار والصهيونية حربًا لا هوادة فيها وكان يتناوب على منبر
الخطابة في « هايدبارك » كل من الاستاذ عمر الدسوقي وعبد الرحمن البزاز

ويحمون أنفسهم بأنفسهم من اعتداء اليهود (١) . وقـد ضمت اليها عبد العزيز الدوري ـ أمين سرها فيما بعـد ـ وعز الدين التنوخي وقاسم البزركان وإسحق موسى الحسيني ... ولكن حدث أن تفرق شمل بعض هؤلاء الطلبة عائدين بعد اندلاع الحرب فانتهى بها الأمين الى الحل عام ١٩٤٣ م .

ولعل ظهور هذه الجمعية من الطلبة في دار العلوم بمصر أولاً في تلك الايام هو الذي شجع المؤرخ القومي الكبير أمين سعيد والمجاهد عبد الرحمن الشهبندر ومحمد علي علوبة وغيرهم على الإقدام في إنشاء (الرابطـة العربية) في مصر التي دعت فيما بعد الى قيام دولة العرب القومية الموحدة .

وهذه الرابطة هي التي أحيت ذكرى الامام الرافعي الاولى ، فأقامت لها أروع احتفال (٢) .

* * *

وهكذا كانت البيئة الاجتماعية ، وهي تتلقى الأنواء هائجة عاصفة حينـاً وثائرة متمردة أحياناً ، وضائعة بين التعاسة والشقاء ، يخيم عليها الصغار والبلاء في كثير من الأحيان ؟

---

(١) عمر الدسوقي ، وعبد الرحمن البزاز ، وبديع شريف ـ في أحاديث خاصة ،وانظر الرسالة ـ ٣٩٥ / ١٩٤١ م .

(٢) أنظر ـ الرابطة العربية ـ ١٠٠ ـ ١٨ ربيع الأول ١٣٥٧ هـ ـ ١٨ أيار (مايو) ١٩٣٨ م .



الحياة الثقافية والعلمية

كان للفترة التي سبقت النهضة الحديثة في التاريخ العربي حسنات ، قصر المستشرقون عنها معرفة ، فغفلوا عن الوقوف عليها بأمانة علمية ، .. ولم يكلّفوا أنفسهم بتعدادها على الأقل ، .. فبقيت « مظلمة » عليهم ، وشايعهم في ظلمها غير قليل مؤرخي الحضارة وجوانبها في تلك الفترة أيضاً !..

فإذا نحن سلمنا في الحكم بجدبها في القرائح والأذهان ، .. ورأينا معهم وقوفها دون الاجتهاد والابداع والابتكار ـ من غير إعتبار بالظرف السياسي ، والحال الاجتماعية التي مرت بها واكتنفتها من جميع جهاتها ... وأخذنا بوجهات النظر التي تنعتها بالجمود وتتهمها بالتخلف ، وترميها بالضياع !!.. فلا يمكن بحال أن ننكر ذلك الدور العلمي الذي قام في أثنائها بعمليات التجميع الخطيرة في المعالم والتراجم والمحتويات (الفهارس) ! ... أو ننقصها بعض ما اتصفت بـه من الهمة فى الحفاظ على التراث بالايجاز والتلخيص ، .. أو أن نتحيفها فيما عانته عملياتها هذه مع العلوم والفنون بين المتون والشروح مما كان بعض أسس التعليم

ووسائل الاعداد في النهضة العلمية القائمة ! ..

وحسبنا أن نذكر على سبيل المثال الامام ابن حجر العسقلاني ، والامام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي المتوفى عام ٩١١ هـ من بين أعلامها الكثر (١) ، . وننظر في أسماء مصنفاتهما ، وجداول مؤلفاتهما ، وثبت مختصراتهما وتجميعاتهما ، . لندرك مبلغ المجاهدة التي عانتها تلك الفترة في الحفاظ على روح الحضارة العربية ، ومادة الشريعة الاسلامية وعلوم القرآن العظيم ، وما يتصل بالفقه بخاصة من علوم الحياة والطبيعة ،.. وكذلك فنون اللغة والآداب جميعاً .

وما زالت الى اليوم بعض هاتيك المصنفات في الطب والحكمة ، والكيمياء والفلك والحيل (الميكانيك) تتداول ، ويجد فيها بعض علماء الاتقان العلمي (التكنولوجيا) مادة غنية بالمعرفة والمعلومات .

لقد كانت الحياة العلمية تسير في نمو داخلي تغلب عليه البساطة ، ويتكلف له أصحابه من وسائل المعرفة تلك الخصيصة العربية في الحفظ والنص والمراجعة،.. وإن لم تكن تخلو من تعقيد في بعض الأحيان .

وما كانت مدافع الحملة الفرنسية على مصر غير شارة الخطر الداهم (٢) الذي ينبه الأذهان ، ويثير الشعور القومي ، ويشحذ الهمم للايمان بكرامة الحياة أولاً ،.. على هدى من المجالي الحضارية ، وبصيرة من الجوانب العلمية ، وينهض بالأمة على أسلوب المقارنة بين ما تحياه بواقعها المتخلف ، وما تراه من الحياة

---

(١) راجع في ذلك معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة والأعلام للزركلي وغيرها من كتب التراجم .

(٢) أنظر عمر الدسوقي ــ في الأدب الحديث ــ جـ ١ ص ١٣ .

الأوربية العجيبة ، التي تحفل بأطايب العيش والسعة والرخاء .

فقد كانت تتجلى هاتيك المشاهد من صور الحضـارة الأوربية بالحياة الثقافية ، التي يتملاها العرفان كما كانت تسعى بها جيوش الاحتلال في ادوات العلم والأعتدة معاً ، على الشكل الذي سوّغت به « الثورة » الفرنسية ، والحركة التبشيرية ، .. لعمليات الاستعمار عبر القارات (١) .

وعلى الرغم من قصر المـدة التي قضتها هـذه الحملة الفرنسية (١٧٩٨ م ـ ١٨٠١ م) ، فقد تركت لها آثاراً في الشرق العربي ومصر بخاصة لا تمحى من الذاكرة التاريخية ، .. حتى لقد زعم بعض المؤرخين أنها كانت حملة علمية أكثر منها حربية للنفوذ والاستعمار (٢) .

ولـكن مثل هذا الزعم يقابله الرأي الحصيف الذي يقول « لا يمكن أن يكون للحملة الفرنسية ـ وصفتها عسكرية إعتدائية ، وهدفها الاحتلال ـ أن يكون لها لمسة النبي أو مسحة الرسول في البعث » خلال ثلاث سنوات ما كفّ الشعب فيها عن صنوف من المقاومة (٣) .

فمن الناحية الاخرى نلاحظ ما كان من اتفاق الآراء عند ذوي الحـل والعقد في الأمة ، وسواهم من العلماء والفضلاء .. على أن المعرفة هي سبيل النهضة والحياة الحضارية التي تلحق بركب الأمم المتقدمة .. فلا بـد من وسائلها ، في

(١) عمر فروخ ومصطفى الخالدي ـ في التبشير والاستعمار ـ وكذلك جون غنتر ـ شخصيات عالمية ـ الجمهورية ١٧ آذار ١٩٦٥ م .

(٢) محمد رفعة ـ تاريخ مصر السياسي ـ ج ١ ص ٣٩ .

(٣) راجع اسحق موسى الحسيني ـ محاضرات الموسم الثقافي في الكويت ص ٢١٠ .

إحياء التراث القومي ومدارسته ، والقيام بعمليات نقل الآثار الحضارة العلمية المحدثة الى اللغة العربية (١) .

ومن هنا بدأت تتعدد العوامل الاساسية للنهضة العربية الحديثة ، وتختلف السبل في قيام الحياة العلمية والثقافية عند العرب من جديد .

فنجد الاهتمام بالطباعة لانقاذ التراث من عمليات النسخ وما يلحقها من تحريف وتصحيف ، فيبتكر الشماس عبد الله زاخر في لبنان شكلا فريداً المطبعة وطريقة الطبع والحبر .. وما يلحقها (٢) ، قبل أن تصل مطبعة نابليون الى القاهرة بسنوات .

ويجلب الوالي مدحت (باشا) الى بغداد مطبعة الزوراء .. وتقوم من ثم المطبعة الأميرية ببولاق القاهرة وإن ما صنعته في إخراج أمهات الكتب العربية في العلوم والفنون والتاريخ والادب والشعر يعد من طلائع الثورة في الكتاب العربي ، مما كان أثره بالغاً في عمليات إحياء التراث القومي ، والمسعى الحميد فى توفير الكتاب لمجالات أوسع في صفوف الأمة وأبنائها .

وما لبثت أمهات الكتب النادرة ، وفرائد المصنفات بالعشرات أن أصبحت فى متناول الايدي ، كالمثل السائر لابن الاثير والأغاني لأبي الفرج الأصبهاني و التاريخ لابن خلدون ، والعقد الفريد لابن عبد ربه وإحياء علوم الدين للغزالي ، والتفسير للرازي ، والأمالي لابي علي القالي ، ووفيات الأعيان

---

(١) راجع رشيد رضا ـ الوحدة العربية ـ المنار ـ المحرم ١٣١٨ هـ .

(٢) أنظر ـ الكتاب ـ أعلام النهضة ـ ٣٢ م ٦ ج ٦ .

لابن خلكان ، ومئات غيرها مما لا يمكن حصره عداً ،.. الى جانب مئات اخرى من الدواوين لمشاهير شعراء العربية في شتى عصورها ، وكذلك كتب التراجم والطبقات (١) .. الخ مما سهل على الشادين فى الادب والمطلبين للحكمة ، والمغرمين بالفنون الاطلاع عليها ، والحفظ منها ، والبحث فى مختلف مجاليها العلمية والتاريخية ، والقدية التقويمية .

ومما تجدر الاشارة اليه ، أن تلك الطبعات الاولى لهـذه الأمهات ، ما زالت تتصف بالأصالة ، وتعـد صورتها كالأساس العلمي عند المراجعة والبحث ،.. مما يدلنا على أن علماء عاملين ، كانوا يقفون على عملية إخراجها ، متوخين القصد العلمي فى حفظها من غير خطأ مطبعي أو تحريف أو تصحيف ، .. وتدلنا إشارات الرافعي في مصنفه العظيم « تاريخ آداب العرب » على عظم ذلك التراث كمّاً وكيفاً ، كما توضح لنا إرشاداته للشيخ ابي رية فى رسائله عن روح الانتقاد التي سار عليها طلب العلم عائداً !

ثم أنه نشأت مطابع أهلية اخرى كدار إحياء الكتب العربية للحلبي فيالقاهرة والهاشمية بدمشق والعربية ببغـداد ، وغيرها من أمهات دور النشر والطباعة القائمة اليوم كدار المعارف ، ودار الهلال .. ولكن كثرة هـذه المطابع الأهليـة وتحولها الى محال تجارية ، قد أفسد مثل المهمات العلمية والقومية فى بعث التراث ونشره ،.. فقد عاد الجشع المادي يؤذي أخراج الكتب ، ويبدل من صورتها العلمية ، وربما شحنها بأخطاء مطبعية تحتاج معـه الى المراجعة والبحث والاعداد العلمي للأثر ، وهو ما يقوم الآن بحركات بطيئة ، ودراسات جامعية ، وأخرى

---

(١) راجع الدسوقي ـ في الأدب الحديث ـ ج ١ ص ١٣ .

علمية نتمنى لها الحياة الأوفى والأسلم !..

والى جانب ظهور الكتاب العربي المطبوع ، وانتشاره ، توسعت حلقات الدرس والمتابعة ، وازداد الكم في التعليم ، والكيف في الاعداد والتوجيه ، .. وتعددت وسائل المعرفة ، ومهدت سبلها ، فكان له أثره البالغ في النهضة التعليمية والحياة الثقافية بعامة .

وكان الأزهر قد لقي في الشيخ محمد عبده طاقة نفاذة ، وقد سعى لتطوير التعليم وتهذيب المنهجية التي سار عليها آماداً طويلة ، وذلك فيما اشترعه من سنن الأنظمة المحدثة ، والتي كان يؤمل فيها الأثمار في المجال العلمي ، والاسراع فى دفع عجلة التقدم العام .

ويلحق بالأزهر كل معهد كان يجري معه فى أشواط متشابهة ، ومناهج تكاد تكون متوافقة في المفردات ، كالمدرسة العادلية فى الشام ، وحلقات الصحن العلوي في النجف ، وجامع الامام الأعظم في الأعظمية ببغداد ، وجامع الزيتونة في المغرب ، وسواها ..

* * *

وقد كان لقيام « دار العلوم » في القاهرة عام ١٨٧٢ م ، التي رعاها الشيخ علي مبارك ناظر ديوان المدارك ، .. واهتمامها بعلوم الشريعة الاسلامية وآداب اللغة العربية والعلوم الحديثة ـ الأثر البالغ في الانقلاب بالمنهجية الدراسية مما أدى من بعد الى اتساق الوعي القومي في الدنيا العربية كلها .. على هدى من أهداف نبيلة وقصد فيها ، وبصيرة من التراث العريق وتطلع بمحاولات علمية مستحدثة في الدراسة ترتفع بالمستوى الثقافي عامة وتمهد

ليقظة فكرية تؤتي أكلها العلمية بعد حين (١).

وكان الامام محمد عبده يأمل أن يتم على طريقها توحيد التعليم وتجديد مناهجه وسموه، فقد كانت عنده « تصلح أن تكون ينبوعاً للتهذيب النفسي والفكري والديني والخلقي .. » (٢).

وربما حسب المسئولون يومها أنها المحاولة التي تسمو على المنهجية التقليدية في المعاهد الدينية الملحقة بالمساجد وتظهر في الوقت نفسه أمام غزو الانظمة والمناهج الجديدة التي جاءت بها معاهد التبشير والمدارس الأهلية التي قامت على الغرار الاوربي المحدث.

وحسبنا أن نذكر هنا أن السلطان عبد الحميد ـ رح ـ كان قد أشار بفتح دار مماثلة لها في سامراء درءاً لخطر شعوبي كان يتسلل الى العراق في ذلك الحين(٣).. وسعى الى عضد معاهد أخريات في الديار الشامية تقف بأزاء مدارس النصارى التبشيرية التي تغذيها حكومات المذاهب المختلفة في أوربة . والتي كانت تغذ السير في انتشارها وتدخل البرامج التعليمية المحدثة واللغات الاوربية وتحاول تدريس بعض العلوم بها (٤) بالرغم من وجود مثل « المدرسة الانجيلية » ببيروت التي اتخذت العربية لغة التدريس العلمية بها في باديء الامر محاولة

---

(١) راجع يوبيل دار العلوم المطبوع عام ١٩٥٥ م .

(٢) محمد رشيد رضا ـ تاريخ الأمام محمد عبده ـ جـ١ ص ٣٧٨ .

(٣) تاجي القسطيني ـ تاريخ المدرسة الحميدية (مخطوط) .

(٤) راجع لويس اليسوعي ـ الآداب العربية في القرن التاسع عشر جـ ٢ ص ٤ ، ٦٤ .

سياسية في محاربة التركية والتودد للعرب (١) .

ولكننا نجد - بعد التمزق السياسي الذي أصاب الوطن العربي فشتت العرب في ديارهم .. أن هذه « المدرسة » وأختها الاخرى في القاهرة تسمي نفسها بحقيقتها « الجامعة الأمريكية » ، وتعود فتتخذ الانجليزية لغة العلم والتدريس بها ، .. ولا تنسى أن تلقي في روع تلامذتها من أبناء العرب أن لغتهم العربية قاصرة عن اللحاق بالمصطلحات العلمية الحديثة ، .. كأن لم يكن للتاريخ الحضاري والعلمي للعرب سبب أو صلة بهذه العلوم والمصطلحات ! ..

* * *

أما من ناحية التعليم العام - الابتدائي والثانوي - فقد كانت هنالك خطط رامية الى فتح المدارس ونشر التعليم ملاحقة للمدارس التبشيرية والاهلية ومزاحمة للمدارس العربية - غير النظامية - التي لم تزل ملحقة ببعض الجوامع .

وفي هذه المدارس التي فتحت أواخر العهد العثماني في مختلف أنحاء الولايات كانت تدرس العلوم بالتركية والعربية معاً !

وهي التي ورثتها وزارات المعارف والتربية في الاقاليم المنفصلة عن الدولة العثمانية إحتلالاً أو حماية أو تبعية ! .. وكان لهذه السلطات الجديدة الأثر الأول في توجيه التعليم بها وجهة غير قومية ، كالتي جاءت في مشروعات دنلوب في مصر ، وستيف في العراق حتى أثمرت منها أجيالا علمانية ، فشلت في الحفاظ على القيم القومية للامة ، وما يزال الضياع السياسي ، والضلال المبين يحتوي حتى الذين تقدمت بهم الايام الى صفوف المسئولية التربوية والقيادة الوطنية ، والزمام

---

(١) عمر فروخ ومصطفى الخالدي - التبشير والاستعمار ص ٩٥ .

التوجيهي، والحرية الفكرية والمجال الاعتقادي في الحياة العلمية والثقافية بعامة !

وعاد يحس به كلّ مربٍ واعٍ ويشعر بوطأته الانسان الفرد في صفوف الأمة حتى حدا التفكير المتأمل المنتج بعض الهيئات التعليمية في الاقطار العربية وبجامعة الدول العربية بالذات الى التنادي لايقاف ذلك الضلال ولو عن طريق المؤتمرات التربوية ، التي توصي بمراقبة برامج التربية ، والارتفاع بمستوى المناهج التعليمية والثقافية .. التي نأمل في تطبيقها تحولاً علمياً في التعليم العام ، حتى يتم لنا التغيير الجذري الذي يعود بالأمة سيرتها الحضارية الاولى على هدى وبصيرة .

نقول ذلك بالرغم من عملية نشر التعليم على أوسع نطاق ، التي تعانيها هذه المدارس ، وكأنها تقوم بعملية مسح تعليمي بالقضاء على الجهل .. بمعرفة فك الخط أولاً ! ..

* * *

والى جانب هذا النشاط فى النواحي التعليمية الرسمية والاهليه كان لقيام بعض الجمعيات شأن جليل في محاولة العناية بالتعليم وتجاوز الشؤون الاجتماعية والشكلية الى الاقدام على تأسيس المدارس وإنشاء المعاهد مباراة للمدارس المدنية نفسها ، واستباقاً للإمام في إنقاذ أبناء الامة مما يلتاث في مدارس « الفرير » وسواها من مدارس الارساليات التبشيرية .

ولعل من أهم هذه الجمعيات التي ذهبت المذهب القومي في الاتجاه بالتعليم وجهة ترضاها المصلحة العليا للامة ، جمعية المعارف

بمصر (١) والجمعية السورية (٢) ثم الخيرية الاسلاميـة . التي إنضم اليها الشيخ عبد الله نديم وأعاد الشيخ محمد عبده تكوينها بعد الثورة العرابية (٣) ثم العروة الوثقى .. وبعد ذلك جمعيات شمس الاسلام والرابطة الشرقية والهداية الاسلامية . التي كانت لها فروع في مختلف أنحاء مصر وسورية والعراق .. وكذلك جمعية الشبان المسلمين والاخوان المسلمين في مصر والتمدن الاسلامي بسورية والتفيض في العراق .. الخ من ..

وكان لقيام لجان للتأليف والترجمة والنشر في هذه الأقطار ، .. ونواد ثقافية وقومية ، كالبيان العربي والجمعية الفلسفية والجغرافية في مصر ، والنادي العربي بدمشق ، والمثنى ببغداد . . دورها في النشاط التعليمي والحياة الثقافية وذلك عن طريق ما يلقى على منابرها من خطب ومواعظ ومحاضرات . وما يقوم في حركتها من حلقات دراسية . واجتماعات سنوية وموسمية .. وكذلك فيما تنشره من المؤلفات والرسائل والدوريات .. وغيرها مما أثمر في الثقافة العامة وحبب للناس القراءة والاطلاع ورقى بالبعض منهم الى الأخذ والاستيعاب والمناقشة .

---

(١) عبد الرحمن الرافعي - عصر اسماعيل ج ١ ص ٢٥٦ .

(٢) محمود كامل - عروبتنا - ص ٤٣ ، وراجع بديع شريف - صراع العرب والموالي ص ٩٩٠ ، والموضوع نفسه في كتب القومية العربية لحمدي طربين ، وطانيوس والحصري والشهابي ..
وقد نشأت الجامعة السورية كذلك ! . .

(٣) عمر الدسوقي - البارودي ص ٤٤ .

وحسبنا أن نذكر ما كان لنداء الزعيم مصطفى كامل في « اللواء » لسان الحزب الوطني في إنشاء مدارس الشعب وقيام الجامعة الأهلية ـ المصرية ـ لتكون عوناً على إعداد جيل مثقف يحمل تبعة الصراع السياسي والفكري في البلاد ، وينهض بالأمة الى المستوى اللائق بها بين الأمم .

وقد كان للادب العربي أثره في قيامها ومباركته لها وهكذا كانت قصيدة حافظ ابراهيم (١) :

حياكم الله أحيوا العلم والأدبا إن تنشروا العلم ينشر فيكم العربا

ولا حياة لكم إلا بجامعة تكون أماً لطلاب العلا وأبا

تبني الرجال وتبني كل شاهقة من المعالي وتبني العزّ والغلبا .. الخ

وكذلك نظرة الرافعي في قصيدته « نبأ مصر » التي عجب فيها من تقاعس الهمم في إبراز كيان الجامعة (٢) .

ومما يذكر بهذا الصدد أن لدراسات المستشرقين في التراث القومي (*) كانت مكانة خاصة في هذه الجامعة ، .. وبسبب قريب من نداءات الرافعي إهتمت الجامعة بالدراسات الأدبية ، وتاريخ آداب العرب (٣) .

---

(١) ديوان حافظ ـ جـ ١ ص ٢٦٧ ، ٢٧٢ .

(٢) الرافعي ـ النظرات جـ١ ص١٤ .

(*) راجع موضوع المستشرقين ـ لويس شيخو ـ آداب القرن التاسع عشر ، وجرجي زيدان ـ آداب اللغة العربية جـ٤ ، ونجيب العقيقي ـ المستشرقون .

(٣) راجع الرافعي ـ المعركة تحت راية القرآن ص ٦٨ ، وسعيد العريان ـ حياة الرافعي ـ ص ٦٥ .

ويضاف الى هذه الحركات التعليمية المحلية ، عمليات البعوث العلمية الى الديار الأوربية ، والأصقاع الأمريكية ،. وقد كثر عدد طلبة البعثات والتبادل الثقافي ، وتوالت الاعارات بين الجامعات ، وتبودلت الزيارات العلمية ،..
وكثرت المحاولات فى البحث عن كنوز الآثار العلمية والتاريخية والحضارية في مختلف أنحاء الأقطار العربية .

ويرجع بعض المربين الى هذه البعوث والمحاولات العلمية الأثر في التوسع بالتعليم العالي في كل من مصر وسوريا والعراق ، .. ثم الأقطار الأخرى ..
حتى ليعدّ بعض النقاد اليوم مثل الدكتور طه حسين خلاصة التيارات الدراسية التي سعى بها الى الحياة الأدبية في الأزهر ثم الجامعة المصرية فالسوربون بفرنسا ، والى عهده بالتدريس الذي أضحى به عميداً للأدب العربي في كلية الآداب (١) .

وكان من أثر التوسع في التعليم أن وجد الجيل القاريء ، .. والذي لم يعد الكتاب وحده ولا المحاضرة أو حلقات التدريس تكفيه ،.. وعندئذ أصبح للصحافة مكانها من سير الحياة الفكرية ، وانتشار المذاهب الأدبية ، واحتدام الآراء ،.. وتحرك اللغة وتعاظم قوة نموها وازدهارها ، .. حتى غدت العامل الاساسي في النهضة (٢) .

وكان المسيحيين السوريين بخاصة أثر كبير فى النهضة بالصحافة في لبنان ومصر ،.. وقد سبق لنا أن عرضنا لأسباب هجرة بعضهم الى الديار المصرية ، وبسطنا يوازعها عند كلامنا عن البيئة الاجتماعية .

---

(١) محمد يوسف نجم ـ الأدب العربي في آثار الدارسين ـ ص ٣٢٧ .

(٢) عمر الدسوقي ـ في الأدب الحديث ـ جـ١ ص ٨٩ .

ففي عهد محمد علي هاجر الى مصر من سورية تراجمة وطباعون ، عنوا بنشر التراث العربي الى جانب عنايتهم وعملهم فى « الوقائع المصرية » وغيرها من الاعمال الرسمية الاخرى . .

كما أن الدعوة الى الهجرة كانت تصدر عن المثقفين السوريين ، الذين ضاقت بعض جماعاتهم ذرعاً بالاجراءات التركية ، فرأوا من الحكمة الانتقال الى مصر ، حيث الامن والدعة والحرية ، التي حاولت بها سلطات الاحتلال من ثم تكريس الانفصال بمصر عن الدولة العثمانية ، . . ولتكون للكلمة الجاسوسة والمندسة مكانها في صفوف هؤلاء ! . .

وما لبثت هـــذه الهجرات غير المنقطعة تحدث أثرها الواسع المدى فى المجتمـع المصري المثقف بالذات . . وفى التحول بالنظرة الى العـــاطفة العربية ـ القومية (١) .

وهكذا وجدنا فارس نمر ويعقوب صروف ينقلان مجلتهما « المقتطف » من بيروت الى القاهرة (٢) وينشئان هناك « المقطم » جريدة يومية الى جانب المجلة العلمية ، . . لتأييد الاحتلال وتكريس وجود الانجليز وتصوير وجودهم غير الشرعي فى مصر بالصورة الانسانية التي كان يدعيها كرومر (٣) .

ووجود هذه الجريدة هو الذي شجع من كانوا ينعتون أنفسهم بـ « ذوي المصالح الخاصة » . . من أن يكونوا لأنفسهم حزباً يسمونه على « الامة » . .

(١) جورج أنطونيوس ـ يقظة العرب ـ ص ٧٩ .

(٢) كان ذلك عام ١٨٧٦ م .

(٣) محمد محمد حسين ـ الإتجاهات الوطنية ج ١ ص ٧٣ وما بعدها .

ويصدرون بعـــد ذلك صحيفتهم « الجريدة » برئاسة أحمد لطفي السيد لتقطع أشواطاً أخرى مع المحتلين .. ما دامت مصالح محمود سليمان (باشا) ورفاقه مضمونة من المعتمد البريطاني والمحفل الماسوني (١) .

وكذلك سعى تاجر الصابون سليم تقلا وأخوه بشارة الى إصـدار « الأهرام » ـ كبرى صحف الدنيا العربية اليوم ! ـ ولتعنى بأخبار الفرنسيس وتأخذ عنهم ! .. ولعل عنايتها بالخاصة الخديوية ولشعر شوقي بخاصة (٢) هي التي مكنت لها من الانتشار والاتساع في التوزيع ! ..

وإزاء ذلك كان لا بـد من وجود صحافة قومية . لا تداري المحتل . ولا تحابيه ، ولا ترى في وجوده شيئاً طبيعياً . ولا منطقـــاً سليماً مهما كانت التعلات التي يزعمها أعمدة الاستعمار ! .. فظهرت « المؤيد » للشيخ علي يوسف عام ١٨٨٩ م التي ما لبثت أن غدت جريدة العالم العربي غير منازع وكان لها بالغ الاثر في الحياة العربية (٣) .

كما رحبت بمصطفى كامل ـ من قبل ـ وهو بعد شاب يتقد غيرة وحماسة ونشرت له المقالات الضافية والملتهبة وكانت تفرد صفحاتها الاولى لمثل هـذه المقالات الوطنية والاصلاحية التي كان يكتبها كبار الكتاب في ذلك العهـد

(١) محمد محمد حسين ــ الاتجاهات الوطنية ص ٧٨ ، وانظر كذلك ـ الدولة العربية المتحدة ـ جـ٣ ص ١٠٣ .

(٢) راجع شكيب أرسلان ـ شوقي ـ ص ٨ .

(٣) عمر الدسوقي ـ في الأدب الحديث جـ ٢ ص ٨١ .

كالشيخ محمد عبده وعبد الكريم سلمان ثم عبد القادر المغربي ومحمد كرد علي ومحب الدين الخطيب وسواهم (١) .

وعلى صفحاتها الحرة ظهرت بواكير الأدب الحديث كما عنيت بالشعر ، ونشرت للبارودي وصبري وشكيب أرسلان ، .. ولأحمد شوقي ، .. وغيرهم وهي التي هللت بميلاد الرافعي شاعراً .

وكذلك قامت « اللواء » لتكون لسان الحركة الوطنية ، وفيها استقبل الزعيم مصطفى كامل ديوان الرافعي بقولته التي ذهبت مثلا « .. وسيأتي يوم إذا ذكر الرافعي قال الناس : هو الحكمة العالية مصوغة في أجمل قالب من البيان » (٢) .

ولما توقفت هذه الجريدة بعد وفاة الزعيم .. تابع الحزب الوطني إصدار الصحف التي عرف بها فى الثبات على المبدأ ، والقصد في الأهداف القومية ، .. فكانت جريدة الشعب ، ثم جريدة الأخبار وكان المرحوم أمين الرافعي ـ الرجل الحر الضمير الكبير النفس (٣) قلم الصدق والصراحة والوطنية السابقة فى هذه الصحف (٤) .

ثم لما تفرقت السياسة أهواء ، وتمخض حزب الأمة عن مواليد حزبية «أفسدت الحالة السياسية فى مصر ، وجعلت بعض الأمة يلعن بعضها لعناً مقدساً» (٥).

---

(١) عمر الدسوقي ـ علي يوسف ـ الكتاب ـ تموز - يوليو ١٩٤٨ م .

(٢) انظر سعيد العريان ـ حياة الرافعي ص ٥١ .

(٣) الرافعي ـ الرسائل ص ٣٩ .

(٤) راجع ذكرى أمين الرافعي ـ لصادق عنبر .

(٥) الرافعي ـ الرسائل ص ٧٩ .

كان للأحرار الدستوريين صحفهم وللوفديين صحفهم وللآخرين صحفهم ، .. فكانت السياسة ، وكوكب الشرق والبلاغ والجهاد .. الخ .

والى جانب هذه الصحف اليومية قامت المجـلات الاسبوعية والشهرية ، ويلاحظ لأول وهلة أن جلّ هذه المجلات كانت بيد الأدباء والكتاب السوريين ، كالبيان والضياء للشيخ ابراهيم اليازجي ، والمجلة لخليل مطران ، والهلال لجورج زيدان ، والمقتطف ليعقوب صروف ، والجامعة لفرح أنطون ، وسركيس لسليم سركيس ، والمنار للشيخ محمد رشيد رضا ، والزهور لأنطون الجميل والبيان للشيخ عبـد الرحمن البرقوقي (١) ، والزهراء للشيخ محب الدين الخطيب ، والعصـور لاسماعيل مظهر وأبولو لأحمد زكي أبي شادي ، والرسالة لأحمد حسن الزيات ، والثقافة لأحمد أمين .. وغيرها من المجلات التي كانت تظهر وتختفي كالكواكب في سماء الفكر العربي .

ولم تتخلف صحيفة من هذه عن فتح أبوابها لأبحاث العلوم ، ومصورات الفنون ، .. ومجالات الأدب .

---

(١) أنظر سعيد العريان ـ حياة الرافعي ص ٣٢٢ ـ وقد ثبت لدينا أن الرافعي كان رأس التحرير فيهـا ، ويحتفظ الشيخ أبو رية بالمقالة الإفتتاحية الأولى بخط الرافعي بالقـلم الرصاص ـ وهي تعـد اليوم وثيقة قومية سـابقة .

كما يحتفظ بمسودات أخريات بخطوط الكتاب ، وقد جرى فيها قلم الرافعي الأحمر تهذيباً وتشذيباً .

وقد نشرت فيهـــا فصول فى الزراعة والصنـاعة ، مترجمة وموضوعة ، وأبحاث فى التاريخ ومقالات في الفكر الانساني والفلسفة ، جنباً الى جنب مـع الأخبار السياسية والأحوال الاقتصادية والاجتماعية ،. وغيرها .. مما تفتقر اليه صحافتنا اليوم !.. بالرغم من التقدم العلمي في فنون الطباعة والاخراج ! ..

كما فسحت المجال فيهـا لصراع فكري ، ومناقشات علمية ، من أشهرها تلك التي عرفت بمعارك الأدباء ، والتي أثمر فيها البحث والدراسة والتتبع بناء علمي موفق وكان الرافعي في هـذه المعارك نصيباً كبيراً (١) .. حتى ليخيل إلي أنه لم يكن يكتب فصلا من فصوله أو بحثاً من تأليفه ، أو رأياً من تصنيفه حتى يجد أمامه من يسائل ، أو يرد . أو يحاول المناقشة وقـد يصل أن يلج في الخصومة واللدد (٢) .

ومع ذلك كله فقد استطاع أن يثبت وجوده العلمي وشخصيته الأدبية المتميزة في هـذه الصف جميعاً أمام مختلف التحديات والتصديات التي كانت تقف بوجهه . أو تحاول منازلتـه وغمز آرائه . أو نبز مؤلفاته ، وألا عجب من ذلك أنه لم يكن يقتصر على صحف معينة في القراءة والاطلاع أو الكتابة والنشر بالرغم مما كـان يلحقه من أذى ! . .

وعلى صفحات هذه الصحف قامت حركة التجديد . ونشطت في مختلف شؤون الأدب والفن .. أمام التحول والتأثر بالعـلوم الحديثة ، والفنون المترجمـــة .

---

(١) أنظر أنور الجندي ـ المعارك الأدبية ـ مادة الرافعي .

(٢) سنبسط الحديث عن الموضوع في كتابنا التالي .

وعالجت هـــذه الصحف فنون الأدب بدراسات قيمة ، ما لبثت أن تعاظمت من ثم وأضحت كتباً ومراجع فى الموضوعات التي تصدت لها ، .. كما فتحت صدرها للخطابة ، ونمّـت المقالة وجوّدتها ، وبسطت للمحاضرة ، ومكنت للأقلام أن تغرس على صفحاتها مختلف الآراء دائرة بالفكر والمذهبية على أفلاك جديدة ، يكن للعرب عهد بهـا حتى في المناظرات الـكلامية والمجادلات المعروفة في مصنفات آثارهم (١) .

وفيها أيضاً خرجت أول بادرة لنقد الشعر والأدب وتقويمـه « تأثرت بالقديم تأثر ولاء وإخلاص ، وأخذت من الحديث كلّ مفيد ونافع » (٢) .

ويلاحظ فيها أيضاً أنها فسحت المجال للعناية بالترجمة عن اللغات الأخرى ، وأفادت من هذه الترجمة فى عمليات تصحيح الأخبار التاريخية ، وتهذيب السير ، والسموّ بالتراجم والتمـكين للنقد المنهجي والعلمي أن يأخذ سبيله في هـــذه المجالات ..

كما نلاحظ فيها أيضاً حظوة للقصص والروايات تزيد فى تطعيم الآداب العربية بالمعاني وتتقدم بفنونها الى التقليد والمقارنة ثم الانفراد بمذهبيات جديدة في واقع الحياة ..

ويلوح لي أن كان هناك كالاستباق بين الكتاب والعلماء فى عمليـات الترجمة والتلخيص عن اللغات الأوربية الحديثة ، .. الى اللغة العربية ..

ثم ما لبثت هـذه الحركة الفريدة فى الترجمة أن انتظمت في مجموعات من العلماء والأدباء أنست الناس ما كانوا يحفلون به من أخبار عصور الترجمة في

---

(١) و (٢) محمد يوسف نجم ـ الأدب العربي في آثار الدارسين ص٣٢٧ .

العهدين الأموي والعباسي ، .. ومما يلاحظ أيضاً أن الترجمة العلمية في المجالات الطبيعية والزراعية والاقتصادية والاتقانية الحديثة « التكنولوجيا » كانت أدق وأوفى منها في المجالات الفكرية والأدبية ، .. وعندي أن العلوم آمن في النقل منها في الفنون ، التي قـــد تصيبها الوجدانية بالفهم الخاص ، .. فيؤثر بعض المترجمين الاختصار ، والتلخيص ، .. ومن ثم يخلط بين ما يراه حقاً وما ينقله صدقاً ، كما نرى ذلك في الترجمات الاولى بخاصة .

على أن مثل هؤلاء المترجمين ـ حين أعياهم فن الترجمة من الظهور عليـه والتمـكن من أداته ،.. عادت بهم معرفتهم اللغات الاخرى الى إبتسار الآراء ، والسرقة والتلفيق مما لا مجال في إفاضة الحديث عنه !..

ومع ذلك فإننا نرى اليوم أعمالاً عظيمة ترجمت الى العربية ، .. وكان الرافعي ـ رح ـ ملحاحاً على نقل روائع الفكر والعلم عند القوم ،.. يستنجر عباس العقاد مرة ، ويلحف في الطلب على اسماعيل مظهر ، ويدلي لسواهما برأيه بترجمة الآثار التي فيها حرية الفكر ، واستقامة المنهج ، والقصد العلمي .. (١)

وكان سليمان البستاني قـد نقل رائعة هوميروس ـ الألياذة الى العربية شعراً ، ومن أصلها اليوناني ،.. مما حدا بالرافعي أن يبارك له هذا العمل الجليل بموشحة غنائية راقصة (٢) .

---

(١) راجع اسماعيل مظهر ـ المقتطف ٩١ حزيران (يونيو) ١٩٣٧ م ، وأجوبة الرافعي على أسئلة مجلة الهلال ، تشرين الأول (اكتوبر) وتشرين الثاني نوفمبر عام ١٩٢٦ م .

(٢) أنظر الرافعي ـ الديوان جـ ٣ ص ١٢٠ .

أما المجموعات التي انتظمها من الترجمة ، فقد كانت بحسب اللغات التي تنقل عنها ، حيث حظيت كل لغة أوربية حديثة بفئة من تراجمة الأدباء العرب ينقلون عنها بعض آثارها الشهيرة ، ويتأثرون أساليبها فى البيان ، ويقدمون روائعها الأدبية بخاصة ،.. فيبشرون بها ، ويدعون إليها تعلماً ومعرفة من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، ومن أهم هـذه المجموعات :

أ ـ تلك التي نقلت عن الفرنسية ما كتبه أساطين آدابها أمثال لافونتين ، وفكتور هيجو ، و لامرتين وبودلير . . وسواهم ، .. وأشهر من نقل عنها أمين الحداد وفرح أنطون وشيلي الملاط ثم أحمد حسن الزيات والدكتور طـه حسين ومحمد مهدي البصير واسماعيل مظهر وغيرهم .

ب ـ التي نقلت عن الانجليزية روائع شكسبير ، وملتون وكيتس وكبلنغ وبيرون .. وسوهم .

ومن أشهر أحبارها نجيب الحـداد ، وخليل مطران وعباس العقـــاد وسلامة موسى .

جـ ـ التي نقلت عن الألمانية آداب جوته ، وشلر ، وهايني، ومن حوارييها عبد الرحمن بدوي ومحمد عوض محمد . . وغيرهم .

د ـ التي نقلت عن اللغات الاخرى كالروسية والهولندية والاسبانية ، وما يزال تراجمتها في ازدياد ، وتراجمهم في نمو وإطراد ..

ومما لا شك فيه أن ما ترجم من هذه اللغات يؤلف اليوم مكتبة ضخمة جداً ، ويدعو الى العجب والتأمل معاً .. ولا أعتقد أنه قد تيسر للغات العالم ما تيسر للعربية في هذا الصدد .

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن الفكر العربي بعد إتساقه الحديث وقيام الأدب المنبعث في طوابعه الجديدة التي نمّ فيها عن الأمانة القومية والعمق العلمي والاتساع فى مجالي الثقافة .. قد أخذ هو الآخر دوره في الانتقال ترجمة الى اللغات غير العربية وقامت حركة مقابلة لترجمة الآثار العربية الحديثة .

ومنذ أول القرن ترجمت مجموعات مختارة من الشعر العربي الى الفرنسية من بينها قصيدة اسماعيل صبري ـ لواء الحسن (١) .. وكذلك ترجم الاستاذ عبد الحميد سالم قصيدة الرافعي « النيل والطبيعة المصرية » الى الفرنسية ونشرت في صحف باريس عام ١٩٢٨ م (٢) كما ترجمت مقالته « الاحسان الاجتماعي » في وقت سابق .

كما نقل قصته « رؤيا في السماء » طيب الذكر الاستاذ فيلكس فارس .. (٣)

ونقلت الى لغات أخرى آثار عربية أخرى غير الشعر . منها تاريخ التمدن الاسلامي لجورج زيدان وعودة الروح لتوفيق الحكيم والأيام لطه حسين . الخ . .

ومن بين الآثار التي نقلت الى لغات مختلفة ديوان « أغاني الكوخ » لمحمود حسن اسماعيل و « بساط الريح » لفوزي المعلوف .

وكان من بين اتجاهات جامعة الدول العربية وحركة الجمهورية العربية

---

(١) راجع عمر الدسوقي ـ في الأدب الحديث ـ جـ ٢ ص ٣٢٧ .

(٢) أنظر رسائل الرافعي ص ١٣٩ .

راجع فيلكس فارس ـ رسالة المنبر ص ١٢٧ .

المتحدة . . تنظيم العمل فى نشر بعض الآثار القيمة الى اللغات الحية .

* * *

ومما هو جدير بالذكر والمراجعة وربما دعا الى الإشفاق والألم أحيانًا . الى جانب إغناء المكتبة العربية بالآثار والروائع العالمية ما كان من أثر الثقافات المتعددة بهاتيك اللغات أن نشأت بين ظهرانينا مذاهب فكرية متفرنجة (١) تتحزب وتتعصب لمذاهب فكرية وأدبية في هاتيك اللغات التي تقرأ فيها وتنقل عنها .

وقد اثارت فيما بينها خصومات لم تخل من شحناء ولدد وربما معارك جانبية مضحكة .

وعلى سبيل المثال نذكر أن أنطون الجميل كان قد نشر كتابًا عن احمد شوقي - رح - بأسلوب فيه طبيعة الجميل السمحة وسجيته الهينة اللينة ولكن العقاد - عفا الله عنه - كالذي إهتبلها فرصة ينال فيها من الاثنين معًا ويتحدث عن « طريقة الصالونات الفرنسية التي لا تصرح ولا نهاجم ولا تنقد ولا تكشف فى وضوح عن العيوب الأدبية » .

وقد أثار بذلك سجالاً أدبيًا بينه وبين الدكتور طه حسين على صفحات الرسالة بين اللاتينيين والسكسون !!.. وكأنهما من أبناء السين والثاميز ولم يغترف أحدهما من النيل بلة ريق !...

وبلغ « التفرنج » الفكري والتبعة الأدبية حدّ الرقاعة عند البعض من

---

(١) راجع عمر الدسوقي - في الأدب الحديث - ج ٢ ص ٦٢ ، وكذلك أنيس المقدسي - الإتجات الأدبية - ج ١ ص ١٤٠ .

أدباء لبنان فقد تفرنس إلياس أبو شبكة في كتابه « روابط الفكر بين العرب والفرنجة » .. الى درجة يقول فيها « .. قد لا نخطيء إذا قلنا أن فرنسا هي ثدي العالم ، وأن معظم الحركات الاجتماعية والسياسية والأدبية قد رضعت من هـذا الثدي » ! .

وزاد فرج الله الحائك بقوله « نحن لا نستطيع أن بين محبتنا فرنسا ، وبين تأثيرها الثقافي علينا ، فنحن نعيش في وسط فرنسي فى روحه ولغته » (١) .

* * *

وبجانب هذا وذاك فقد استبق الصراط مؤلفون عرب فوضعوا جملة مؤلفات في مختلف الموضوعات باللغات الأوربية الحديثـة ، ولا سيما الانجليزية والفرنسية والألمانية ، .. ونذكر من هذه المؤلفات « يقظة العرب » لجورج أنطونيوس ، و « تاريخ العرب » لفيليب حتى ، و « إبن خلدون » لشارل عيساوي ، و « حول الجزيرة العربية » لأمين الريحاني .. الخ (٢)

يضاف الى ذلك جملة صالحة من الرسائل العلمية ، نال فيها أساتذة فضلاء كبريات الشهادات من الجامعات الأوربية ، .. وقـد درسوا فيها موضوعات قومية وتاريخية وعلمية وفق أحدث المناهج فى البحث والاستنتاج .

وقد تركت هذه الآثار العلمية ، وتلك المصنفات والمترجمات أثرها فى الفكر

---

(١) الجمهور – اللبنانية ، ١ حزيران (يونيو) ١٩٤٠ م - كتاب متفرنسون ، ويقابل ذلك مقال كتبه عبد الله المشنوق بعنوان « تعلمت من تلاميذي » في الحياة البيروتية عام ١٩٤٤ م .

(٢) أنظر أنيس المقدسي – الإتجاهات الأدبية ج ٢ ص ١٥٣ .

العربي الحديث ، ومذاهب التربية والتعليم بخاصة ،

منها ما يأخذه الشكل العلمي الذي انتهت اليه حضارة الغرب ، .. فيجنح الى الأخذ وتقليد القوم بطفرة ينسلخ فيها الشرق عن ماضيه وحاضره ، ليلحق بالركب الأوربي ، .. فيزعم الاتجاه الجديد ، (١) ومنها ما يزيد فيتّهم العربية نفسها بالقصور عن الاستيعاب العلمي ، .. فيدعو الى التعليم بلغة أوربية (٢) ومنها ما يحاول الحياة العلمية التي تنصر الاتجاه القومي بجهد جهيد (٣) .

وإزاء هذه المجالي المتعددة ، والحياة العلمية المتسعة ، والوفرة في المعلومات الثقافية ، كانت اليقظة الفكرية تدبّ في صفوف الكتاب ، وتسابق العلماء ، .. وتنتظر الشعراء في مناحي فريدة من جوانب الثقافة والاجتماع .

ولعلّ من أدق ما يلفت النظر ، ويثير الاعجاب ، أن يجد المرء سعياً حثيثاً المذاهب الفلسفية يعاصر الحياة ، ويتقدم من الجمهور ، يأخذ بيده تارة ، أو يدفع به أخرى الى ما يتشوف إليه من استبصار في جوانب الحياة كلّها .

كما يرى الانسان في نشاط الآراء الاجتماعية ، واتصالها بالناس في واقعهم ، واستهدافها معهم للغايات الكبرى في الكرامة الانسانية ، وما يأخذ بمجامع القلوب .

وكان لشيوع المناهج العلمية ، وذيوع النظريات التطبيقية ، والمحاولات التفسيرية والتحليلية أن انتقلت بعض هذه المناهج والنظريات ، حتى الفرضيات

---

(١) كالدكتور طـه حسين وكتابه « مستقبل الثقافة في مصر » راجع نقاش الحصري له في كتاب « الإقليمية » .

(٢) هو سلامة موسى .

(٣) راجع عمر الدسوقي - في الأدب الحديث جـ ١ ص ٦٤ وما بعدها .

الى معالجة القضايا الانسانية التي تستهدف تغيير أساليب الحياة والعيش في معظم مجالاتها الحيوية عند الحضارة والاجتماع .

وكان لانتقال هذه المعلومات الانسانية الى الشرق العربي عن طريق ما أسلفنا ذكره من الترجمة والبحوث والدراسات ،.. أن قامت حركات مشابهة وأخرى مقارنة ، وثالثة تحاول الانفراد بالأخذ والتمثيل ، وطبع هذه المعلومات بطوابع قومية فيها تفاعل ودراسة ، وفيها استكمال أداة ومحاججة ، ومنها ينطلق أسلوب رشيد يتناول الأحداث بثقة وجدارة .

ومن أهم الأفكار التي ثارت في الشرق العربي خلال القرن الأخير فوسمت يقظته الفكرية ،.. الروح القومية بما يتخللها من المباديء وما يقوم بها من الدعوة الاعتقادية والفلسفة الكلية والالتزامات الاخرى والنزعة الاشتراكية التي تذهب بالعدل في صفوف الأمة الى غايات بعيده ومرام كانت تحسب بعض المذاهب أن لم يصلها تشريع !.. وتضمن الحرية الاجتماعية للجمهور عند معظم مجالي نشاطه وفي أوسع آفاق دنياه .

وكان للفكر الأوربي في هـــذه الناحية مقام الرافد الذي يبعث الحياة ويوقظ النشاط ولا سيما في الفترات التي اندلعت فيها الحركة الفرنسية وقامت خلالها حرب التحرير الأمريكية حتى انفجرت الثورة الروسية ..

أو بتقدير آخر كان للفكر الأوربي ما بين حرب السبعين ١٨٧٠ م وحتى الحرب الثانية عام ١٩٣٩ م وما كان قد عاناه من صراع بين المذهبيات الاجتماعية العديدة والفلسفات الكثر ما أعطى الفكر الانساني بعامة . والعربي بخاصة دفعاً حيوياً يزحمه بالمثاليات ويمضي بـه الى ما تهدف اليه كل أمـة من

مصير عزيز ، وحياة كريمة .. تجد فيها الانسانية نفسها بعض غاياتها في الوجود .

ولعل من أفعل النظريات القومية في الفكر العربي تلك التي عرفت عن المفكرين الألمان وفلاسفتهم ، إبتداءاً من الفون هيردر وهيجل وفختة ونيتشه .. وانتهاءاً بماكس نوردو (١) والتي إهتمت باللغة من حيث هي الأساس الاول في الثبات القومي ، حيث تضم اليها تراث الأمة كما تحتفظ بعاداتها وأخلاقها وتقاليدها المميزة .

وذلك مذهب يأتلف مع الروح الأدبية للعرب (٢) لذلك نرى الكثير من ادبائهم ومفكريهم المحدثين يأخذون بها . ويعربون مضمونها حتى لا نجد في أحيان كثيرة بعض صلة بين ما يذهبون اليه من آراء حديثة أحياناً وبين ما تأثروا به من الفكر القومي الالماني .

وبالرغم من اضطراب مفهوم القومية في أول القرن ما بين الاقليمية

---

(١) ماكس نوردو ــ يهودي مجري ، ولكنه كتب في الألمانية ومات عام١٩٢٣م وما يزال كتابه « روح القومية » - الذي ألفه على شكل رواية ترجمها عادل جبرة منذ عام ١٩٢٢م - كالمعين لنظرية اللغة في القومية ، .. ومما لا ريب فيه أن لآرائه اللغوية والقومية أبعد الأثر في بعث اللغة العبرية عند اليهود في هذا القرن ،.. والتي عادت تضطر الاستخبارات العالمية الى تعلمها ! .. فتأمل ! وانظر عبد الرحمن البزاز ــ هذه قوميتنا ص ١٠٤ وما بعدها .

(٢) لا أرى أن النظرية الألمانية بعامة كانت تغرب من مذهب الإمام الشافعي في اللسان ــ على ما سوف نفصل فيه القول عند دراسة الضمير القومي في أدب الرافعي .

المحدثة و « الوطنية » والجامعة الشرقية أو الدينية ، والصفة اللغوية (١)، فإننا نجد آثاراً فكرية في الأدب الحديث تدل على نضج مبكر في هذا الشأن .

فما كادت تشيع قصيدة الشيخ ابراهيم اليازجي في « إستنهاض العرب » التي يقول فيها :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طما الخطب حتى غاصت الركب

.. فيا لقومي وما قومي سوى عرب ولن يضيّع فيهم ذلك النسب

حتى نجد الرافعي كالذي يبادر فيعارضها في قصيدته « اللغة العربية والشرق » التي يستهلها بقوله :

أمّ يكيد لها من نسلها العقب ولا نقيصة إلا ما جنى النسب

كانت لهم نسباً في كل مكرمة وهم لنكبتها من دهرها سبب

لا عيب في العرب العرباء إن نطقوا بين الأعاجم إلا أنهم عرب

ويذهب فيها ذلك المذهب القومي الحريص على الأساس ، .. حتى يختمها بقوله :

إذا اللغات ازدهت يوماً فقد ضمنت

للعرب أيّ فخار بينها الكتب

وفي المعادن ما تمضي برونقه

يد الصدا .. غير أن لا يصدأ الذهب

وقد أحدثت هذه القصيدة يومها حواراً بين الأدباء ، .. ذهب بعدها

---

(١) راجع عمر دقاق — في دراسته « الإتجاه القومي » في الشعر العربي الحديث .. ط الشرق — ص ١٩٦٣ م .

فرح أنطون الى نعت الرافعي بشاعر الشرق (١) وكأنما أراد أن يصفه بشاعر العرب القومي ، حيث كانت تختلط هذه المصطلحات مع معانيها (٢) .. وحاول غير واحد من الشعراء أن يقول فى الوضوع نفسه .

ولعل هذه الوجهة الاعتقادية فى أدب الرافعي المبكر كانت بسبب من أرومته العربية العمرية ، وسوريته ولقائه بالشيخ عبد الحميد الزهراوي - أحد أعضاء حزب اللامركزية ، والذي رأس المؤتمر العربي الأول الذي عقده الطلبة العرب بباريس عام ١٩١٣ م .. والذي كان كالمهذب لأدب الرافعي في ذلك الحين (٣) .

ولا يقف الرافعي عند هذه البادرة القومية ، وإنما نراه - في الوقت الذي كانت ما تزال الدراسات القومية في اللغات الأوربية نفسها تعاني من اختلاف النظريات ، واصطدام المذاهب واحتدام الآراء .. - ينقطع منذ عام ١٩٠٩ م للتأليف في جوانب منها ، بفكر ثاقب يدلّ فيه على الأصالة والعمق والاستيعاب .

فيرتقي بالقومية نفسها من الفكرة والنظرية حتى يصل بها الى الدعوة الاعتقادية ، التي تهذب الروح العربية ، وتجمع العرب على لغة القرآن ، وتطبع

---

(١) أنظر فرح أنطون في مقدمته لهذه القصيدة - الجامعة ٦ ، ٧ - ايلول (سبتمبر) ١٩٠٣ م .

(٢) راجع عبد الرحمن البزاز - هذه قوميتنا - ولا سيما الفصول التي تحدث فيها عن تحرير القومية ، والأرض والتاريخ والدين .

(٣) عن رسالة للشيخ الزهراوي بعث بها الى الرافعي في ذلك الحين .

العقيدة الاسلامية نفسها بطابع الجنسية العربية (١) ، والقومية التاريخية . (٢)

ويتبادر إلي أن الرافعي لم يكن ليفصل القومية عن المعنى الاجتماعي العام للنظام العربي - الاسلامي فقد كان يتأمل المذاهب الاجتماعية المحدثة في الاشتراكية ، ويحاول أن يجد لها جذوراً في شعاب الحضارة العربية ، وآفاق الفقه الاسلامي ، وما أبقاه التاريخ من أخبار ، ومجالي الحديث عنها ، .. فقد عرف مذاهب « أوفن » والأتحاديين وسانت سيمولن ، .. وراجع حكيم الشرق الشيخ عبد الرحمن الكواكبي وأخذ عنه وجهته في المقارنة بين سماه « الاشتراك العمومي المنتظم » والذي جعل أساسه الزكوات والكفارات المالية ، .. مما جاء في كتابه « طبائع الاستبداد » حتى لقد قال فيه الرافعي :

.. فقد كان إن هزّ اليراع رأيته يصول بأمضى من فرند القواضب (٣)

وبين المذاهب الاجتماعية المحدثة .

وقد ذهب الرافعي أكثر - ولا سيما بعد فشل ثورة المانشفيك - الشيوعية عام ١٩٠٥م - في استغراق آثار العرب في جاهليتهم نفسها يبحث عن هذه الموضوعات حتى انتهى الى القول « .. لا تكاد تجد مبدأ من المبادىء الاجتماعية التي قررتها الفلسفة الحديثة إلا وله ذكر في شعر هؤلاء الأعراب » .. واستشهد بقول زهير ابن أبي سلمى المزني في مدح العرب :

على مكثريهم حقّ من يعتريهم وعند المقلين السماحة والبذل

---

(١) أنظر الرافعي — إعجاز القرآن ط ٤ ص ٦٠ وما بعدها ..

(٢) الرافعي - المعركة ص ١٠ .

(٣) الرافعي - رثاء حكيم الشرق — الديوان ج ١ ص ١٤٣ .

حتى قال « .. فمهما أدرت مذاهب الاشتراكية ، ومهما قلبت آراء علمائها ، لا تجد صوابه يخرج عن هذا البيت » (١) .

وزاد على ذلك قوله في الاشتراكية العلمية (٢) ورأيه في « المائدة الخيالية » (٣) ودعوته الاشتراكيين أخيراً ليأخذوا مبادىء مذهبهم نبيهم الأعظم محمـــد بن عبـــد الله صلى الله عليه وسلم (٤) على ما سوف نفصل فيـه القول في كتابنا الآخر ، الذي نبحث فيه الموضوعية المحدثة في أدب الرافعي .



(١) الرافعي - تاريخ آداب العرب ج ٣ ص ١٣٦ .

(٢) الرافعي ــ الفقر والفقراء ــ المقتطف -- أيار وحزيران (مايو ويونيو) ١٩١٣ م .

(٣) الرافعي ــ الهلال ــ شباط (فبراير) ١٩٢٤ م - تحت راية القرآن ص ٤٦ .

(٤) الرافعي -- سمو الفقر في المصلح الإجتماعي الأعظم ــ وحي القــلم ج ٢ ص ٧٠ .

الفصل الرابع

الحركة الفكرية والأدبية

كان للحالة السياسية التي فصلنا الحديث عنها ، وللنهضة الاجتماعية التي عرضنا لجوانب منها ، ولتطور الحياة العلمية ، واتساع المجالي الثقافية ، وكذلك تحول الفلسفات في اليقظة الفكرية .. أن ظهر أثر ذلك في العقل الأدبي للأمة ، وعمل على تحريك القرائح ، وانبعاث الحيوية والنشاط فى الحركة الأدبية ، .. كما كان ذلك الأثر واضحاً فى الانتقال الحضاري ، والمحاولة المدنية ، والامتياز الثقافي .

فقد تقلصت بعض النظريات القديمة ، واندحر الكثير من الأوهام ، وظهرت نزعات حرة تأبى التقييد بالتقليد الذي يحول دون النمو الروحي ، .. كما أحدثت حركة جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وعبد الله فكري في مصر ، والشيخ القاسمي والكواكبي في الشام .. آثاراً تحسب للتفكير الصحيح حساباً (١) .

---

(١) أنيس المقدسي الإتجاهات الأدبية ج ٢ ص ١٠ .

واستطاع العلم أن ينقل الدين الى آفاق ينشأ عنها أدب روحي جديد ، يقدس القيم الإلهية ، ويقوم بالمثل العليا الانسانية ، ويفتح أمامه آفاقاً جديدة من الايمان وينير له سبلاً لم يكن يعرفها من قبلُ لإدراك وجوده (١) .

وقد مرَّ بنا ما كان لقيام دار العلوم من أثر في الحياة العلمية والثقافية ،.. فقد عملت أولاً على إخراج التأليف العربي في هذا العصر عن تقاليده في الأمالي والرواية ، وجمع الطرف والنتف ، والدوران بها بين مصنفات الطبقات والتراجم ، الى لون جديد من الأخذ والاستيعاب ، يتصف بشيء من المنهجية المحدثة ، التي تعنى بتمحيص الآثار ، وتحليل المعاني ونقد الأساليب والتبويب والمقارنة .

وما يزال كتاب « الوسيلة الأدبية » للشيخ حسين الموصفي يعد كالفتح الأول فى هذا المضمار والمحاولة الموفقة الفريدة في هذا الباب ، والتي ألحقت العصر بالحياة دون أن تقطع بـه الأسباب عن سوابقه .

فقد تضمن القسم الأول من هذه « الوسيلة » إيجازاً لعلوم اللغة العربية ، وخلاصة لآراء الأقدمين في نقد الشعر وتقويم الآثار الأدبية .

واحتوى القسم الثاني على دراسة لفنون البلاغة ، واعتمد فيها على كان لابن رشيق القيرواني من أحكام في وحـــدة القصيد .. وكلامه الغامض فى الموضوع بعامة ! .

على أن الجديد في هذا الأثر النفيس هو ما كان من استشهاد المؤلف بشعر تلميذه اللواء محمود سامي البارودي ، ونثر السيد عبد الله فكري ،.. ومحاولته

---

(١) محمد حسين هيكل ــ ثورة الأدب ص ١٣٠ .

تقويمها وفق المعايير النقدية والبلاغية التي أوجز في صفتها (١) .

ولم يلبث هذا الكتاب ـ بل هذه الخلاصة المنتقاة ـ أن أضحى الزاد الأدبي الجيل الرعيل الأول من أدباء العصر ، لا فى مصر فحسب بل فى سائر أقطار العربية ، .. عليه يعكفون ، وإليه يرجعون ومنه يأخذون فيمتدون في محاولاتهم التقليد والابداع فى الآثار الأدبية (٢) .

ثم كانت محاولة الاستاذ محمد توفيق الطويل ، الذي تخرج فى دار العلوم ، والتحق بالمعاهد الألمانية ، ليتم دراسته العليا ، .. فقد تأثر فى كتاب « بروكلمان » في تاريخ الأدب العربي .. وراح يملي على طلبة الدار كتابه هو في هذا التاريخ على المنهاج الحديث .

وكان سليمان البستاني قد شرع في كتابة مقالات لمجلة الهلال في « تاريخ الأدب عند الافرنج والعرب » جمعها فيما بعد في كتاب أخرجه عام ١٩٠٤ م ، .. وعاد الى إخراجه مهذبا ومنقحا عام ١٩١٢ م .

ولما قامت الجامعة الأهلية بمصر عام ١٩٠٨ م ، دعا الرافعي الى الاهتمام بدراسة الأدب العربي وما لبث أن كتب مقاله الأول في « الجريدة » (٣) للتأليف في الموضوع ، وأتبعه بالمقال التالي يوضح فيه بعض ما التبس على الجامعة من

---

(١) راجع ـ الوسيلة الأدبية ـ ولا سيما ص ٤٧٤ وما بعدها .

(٢) أنظر الرافعي في حديثه عن شوقي ـ المقتطف ـ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٢ م ، ـ وحي القلم جـ٣ ص ٣٢١ ، ٣٥١ ، وراجع عمر الدسوقي ـ في الأدب الحديث جـ ٢ ص ٢١٢ .

(٣) راجع الرافعي ـ المعركة بين القديم والجديد ص ٦٨ وما بعدها .

الأمر (١) ثم انقطع هو يجمع المادة ليخرج بها على الناس، في الجامعة وفي غيرها من الأوساط بمؤلفه الفخم « تاريخ آداب العرب » الذي درس في الجزء الأول منه اللغة والرواية وقد عدّ فتحاً مبيناً في الدراسات الأدبية، التي تنهج لنفسها من غير سابقة في التقليد، أو محاولة في التأليف (٢) وكأنه كان يرشح نفسه لسدانة الموضوع في الجامعة، بدلاً من « نالينو » الايطالي وسواه من المستشرقين، الذين لم تكن في دراساتهم ومحاضراتهم لطلبة الجامعة شيء لا يعرفه الرافعي!. (٣)

وكان من أثر دعوة الرافعي أيضاً أن تصدى جورجي زيدان لكتاب « بركلمان » نفسه، يأخذ عنه طريقته ويحاول تعريبه باقتسار، .. حتى لم يكن يخلو عمله من نقل مفضوح في الصورة والتحوير (٤).

وما زالت محاولة الدكتور طه حسين في « تجديد ذكرى أبي العلاء » تعدّ الأولى من نوعها وثمرة الجامعة الأهلية، التي توفر على إنضاجها ثلاثة غير جهد صاحبها (٥) وقد وافت على منهاج أوربي غير متكامل!.

وقـــد أعاد الدكتور طه حسين المحاولة حين تصدى للتأليف في الشعر الجاهلي عام ١٩٢٥ م. وبالرغم من أخذه عن الرافعي، وإثارته لبعض القضايا،

---

(١) المصدر السابق ص ٧٦.

(٢) عمر الدسوقي - مذكرات في مناهج البحث.

(٣) محمد سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٦٨.

(٤) عمر الدسوقي - مذكرات في مناهج البحث.

(٥) رسائل الرافعي ص ٢٠.

فإنه قصر في الاستشراف الى آفاق علمية أخرى، يوفق فيها (١)، ومازال — عفا الله عنه — على حالته هاتيك حتى في تصديه للتأليف في «الفتنة الكبرى» (٢) إذ أن من عيوب طه حسين أن لا يعود الى مراجعة ما يجنح إليه من مغامرة يقذف فيها بنفسه ويعتد برأيه محتجاً بأساس ما!..

وإذا كان من آفات الأديب العربي «المبالغة» والتهويل،.. فلا يجوز أن تنسحب هذه على الدراسات المنهجية التي تعتمد التحليل والمراجعة والمقارنة الحدية قبل التسليم برأي ما.

* * *

ولقد توالت من ثم الرسائل الجامعية فى موضوعات الأدب وتاريخية تطّرد مع الحركة الأدبية نفسها فى أشواط ما تزال تقطع فيها أسباب اليقظة الفكرية، تتسابق علمياً،.. ويظفر بعض النبغاء فيها بأعلى الشهادات وأوفى الدرجات،.. حتى لتكاد الدراسات الأدبية تكون عنوان الحركة الفكرية والانبعاث الأدبي القائم اليوم.

وقد استطاعت المحاضرة التدريسية أن تتجمع في أماليها على طلبة المعاهد بخاصة، أن تثمر في مؤلفات كلية تتناول الأدب العربى من عدة زوايا،.. حتى ظهرت المصنفات المعروفة اليوم في «الأدب العربى وتاريخه» للأستاذ محمود مصطفى، وتاريخ الأدب العربى للسباعي بيومي، والوسيط والمفصل في

---

(١) سنبسط الحديث في ذلك عند كلامنا عن «عيال الرافعي» الموضوع الذي أدرناه حول من أخذ عنه حدية آرائه، ولم يكن يحسن استعمال أداته.

(٢) راجع الشيخ محمود شاكر فيما كتبه عن الفتنة في الرسالة عام ١٩٤٧م.

تاريخ الأدب العربى للشيخ أحمد الاسكندري ورفاقه ، .. وتاريخ الأدب العربى للأستاذ أحمد حسن الزيات .. ثم في الأدب الحديث وتطور النثر الحديث للأستاذ عمر الدسوقي ، والمجمل فى تاريخ الأدب العربى للأستاذ محمد بهجة الأثري .

وكان لهذه المؤلفات أثرها البليغ في الرسائل الجامعية ، التي وافت فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر الحالي ، .. ونذكر منها على سبيل المثال تاريخ الشعر العربى للدكتور نجيب محمد البهبيتي ، والحياة العربية فى الشعر الجاهلي الدكتور أحمد محمد الحوفي ، .. وغيرها من الرسائل العلمية الموفقة .

* * *

وعادت كتابة التراجم والسير الى الحياة من جديد ، مستفيدة من المنهجية العلمية فى التخطيط والتفصيل ، وإن لم تخل محاولاتها الأولى من التقليد ، فقد كتب الدكتور محمد حسين هيكل سيرة النبي العربى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، متأثراً الى حد كبير بكتاب المؤرخ الفرنسي « برنغام » في « حياة محمد » وبناه على هذا الأصل الفرنسي ، ولولا هذا الأصل ما كتب هيكل فى حياة الرسول حرفاً (١) ..

كما كتب بالطريقة ذاتها الدكتور طه حسين « على هامش السيرة » في ديباجة عربية يشرق فيها الأسلوب بالعبارة الرائقة ، ويرحل بالأصول التاريخية الى عربيتها ، .. ولكنه لم يكن يبدو فيه العربى المؤمن ، ولم يخلُ أسلوبه من

(١) محمود ابو رية - هامش رسائل الرافعي ص ٢٢٣ .

« تهكم صريح » (١) . على أن الأصل الذي أخذ عنه طه حسين كان فرنسياً أيضاً ، وقد كشفه أحد أخوتنا الجزائريين الذين كانوا يدرسون معنا على الأستاذ نجيب البهبتي في جامعة بغداد ، وذلك أن « هؤلاء قوم مستعمرون من عقولهم » (٢) .

وكان الرافعي قد همّ في كتابة السيرة النبوية ، على نمط اقترحه هو من المقالة البيانية والتأمل في الحوادث ، وتوليد المعاني ، وتفتيق الذهن على ما انغلق أو انبهم منها ، .. ولكنه لم يكتب منها غير صفحات ، ونشر بعضها في وحي القلم (٣) ، ..

ولكن العقاد ـ اهتبلها فرصة بعد وفاة الرافعي ، فأخذ عنه بعض نهجه ، . وراح ينحو منحى « مالروا » في الترجمة الأدبية ، فقطع أشواطاً في « العبقريات » (٤) .

وعلى أنها لم تحلّق الى السماء الرافعية في قوة العبارة ، وإشراقة البيان ، ونور الأسلوب وشدة الأسر .. إلا أنها استكملت بعض أدواتها التاريخية ، بالرغم من آفة العقاد في أخذه ما يوافق منه هوى أو يأتلف مع وجهة نظره ويطيب من مزاجه !.

وكان هو والدكتور طه حسين بعد ذلك فرسي رهان في الموضوعات

---

(١) الرافعي ـ الرسائل ص ٢٧٠ .

(٢) الرافعي ـ ص٢٢٣ .

(٣) اجتمعت لدي الآن ، وعسى أن يعين الله في إخراجها بالاسم الذي أراده رحمه الله في « الكتاب النبوي » .

(٤) راجع إحسان عباس ـ فن السيرة ص ٦٢ .

التاريخية والاسلامية ، تحتاج الوقوف والمدارسة وإطالة النظر ،.. ولا سيما في الظروف السياسية التي وجهتها ، .. وبخاصة في تلك الموضوعات التي تصدىا لها فأثارا غير معركة في المناقشة والرد .. والاتهام (١) .

وكان الى جانب ظهور التأليف والترجمة والتصنيف في الموضوعات العلمية والأدبية بعامة ، .. ولوجود الصحافة اليومية والدورية ، والتي تحتاج الى السرعة والعناية معاً ، فقد ولدت « المقالة » في فن من فنون القول ، . قد تكون تطورت - بسبب عوامل النهضة - عن المقامة أو الخاطرة ، .. أو تحولت عن الخطبة ، فكانت سبيلاً وسطاً بينهما ، .. وإنما تميزت عليهما بشروط التوفر والاستيعاب ، ثم الصدور برأي يوضح هدفاً وحجة تبلغ قصداً ! .

وقد نما فن المقالة نمواً سريعاً ، وتنوعت هي وتوزعت في نواحي النشاط الاجتماعي والثقافي (٢) ولا يفوتنا أن نذكر أنها اعتمدت الترجمة أولاً ولا سيما في الناحية العلمية .. حتى كادت تنفرد على يد الدكتور يعقوب صروف ، وفارس نمر وشبلي شميل ، وسواهم ، ..

ثم قامت من جديد عند اسماعيل مظهر ، والدكتور مصطفى مشرفة وكادت تنال الحظوة لدى الدكتور أحمد زكي ومحمد عاطف البرقوقي وغيرهم .

وهي اليوم تمضي بأشواط تبشر بكل خير في هذا المضمار العلمي الوليد .

---

(١) كان المرحوم محمد سعيد العريان (ق) قد تصدى لبعضها في الثقافة ، وكذلك وقف الشيخ أحمد والشيخ محمود محمد شاكر في الرسالة وقد أكال محمود الكلام حتى ليكون من المفيد أن يعيد كل منهما النظر فيما كتب !..

(٢) عبد اللطيف حمزة - الصحافة والأدب ص ١١٤ ..

وكانت المقالة السياسية التي انطلق بها الشيخ علي يوسف في (المؤيد) وسدد خطاها بفنه الخطابي الزعيم مصطفى كامل في « اللواء » وسار بها من بعده أمين الرافعي في « الشعب » و « الأخبار » وكتبها كذلك عباس العقاد ومكرم عبيد ومحمد حسين هيكل ،.. وثار بها في العراق عبد الغفور البدري وأمين أحمد في « الاستقلال » ونازل بها الزعماء القوميون أساليب السياسية الملتوية عند حكومات الاحتلال والتبعية .

أما المقالة الاجتماعية ، فقد عاناها معظم الكتّاب والأدباء .. والسياسيين ، ولا سيما بعد أن أضحى الاجتماع القومي والانساني المعين الذي لا ينضب لما يحتاجه هؤلاء من معاني الحياة التي يهدفون إليها بقصد أو دراية ، أو مذهب واتجاه .

.. وقد كتبها المويلحي ، ونظر بها مصطفى لطفي المنفلوطي في جريدة الشعب ، واستهدف فيها الرافعي في « الجريدة » و « البيان » والمقتطف والهلال والمضمار ثم الرسالة . وضمنها من قوة حجته ، وروعة عارضته البيانية ما سما بها الى أوج عال من الاتفاق والسداد ،.. ولا سيما تلك التي عالج فيها معضلات الانسانية الكبرى فى الفقر والفقراء ، والجهل والطيش والخلط وتخانيث أوربة على ما سوف نعرض له في فصل خاص .

وقد برزت بها من ثم الآنسة « مي » ولا سيما في موضوعات المرأة ،.. وتنوع بها أحمد أمين وكتب بها غير هؤلاء وأولئك في معظم ما يزخر به المجتمع الجديد من مسائل وقضايا .

وكانت كذلك المقالة الأدبية التي تميزت في أشكالها الثلاثة وهي ترقى في الأدب الحديث وتمتد به الى جمهور القراء والدارسين معاً .

حيث اصطفت التقريرية منها الحديث عن الأدباء والشعراء تصف من أحوالهم وتنعت آثارهم وتجتزيء القول في النعت والتقويم عن النقــد والتحليل ... وقد يكون ابراهيم المويلحي قد بدأها ولكن مصطفى لطفي المنفلوطي سار بها أشواطاً وهو يعرف بالأدباء والشعراء ثم تلاه محمد صبري فالعقاد

وأما النقدية والتقويمية فإن الشيخ ابراهيم اليازجي يقف في مقدمة منشئيها مع صاحبي المقتطف حتى تلاهم الجيل اللاحق كالرافعي والعقاد ومي وفيلكس وفارس ..

ويلاحظ عليها من ثم أنها راحت تتوزع مع مذاهب النقد التي قامت في الأدب الحديث من بعد .

ولكن المقالة البيانية قد أوتيت حظاً كبيراً من العناية والتجويد ... ذلك أن ما يحفل بــه من معانٍ تأتي على صيغ بلاغية خاصة وأساليب اللغة والانشاء تميزها وتقوم بها على وجوه من هاتيك المعاني وما تتفتق عنها ونماذج من الظلال وما ينير من حولها وأشكال من الأصداء ترن من بعدها .. وهي ترتفع كلما ارتقى الـكاتب في مجالي الثقافة العلمية واللغوية وتمكن من الحصيلة المعلمية الواســعة .

وقد يكون ابراهيم المويلحي في طليعة من توثقها كما يكون الشيخ ابراهيم اليازجي في مقدمة من سار بها قصداً وغاية .. كما كان الشيخ محمد رشيد رضا والشيخ محمود شكري الآلوسي في عداد من أخرجوها أطواراً أخرى . تنفصل فيها عن (المقامة) وتستقل بذاتها .

ولـكننا نجد الرافعي قد وصل بها القمة . ولا سيما حين عرضها في مجموعة

« وحي القلم » وفصل فيها القول في المقدمة التي عقدها لها والتي قال فيها « لا وجود للمقالة البيانية إلا في المعاني التي اشتملت عليها ؛ يقيمها الكاتب على حدود ، ويدبرها على طريقته ، .. مصيباً بألفاظه مواقع الشعور ، مثيراً بها مكامن الخيال، آخذاً بوزن تاركاً بوزن، لتأخذ النفس كما يشاء وتترك .. الخ» (١).

وكان الرافعي ذا مذهب في الأسلوب له أتباع ومعجبون ، ومعظم أتباعه من هؤلاء الذين يرون رأيه في الحياة المعاصرة ، ويقيسونها بمقياس المثل العربية العليا ، . وقد حاولوا أن يقلدوه في أسلوبه ، ولكن أحداً منهم لم يصل الى ما وصل اليه من الصور البيانية .

.. وغاية ما وصلوا اليه ، هو محاكاته ذلك الأسلوب القوي الجزل الخالي من الأساليب الأعجمية (٢) .

وقد زاد عليها الاستاذ أحمد حسن الزيات من المترادفات ، وتقابل الصور ، واتفاق السجعات، ما كاد يطبعها بطابع خاص (٣) ، وعرفت له بالرغم من غمز مارون عبود له والرافعي بمحاولة « قوقعتها » على حد تعبيره .

وكادت هذه المقالة البيانية أن تذوب وسط الاساليب المستعجمة والصحافة الاخرى ولا سيما بعد أن تحول عنها أحمد أمين وطه حسين وهيكل والعقاد والمازني وسواهم ! .. ولكنها عادت فأشرقت عند الاستاذ عادل الغضبان ، الذي

---

(١) الرافعي - البيان - مقدمة وحي القلم .

(٢) الدسوقي - نشأة النثر وتطوره ص ١٠١ .

(٣) عمر الدسوقي - تطور النثر الحديث ص ١٠١ .

طلع بها من جديد في أفق جدير بالاعجاب والاحترام (١) .

* * *

أما فن القصة والرواية فإن أثر الترجمة والتقليد للمذاهب الادبية في أوربة ظاهر واضح فيها وقد حفل العصر بمترجمات لمعظم روايات القوم وقصصهم ، سواء منها ما تناولت التاريخ عندنا كروايات تاريخ الاسلام لجورجي زيدان ، أو تحدثت عن تاريخ الثورات والحركات القومية في أوربة نفسها !.. وسواء منها ما صورت قصص المحبين والعشاق ، أو عرضت لمجموعات الفقراء والبائسين من أبناء الامم ،.. ووضعت مؤلفات ومصنفات عدة في القصة مترجمة وموضوعة ، فقد حاول جمهرة الادباء العرب في العصر الحديث كتابة القصة على مذهب من المذاهب الادبية ،.. إبتداءً من حديث عيسى بن هشام للمويلحي وعبرات المنفلوطي ، وقصص طـه حسين والعقاد ومحمد حسين هيكل .. ومحمود تيمور وسواهم .

وكان الرافعي قد همّ في مطلع حياته الادبية أن يكتب القصة ، ويؤلف في الرواية ، ويصوغ مترجمة لاحداها ،.. ولكنه قصر في ترك هذا الفن .. حتى إذا ما عاد اليه في آخر أيامه .. كان يخلط فيه بين المقالة والمقامة ، ولا ينال من فن القصة غير هدف الحـكاية (٢) .

وكانت هنالك ظاهرة في الحركة الأدبية جديرة بالوقوف حيالهـا والتأمل فيها بوعي وإدراك فقد ثار فن النقد الأدبى ، وامتد في المناقشات

---

(١) عسى أن يخرج مجموعة منها في « وحي الكتاب » .

(٢) سنفصل ذلك عند الكلام عن فنون الأدب الرافعي .

الى ما يكاد يوصله اليوم غاية فى المذهبيات المحدثة .. فكثرت الدراسات النقدية للأدب وفنونه كثرة يأخذ بعضها من بعض أحياناً .

وتكاد كتب النقد ومناهج البحث في اللغة والأدب تؤلف مكتبة ، يحار المرء فيها ، من أين يبدأ ، وما ذا يدع !..

وهي ظاهرة إن دلت على شيء فإنما تدل على مبلغ اهتمام الأمة بالأدب وأهليه ،.. ومحاولة تقويم آثاره بمعايير علمية جديدة ، ..

وربما كان غير أديب أو ناقد يحاول أن يصنع لنفسه مذهباً فيها ، .. سواء قلد فيـــه سابقين له أو أخذ عن مذهب ترجمت آثاره ، أو حورت بعض إتجاهاته ، .. أو حاول أن يفترع له منهاجاً في النقد يبتدعه فيعرف عنه .

.. ويُعـدُّ كتاب « الوسيلة الأدبية » للشيخ حسين المرصفي كالباكورة الطيبة ، ويمثل الدور الخطير الذي قامت به « دار العلوم » في سبيل الحفاظ على اللغـة ، وبعث الأساليت البيانية في الأدب من جديد مع الأخذ بسنة التطور والتجديد .

ثم كانت محاولات المنهجية المحدثة ، تكاد تقتفي آثار المستشرقين ، كما فعل الدكتور طه حسين فى آراء مرجليوت في الشعر الجاهلي التي نشرها عام ١٨٨٣م ، فطبقها على الشعر نفسه في كتابه « في الشعر الجاهلي » الذي ألقاه أمالي على طلبة الجامعة عام ١٩٢٥ م !.

أو تقرأ محاولات النقـــاد ونظرياتهم فى أوربة والآداب الانجليزية والفرنسية بخاصة ، فتحاول تطبيقها على الأدب العربي ، كمحاولة الأستاذ عباس العقاد ورفيقه المازني فى « الديوان » .

ولكن محاولة الرافعي فيما كتبه عن البارودي ، وصبري ، والشعر العربي ،٠٠ وما ردّ فيه على الدكتور طه حسين فى المعركة بين القديم والجديد ، وما حلل فيه شاعرية كل من عبد الله عقيني وعباس محمود العقاد - وقد وضعهما « على السفّود » وما أنصف فيه حافظ ابراهيم ، ورفع من قدر أحمد شوقي ،٠٠ وانتهى الى منهاجه في نقد الشعر تعد كالمذهب النقدي المتميز بـه على جميع معاصريه ، ٠٠

فقد كان يستوعب علوم العرب في الفن ويفقه مصطلحاتهم تحليلا وتفسيراً ، ويأخذ عن المترجمات ما يمتاز بالأصالة والقصد ، ٠٠ ويمثل ذلك كلّه في طبيعته الشاعرة ، وروحه الأدبية الثائرة ،٠٠ حتى ليتمثل فيه « النقد الذي يربي الأدب ويسمو بـه » .

وقد حفل النصف الثاني من القرن الرابع عشر الحالي بالكثير من هـذه الدراسات النقدية ، وكان المرحوم طه ابراهيم قد سبق في هذا المضمار حين أجمل « تاريخ النقد الأدبي» عند العرب ،.. حتى بعثه من جديد الاستاذ أحمد الشايب فى « أصول النقد الأدبي » امتاز فيه بشيء من المقارنة المنهجية ، وكأنه مهّد من بعد للمرحوم أحمد أحمد بدوي ليخرج كتابه الفخم « أسس النقدي الادبي عند العرب » الذي ربما كان وراء محاولة الدكتور محمد المندور في دراسة « النقد المنهجي عندالعرب » وكذلك عند حشده لمطالعاته في « الميزان الجديد » بعد شيوع التأليف بالمقص أو ما يعبر عنـه سابقًا بالتلفيق وكذلك محاولة الدكتور أحمد أمين في كتابه « النقد الأدبي » .

ولم تكد تترجم بعض الدراسات النفسية ، وتظهر بعض مصطلحات

التطبقية في الفنون والآداب حتى رأينا الأستاذ الجليل محمد خلف الله أحمد يعمد الى دراسة مقارنة وموفقة يتناول فيها الموضوع « من الوجهة النفسية في دراسة الأدب » .. الذي أعجب الكثير من الأدباء ، .. حتى لقد أخذ سيد قطب بعض منهجه ومضمونه ، وأدخل حشداً من مصطلحات جماعة علم النفس التكاملي ليكتب هو الآخر كتاب « النقد الأدبي - أصوله ومناهجه » .

وما برحت هذه المكتبة في نماء وإطراد ، .. وإن غلبت عليها في السنوات الأخيرة صفة الترجمة الكاملة لمثل هذه الآثار عند الغرب ، .. فظهر كتاب الناقد الامريكي ستانلي هايمن (النقد الادبي) مترجماً بقلم الدكتور إحسان عباس ، .. وكتاب إليزابث درو « الشعر كيف نفهمه ونتذوقه » مترجماً بقلم محمد ابراهيم الشوش ، وقبلهما « منهج البحث في اللغة » لكرومبي ترجمة المنذور .. الخ .

.. ولعل مرد هذا التحول تهافت الدراسات النقدية ، وأخذها الواحدة عن الاخرى ، أمام العوامل والظروف التي طرأت على الحياة الادبية بعامة .

على أن أكثر المطالعات والدراسات النقدية في العصر الحديث ما زالت مقالات وأحاديث موزعة في شتيت من الصحف والمجلات ، لا يكاد يتوفر عليها الباحثون للغابة التي تقع فيها هذه الآثار بين مكتبات الاقطار العربية ، .. ولعدم وجود النظام المكتبي - الفهرس - الذي يعين الباحث على أداء مهمته ، .. فليس في وسعه أن يرى من بين عشرات الالوف من هذه المقالات غير التي تهيأ له في بضعة من صحف قطره ، أو القطر الذي يزوره ويدرس فيه ، .. وحتى هذه قد تكون ناقصة - إن لم تمتد إليها يد الحجب السياسي ، والسطو الذي يقتطع الاثر بالمقص خلسة ! .

ومن هنا كان النقص كالملازم لكثير من الدراسات النقدية والادبية بعامة في العصر الحديث،.. غير التقصير الاخر في الاستيعاب والاخذ، وغير الزلفى التي تستولي على بعض الدارسين في التقرب من أديب كبير، أو الخشية من بطش ناقد شهير!.

وبذلك سارت هذه الاحاديث والابحاث يتوكأ بعضها على بعض - وعلى ما فيها من المسلّمات التي لا ترضى إعادة النظر، وهي تدور، وفي دورانها نوع من التقرير!

ولو أردنا الاستطراد في هذا الموضوع لخرجنا من تلك الصفحات ندور أيضاً حول مفهوماتها التي استقر بعضها في الاذهان.

على أن الامر من الخطورة بمكان، ويحتاج الى عمليات مسح كبرى تعين أماكن محتوياته «ببليوغرافيا» قبل أن تتصدى له الدراسات الجامعية التي تتولى جوانبه جميعاً.

* * *

وكانت جوانب الحركة الادبية قد امتدت الى المكتبة العربية فعمرتها من جديد، ونمت نمواً كبيراً بفضل ما طبع ونشر من كتب ودراسات وأبحاث مما تقدم ذكره.

وقد لوحظ ميل الاشخاص الى اقتناء الكتب، وإعداد المكتبات الخاصة. الى جانب الهمم العالية التي تصدى فيها بعض الموظفين الكبار في الدولة لتأسيس المكتبات العامة، كالتي أعدتها الحكومة العثمانية في الاستانة ودار الكتب المصرية التي تأسست عام ١٨٧٠م. ومكتبة الازهر الشريف ومكتبات الاروقة

والمساجد الاخرى .. ثم المكتبات البلدية وخزانات الكتب التيمورية والزكية التي وقفها أحمد تيمور باشا وأحمد زكي باشا ـ شيخ العروبة .

وكذلك مكتبات الديار الشامية كالظاهرية بدمشق والأحمدية بحلب والشرقية ببيروت والخالدية في القدس .. الخ .

والمكتبة المرجانية والخالدية والأعظمية وغيرها من مكتبات المساجد فى بغداد ومكتبات مكة المكرمة وخزائن الكتب فى المغرب والهند .. الخ (١) . بحيث أصبحت هذه المكتبات لا تقل أهمية عن مكتبات أوربة في متحف برلين وبون وكمبرج والأسكوريال وايدن وبطرسبورج وباريس والفاتيكان والتي تضم من آثارنا الحضارية ما لا نزال نتطلع الى معرفته ولو عن طريق التصوير والاستنساخ ! .

وحسبنا أن نذكر ثقافة الامام الرافعي واختلافه على المكتبات العامة والخاصة ، لنرى مبلغ العناية بالكتب والمصنفات ، فقد ذكر الاستاذ سعيد العريان أنه كان يستعين بمكتبة الجامع الأحمدى الى جانب مكتبة أبيه ومكتبة البلدية ودار الكتب المصرية ومكتبة احمد زكي باشا وأحمد تيمور باشا ويعقوب صروف (المقتطف) وزيدان (الهلال) وسواها من المكتبات الخاصة .

وبناءً على ما تقدم ذكره موجزاً ، وما لم يرد لاقتصادنا فى الحديث ، كانت الحركة الأدبية تتسم بالانبعاث وتحفل بالحياة الانسانية ، وتخلد آثاراً ممتازة ، وأزهاراً طيبة ، وثماراً يانعة .

---

(١) راجع في الموضوع - جورجي زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٤٥٥ وما بعدها ..

ولعل من أهم مميزات الانبعاث الأدبي الحديث ، ما حفل بـه في وجهته الانسانية مع الاهتمام بالاجتماع العام ، وغيرة الادباء والشعراء على البائسين، ورفقهم بالكادحين ، وإشفاقهم على اليتامى والأيامى والمشردين والمعوزين ، ونصرتهم للجمعيات والمنظمات التي تعنى بحياة الفقراء ومواساتهم والحدب عليهم (١) .

وربما كان في بروز فكرة الحياة الكريمة وحسبانها من لوازم الايمان الصحيح نقلة عظيمة فى الأدب العربي تطعمه بالفكر ، وتمضي بـه الى العلوم الفلسفية والاجتماعية يأخذ منها ويضع فيها حتى رأينا وكأن روحاً من التفاؤل الكبير والتأمل الواعي والتصرف المتزن بقي الناس مغبة السقوط والتشاؤم والقنوط يأساً وتسليماً بالمقادير وأنوائها .. قد أخذ سبيله في صفوف الأمة عن عن طريق الادب وآثاره .

فنجد الرافعي يقدم لإحدى قصائده بمثـــل قوله : « تتدفق الحياة بين شاطئين يمتدان من غياهب الماضي الى غيب المستقبل أحدهما شاطيء الانسانية والآخر شاطيء من رحمة الله وبينهما تجري الحياة الى غايتها متغيرة متجددة متدافعة لا تثبت قطرة منها على قطرة .

ومتى قرر الانسان ذلك فى قلبه عرف أن ما يلمّ بـه من أكدار الحياة إنما هو من الحياة نفسها وأن هذه الاقدار يحملها النهر عنه فيما يحمل » (٢) ثم

---

(١) سنعرض لذلك بالتفصيل عند بحثنا لجوانب الإجتماع في أدب الرافعي - وانظر محمد لطفي جمعة - العنصر الإنساني في الأدب الحديث .. الكتاب سنة ٢ م ج ١ يناير ١٩٤٧ م .

(٢) الرافعي - الهموم - المقتطف - تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٣٣ م .

يرسل قصيدته في الهموم .

ويتبع هـذه الطريقة الشاعر عبد الرحمن الشكري ولا سيما في قصائده التي عاد ينشرها في الرسالة بعد صمته الطويل (١) حتى نراه يقول :

إنمـا العيش أن تكون جريئاً ليس ترضى الحياة غمراً ذليلا

وكأنما كان يقابل معروف الرصافي بهذه المعاني التي تحملها الـكلمات ـ جريئاً غمراً ذليلا ـ وقوله الذي يغرق في التشاؤم :

أرى الخير في الاحياء ومض سحابة

بـدا خُلـَّباً والشرّ ضربة لازب

وما جاء فيه من (ومض السحابة) و (ضربة لازب) بحيث تكون الحيـاة ذات منطق رائع ، قـد يفهم أحياناً ، فيحتاج بذلك الى قوى أخرى ، تصور فيها الحياة ويعرف عنها ذلك المنطق .

ولم يقتصر مثل هـذا الاتجاه على الايمان بالحيـاة ولكنه تحرى أيضاً مسائل تتعلق بالوجود نفسه ، وامتد الى الغيب يتأمل النفس ويحاول تأويلهـا من جديد ، وينظر في آلاء الله يدرك شيئاً من عظمة ذات الجـلالة ويرى السعادة في مثال فلسفي يعي صور المعنويات .

وكان أحمد شوقي وما عرف عنـه من المباريات الشعرية والمعارضات التي سابق بها الاقدمين والمحدثين وسابق بها نفسه أيضاً .. من أوائل الشعراء في هذا المضمار . فقد عارض ابن سينا في عينيته المشهورة في النفس وتأويلها . فذهب

---

(١) راجع أنيس المقدسي ـ الإتجاهات الأدبية ج ٢ ص ٩٣ وما بعدها .

فيها مذهب الاقدمين من الفلسفة الافلاطونية المحدثة حيث قال ابن سينا :

هبطت إليك من المحل الأرفع حسناء ذات تعزز وتمنع

فقال شوقي :

ضمي قناعك يا سعاد أو ارفعي هذي المحاسن ما خلقن لبرقع

.. يا نفس مثل الشمس أنت أشعة في عامر وأشعة في بلقع

فاذا طوى الله النهار تراجعت شتى الأشعة فالتقت في المرجع (١)

وقال آخر :

يا نفس موطنك الخلود وإنما هـذا القدوم على رحيل مزمع

وقال آخرون قصائد أخرى ، اجتمع بعضها في الكتاب الذي أخرجته جامعة الدول العربية عن مهرجان ابن سينا المنعقد في بغداد عام ١٩٥٢ م .

ولم يسمُ في تلك القصائد جميعاً شاعر كالأستاذ عادل الغضبان في مثل قوله يدحض ذلك المذهب الوثني في تأويل النفس وتفسيرها :

أسطورة النفس الأثيمة قصة نبتت على دمن الزمان المهيع

أيام يرتع في الجهالة ذو الحجى ويدين بالأوثان كلُّ سميذع (٢)

وقد نقل صاحب الطلاسم - إيليا أبو ماضي - هذه العينية الى « السعادة » فحار في تفسيرها أيضاً ، حتى لقد كان يحسبها « العنقاء » ذلك الحيوان الخرافي الذي لا وجود له ،.. حيث قال في قصيدته :

أنا لست بالحسناء أول مولع هي مطمح الدنيا كما هي مطمحي

---

(١) المقتطف - مجلد ٦٤ ص ٤ .

(٢) راجع « مهرجان ابن سينا » ومجلة الكتاب - أبريل - نيسان ١٩٥٢م .

ولكنه يعود فى آخرها مؤمناً بالانسان نفسه :

.. وعلمت حين العلم لا يجدي الفتى   أن التي ضيّعتها كانت معي ! (١)

ولما احتسب الدكتور شخاشيري ولداً له جرى على لسانه قول اليائس الحزين شعراً :

أين السعادة والأيام تأباها   مرّت علينا فلم نشعر برؤياها

فأجابه الرافعي بطيب خاطرة بقوله :

ألله أوجدها للنـــاس قاطبةً   فما الذي عن جميع الناس أخفاها ؟ !

فسل صغار الورى عن همّ أوّلها   وسل شيوخ الورى عن هم أخراها

إن السعادة أن ترضى بلا غضب ..   وكيف ذاك بدنيا لست ترضاها ؟! (٢)

وبذلك كاد يقترب من الحقيقة بنفس راضية وإن لم تطمئن .

وقد ذهب المهاجرة من العرب في الامريكتين فى حد الاغراق فى مثل هذه الموضوعات ، فلا تكاد تجد أحداً منهم لم يتعرض لها ، .. وإن أعياهم التأويل ، وحارت بهم سبل التفسير ، فيقول مسعود سماحة وكأنه يجلو صدأ السنين ويعيد الأصداء :

حارت عقول الباحثين وقصرّت   وســواك كلٌّ عاجز ومقصّـر

لم يعـــثروا إلا بمـا أوحيته   وأذعته لهم ، ولمّـا يعثروا ..

ولكن موجة من الشك ، والضياع ـ اللا أدرية ـ كانت تجتـاح بعض هؤلاء المغرقين في البحث عن الحقائق والدقائق فى هذا الوجود .

---

(١) ايليا أبو ماضي ـ الجداول ص ٤٦ .

(٢) الرافعي ـ الرسائل ص ١٠٦ .

وما لبثت هذه الموجة أن تغذت بحوادث قلقة في الفكر الاسلامي نفسه ، فأخذت من شطحات بعض المتصوفة ، ونطحات أهل الفلسفة ، واستبطان دعاة التشيُّع ما انحرفت بـه الى الزيغ ، وتجاوزته الى الالحـاد ، وكادت تجهر بالكفر والعصيان .

وقد أفادت من ذلك الشعوبية المحدثة في السياسة الاقليمية بخاصة ، وما زالت بعض فترات التاريخ تحتضن هـذه الحالة مع « اليسارية » المحسوبة على الجمهور ، .. تعشعش فيها وتفرخ .

ومما لا ينكر أن توالي المحن على الشرق العربي ، وما لقيته الروح القومية من التضاد والتصادم مع الاستعمار ومجاليه السياسية والاقتصادية والفكرية ، وإثماره في الضياع والتمزق ، .. كان قد أثار موجات من الفزع أضعفت الشعور بالعدل الانساني ، والايمان بالقيم العليا ، .. وحدت بالادباء أن يلتمسوا الخير عن طرق أخرى ، ومنها القوى المادية (١) .

ولم تخل بعض الاتجاهات الفكرية في الأدب العربي الحديث من نظرات هادفة ، وأخرى تلتمس الاعذار عن الدهر ، وفساد النظام ، وثالثة تجرُّ الفكر الى محاولة الاهتمام بالفطرة ، والعنـاية بالاجتماع عامة ، .. خروجاً بالحياة الواقعة نفسها الى منطلق جديد لا ينتظر مسح دموع البائسين بالاحسان فقط ، .

فنجـــد الشيخ مصطفى لطفي المنفلوطي يرفع آهات الفقر في قصيدته « صوت الفقير » (٢) ، .. ويعود فيحاول أن يمسح « العبرات » من عيون

(١) أنيس المقدسي - الإتجاهات الأدبية ج ٢ ص ٣٥ .

(٢) المنفلوطي - الهلال ص ١٧ - ٢٢٠ .

المحزونين ، .. ويرى « النظرات » المتطلعين من المعدمين ..

وتكاد ظاهرة التناقض في الارزاق تستهلك عواطف الشعراء بلا استثناء ،.

وكأنما كان الرافعي يرفع عقيرته بصيحة ثورية يهتزُّ لها طيب الذكر فرح أنطون ، ويعدُّها من الانطلاقات الاشتراكية في الأدب العربي عندما نشر له قصيدته التي يقول فيها :

أليس من التغابن – وهو ظلم – جزاء السعي يكتب للقعود ؟ !

ويزفر « الامير » شكيب أرسلان مع « الفقير » في مثل قوله :

أفي الحق أن يشقى الفقير بعيشه وذو المال فى شر الغواية يسرف ؟!

ويقرر أحمد محرم حقيقة الواقع الذي يعانيه الفلاح – فيقول :

يُغني ألوف المترفين بماله ويعيش فى فقر وفى إمـلاق

ويعود فيخاطب « ابن الريف المصري » بقوله :

كم من غنى وافٍ ورزق واسع لبني البـلاد على يديك متاح

. ولكن روحاً تشاؤمية كانت تطغى أحياناً على الشعراء والكتاب في هذا الموضوع ، حتى لنجد السيد أحمد الصافي النجفي – وهو يعارض قصيدة محرم – يقول بإشفاق ينم عن مرارة وأسى :

رفقـاً بنفسك أيهـا الفـلاحُ تسعى وسعيك ليس فيـه فلاح

لك في الصباح على عنائك غدوة وعلى الطوى لك في المساء رواح

وكأنما استعصت عليه المسألة حلاً حين يقول :

يا ريف إن كتاب بؤسك مشكلٌ يعيا بحـل رموزه الشراح ..

* * *

وإذا كان قد اشتهر عن بعض الشعراء عنايتهم بالبائسين والأيامى واليتامى ،.. وتقدمهم معروف الرصافي في هذه الشهرة في قصيدتيه « اليتيم في العيد » و « الأرملة المرضعة » .

فإني لا أعتقد أن أديباً عربياً صرف فنه ، وأوقف شعره ، وثار في فكره وإتجاهه بإيمان ثابت ، ودعوة هادفة ، ومبدأ قويم ،.. يؤلف بها مذهباً يعرف به مثل إمامنا مصطفى صادق الرافعي !..

وهذه قصائده ومقالاته ، وخطبه وأحاديثه ، ما اجتمع منها في ديوانه الأول ، وما لا يزال ينتظر الانضمام الى الأجزاء الأخرى ، وما تألف على بعضه فى كتاب « المساكين » أو كان من « وحي القلم » في دراساته الاجتماعية ، وتحليلاته الواقعية ، وخطبه الاحسانية ، وروحه الاشتراكية ، وعقيدته القومية ، وخلاقه الاسلامي ، .. ما يلقي انا الأضواء التي تجعلنا نحكم له بالصدق في تمثيل الاجتماع العربي في النصف الأول من القرن الرابع عشر الحالي ،.. وأنه التقى بالصفوة من نبغاء الفكر في العالم ممن يخططون للاصلاح الاجتماعي فى سبيل الكرامة الانسانية .

ولسوف نعقد لذلك فصلاً خاصاً في دراستنا اللاحقة .

* * *

وإننا نجد إزاء هذه النظرات الانسانية المثيلة ، والروح الأدبية النبيلة فى الفكر العربي المحدث ، أن مال الكثير من الشعراء والكتاب الى الحياة الريفية ، والفطرة القريبة منها ،.. محاولين الاتصال بالطبيعة بروح جديدة ، وتسام ينزع عنه كلفة الحياة الحضرية ومظاهرها ، ويجعل من أحدهم كائناً حياً ،

يعي من غير إجهاد ، ويحس من إثارة ، ويخالط أبناء الفطرة في الريف فيشاركهم مشاعرهم الفريدة ، ويتذوق أمزجتهم الطيبة ، .. ليعود فيصور من ذلك كله لوحات فنية ، ذات روح معنوية للطبيعة الحية التي لم تختلط بها الأدران ، .. ويفيض في نزعات يسمو بها الوجدان ، وينبعث الضمير حياً بالايمان .

ويحسب الأستاذ محمد عبد الغني حسن أن الرافعي « قد أحس الجمال في الأراضي والطبيعة الريفية ، كما أحس البؤس عند الفلاح فكان كالذي يعطي إشارة البدء » (١) في هذا الاستباق .

فإذا كان أبو الطيب الكندي ـ المتنبي ـ قد أخذ بمفاتن البادية حين قال:

أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

ني ليرى عن فطنة وذوق أن :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب

.. فإن الرافعي قد أحيا هذا المذهب في الشعر العربي الحديث ، .. فهو يستبق الشعراء في وقفة متأملة في جمال الكون تبدو فيه القرية المصرية ـ الضيعة ـ عند الصباح الباكر فيقول :

دموع الفجر هذي ـ أم دموعي ترقرق بين أجفان الربيع

.. ولاح الصبح يسفر عن جبين عليه الشمس حالية السطوع

فوردت الطبيعةُ وجنتيها ونضّر وجهها الحسن الطبيعي (٢)

ويمضى بعد ذلك مأخوذاً بفتنتها ، ومعجباً بمشاهدها الساحرة ، ..

---

(١) محمد عبد الغني حسن ـ الفلاح في الأدب العربي ص ٢٥ .

(٢) الرافعي الديوان جـ ١ ص٤٧ .

فيصف الفتاة القروية ، وقد بكرت تملأ جرتها ،.. جاريًا على مذهب أبي الطيب في المقابلة حتى يقول :

.. فذاك الحسن لا ما تشتريه ضرائرها من الحسن المبيع

وقد جارى الرافعي في هذا النهج الجديد المرحوم أحمد محرم في قصيدته « الطبيعة وفتاة الريف » والمرحوم محمود الخفيف في « فتاة القرية » .. كما سار عليه أيضًا بعض تلامذته الآخرين ، كالمرحوم علي محمود طه الذي زاد عليه الحنين الى تلك الأصقاع بمثل قوله :

يا حبذا هو من مراح للصبا والكوخ من مشتى لنا ومصيف

ويكاد الشاعر محمود حسن اسماعيل يكون إمام هذا الاتجاه بعد الرافعي لا منازع ، منذ وضع ديوانه الأول « أغاني الكوخ » وعاد في الثاني « هكذا أغني » ليقول في الفلاح مثل هذه المعاني المبتكرات الجميلة :

كم صبا السنبل الحبيب اليه ساكبًا بين راحه قبلاته
عشق الدهر كفه فتمني خلد أطرافها على ورقاته

ومما يتصل بهذا وذلك من تفنن الشعراء في الطبيعة وآثارها « صلوات في المحراب الأخضر » و « شجرات الشتاء » للرافعي ، التي كتبها بأسلوب النثر ومعاني الشعر يحسب أن النثر لا يضيق بمثل هذه المعاني حتى عاد اليوم من يسمى مثل ذلك الضرب من الكتابة « قصيدة نثرية » .

ويلحق بذلك أيضًا قصائد الشعراء الآخرين كالبنفسجة لجبران ، والفراشة المحتضرة لأبي ماضي والبلبل والورد لكل من الرصافي وأحمد رامي .. الى آخر ذلك من عناوين هذه المفترعات الأدبية .

ومن ناحية ثانية نجد أن الحضارة ووسائلها الحديثة كانت ذات تأثير كبير على الحركة الأدبية، وقد كان للمخترعات الباهرة، ومجالي العلوم الظاهرة، .. والبيئات الاجتماعية الجديدة، .. وما التف بهذه وهاتيك من مسائل القيم والاعتبارات الوليدة ما دخل بالأدب العربي برزخاً آخر من جديد الموضوعات.

ففي الوقت الذي يتخطى فيه الرافعي وصف المخترعات، نجده يتأثر بها غاية التأثر حتى لنكاد نرى عنده غيرةً من القطار بمثل قوله:

كيف هام القطار حين رآها　　أترى حسنها استهام القطارا؟!

سار يطوي جوانب الأرض طياً　　ولو اسطاع أن يطير لطارا (١)

.. ويقول بدعوة عصرية واضحة تصرف الأدب عن تقليد القدماء:

يا سعد هذا عصرنا فدع النياق يشفُّها الاتهام والأنجاد

واهجر حديث الرقمتين وأهله　　بادت ليالي الرقمتين وبادوا (٢)

حتى إذا ما عاد الى القطار أخذته منه روعة هندسته، فحسبه بيتاً يتحرك:

كالقصر فيه لكلِّ خود حجرة　　ولكل صب مضجع ووساد (٣)

.. ويخرج الرصافي الى الوصف في تأمل هذه المخترعات فيقول في «القاطرة»:

وقاطرةٍ ترمي الفضا بدخانها　　وتنهب صدر الأرض في سيرها نهبا

تمشَّت بنا ليلا تجرُّ وراءها　　قطاراً كصفِّ الدوح تسحبه سحبا

ويحفل الرصافي بالسيارة احتفالاً يقابل به بين وسائل العصر، وما كان عليه الأقدمون من حال:

---

(١) الرافعي - الديوان ج١ ص ٧٠.

(٢) نفس المصدر السابق ص ٧٢ - ٧٣.

(٣) الرصافي - الديوان ٢١٦.

تلك المطية لا ما كان يذكرها أديب ذبيان من عيرانة النيب
لو امتطاها لبيد قبلُ تـاه بهـا على الحواضر قدماً والأعاريب
ولا أطال ابن حجر وصف منجرد على السراة كميت اللون يعبوب (١)

ويفترق شوقي عن حافظ في النظرة الى « الباخرة » فبينما يقول شوقي :

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء (٢)

يثور البحر على باخرة حافظ فيتركه يقول :

عاصف يرتمي وبحـر يغـير أنـا بالله منهما أستجير (٣)

ولا يكتفي شوقي في وصف الطيارة ودهشته منها بمثل قوله :

قم سليمان بساط الريح قاما ملك القوم من الجـو الزماما (٤)

وإنما يردفها بأخرى يحيي فيها « فاتح الجو المصري » (٥) الطيار صادق الذي جاء بطيارته من أوربة في يوم مشهود كتب فيه الرافعي المقتطف في العنوان وأرسل شوقي قصيدته :

من فتى حلّ من الجـو بهم فتلقوه على هـام وراح
ليس من يركب سرجاً آمناً مثل من يركب أعراف الرياح (٦)

وزاد الرافعي في احتفائه بالجيش يوم كتب مقالته في « أجنحة المدافع المصرية » (٧).

ومع ذلك كله ، فقد كان للجانب الآخر من الحضارة على الحياة العربية شأن آخر ، وقد مرّ الحديث عنه ؟

---

(١) الرصافي ـ الديوان ص ٢٢١ .
(٢) الشوقيات ـ ج ١ ص ٥ . (٣) حافظ ـ الديوان ص ٢٢٧ .
(٤) الشوقيات ج ٢ ص ١٠٧ . (٦) المصدر نفسه ـ ج ٢ ص ١٩٤ .
(٥) و (٧) مقالات كتبها الرافعي ـ المقتطف ـ آذار ـ مارس ١٩٣٠ م.

الفصل الخامس

انطلاقة الشعر العربي الحديث

يحلو لبعض المفسرين أن يذهبوا في تحليل الحياة الحضارية عند الأمم مذاهب ، ينهجون فيها لدراساتهم في السلوك الانساني والاجتماعي العام ، وما يكتنفه من أحوال البيئة والثقافة والعرفان ، .. حتى لتغلو بعض هذه المذاهب أحيانا ، وتضحي أفكارها كالمسلّمات الجدلية عند المناطقة .

ومن ذلك قولهم في سبق العقل الأدبي للعقل العلمي عند كلّ أمة ، .. وهم يذهبون فى تأويل ذلك ، أن أول ما يستيقظ في الانسان وجدانه ، .. الذي ما يلبث أن ينشط به فيغشى ميادين الحياة المهيأة في جوانبها الاجتماعية والحضارية ، فيتأثر بها في مجرى سواها ، .. حتى تتمكن النهضة من ثم أن تلحق الأمة بالركب العلمي .

والعقل الأدبي السابق هذا الى جانب إحتفائه بالوجدان ، كثيراً ما يبعث من ملكات التخيل مايصور بها طموح الآمال ، ويزين إشراق الأحلام ، أو يسوغ ضلال الأوهام من الناحية السلبية الأخرى .

ولا تكاد ملكات التخيل هـذه تنمو في الأفكار حتى تتدفق بالمعاني ، وتلوح في الصور ، التي يأخذ بها الجمال الى مواطن الفن من التصوير والشعر والمحاكاة .

ومن أجل ذلك يذهب هؤلاء المفسرون الى أن الشعور بالأحاسيس الوجدانية هو الذي يبعث الحياة عند الأمم ، .. وينظرون فى ذلك النهضات الأدبية والانطلاقات الشعرية التي تستبق بها الامم حياة الحضارة المتدفقة فيما بعد .

ولا يقف هـــذا التفسير عند حدود نشأة الأمم وصيرورتها ،.. وإنما يتجاوزه الى ما يصيب هذه الأمم من النكسات والمحن، التي قد تعود بها القهقرى الى ما قبل النشأة ، .. تلتمس لها سبيل الحياة من جديد ! ..

على أن الذي أذهب اليه ترجيحاً أن الحياة الوجدانية ، و النشاط العلمي ، والنهضة الحضارية فى شتى جوانب الاجتماع الانساني .. تأتي نتيجة تفاعل مع البيئة والعصر بأوسع معانيهما ، .. وعلى درجة هـــذا التفاعل يتوقف الظهور فى الاستعداد والاخذ بأسباب الحياة في جانبيها الرئيسين الوجداني الذي يتصل بالعقل الأدبي ،.. والحيوي الذي يسعى مع الانقلاب والتطور العلمي .

وهذان الجانبان هما جناحا الحضارة والمدنية عند كل أمة .

نخلص من ذلك كلّه الى أن أمتنا العربية كانت قـد عانت من ضياع التاريخ الحضاري لها ، ما أفقدها الكثير من أيامها مع ذلك التاريخ !.. وقد خسرت في مسيرة حياتها روح الابداع في عقلهـا العلمي ، .. فتوقف الفكر في عقول أبنائها ردحاً طويلا من الزمن ، .. وانحسرت حضارتها عن التقدم ، .. وما زالت كذلك تستبطن ذاتها وتجترُّ بقايا معارفها حتي غلبتها الاحداث على أمرها ..

ولكنها عادت في أخريات تلك العهود لتحاول استنشاق نفس الحياة ، .
واستئناف سيرها الحضاري في الوجود الانساني .

وهكذا تنبهت فيها خصائصها فسعت الى الطريق التي تكلـفُ الامم ،
فكان لها من وجدانها القويم حياة أخرى لعقلها الادبي .

ومن أوليات هذه الحيوات إنطلاقة الألسنة عند أبنائها بالأحاسيس
العاطفية والشعور الانساني ،.. تجري بما تميزت به من فن القول والأداء الشاعر .

حتى كانت نهضة الادب الحديثة ، وانطلاقة الشعر العربي التي نفرد لها
هذا الفصل لأنها كانت من أظهر علامات التغيير في الامة على صراطها المصطف
في سبيل الحياة العائدة .

* * *

ولم تكد أيام القرن الثالث عشر الهجري تدافُ مطبقة على آخرتها
لتختم سنيه ، حتى كانت هنالك حياة لانسان عربي تصدق القدر في موعده !..
يحبـو في منتصف عامه الثـــاني ، ليلقف حلوى الالهام عند مراتع الجمال في
قرى مصر .

وما بين طفولة هذا الانسان ، ونهاية القرن التاسع عشر الميـلادي عمر
يافع يمضي في صباه الى الشباب في مثالية مستوفزة ، ومعاناة قيمية تستهدف لها
الحياة الكريمة شرعة ومنهاجاً !..

وفي مثل هذه السنوات الغضة من أيامه ، كان الشعر العربي لما يزل يعاني
من سكرات القرون ـ رغم استنشاقته لنفس الحياة ،.. وما انفكت معانيه تعاني
من السباة ،.. وأخيلته تعودها الحمى الراجعة ، بالمرض .

وبالرغم من امتداد الشعر في بلاد العراق والشام ـ على ما كان يحسب الشيخ محمد وشيد رضا ـ أنها « لا تزال أقوب الى السليقة العربية من أهل البلاد الاخرى » حتى ليخال « أن الشعراء النابغين فيها أكثر منهم في غيرها » (١) .

وأرجح أن كثرة من شعراء العراق والشام كانت أسماؤها ذات صدى في تلك الايام ،.. وكان في نظمها ومحاولاتها الشعرية كالامتداد للنفس الشعري العربي الذي تخافت منذ آخرة العهد العباسي ! . وهي التي ألفت في روع الشيخ رضا مثل هذا الرأي في الحكم .

وعلى كل حال فإن ظهور أمثال عبد الباقي العمري وعبد الغفار الاخرس وصالح القزويني ، وشهاب الدين العلوي ، وجعفر الحلي وسواهم في العراق ، وحسين بيهم واليازجيين والبستانيين وآل المراش ، وابراهيم الأحدب ، وزرق الله حسون وأديب اسحق ، وعبد السلام الشطي وعبد الفتاح اللاذقي وأحمد فارس الشدياق وغيرهم في الديار الشامية ،.. قد أوجد لوناً من إنبعاث الحياة في الشعر العربي ، بالرغم من المحافظة على الصورة الشعرية للقرون المتأخرة ،.. فلم تكن تظهر عليه ظاهرة تجديد في معانيه وأخيلته ، إلا بمقدار ، وكأنما كان حسبه من الأخذ والعطاء في هذه الحياة أن يعود برقعة جديدة تبرز أساليبه ،.. يجتر لها العربي نفسه من معين في الشعر ، المعاني التي لم تبلها الأيام ، ولا تنكرها البيئة الاجتماعية ولا يرتفع بها الخيال إلا على أجنحة من المزوّقات البلاغية .

ومع ذلك كله فقد كان هذا الشعر أعلى قدراً مما كان عليه الشعراء في

---

(١) أنظر مجلة المنار ـ الشعر والشعراء ـ م١ ص ١٣٣ ، م ٦ ص٧٩٢ الخ .

القطر المصري .. حتى كان جيل علي الليثي وعثمان جلال وعبد الله النديم ، وعبد الكريم سلمان ومحمود صفوة الساعاتي وعبد الله فكري والابياري ، الذين عناهم الرافعي بمثل قوله : « إن قصارى ما يكون من أبرعهم شعراً ، وأبدعهم صنعة إذا نفض رأسه ، وزاد في حركة قلبه ، وضرب على جبهته بكلتا يديه .. أن يعطس ببيت فيه نكتة من البديع أكثر ما تكون من نحو حسن الأخذ والتضمين والاقتباس .. الى ما يماثلها » (١) .

وبالرغم من انطلاق شاعرية الشيخ عبد المحسن الكاظمي بعد أستاذه ابراهيم الطباطبائي ، والتي آذاها بالاطالة وأتعبها بالارتجال ،.. واعتسف لها أساليب القدامى ، ولاسيما في ديباجة الشريف الرضيّ ، ودوران الكميت ومحاولة دعبل الخزاعي ،

وبالرغم من استرسال السيد محمد سعيد الحبوبي النجفي بموشحاته التي حاول أن يمتد بها فى روح فنية تجري مع دار الطراز لابن سناء الملك ، وتكلف بفنون صفي الدين الحلي ، وبعض خصائصه فى الأساليب والمعاني ..

وبالرغم من ثورة الشيخ ابراهيم اليازجي بقصائده القومية ، وحماسته العربية ، .. فإن برءَ الشعر العربي من تخلف العهود لم يأت على الصورة المرجوة أو المنتقاة .

ولكن المعجزة كانت قد حدثت فى أرض الكنانة بالذات ! .. فقد تغلب على عوائق الأيام ، وعواثر الدراسات الشاعر الفحل محمود سامي البارودي بعد أن « خلع كلّ العقد التي كان يحجل فيها الشعراء من قبله ، ونفخ فيه روحاً جديدة من الأصالة ، وأزال عنه كلّ ما كان يعوقه من أعشاب

---

(١) الرافعي - شعر البارودي - المقتطف ، آذار - مارس ١٩٠٥ .

البديع ... فانفجر النبع وتدفق الأدب والفن » (١) .

« وكأنما هي عصا ساحر قلبت الميت حياً ، والضعيف قوياً ، والمعدم ثرياً ، فيعيد للبناء قوته ومجده ، وزخرفته الطبيعية الجذابة دفعة واحدة » (٢) .

ليأخذ عنه من جاء بعده أخذ معاصرة ، ويغترف من نبعه اغتراف الظمآن يطلب الري ، .. حتى كان اسماعيل صبري وأحمد شوقي ، ومحمد حافظ ابراهيم ، ومصطفى صادق الرافعي وسواهم في أرض الكنانة .

ومعروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي والشبيبي وسواهم في العراق .

والأمير شكيب أرسلان ، وخير الدين الزركلي وفؤاد الخطيب وشبلي الملاط وغيرهم من أبناء ديار الشام . أولئك الذين استبقوا الصراط في الابتداعية المحدثة ، وعمروا فن القول العربي الشاعر بمآثر من فنون قصائدهم أعادت للادب العربي مكانته ، وتجلت في هيبة الفكر ورهبة الحياة .

وما كان ذلك الجيل يعول على « الوسيلة الأدبية » ويتخذ البارودي مداراً فلكياً معاصراً فحسب ، . وإنما تنافس على السبق ، وتباري في السمو والعرفان .

فلا بدع أن نرى الشيخ رشيد رضا وهو يحسب « كأن السليقة العربية رجعت الى البارودي بالوراثة لأحد أجداده الأولين من غير عناء في كسب ملكتها » وأن « وجود البارودي نفسه هو من قبيل ما يسميه الحكماء بالرجعة » (٣)

---

(١) شوقي ضيف ـ شوقي شاعر العصر الحديث ص ٤٤ .

(٢) عمر الدسوقي ـ في الأدب الحديث ص ١٥٧ .

(٣) رشيد رضا ـ المنار ١٨٩٩م ـ الشعر والشعراء ، م ٦ ص ٧٩٢ ..الخ .

على حد تعبيره .

وذهب الاستاذ عمر الدسوقي أكثر حين جعل من البارودي محور الدراسات الأدبية الحديثة وكالعنوان لما قبله وما بعده في الشعر والنثر معاً (١) .

وسرت بعد ذلك نزعة نحو الشعر وصقل معانيه ، والاعتراف من مناهل الفكر في العالم الجديد والحضارة المدنية ، وانتهاج أساليب الفرنجة فى صوغه على أساليب من القصص والبيان .

وما كاد خليل مطران يدعو لبعض ذلك في مجلته المصرية حتى استجابت له طائفة منهم نقولا رزق الله وداود عمون وأمين الحداد وسواهم .

كما أخذ نحوه بعض الأخذ مصطفى صادق الرافعي وعبد الرحمن شكري ، فى الرعيل ينطلق معهم في حرص وإتقان عبد الحميد الرافعي ، وبشارة خليل الخوري ـ الأخطل الصغير ـ وخليل شيبوب وأحمد زكي أبو شادي ، .. وعبد الرحمن صدقي وغيرهم .

ويتميز عنهم بالديباجة العربية والأصالة القومية ، والمذهب الشوقي ، علي الجارم وفؤاد الخطيب ومحمد بهجة الأثري ، وخليل مردم وعلي الجندي وزكي المحاسني وابراهيم أدهم الزهاوي وسواهم ، ..

ومن نهج هؤلاء ومذهب أولئك ولدت فئة أخرى ، أخذت مكانها بقوة وجدارة وملكت قلوب الناس بالإكبار والاعجاب معاً ، بما لها من ميزات الاتساق فى الأسلوب والقصد في التجديد والعطاء ،. ومن أشهر هؤلاء الشعراء المحدثين ، محمود غنيم ، وعادل الغضبان وأنور العطار ، وعلي محمود طه ، وعمر

(١) راجع عمر الدسوقي ـ في الأدب الحديث ـ .

أبو ريشة ، ومحمود حسن اسماعيل وابراهيم طوقان ، ومحمود الخفيف ، وحليم دموس ومحمد عبد الغني حسن .. وغيرهم .

وفي آثار هؤلاء وأولئك الشعرية ما يفيض بالحياة من المعاني ، ويتقلب في صور البيان العربي الجديد ، وما يعد بحق جامعاً للاتباعية ـ من الناحية القومية الأدبية ، والابتداعية العصرية بما فيها من وجدان وحيوية في آن واحد .

وقد انتهز العقاد فرصة صداقته للشاعر عبد الرحمن شكري ، وفسح الرافعي المجال له ولزميله المازني في الترجمة والكتابة بمجلة البيان ،.. ـ التي كان يصدرها نسيبه الشيخ محمد عبد الرحمن البرقوقي ويترك له مهمة الإشراف الفني عليها ـ فأراض قريحته على قول الشعر متأثراً بما يقرأ للشعراء الانجليز بخاصة ،.. وعندما لم يجد صدى لدواوينه ـ التي أصدرها إبتداءً من عام ١٩١٦م ـ يقربه من طبقة الشعراء الذين طبقت شهرتهم الآفاق وفي مقدمتهم شوقي والزهاوي وحافظ والرصافي والرافعيان ومطران .. أقدم على صنع حركة نقدية أصدر فيها وصاحبه المازني جزءين من كتاب « الديوان » عام ١٩٢١ م من عشرة أجزاء كان يحسب فيها هدم هؤلاء وإشادة بنيانه الشعري هو ،.. ولكنه لم يوفق الى غاية ، ولازمته شهوة الهدم ، فأجهز رفيقه المازني على شكري زميلهما ، في الوقت الذي تصدى فيه هو لشوقي والرافعي بنقده المعروف ،..

وبالرغم من من جميع ما أثير حول الموضوع ، وما أفاضت به الاقلام في نعت أبعاد المذهب الشعري الذي دعا له ، لم يأت فيه بجديد لم يفطن اليه ثقات الأدب العربي كالجاحظ والجرجاني وابن قتيبة وسواهم ،.. وبالرغم مما

تكلّف له من النقل والترجمة للأفكار الغربية في هذا الشأن . حتى أتم إخراج سبعة دواوين نعتها مارون عبود بالسبع العجاف(١) !.. ولم يعد العقاد بعدها شاعراً بقدر ما كان مترجماً ومثقفاً كبيراً ذا مذهب في الوعي الاجتماعي العربي المعاصر .

ثم كان هنالك اتجـــاه آخر خاطر بالانطلاقة الشعرية في وجهات من الاستبطان الذاتي والأداء النفسي ، وما انبعثت فيه الروح العربية الوليدة من الضيق والألم وتخلف الحياة الاجتماعية والحضارية فيها عن ركب الامم الناهضة .

وقد رأينا ابراهيم طوقان وفخري البارودي بخاصة يثوران في أناشيدهما الوطنية والقومية ويتيه « علي محمود طـه » في ملاحته عبر البحار ،.. ويصعق جبران خليل جبران من حالته المادية والمرضية وتطلعاته الحائرة ،.. ويطير فوزي المعلوف « على بساط الريح » ويتزلزل أبو القـــاسم الشابي ، ويجنح محمود حسن اسماعيل في خيالاته ،.. ويدور آخرون هنا وهناك .

.. فلم يكتف هؤلاء بالتجديد البسيط ووحدة القصيد العضوية ، وأهداف الشعر النفسية والقومية ، وإنما امتدوا به الى الأساليب ينوّعونها، ويبتكرون فيها، واستهدفوا المعانى نفسها بمجازات وكنايات واستعارات جديدة يثيرون حولها ضباب الغبش لتحـلو الحقيقة عندهم ،.. وفي آثار هؤلاء كانت بوادر اللقاح والاثمار فى الشعر العربي ، والتي تغذّت فيها فنون الشعراء على بعض مذاهب ومتجهات فى الآداب الأوربية .

ولم يكد ينقل عن الغرب بعض آثار هوتمن الأمريكي ، و ث . س إليوت

---

(١) زادت هذه العجاف الآن حتى بلغت ما « بعد البعد » .

الانجليزي وإدحار إلن بو الفرنسي ولوركا الأسباني .. حتى قامت بيننا زوبعة عاصفة لم تخلُ من تمرد فيه روح عبقرية ،.. وإن تفرق في مناهج وضلّ في مسالك ،.. ودار مع الضياع في توزع وانفلات .

فقد بدأ ذلك عبد اللطيف الشهابي عام ١٩٣٢ م « بجفنة رماد » من العراق وجمح من بعد صلاح لبكي وتابعه نزار قباني في « طفولة نهد » (١) وغاص سعيد عقل فى أساطير وثنية وأخرى مسيحية ،.. حتى راح إلياس أبو شبكة يتعب نفسه في البحث عن « أفاعي الفردوس » ، وتاهت « عاشقة لليل » أن تدرك نازك الملائكة ، بعد ما غامر بشر فارس مع « ناصعة الجبين » واضطرب السياب « لأزهاره الذابلة » .

ولم تزل العاصفة حتى استدارت فطارت من بين صفوف دعاة السهولة والانبساط والأدب الشعبي والعامي .. الخ ليعيث فيها عبد الوهاب البياتي « تهشيماً بالاباريق » وليلتاث من حوله بالنزعات الشعوبية ، والانحرافات الشيوعية من بعض اللا أخلاقيين من زبانية الحزبية المقيتة وحمر الجاسوسية المرذولة ، وإمعات العهود ! .. (٢)

---

(١) من المرافقات المثيرة أن يدعي كل من الشهابي والقباني أنهما من تلامذة الرافعي في اتجاهاتهما الشعرية ، ويعدان لذلك بدراسات تسوغ لهما مثل هذا الإدعاء ! .. وقد أطلعني الشهابي على صفحات منها .

(٢) انظر الدسوقي ـ في الأدب الحديث جـ ٢ ص٣١٤ وما بعدها ، وقد ذكرنا ذلك استطراداً .

ولعل من المفارقات التي تدعو الى التأمل الواعي أن يكون اللقاء تاماً بين هذه العناصر التي تحسب نفسها على اليسار « الجمهور » ، وبين وكالات الثقافة والنشر الصهيونية والاستعمارية على ما جاءت به الأيام من فضائح وعيوب (١) .

على أن المؤتمرات السياسية ، وللأحداث التاريخية والمصيرية القائمة والقاعدة في أيامنا العالمية والقومية ، .. يد في هذه الحركات المذهبية الجديدة لم تكن لها فيما سبق من عصور .

ولا يغيبنّ عن البال أن ما قدمنا من إيجاز يكاد يكون تخطيطاً لعنوان ضخم ، .. قد لا يكون مصيباً فى تسمية أحد الشعراء المحدثين بدقة ، وقد يكون

---

(١) .. وكان ذلك على مراحل ، منها الإستعانة بالقوة الدولية كما حصل لبعض الموارنة والكاثوليك مع اليسوعيين الفرنسيين (أجزويث) .

ومنها التنطع للمغانم كما هي اتجاهات « ذوي المصالح الخاصة » ،.. ومنها الإتجاه الى الحرية والتقدم كما هي عليه دعوات « التراجمة » من مثقفي العصر ،.. ومنها التحزب للآراء والأفكار الصادرة من بلد معين في أوربة ضد آخر ، كما هو الموقف الذي اتخذه بعض الكتاب ما بين الحربين ضد هتلر والنازية ـ الإشتراكية القومية ، وخلال الحرب الثانية بخاصة ،.. ومنها التنادي لإخوان الحرية ، واللقاء مع فلاسفة الوجود الجديد .. الخ . ومنها ما تكشفت عنه علاقات الصحف التي كانت تنشر للشيوعيين بخاصة كمجلة شعر وحوار مع وكالة المخابرات الأمريكية .. ومنها أن يرث اليساريون في مصر مثلا صحف الدعارة المعروفة .

.. الى آخره مما يحتاج الى تأمل ونظر ومدارسة !

هنالك شاعر يتقدم على صحبه ،.. أو يتأخر عن رفقته ، .. ولا يقف مع رتبته أو طائفته .

كما يكون هنالك شاعر تتمثل في شعره وصور من أدبه معظم هاتيك الاتجاهات والنزعات مثلما سيمثل أمامنا أديبنا الرافعي العظيم .

...

لقد نقل بعض النقاد تسمية «مدارس» على أساليب بعض الأدباء العرب وتشابهها فيما بينها وأخذها عن غيرها ،، تقليداً لما يقوم عند الغربيين والفرنجة بخاصة من مثل هذا التوزيع في دراساتهم النقدية والتقويمية عند أدب الترجمة .

ولكننا لو تأملنا مدلول كلمة « مدرسة » وهي تجمع أو تنعت بعض الأدباء والفلاسفة والمفكرين عند أولئك ، لوجدنا فى نقلها الى المتجه والمذهب أو الإنفراد .. ضرباً من المجازفة لا تجوز على الفكر العربى بعامة ، والأدب من ثم والشعر بخاصة .

ذلك أن النزعة الفنية للأديب العربي ما تزال تعوّل على الذات ،.. والفرد هو الصورة المصغرة للأمة فى صفتها الاعتقادية ، .. وهذه الفردية تكاد تكون طاغية على مذهب الأديب العربى .

وكلمة « مدرسة » عند أولئك ، وتعدد هذه المدارس كان وليد ظروف إجتماعية امتدت على مدى قرون ، كان خضوع الفنان فيها أو الأديب الغربى خلالها لأحوال معاشية ، وأخرى سياسية بالإضافة الى ميراثه المذهبي الديني والطائفي ، ونزعاته الفكرية التي تتحزب فيما بينها .

فالمدرسة عندهم تدور فى هذه الأفلاك فلا تكاد تخرج عليها إلا بمقدار ما تكشف

فيه عن وجهات نظرها مهما اتسمت بالمخاطرة ، ومهما التف من حولها الضجيج ! ..

وهذا ما لم يتهيأ له المجال بيننا حتى اليوم ، .. حتى عند أصحاب النزعات الشعوبية التبيعة والمذهبيات الطائفية ، أو غيرهم من الراكضين وراء سراب الأحزاب .. وإن سلمنا جدلاً بصدق المدلول المدرسي وانطباقه « لغوياً » عندهم ، ولم نقل بضيق تلك اللغات فى هذا المضمار (١) .

وعلى ذلك فإن مثل القول بالمدرسة القديمة ، ونعتها بالاتباعية ، وتمييزها بالمحافظة على الأصول ، أو إعجامها بالـكلاسيكية ، وحسبان البارودي وشوقي ومحمد عبد المطلب والكاظمي ومحرم وسواهم عليها ، ..

والرأى في المدرسة الوسيطة وتسميتها بالابتداعية ، ووصفها بالوجدانية ، أو حسبان العاطفة من ميزاتها والاختلاف فى تعريب « رومانسية ورومانتيكية » من أجلها ، وإضافة المطران والرافعي وشكري وغيرهم إليها ، ..

والمجازفة بمدرسة « الديوان » و « أبولو » والظن بحداثتها ، .. وتلفيق أسماء الشعراء من الطبقات الأخرى لها .

والتجاوز بالصفة الى الاصطلاح بمدرسة شوقي ومدرسة العقاد ومدرسة الريحاني ومدرسة جبران ومدرسة فلان وعلان .. الخ .

إن هو إلا ضرب من الانسحاب الذي يتجاوز بالقدر على المقدار ، إن لم نقل من النقل غير الواضح ، والترجمة التي تدل على بلادة في الذهن لا يتجاوز

---

(١) للرافعي تحليل رائع في الموضوع - أنظره في - سر النبوغ في الأدب - المقتطف - كانون الثاني - يناير ١٩٣٣ م — وحي القلم ج ٣ ص ٢٦٣ .

بـه الحرفية .. فهو من المبالغات التغليبية التي لا لزوم لها بحال (١) .

وعلى سبيل المثال نجد الشاعر عبد الرحمن شكري وقد عُـدّ رأساً ناضجاً للتجديد بعد خليل مطران والرافعي، يختلف مع زميليه العقاد والمازني الى الدرجة التي تحدث جفوة يتحدث عنها بألم ومرارة كل من تصدى لهؤلاء الثلاثة بتاريخ أو دراسة ونحوها (٢) .

والفروق بين هؤلاء الثلاثة في فنونهم الأدبية والشعرية هي عندي أكبر بكثير من الفروق الفنية بين الرافعي والعقاد مثلا ، أو بين شكري وشوقي .. ، حتى قبل أن يفترق شكري عن العقاد والمازني ، تلك الفُرقة التي ما يزال الزعم

---

(١) أخذ بهذه التسميات أنور الجندي في موسوعاته عن الأدب العربي الحديث ، ولم يجد الدسوقي ضيراً من تسمية بعض المجموعات والفئات الأدبية بالمدارس ، ج ٢ ص ٣١٤ ، .. وربما غدت اليوم من المسلمات الأولى والبدائه لكثرة ما تنشره الصحافة حول الموضوع من أحاديث ومقالات هي غير الدراسة المنهجية التي تستهدف .

(٢) راجع ابراهيم المازني ـ الديوان ـ صنم الألاعيب ، وعمر الدسوقي في الأدب الحديث ج ٢ ص ٢٤٤ ، ومصطفى عبد اللطيف السحرتي ـ الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ص١٥٧، وعلي أدهم ـ المجلة ـ شباط ـ فبراير ١٩٥٧ م ، ونقولا يوسف ـ تقديم ديوان شكري ص ٩ ، والعقاد ـ الهلال شباط ـ فبراير ١٩٥٩ م ... وأخيراً كتاب نعمات فؤاد ـ في أدب المازني ـ وبالرغم من تعلة المرض التي التمسها العقاد، وندم المازني الذي أعلنه عام١٩٣٤م وتخفيف الوطأة التي حاولها يوسف .

التاريخي يحاول جهلها أو تخطيها بالجهل !..

إلا ألاهم إذا ما اعتبرنا المشابهة المذهبية بين الثلاثة في ـ نتحهم ـ من بئر الأدب الانجليزي المحدث بخاصة !.

وقد سبقت إشارتنا الى ما كان للرافعي من يـد في جمع العقاد وشكري والمازني في مجلة البيان التي كان يصدرها نسيبه البرقوقي، ويحمله مسؤولية الإشراف المباشر عليها.

فقد أعد العقاد للترجمة وشجعه عليها، ولا سيما بعـد الذي نقله فيها من مذهب نوردو فى القومية، وآراء برنارد شو في المرأة والاجتماع.

ومضى مع عبد الرحمن شكري في اختراق آفاق الشعر الجديدة، وسلك سبيله معه الى جوانب الحياة المختلفة، ومراميها البعيدة.

وعاد هو والمازني في محـــاولات تقويمية وأدبية تتصدى لآثار الأدباء والشعراء بالتعريف والنقد.

ولعل في المقارنة والسخرية التي عرف بها المازني في نقده لحافظ ابراهيم في مجلة عكاظ عام ١٩١٤م ولطه حسين في «حصاد الهشيم» شيء من تأثير الرافعي ومذهبه في النقد،.. ولا سيما حين تصدى لصديقه حافظ ابراهيم بعـد نشره « العمرية »،.. ووقف فى وجه طه حسين ومحاضراته فى الشعر الجاهلي .. على ما سيأتي بيانه مفصلاً فى دراستنا التالية.

وليس من نوارد الخواطر أن يقدم عبد الرحمن شكري بين يدي دواوينه وقصائده بتلك المقدمات التي تحدث فيها عن الشعر وفنونه، وشروط الإجادة والابداع فيـــه؛ وصور التجديد فى أخيلته ومعانيه،.. أو محاولات التفسير

النفسي للأداء الفني في شعره .. فقد كان الرافعي قد سبقه الى مثل ذاك فى مقدمات دواوينه وقصائده في الصحف وأحاديثه فى الشعر والشعراء .

فاذا كانت مقدمات الرافعي قد جمعت آراء الأقدمين وشيئاً من مترجمات العصر ، وعرضت لما عنّ لها من فكر وخواطر ، لما تنضج فى بعضها أول القرن .. فإن ما تقدم بعد ذلك من دراسات أدبية وما مثل من أفكار وما جدّ في النقل عن الأمم الأخرى ، ثم معرفة شكري نفسه وإلمامه باللغة الانجليزية .. قد مهّد له في التوفيق الى المقدمات ، وتقديمه المادة الفنية لمحاولات زميليه من ثم في « الديوان » .

ولعل من أبرع التفاتات الشاعر حافظ ابراهيم وهو يحتفل بديوان الرافعي أن يقول عام ١٩٠٦ م مخاطباً صديقه الرافعي :

أراك ـ وأنت نبت اليوم ـ تمشي　　　بشعرك فوق هام الأولينا
وأوتيت النبوة فى المعاني　　　وما دانيت حد الأربعينا !

وبالروح العالية هذه نفسها يستقبل ديوان عبد الرحمن شكرى بعد ذلك بسنوات ثلاث عام ١٩٠٩ م فيقول :

أفي العشرين تعجز كل طوق　　　وترقصنا بأحكام القوافي
شهدتُ بأن شعرك لا يجارى　　　وزكيت الشهادة باعترافي ..

ومن ينظر فى تقريظ هؤلاء الثلاثة لمؤلفات الرافعي في تلك الفترة يدرك ذلك تمام الادراك .. ويألم أشد الألم من بعد للتمرد الذي مارسه العقاد ـ عفا الله عنه ـ فألجأه الى ما تنكب فيه عن الطريق السوي مع الرفقة والصداقة .

حتى ليحسب بعض الأدباء بأن مقالات شكري في مجـلة عكاظ ، والتي تصدى فيها لشعر العقاد لم تكن تخلو من إيغار رافعي .. وإن حاول التملص منها (١) فقد ظن شكري أن المازني يحتمي بالعقاد في نقـده له في الديوان ، .. فراح يسترضي شوقي والمجلة التي وقفت لشعره في نقد شعر العقاد رأساً !.. (٢)

ومن الجدير بالملاحظة أيضاً أن المرحوم أحمد زكي أبا شادي كان أسبق هؤلاء الثلاثة في التجديد في الصورة الشعرية ، وقـد تميزت له قصائد ومقطعات فيها من التأمل الواعي والاستبطان الذاتي ما يفوق بـه شاعرية هؤلاء الثلاثة من ثم (٣) ومع ذلك فإنه لم يكن يتنكر الرافعي طيلة حياته ، وإنما كان يفخر بأخذه عنه وإعجابه بـه (٤) .

.. ومع ذلك كله فإني أعود فأتساءل هل في مقدورنا أن نسمي مدرسة الديوان ؟! أو نقول بمدرسة شوقي ، أو نزعم أن الرافعي وسواه مدارس ؟! .

لقد كان التأثير بينهم تشجيعاً أو مجاملة ولم يخل من منغصات ، بالرغم من إثارة الوجدان وشحذ الأذهان ، وتنبيه الحواس ، وتفتيق العبقريات ..

---

(١) أنظر عكاظ ٥٨ ، ٦١ ، ٦٥ والرافعي ـ الرسائل ص ٧٢ ، .. وكان ذلك في آخر حديث مع العريان رحمه الله .

(٢) تحسن مراجعة العقاد ـ شعراء مصـر وبيئاتهم في الجيل الماضي ، و م . ع الأول ـ مجلة السفور ـ آذار ـ مارس ١٩١٨ م ونعمات فؤاد ـ المازني ص ١٤٢ وما بعدها .

(٣) راجع كمال نشأة ـ أحمد زكي أبو شادي ـ رائد الشعر الحديث .

(٤) أنظر أنور الجندي ـ الحب والمجد في حياة الشعراء .

بعاطفة الصداقة والزمالة أو المحبة والإعجاب والمعاصرة ، .. وحتى العتـاب والمدابرة .. ولم يكن ذلك فيما بين هؤلاء وأولئك وسـواهم من الفئات الأدبية والشعراء بمذهبية فكرية لها فلسفة كلية أو انتظام مثالي « أيدلوجيا » أو حزبية إجتماعية .

ولا بدّ أن نعيد الى الأذهان هنا أيضاً ما كان للضمير العربي من حركة قومية لهـا الأثر في انطلاقة الشعر ، التي أخذت بالاتساق والاتقان مـع المحافظة على الأصول البيانية ، فى إشراق العبارة الشعرية ، والجملة الأدبية ،.. وبما تهيأ في العصر من ضمانات الوجدان ، وطاقات الفكـر ونزعات التحرر ، وأحاسيس الاجتماع ، ومجالي القوة والابداع في ذلك كلّـه ،.. تتوثقها مشاعر الآمال والآلام ، وصور الأحلام والأيام ،.. ويرفدها عطاء التاريخ على مفترق الطرق ،.. وتقوم بها همة الانبعاث ، وفطرة الأيمان وقوة الاستعداد .

وعسى أن نوفق في عرض ذلك عند عقدنا للفصل الذي نتحدث فيه عن الضمير القومي في أدب الرافعي .

* * *

هذا من ناحية القوام العام للشعر العربي الحديث ، أما مضمونات القصائد والمقطعات والأغاريد فقد دخلتها معان جديدة ، منها المترجم الذي أخذ عن آداب الأمم الاخرى ، ومنها المبتكر الذي يرفده التفتيق الذهني لبعض الشعراء ،.. واتساع الأخيلة مع الحياة الوليدة .

ومن ذلك نرى ضروباً من المذاهب الأدبية والفكرية التي نشأت في آداب الأمم الأوربية ، قد انتقلت بشكل أو بآخر الى الشعر العربي ، واندسّت

بين مضموناته ! .. في الواقعية والابتداعية والرمزية ، وما افترع عن هـذه وسواها من مذاهب واتجاهات في كتابة الشعر ، وتنويع البيان ، ..

فلا غرابة أن نرى من ثم محاولات تتناول الشعراء العرب فتوزعهم في مجموعات بحسب هاتيك المذاهب ، أو أن نقف أمام أديب يحسب أن أساليب الشعر والكتابة لم تعد عربية ، وأن كثيراً منها افتقد الخصيصة القومية ، واعتسف له طريقةً مما في إحدى اللغات الأخرى .. الى آخر ذلك مما كان ينشر في مجلة « الرسالة » بخاصة ! ..

* * *

أما الصورة التي بات ينظم الشعراء بها قصائدهم في هذه الانطلاقة ، فقد كانت في أشكالها العامة لا تكاد تخرج على المألوف عند العرب من هذه الألوان ، مع القصد في عمود الشعر .

وقد بقيت الصورة التقليدية ذات مكانة في الشعر ، وإن لم تخرج على أوزان الخليل بن أحمد الفراهيدي وبحوره الستة عشر وقوافيه المعروفة ،

وهـذه البحور وإن كانت في ضروبها ومجزوءاتها قد تزيد على الخمسين وزناً ، الا أننا لا نجد شاعراً قد ألمّ بها جميعاً ، أو حاول غير الاوزان الموسيقية التي تألف النفس ، .. كما ندر ان نجد قوافي في بعض الحروف كالذال والضاد والطاء الخ مما كان يعتسفه الشعراء القدامى ..

وعلى أن الرافعي كان « مكثاراً » في مطلع حياته الشعرية ، إلا أننا نجده من أوسع شعراء عصره في النظم على مختلف البحور ، حتى زعم يومـاً أنـه أخترع البحر الذي سماه بالمنفجر ،.. ومع ذلك فقد كانت قوافيه مأنوسة ليس فيها

ذلك القلق أو الشذوذ والاستغراب الذي نجده عند غيره .

وما تزال القصيدة العربية هذه بقوانينها الخليلية تنال خلوداً أدبياً . رغم جميع محاولات مزاحمتها أو الانتقاص منها بالنقد والتشطير الذي يمس سيادتها !..

أما الموشحة ، التي ابتدعت في الاندلس وازدهرت من ثم في المشرق والمغرب . . . واحتفى بها ابن سناء الملك في « دار الطراز » وتغنت بها « العذارى المائسات » . . حتى استطابت في العراق عند صفي الدين الحلي ، الذي عُني بأسماطها بعد أن أصبحت أسلوباً معروفاً يمارسه شعراء العربية في كل مكان ، وجاراه من ثم كلٌّ من السيد محمد سعيد الحبوبي ، والسيد حيدر والفاروقي وسواهم في النسج على منواله .

وكان لشعراء المهجر بخاصة عناية بها ، وقد زادوا ما تتسم به من الادوار المتناسقة ؛ والاغصان المتساوقة ؛ والاسماط المترتبة ؛ . . واخذوا بها نحو بحور وأوزان أخرى غير التي نقلت بها من الاندلس .. وقد استطاع المحدثون النظم على أشكالها ؛ كما تأثروا بأفانين النظم في اللغات الاخرى فانشأوا موشحات وأغاريد واناشيد فيها إبتكار وعليها مسحة من الجمال والروعة (١)

وفي « أغاريد الرافعي » الديوان الذي جمعناه له نماذج من هذه الموشحة في الاغنية والنشيد ممتازة الصورة ؛ عالية المحتوى ؛ رائعة البيان ..

ويلحق بالموشحة ما نظم بأشكال أخرى غير القصيدة ذات القافية الواحدة ومن ذلك ثلاثيات خليل مطران ؛ ورباعيات محمد السباعي وغيره ؛ وخماسيات محمد بهاء الاميري ؛ .. وسداسيات وسباعيات لسوى هؤلاء ..

---

(١) راجع محمد مهدي البصير — الموشح .

وقد أخذ الشعراء الشبان والمتأثرون بالآداب الافرنجية ينظمون قصائدهم على هيئة مقطعات تستقل كل قطعة منها عن الأخريات بقافية ..

وكان لذيوع الغناء ، وانتشار الأناشيد القومية أثرها في إحياء هـذه الصورة الشعرية وازدهارها ، وقد عادت الأغاني هي الأخرى تعتمدها فى رقيّها والقيام عليها ،.. أداءً وموسيقى .

وكان السيد محمد سعيد الحبوبي قد بعث الحياة في هذه الموشحات ، وقـد تابعـه الرافعي في ذلك ، ووضع خليل مطران نشيداً على شكلها ،.. كما حاول آخرون .

ومن يبصر في أناشيد الرافعي « اسلمي يا مصر » و « الشباب المحمدي » و « حماة الحمى » وينظر فى مجموعة أناشيد « العروة الوثقى » لبشارة الخوري ، وابراهيم طوقان وفخري البارودي .. يجـد نماذج حلوة ، وصوراً جميلة لمثل هذه الموشحات .

* * *

أما الصورة الجديدة المحدثة للشعر فى الاكتفاء بالشطر من غير عجز ، .. أو الإخلال بالوزن بزيادة تفعيلة على هذه الشطرة ، أو نقصها من أطرافها ، .. وإلحاقها بالنثر فى شكل ما ! .. أو تسميتها بالقصيدة النثرية ، والشعر المنثور ، أو النثر الشعري ،.. فقد بدا على ما يظهر فى سمة تقليد المترجمات النثرية للقصائد الشعرية في اللغات الأخرى ،.. وصادف هوىً دينياً وثنياً أو صليبياً عند بعض الفئات ، .. فألجأتهم الاستساغة لهذا اللون الجديد الى القول بتجديد كتابة الشعر ، والزعم بتسميته .

وإن كانت تسمية الشعر المنثور « تدلُّ على على جهل واضعيها ومن يرضاها لنفسه، فليس يضيق النثر العربي بالمعاني الشعرية، ولا هو قد خلا منها في تاريخ الأدب » .

ولكن سرّ التسمية هذه أن الشعر العربي صناعة موسيقية دقيقة، يظهر فيها الاختلال لأوهى علة، ولأيسر سبب، ولا يوفَّق الى سبك المعاني فيها إلا من أمدّه الله بأصحّ طبع، وأسلم ذوق، وأفصح بيان » ... « غير أن النثر يحتمل كل أسلوب » (١) لأنه لم يتهيأ له فراهيدي آخر يضبطه في بحور، أو يحدّه بأوزان غير الذوق البياني للكاتب .

ومع ذلك فقد ظهرت قصائد النثر في العصر الحديث بنماذج ثلاثة، تنسب الأولى منها الى أمين الريحاني، وإنشاده للثورة العربية، ومرثاته للملك فيصل الأول (٢) : وهي كلمات منثورة فيها شبه لما روي من سجع الكهان، ويكتنفها شيء من الغموض في الصورة والضباب، الذي تنبهم به بعض المعاني فتبعث على التأمل، .. وموسيقاها غير المنتظمة ..

وتنسب الثانية الى جبران خليل جبران في مناجاته للأرواح « البدائع في والطرائف » ويا بني أمي في « العواصف » وقد جاراهما منير الحسامي في « عرش الجمال والحب » وصاحب « نسمات وزوابع » وسواهما ..

---

(١) الرافعي - الشعر في خمسين سنة - المقتطف - كانون الثاني - يناير عام ١٩٢٦ م، وحي القلم - ج ٣ ص٣٨٥ .

(٢) الريحانيات وانظر عمر الدسوقي - في الأدب الحديث ج ٢ ص٣٢٦، والمقدسي - الإتجاهات الأدبية ج ٢ ص ١٩٧ .

وقد يكون للشعر الانجليزي بخاصة ؛ والذي لم يكن يلتزم بعروض وقواف كالتي في العربية ، أثره في هذا المضطرب (١) .

أما الرافعي فقد مضى من ناحيته يثبت رأيه فى اتساع النثر العربي للمعاني الشعرية ، وقد جاء بنماذج من ذلك فى السحاب الأحمر وأوراق الورد ، والتنهدات والربيع الأزرق ولحوم البحر وغيرها .. صوّر فيها ألوانًا من المعاني الشعرية في آيات من الجملة النثرية .

وقد أسرعت القصيدة النثرية الريحانية فى الاندثار ، ولم يكتب لها الحياة بعد صاحبها ، ولكن الجبرانية ، والرافعية ما تزالان تتشبثان بالحياة والبقاء .

* * *

ومما تجدر الاشارة اليه أن حب التجديد والتطور بالشعر العربي عند بعض الشعراء قد بلغ محاولة استخراج أوزان من اللغات الأخرى كالفارسية والتركية ، والأوربية بعامة ، .. وكان أحمد شوقي سابقًا بذلك حين نظم قصيدته :

حفّ كأسها الحبَبُ فهي فضّةٌ ذهبُ

وبالرغم من نجاح هذه المحاولة ، فإنها لم تتعد استحداث مجزوء للبحر المتدارك ، لم يكن معروفًا من قبل .

وكذلك حاول خليل مطران (٢) والرافعي في « طبل الحرب » أو البحر المنفجر ، الذي نظم فيه بعض الأناشيد ، .. كما حاول بشر فارس في قصيدته :

جنبوا الناس عن أذني أذني زلزلت طربا

---

(١) ، (٢) راجع الزهور – ج ٢ السنة الأولى .

مثـــل قلب تحدثـه ســره الردُّ فاصطربا .. (١)

علي أن الدكتور اسماعيل أدهم لم يكن يرى إمكانية زيادة بحر جديد، أو استحداث تركيب آخر للبحور المعروفة، .. وإنما مردُّ تلك المحاولات الى تبديل التفاعيل واجتزاؤها، .. وليس ذلك باختراع ولا زيادة (٢).

وعلى أن هذه المحاولات لم تأت بثمر (٣) فإن الأستاذ حكمة فرج البدري قد أرجعها الى ضروب من الأبحر العربية نفسها وضبط أوزانها بتوثيق (٤) وكأنما كان يثبت رأي المرحوم أدهم.

* * *

على أن من أهم ميزات الانطلاقة الشعرية ما كان لها من الاتجاه الفني في القصة وضروب المحاكاة الأخرى!.

وكان الرافعي قد عقد فصلا للمقتطف درس فيه الشعر العربي خلال خمسين سنة من ظهوره، فرأى الجديد الأهم في هذا النوع القصصي الذي توضع فيه القصائد الطوال، وصياغة بعض الشعر على أصول من التفكير في الانجليزية والفرنسية .. لما فيه من الغرابة والحسن، .. كما لاحظ عليه الانصراف عن إفساده بصناعة المديح والرثاء، لتأثير الحرية الشخصية، .. وكذلك الاكثار من الوصف والابداع فيه، وإهمال الصناعات البديعية، والنظم في الشؤون القومية والاجتماعية.

---

(١) الرسالة ٨ ـ ٨٩، والثقافة ٣ ـ ١٥٣.

(٢) أنظر الرسالة ٨ ـ ٣٤١ كانون الثاني ـ يناير ١٩٤٠ م.

(٣) أنيس المقدسي ـ الإتجاهات ـ ص ١٩٧.

(٤) راجع كتاب العروض ـ لحكمة فرج البدري ط ـ البصري ١٩٦٥م.

وربما فات الرافعي أن يذكر التمثيلية وغيرها من هذه الفنون الوليدة، ولعله احتسبها على الفن القصصي، .. والمقال موجز جداً ايأخذ صفحات من مجلة، وكأنه استغنى عن الأمثلة والنماذج (١).

وقد حلق في القصة الشعرية غير واحد من الشعراء، .. كما اتسمت بعض قصصهم بسمو الخيال وقوة الأسر، وحياة اللغة فيها وتدفقها بالمعاني، وانثيال ألفاظها عند الحوار، ..

وأبرز هذه الأعمال كانت لخليل مطران في «فتاة الجبل الأسود» و «الطفولتان» و «شهيد المروءة» و «عروة وعفراء» لبشارة الخوري (٢) و «سليم وسلمى» لخليل شيبوب (٣) و «العذراء» لخير الدين الزركلي (٤) و «خولة بنت الأزور» لشبلي الملاط (٥) و «زينب وخالد» لخيري الهنداوي (٦) و «أسماء» للزهاوي (٧) و «الفقر والسقام» للرصافي (٨) و «عليا وعصام»

---

(١) أنظر الرافعي - وحي القلم - ج ٣ ص ٣٨٥ .

(٢) ديوان الخليل وديوان الهوى والشباب .

(٣) ديوانه «الفجر الأول» ص ١١٧ .

(٤) البرق ٣٣٧٠ .

(٥) ديوانه ص ٢٨٣ .

(٦) الأدب العصري ١ - ١٧٤ .

(٧) ديوانه ج ٣ ص ٦٨ .

(٨) ديوانه ص ١١٣ .

لقيصر المعلوف (١) و « غلواء » لالياس أبي شبكة وغيرها كثير ..

أما شاعرنا الرافعي فقد كانت له في القصة الشعرية محاولات موفقة ، وإن لم يلتزم فيها بما يقتضيه الفن القصصي أحياناً من عناصر السرد القصصي ، .. فهو يقتصد أبداً على حيوية نظمه التي يثير فيها الفكر والخيال والعاطفة معاً .

ومن أبرز هذه القصص الرافعية « دموع الصبا » و « على الكوكب الهاوي » بخلاف مطارحاته الغزلية التي انبتها في ديوانه ، وقصته « شبان الجيل » في ديوان النظرات .

وسنفصل فيها القول في كتابنا التالي بإذن الله وتوفيقه .

ولم تقف هـذه المحاولات القصصية عند حدود الحوادث التاريخية ، والأخبار الاجتماعية وإنما تجاوزتها الى الخيال في تحليقات إبداعية ، .. كان منها « ثورة الجحيم » لجميل صدقي الزهاوي ، و « على بساط الريح » لفوزي المعلوف ، و (عبقر) لأخيه شفيق المعلوف ، و (شاطيء الأعراف) للهمشري وغيرها .

* * *

ومن بين الفنون التي عاناها الشعر العربي الحديث في انطلاقته ، تلك النزعات التي تصدى فيها الشعراء للتاريخ والبطولات ، يستهوي أفئدتهم بها خيال يجنح في تلك الأجواء ، حتى كادت بعض القصائد أن تكون ملاحم شعرية إفتقدها الشعر العربي منذ آماد !..

ومن ذلك قصيدة أحمد شوقي في النيل :

---

(١) تذكار المهاجر ص ١١١ .

من أي عهدٍ في القرن تتدفق وبأي كفٍّ في المدائن تغدقُ
أمن السماء نزلت أم فُجِّرت من عُليا الجنان جداولاً تترقرقُ

وقد عارض بها قصيدة علم الدين المحيوي التي يصف فيها جزيرة الروضة :

الروض مقتبل الشبيبة مونقُ خضل يكاد غضارة يتدفق

أما الرافعي فقد أرسل قصيدته « النيل والطبيعة المصرية » على السجية نفسها فقال :

النيل أم سرُّ الزمان الجاري يلقى عليه الماء لون نهار

وقد كانت ذات أثر خاص ، جعلت من الأستاذ عبد الحميد سالم المحرر بالأهرام يحتفل بها ويترجمها لتنشر في الصحف الفرنسية عام ١٩٢٨ م (١) .

*

وقد تميّزت هذه النزعة تاريخياً عند حافظ ابراهيم بـ« متن العمرية » التي تحدث فيها عن مناقب الامام عمر بن الخطاب (رض) ، وظهرت عند عبد المطلب في قصيدته « العلوية » التي مدح بها الامام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - وقامت لدى عبد الحليم المصري في « البكرية » التي أرسلها في شمائل خليفة رسول الله (ص) ورفيقه أبي بكر الصديق (رض) .

وهمّ الرافعي أن يجاري الشعر في هذا المضمار ، ويعارض بعض هذه القصائد غير مرة (٢) ولا سيما بعد ذيوع قصائد أحمد شوقي النبوية في « نهج البردة » و « الهمزية » و « سلوا قلبي » ..

---

(١) الرافعي - الرسائل ص ١٣٩ .

(٢) » » ص ٥٣ .

ولكن أحمد محرم بزّ هؤلاء الشعراء جميعاً في صياغته لمطولته الكبرى، التي تحدث فيها عن مجد العرب، وعرفت فيما بعد بـ « الألياذة الاسلامية » (١).

وقد ارتفع بهذا الفن شاعريا الاستاذ عمر أبو ريشة وحلّق في مطولته عن الرسول الكريم، والأخرى التي أنشأها في خالد بن الوليد (٢).

ولم تقتصر هذه الطولات على التاريخ القديم، بل حضرت العصر الحديث فقد نظم الاستاذ ابراهيم العريض في « أرض الشهداء » مصوراً لفلسطين المأساة والملحمة ،.. وباهى البدري « بمعجزة العروبة » في ثورة العرب الجزائرية ..

* * *

ومن الفنون المستحدثة في الأدب العربي الحديث هذه القصص التمثيلية، التي تكتب فيها الجملة الأدبية نثراً أو شعراً على لسان أحد أفراد القصة، وتدور مع الآخرين في حوار يحاكي الحياة الأصل للقصة نفسها، .. وقد دعيت بالمسرحية لالتصاق تمثيلها بالمسرح، .. كما سميت التمثيلية من أن الأصل للقصة في القصص هو ضرب الأمثال للناس.

ولكن أستاذنا الدكتور مصطفى جواد يرى أن تسمى « المحاكاة » لأنها تحاكي وتشابه الواقع الذي تجري فيه القصص أو تتخيل !.. مع العلم أن الفن عند الاغريق بضروبه القولية والتصويرية كان يعتبر محاكاة (٣).

وقد كان انتقال هذه التمثيليات نتيجة مباشرة لاتصال الغرب بالشرق

---

(١) اخرجتها « دار العروبة » عام ١٩٦٢ م.

(٢) أبو ريشة في ديوان « مختارات ».

(٣) راجع محمد غنيمي هلال في النقد المقارن ـ فصل المحاكاة ! ..

وما جاء به من فرقها وأجواقها الموسيقية بعد الغزو الفرنسي لمصر .. وكون هذه الفنون من مألوف الآداب الافرنجية .

وكان العرب قد فاتهم لسبب أو آخر أن يترجموا عن اليونانية مثل هذه الفنون أيام عزهم الحضاري الذي مارسوا فيه الترجمة عن اللغات القديمة ، .. فما تركوا فيها من العلوم العقلية أو الطبيعية شيئاً ، وما غادروا للفلسفة مجالا من غير أخذ واستيعاب .. ولـكنهم قصروا في الفنون الأدبية والشعرية لما يذهب اليه بعض المفسرين من غلبة الصورة الوثنية والقول بتعدد الآلهة فى هذه الفنون مما لا يأتلف مع الاعتقاد العربي الموحـد .. ويضيف آخرون الخشية من هذه الوثنية أن تعيد الناس الى جاهليتهم الأولى ..

وعندي أن ما امتاز به الفكر العربي آنذلك من النظر فى العلوم العقلية ، والإفتراعات الذهنية التي كادت ترين على التصور في المذهبيات الفلسفية ، والاتجاهات الاجتهادية في الفقـه .. وسوى ذلك .. هـو الذي قاعس بهم عن تذوق هاتيك الفنون بعـد أن أصبحوا في شغل شاغل عنها ، وأضحت الآداب نفسها عندهم لوناً من الترف والأناقة ، .. مما لا مجال للتوسع فيه خوضاً فى هـذا السبيل .

على أن محاولة الشيخ ناصيف اليازجي فى قصته « المروءة والوفاء » التي نشرها عام ١٨٧٦ م وقد أشبعها بالصور الشعرية والنسج اللطيف ،.. حتى مثلت على مسارح بيروت بعد ذلك باثني عشر عاماً ، تعد أسبق الأعمال الفنية في هذا المجـال .

وكان قد استمد القصة من حادثة تاريخية مشهورة قيل أنها وقعت للنعمان ملك المناذرة في الحيرة يوم (بؤسه) مع أعرابي كان النعمان يحب أن يأتيه الأعرابي يوم نعيمه .. والقصة معروفة بعد .

ولعل من الموافقات الطريفة في حياة الزعيم النابغة مصطفى كامل - رح - أنه تصدى - وهو بعد طالب - في الحقوق لوضع رواية (فتح الاندلس) عام ١٨٩٢ م وقد جمع فيها بين الشعر والنثر المسجوع والأناشيد ..

ثم كان أبو خليل القباني - رائد النهضة المسرحية العربية ، الذي وضع عدة مسرحيات ، منها عنترة ، والأمير محمود ، وناكر الجميل ، والرشيد ، وأنيس الجليس .. وسواها .. وقام بتمثيل معظمها مع فرقته على مسارح الشام ومصر ..

كما حاول سليم النقاش في (ظلوم) وعلى أنور في (شهامة العرب) المطبوعة عام ١٩٠٢م وابراهيم الطرابلسي في « ابن زيدون وولادة » وأحمد شوقي في « علي بك الكبير » التي عجز عن الاستفادة منها يومها ، حتى عاد فأخرجها عام ١٩٣٢ م بأقوى منها أسلوباً ، وقد أفاد من تجارب سابقيه (١) .

وقد حاول الرافعي فى « موعظة الشباب » أن يضع رواية يصوغها بأسلوب شعري ولكنها لم تر النور (٢) .

---

(١) راجع عمر الدسوقي - في كتابه - المسرحية ، ومحمد يوسف نجم - المسرحية ، ومحمد المنذور - المسرح ، والمقدسي - الإتجاهات ص ١٧٥ .

(٢) ورد في رسالة سلامة حجازي للرافعي أنه كان في انتظارها ، كما ظهر الاعلان عنها في الجزء الثالث من ديوان الرافعي وعلى الغلاف .. ولا يعرف مكانها الآن ! ولعلها بين مخلفات « سلامة حجازي » ! ..

كما حاول الشيخ محمد عبد المطلب الاشتراك فى تأليف روايات لم يوفق الى سبكها ، ومنها المهلهل وامرؤ القيس التي نشرت عام ١٩١١ م .

وبعد ذلك جرت محاولات لكتابة التمثيلية فى الترجمة عن اللغات الاخرى ، والوضع بالعربية نثراً وشعراً ، من بينها ترجمة فرح أنطون لرواية « ابن الشعب » وابراهيم رمزي لمسرحية (قلب المرأة) .

وقد كان الأديب الفنان محمد تيمور المنطلق فى هذا السبيل ، حين وضع روايته (العصفور فى القفص) عام ١٩١٨ م و (العشرة الطيبة) عام ١٩٢٠ م فقد أجاد في البناء الفني المسرحية ، ودقّ في الأداء ورق في المحاورة .

ثم ازدحمت أيام العرب ـ والمصريين بخاصة ـ بالممثلين والمخرجين والسينمائيين.

وكانت الانطلاقة الأدبية الثانيـــة على يد الأستاذ توفيق الحكيم الذي ظهر في أعقاب الثورة المصرية في (المرأة الجديدة) وعودة الروح و (أهل الكهف) وغيرها .. حتى ظهرت له مسرحية (محمد) عام ١٩٢٦ م (١) فلحقه الكثيرون .

ولقد تأثر أحمد شوقي بأعلام الادب الأوربي الذين ينزعون الى التاريخ ، فمال الى إحياء التاريخ المصري فرعونياً كان أم عربياً ، وكان في شعره بعد ذلك اتجاه قومي رائع في الموضوع (٢) .

ولما كان الجمهور ميالا الى الغناء أكثر من المحاورة ، وإيمانه بالخلافة الاسلامية يملأ عليه آفاقه ،.. فقد اهتبلها فرصة ليضع فيها روايته (الست هدى)

---

(١) راجع اسماعيل أدهم في كتابه « توفيق الحكيم الفنان الحائر » .

(٢) عمر الدسوقي ــ المسرحية ص ٥٣ .

ملهاة شعرية تنقل من الاجتماع قضية خطيرة يتهافت فيها الرجال زحاما على النساء المثريات !..

وأحمد شوقي هو أول من وضع مسرحية جيدة السبك ، رائعة البيان ،.. وكان له في شكبير قدوة في هذا الموضوع ،.. وما عيب عليه سوى إطالة الحوار لشاعريته المتفتحة على المعاني ،.. فهو أقوى من ملك ناصية البيان العربي في الشعر الحديث (١) وكان من السهل عليه أن يدير هواه حول نواة الغزل ، ويتخذ من (مجنون ليلى) و (عنترة) مجال التعبير عن حبه وأيامه ! .. (٢)

وقد تابعه في اتجاهه الشعري التاريخي هذا كثير من شعراء العربية ، منهم محمد حسن علاء الدين في (امريء القيس) وعمر أبو ريشة في (سمير اميس) وعزيز اباظة في (الناصر) وأحمد زكي ابو شادي في (المماليك) .

وانتقل بالاتجاه هذا الى العصر الحديث بدر الدين حامد في (ميسلون) وعبد الحميد الراضي في (ثورة العراق) وعلي أحمد باكثير في (همام) .. وبرهان الدين العبوشي في (شبح الاندلس) التي عرض فيها لمأساة العروبة في فلسطين !..

* *

ولا بد لنا قبل أن نختتم هذا الفصل من أن نشير الى ظاهرة الرمزية التي نشأت معاكسة للابتداعية الأصولية ، متهمة إياها بالجمود ،.. كما كانت ردّ فعل لميوعة الابتداعية ، وابتذال العاطفية .. والتي وافت – على ما يقدر عاشقوها –

---

(١) عمر الدسوقي - المسرحية ص٦٢ – في الأدب الحديث ج٢ص٣٠٤ .

(٢) » » » من ٢٦ – ٨١ ثم انظر في نقده لرواية مجنون ليلى ص ٤٢٥ .

في « جهاز من الألفاظ المشرقة ، تمازج الأحرف فيه يبعث في النفس الموسيقى ، ويوحي اليها عن طريق الايماء ـ معاني وراء المعاني ».. فما الشعر إلا أنشودة تخرج بالانسان عن الوعي .. » . والرمزية هـــذه « نزعة تحرر من الواقع الى آفاق تبحث عن الغامض من العواطف ، والتائه من الخلجات في منعطفات الروح » الخ (١).

ويشترط لهـا دعاتها نسبة من الموصوفات والنعوت ، والاكتفاء باللمعات القصية ، واللمحات الخفية ، لتحدث نشوة في النفس (٢) .

وقد نجد نماذج للرافعي فى شعره ونثره فيها بعض هذه الشروط ، ولها غير النشوة والهزة التي تحدثها فى النفس ـ معاني من الايمان والطمأنينة والسماحة ، لم يطاوله أحد فى الاقتراب منها ،..

ويحفل بذلك في « حديث القمر » و « رسائل الأحزان » وصفحات من « السحاب الأحمر » ولا سيما في مثل قوله :

يا من على البعد ينسانا ونذكره	لسوف تذكرنا يوماً وننساكا
إن الظلام الذى يجلوك يا قمر	له صباح متى تدركه أخفاكا ..

.. وقد عيب عليه « الغموض » في هذه المؤلفات الشعرية الإنشاء ،.. وأن ألفاظه وتراكيبه تحتاج الى التأمل وكدّ الذهن لإدراك ما وراءها من المعاني واللمحات والاشارات !

على أن « الرمزية » وما اتبعها من « الشعر الحديث » قد أضحت اليوم

---

(١) نقولا الفياض ـ الأديب ١ ـ ج ٨ وكتابه « على المنبر » .

(٢) الأديب ١ ـ ج ٧ .

كالقضية المعلقة وما تزال الآراء تدور من حولها ، والدراسات تعمق من أجلها ، والبحوث تتولى جوانبها ، والمناقشات تحتدم فيما يقبل الحوار ومبادلة الفكر .. يقف معها فريق من الأدباء والشعراء ، ويتصدى لهم فرقاء آخرون .. وقد كتب في ذلك الكثير (١) .

* * *

ولا يغيبن عن البال .. أن هذه النزعات ، وصور التجديد والعطاء قد أثرت في الشعر العربي بعامة ، وجعلت من انطلاقته الحديثة حياة أدبية وليدة ، حتى ليكاد أن يكون إبتداعياً محتفظاً بالأصالة عند جيل شوقي ، وابتداعياً متأثراً بالرمزية الى حد ، .. وفي تفاوت بين الشعراء .. بعد هذا الجيل .

---

(١) منهم زكي طليمات في المقتطف عام ١٩٤٣م ، والمكشوف ع ١٤٥ ، وعباس العقاد ، الكتاب ج١ م ٣ . وبشر فارس ، والعلايلي ، وابراهيم العريض وإحسان عباس .. وغيرهم .

وقد تصدى للموضوع صديقنا النابغة محمد فتوح أحمد فأعد فيه رسالة موفقة

الباب الثاني

الإمام
مصطفى صادق الرافعي



الفصل الأول

١ الرافعي والرافعيون

هو أبو السامي مصطفى صادق بن الشيخ عبد الرزاق الرافعي الفاروقي العمري الطرابلسي (١) شاعر الحسن المجنون (أ) وأديب الشرق المفتون (ب) ونابغة البيان (ج)، وزهرة شعراء العربية (د)، وإمام الادب وحجة العرب (ه) (٢) ولد ببهتيم (٣) فى أول رجب الأصم سنة ١٢٩٨ هـ ـ الموافق لمنتصف

---

(١) هكذا كانت كنيته ـ واسم ولده الأكبر ـ محمود سامي الرافعي ، وقد توفرت لدينا نعوته من تذييله بعض أوراقه الخاصة ، ومن بين رسائله التي كان يبعث بها الى أصدقائه وأصحابه من أهل الصحف والمجلات، وانظر الجامعة ج٨ ـ ١٩٠٢م ـ ربيع الأول ١٣٢٠هـ ،.. وما أضافه اليه بلغاء العصر من نعوت .

(٢) (أ) سمي بشاعر الحب والجمال ـ الحسن ـ لشدة ولعله بالغزل ـ أنظر ديوانه ج ١ هامش ص ٦٨ ، ج ٢ ص ١٢ . وأحمد محمد عيش ـ سيرة الرافعي المقتطف ٩١ ـ ٥٢٩ ، وما قاله عن صفة الجنون بمفاتن الطبيعة وجمال الحسان ،

(ب) وفرح أنطون ـ الجامعة ٧ أيلول ـ سبتمبر ١٩٠٣ م ، وديوان الرافعي ج ٢ ص ١٣ ،.. واحتفاء عبد الحميد الزهراوي ورشيد رضا به .

(ج) وكذلك مجلة البيان للبرقوقي ، وجريدة الأخبار لأمين الرافعي .

(د) وما نعته به أحمد شوقي ، أمير الشعراء .

(ه) وشكيب أرسلان أمير البيان في رسائلها !..

(٣) بهتيم ـ أحدث قرى محافظة القليوبية ، قريبة من مصر ـ القاهرة ، كانت مهملة ، وما لبثت يد وزارة الزراعة أن امتدت اليها في بدء إنشائها ، =

كانون الثاني ـ يناير ١٨٨١ م (١) حيث كانت أمه السيدة أسماء قد آثرت أن تكون ولادتها الثانية فى دار أبيها الشيخ أحمد الطوخي ـ التاجر الحلبي الذي كانت قوافله تسير بالتجارة بين مصر والشام (٢) .

وقد سماه ابوه صادقاً الرافعي ،.. حتى اشتهر بالصدق والأمانة ، فاصطفاه من بين أخوته ، ودعي من ثم « مصطفى صادق الرافعي » (٣) .

= فجعلت منها قرية نموذجية ، ومعهداً للتجارب الفنية ـ الزراعية المختلفة ، حتى غدت اليوم ـ وقد مدت اليها أبنية مصر الجديدة عن طريق النزهة ـ من أعرس مدن القطر المصري ، تحفل بالعديد من أصناف الفاكهة وأنواع الخضراوات .

ومن عجيب حكمة الله وتوفيقه أن يكون الدكتور محمود سامي الرافعي مديراً عاماً لإدارة شركة (قها) العظيمة ، التي تتولى منتجات حقول القرية الزراعية بالتنمية والتصنيع .

(١) محمد صبري ـ شعراء العصر ص ٢١٣ ، وسعد ميخائيل ـ آداب العصر ص٢٩٣ ، وأحمد عبش ـ المقتطف السابق وصديق شيبوب ـ البصير ـ ٢١ أيار ـ مايو ١٩٣٧ م ، ومحمد سعيد العريان ـ حياة لرافعي ص ٢٧ .. الخ .

وقد كانت هنالك ورقة بخط الرافعي حسب فيهـا ما يقابل يوم ولادته في التاريخ الرومي (الميلادي) رجح بها العريان أنه من مواليد كانون الثاني ١٨٨٠ م ـ على أن الصواب ما أثبتناه .

(٢) محمد سعيد العريان ـ حياة الرافعي ص ٢٧ .

(٣) .. وقد ذكر الأستاذ محمد أحمد عيش ، أن الشيخ عبد الرزاق الرافعي سماه « مصطفى» أولا ، واحتفل به من أول يوم ، ثم أنه لما نشأ اشتهر بالصدق منذ طفولته ، نعته أبوه بالصادق فاستحلى الإسم الجديد حتى صار يعرف به ، ولا سيا حين عرف بالأمانة بين أقرانه من طلبة المدرسة الابتدائية في المنصورة ـ راجع المقتطف ٩١ ـ ٥٢٩ .

على ان الرافعي نفسه ، كان يكتب في بعض أوراقه اسم صادق منفرداً ، او يرمز له بحرف (ص) مختصراً ـ من بين توقيعاته العديدة (١) .

ونظراً لما يحدثه ازدواج الاسم أحياناً من اشتباه ومضاعفة ،.. فسأمر على الموضوع بإيجاز حتى أثبت الاسم الصحيح ا .

في مطلع حياته الأدبية وعقب صدور الجزء الأول من ديوانه ، تلقى الرافعي رسائل عديدة وتقريظات تتضمن اسمـه وتنعت صفته ، وتطريه في توريات جميلة ، منها ما قاله المرحوم محمود سامي البارودي :

هو « صادقٌ » فيما علمنا كاسمه وكفى بذلك في الوفاء دليـــلا
فليبقَ محسود البيان ممتعـاً بالفضل حتى يبلغ المأمولا (٢)

وقد برع البارودي في هذه التورية كما رأيت ،.. وكذلك ذهب الشيخ حسين مهدي المذهب نفسه في قوله :

.. فلو شعراؤنا سمّوه قبــــل اليـوم ما فاهوا
وهذا « صادقٌ » والصدق أصـلٌ في مســــمّاه (٣)

وبذلك حاول ،وفقاً تثبيت الأصالة في تسميته بالصادق .

ونجد الشيخ مصطفى لطفي المنفلوطي يتوصل اليه بمثل قوله :

. والشعر كل الشعر في حكمة يوحي بهـا للأنفس الخـاطر

---

(١) الرافعي ـ جنود سعد ـ في هامش رسائل الرافعي ص ٧٧ .

(٢) أنظر ديوان الرافعي ج ١ ص ١٤٦ .

(٣) « « « « ص ١٥٢ .

والشعر إن لم يك من « صادق »　　فيـه فلا شعر ولا شاعر (١)

.. وقد ضمّن الحكمة القائلة .. إن « أحسن الشعر أصدقه » .

أما ابن عمه ورفيق صباه المرحوم عمر تقي الدين الرافعي فقد قرظ ديوانه الثالث بقوله :

.. ألقى من الحكمة ألواحها　　فجلت الحكمة والصانع

وحسبها « الصادق » فيما أتى　　مؤيداً إذ كلهم خاضع (٢)

وحتى الدكتور طه حسين يذكره بالاسم « صادق الرافعي » (٣) .

وقد وجدت في رسالة للآنسة مي وجهتها اليه في ١٠ آذار ـ مارس ١٩٢٣م تقول فيها :

« .. وإني لشاكرة لك ما أتحفتني بـه من الآيات الصادقة الرافعية » ،

وفي رسالتها الأخرى المؤرخة في ٢٣ تموز ـ يوليو ١٩٢٣ م تحييه بقولها :

« أما قبل ..

فعلى الرافعي الصادق سلام ، وله بالعيد السعيد تهنئة .. الخ » .

وقد ورد في القسم الثاني من المقالات الظريفة التي عقدها لنابغة القرن العشرين ـ المجنون في مجلة الرسالة عام ١٩٣٥ م قوله على لسان النابغة :

لا أبتغي في المدح غير أولي النهى　　أو صادقٍ أو شوقي أو مطران

---

(١) أنظر ديوان الرافعي ج ١ ص ١٥٠ .

(٢) » » ج ص ١٥٠ .

(٣) طه حسين ـ حديث الأربعاء ج ٣ ص ١٥ .

وفسر « صادقاً » في الهامش بأنه استاذ نابغة القرن العشرين (١) .

ومن ناحية اخرى نجد ازدواج اسمه (مصطفى صادق) الذي عرف به واشتهر في دنيا الأدب والتاريخ وفنونهما ،.. شائعاً عنه في سائر ما نشر له من كتب ورسائل ، او فيما نسب إليه وادعاه لنفسه ،.. وهو المعروف والمشهور .

وقد ورد هكذا مزدوجاً في تقريظ البارودي لديوانه الثاني بقوله :

« لمصطفى صادقٍ » في الشعر منزلة   أمسى يعاديه فيها من يصافيه
صاغ القريض باتقانٍ فان تُليت   صدوره .. عُلمت منها قوافيه (٢)

ومن ناحية ثالثة نرى اقتصار اسم « مصطفى » معروفاً عنه ايضاً ،.. فقد خاطبه به الشيخ عبد المحسن الكاظمي مطرياً بقوله :

شعرك يا « مصطفى » لصافية   بحوره كل وردها عذب
إن تنتخب من سواك قافية   فذي قوافيك كلُّها نخب (٣)

وكذلك الأديب قيصر ابراهيم المعلوف صاحب ديوان « تذكار المهاجر » يذهب المذهب نفسه بقوله :

ذهب الورى أنّ الأوائل لم تدع   لبني الزمان من المعاني مبتكر
حتى نشرت عليهم يا « مصطفى »   آياتك الغرا .. فكذبت الخبر (٤)

---

(١) أنظر الرافعي - وحي القلم ج ٢ ص ٣٦٧ .
(٢) أنظر ديوان الرافعي ج ٢ ص ١٥٠ .
(٣) » » » ج » .
(٤) أنظر ديوان الرافعي ج ٣ ص ١٤٩ .

ونجد هذا الاقتصار عنده ايضاً في بعض رسائله الخاصة (١) .

ويذهب في الاقتصار علي اسمه (مصطفى) سائر أصدقائه وأغلب خصومه من الأدباء والمسيحيين منهم بخاصة (٢) اذكر منهم الدكتور طه حسين في نقده لآثار الرافعي اعتباراً من تاريخ آداب العرب ، وحديث القمر ٠٠ الى رسالة العتب ورسائل الاحزان ٠٠ الخ (٣) .

والاستاذ عباس محمود العقاد (٤) وسلامة موشي (٥) وعمر فاخوري (٦) وانيس المقدسي (٧) وجميل جبر (٨) وعصبة « الاسبوع العربي » (٩) .

وعلى هذا الاسم أقامت له « مي » مصغرها المرخم « مصيف » الذي خرجت به على قواعد اللغة ، ولـكنه ارتضاه (١٠) ، لأنه يوافق منه صفة كانت تعتريه ضعفاً أيام الصيف .

---

(١) أنظر رسائل الرافعي ص ٢٣ ، ٥٠ ، ٩١ وما بعدها .

(٢) أنظر جميل جبر - مي في حياتها المضطربة ص ٤٢ .

(٣) راجع طه حسين - حديث الاربعاء - ج ٣ .

(٤) أنظر العقاد - الديوان ج ٢ ، ساعات بين الكتب ص ٢٦ .

(٥) أنظر الهلال - كانون الثاني - يناير ١٩٢٣م وما عاد يكتبه في أخبار اليوم عام ١٩٥٣ م .

(٦) راجع منيرفا - ايلول / سبتمبر ١٩٢٦ م ونقد للسحاب الأحمر .

(٧) راجع له الأساليب النثرية والإتجاهات الأدبية .

(٨) أنظر جميل جبر - مي في حياتها المضطربة ص ٤٢ .

(٩) الصادرة في آب ١٩٦٣ م بمقالات عن مي ومأجآتها .

(١٠) أنظر سعيد العريان - حياة الرافعي ص ١٠٠ الهامش .

ويظهر أن الصدق سجية رافعية ، لعلّها من بعض خلالهم التي تذهب بهم في الحياة مذاهب الرجولة والضمير والعنصر الكريم ،.. وقد تنبه لها أحمد شوقي أمير الشعراء في قصيدته « سيف الحق » التي رثى بها أمين الحركة الوطنية في مصر زين الشباب امين عبد اللطيف الرافعي ، وكانت يد المنون قد تخطفته في زهو شبابه ، وأوج مساعيه النضالية المؤمنة ، وتفتح روحه القومية الصادقة ،.. فقال:

.. أخذ الموت من يد الحق سيفاً خالديّ الغرار عضباً صقيلا

قيل حلاه .. قلت : عرقٌ من التبر أراح البيان والتحليلا

.. وأرى ـ الصدقَ ـ ديدناً لسليل الرافعيين ، والعفاف سبيلا .. (١)

فاذا كان أمين قد مضى هكذا فى السياسة متخذاً الصدق ديدناً ، والعفاف سبيلا ،.. فانّ صادقاً هو الآخر كان ماضياً فى هذه الصفة وحده ، الى الغاية ، يستهدف فيها صون حياة الامة بكل كرامة هي جديرة بها ، وحماية عقيدتها ، والحفاظ على تراثها الحضاري ، باقامة روحها الأدبي ، والاشراق ببيانها النفسي .

ولا يقف شوقي ـ رح ـ من الرافعيين هذا الموقف فحسب ، وإنما يتعداه الى اتخاذ الرفعة التي ينتسبون إليها تورية ،.. مثلاً أعلى لا يطاوله في البلاغة والقصد بيان ليراع ! .. ولا بلوغ النجم في الارتفاع ..

وقد عبر عن ذلك في مطلع قصيدته التي حيا بها شاعر العروبة وبلبل سورية المرحوم عبد الحميد الرافعي في مهرجانه عام ١٩٢٨ م حيث قال :

---

(١) راجع ذكرى أمين الرافعي ــ لصادق عنبر .

أعرني النجم أو هب لي يراعا يزيـد الرافعيين ارتفـاعا (١)

ويطري نعت الرافعي ـ وهو لما يزل يافعاً .. حتى ليشير حافظ الى ذلك بغبطة في قوله :

وحسبك أن مطريك ابن هاني وأنك قـد غدوت له قرينا (٢)

و« ابن هاني» من الكنايات الجميلة التي استحلاها لنفسه شوقي رحمه الله،.. يجمع فيها إعجابه بالحسن ابن هاني ـ أبي نواس ـ وابن هانىء الاندلسي ذي الحظوة عند الملوك ، .. حتى لقد دعا منزله في الجيزة بـ« كرمة هاني » .

* * *

ومن الجدير بالذكر والملاحظة ، أن ازدواج الاسماء بالعبودية والتحميد ، سنة إسلامية ظهرت من بعد اهتمام الأمة بأحياء المولد النبوي الشريف (٣) وشيوع الحديث المنسوب الى النبي محمد (ص) والذي يقول فيه « خير الاسماء ما عُبِّد وحُمِّد .. » الحديث .

وقد فسرت العبودية بسبق كلمة « عبد » لإحدى أسماء الله الحسنى ، التي جمعت في « دلائل الخيرات » (٤) كما فسر التحميد بإلحاق أحد أسماء النبي عليه السلام أو صفاته بالاسم العلم للشخص المراد تحميده .

---

(١) شوقي ـ الزهراء ـ شوال ٣٤٧ هـ .

(٢) حافظ ـ الديوان جـ ص

(٣) كمال الدين الطائي - تاريخ المولد - الثقافة الإسلامية ٢٤ - ١٩٥٦م .

(٤) للإمام أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزري وهو من كتب المأثورات المتداول بها بين الناس .

ومن هنا نلاحظ أن معظم أسماء أبناء الاسرة الرافعية محمدة ، أو مدينة (١) أو معبدة ،.. و بذلك يكون اسم إمامنا «مصطفى صادق الرافعي» مزدوجاً هكذا ..

أما النعوت والألقاب الباقية الأخرى كالفاروقي والعمري والطرابلسي .. والنجم .. الخ فإنما هي من الصفات التي كان يتخذها لنفسه في فترات شاعريته ، ونزعات أدبه ونقده ،.. حتى إذا ما تم له الفوز بأمانة الأدب وأصبح حجة فيه كاد يقتصر على لقب « الرافعي » حسبُ .

وقد أردنا في تحليل اسمه بهذه الوسيلة ، أن نمكن للدارسين من التثبت في نسبة بعض الآثار الرافعية التي ليست له ، وذلك مما تقع فيه بعض الفهارس ومصالح « البيليو غرافيا » من الخطأ والخلط بينه وبين غيره من الرافعيين ، كمصطفى الرافعي صاحب كتاب « طرابلس الفيحاء » والدكتور مصطفى صاحب « حضارة العرب » و « الاسلام إنطلاق لا جمود » وغيرهما (٢) .

وكذلك أردنا أن نصحح الخطأ الذي يقع فيه بعض الكتاب من نسبة بعض آثاره لغيره من الرافعيين (٣) .

---

(١) من النسبة الى الدين ، وسيرد في سلسلة نسبه الكريم .

(٢) الأخير - يعمل مستشاراً للبناء في القاهرة ، وقد نشر عنه وأذيع من خبره مصوراً أنه أحد المنضمين الى محفل « البنائين الأحرار » أو الماسونيين الأشرار على تعبير أدق - ظناً بالإنطلاق !! ..

(٣) ومثال ذلك ما نسبه محمد زغلول في كتابه - القومية العربية في العصر الحديث - قصيدة « بلادي » الواردة في ديوانه الأول الى عبد الحميد الرافعي .

ولعل الأخطر من ذلك أن ينسب له أيضاً في بعض المكتبات معجم المصباح المنير للفيومي !! ..

وإمامنا الرافعي بعد هو الولد الثاني للشيخ عبد الرزاق الرافعي - رحمه الله - الذي كان كبير القضاة الشرعيين في مختلف محافظات القطر المصري ،.. ومن أفراد الدنيا المعدودين فى الفقه الاسلامي على مذهب أبي حنيفة (١) .

والشيخ عبد الرزاق هو ابن العارف بالله الشيخ سعيد بن الشيخ أحمد ابن الامام القطب الكبير عبد القادر الرافعي رأس الأسرة الرافعية ، وأول من تلقب بهذا اللقب واشتهر بها ! .. وأضحى اليه ينسب الرافعيون من يومئذ ! . كما سيأتي .

والشيخ عبد القادر الرافعي هو ابن العارف بالله الشيخ عبد اللطيف البيساري (٢) بن الشيخ عمر البيساري صاحب زاوية العوينات بطرابلس الشام ابن الشيخ أبى بكر الحموي (٣) الولي المدفون بحماه بن الحاج لطفي بن الشيخ علي العقيلي الحموي القطب الصوفي المتصل نسبه بالشيخ عقيل العمري المنبجي (٤) صاحب الطريقة العمرية فى التصوف بن الشيخ شهاب الدين أحمد البطائحي -

---

(١) أنظر الرافعي - أبي - المقتطف - أيلول / سبتمبر ١٩١٩ م ، وكان المطاف قد اختتم له حياته الحافلة في مدينة السيد البدوي (طنطا) ، فتوفي فيها ودفن هناك .

(٢) نسبة الى بيسارة من مدن صعيد مصر - محافظة أسيوط .

(٣) نسبة الى حماة - من مدن الديار الشامية .

(٤) منبج - قرية على الفرات في الجزيرة ما بين العراق والشام ، والشيخ العقيلي هو صاحب الطريقة العمرية ، وما تزال بعض الأسر والعشائر تنتسب اليه في تلك الديار - راجع أبي الهدى الصيادي - مراحل السالكين ص ٧٠ .

الهكاري (١) بن الشيخ عمر بن عبد الله البطائحي بن زين الدين عمر بن الشيخ المعمر زين الدين عمر المكي (٢) ابن أحد العبادلة الصحابي الجليل عبد الله بن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ العدوي القريشي (٣) .

---

(١) البطائح جمع بطيحة ـ برقة ، مسيل واسع ، وجمع ميـاه سائية ، والمعروف منهـا بطائح مكة ، وأول السواد في العراق كانت تسمى بالبطائح تشبيهاً لها بهاتيك ، وهي ما بين الصراة وواسط .. وقد أدركها الجفاف على مر العصور حتى أصبحت بيداء ، يسمي بعضها بجزيرة الرفاعي ،.. وإلى هـذه البطائح ينسب الإمام القطب الكبير السيد أحمد الرفاعي ، صاحب الطريقة المعروفة باسمه ، وما يزال مقامه هناك كعبة القصاد من أصحاب الطرق الصوفية الى اليوم، ولعل الشيخ شهاب الدين أحمد البطائحي قد سلك عليه أولا ،.. حتى استقل خلفه الشيخ العقيلي بطريقة العمرية ، والذي كان يقول ، إن الرفاعي حجة الله على الأولياء .

والهكاري ـ نسبة الى هكر ـ موضع جميل أو دير قرب حوران .

أو ربما من النسبة الى هكارية إحدى المناطق العراقية شرقي العمادية ، وهي تجاور (وان) في تركية الآن .

(٢) من النسبة الى مكة المكرمة .

(٣) راجع في ذلك محمد رشيد الرافعي ـ ترجمة الإمام عبد القادر الرافعي ـ الثاني ، وكذلك قابل النسب على ما ورد في كتاب « يوبيل بلبل سورية » الذي صدر تعريفاً وتكريماً لشاعر العروبة المرحوم عبد الحميد الرافعي ، عند بلوغه السبعين من عمره .

فى أوائل القرن الثامن الهجري هاجر من المدينة المنورة أحـــد فروع السلالة العمرية الفاروقية ، ذهب بعضهم الى العراق واستوطنوا الجزيرة في الموصل ،.. وقد شيَّد رأس هـــذا الفرع الحاج قاسم العمري ـ الجامع العمري الـكبير هناك ، .. وكان بداية تاريخ هذه الأسرة العمرية المعروفة الى اليوم .

وقد نبغ فيها عدد من العلماء والفقهاء والمتصوفة ، منهم الشاعر الكبير عبد الباقي الفاروقي العمري الموصلي (١) .

وربما سبق هذا الفرع رأس آخر ساح في ديار الشام ما بين عكار في حوران ومنبج وحماه في سورية ، والبطائح فى العراق ،.. ورحل الى « بيسارة » من أعمال أسيوط في وادي النيل ..

ثم عاد فعرج على الديار الشامية ثانية ما بين حماه والعوينات بطرابلس الشام ، حيث أنشأ الشيخ عمر البيساري زاويته المعروفة هناك ، .. وهو جـــد الإمام عبد القادر الرافعي الكبير (٢) .

---

(١) راجع ترجمة سامي باشا الفاروقي - بطل حوران ـ الهلال ج ٣ كانون الأول / ديسمبر ١٩١١ م .

(٢) .. لم أقف على تاريخ مفصل للأسرة يقف الى جوار ـ أشجار النسب ، ولعل الأستاذ سمير الرافعي نجل الشيخ عبد الحميد الرافعي أو سواه من العمريين في العراق يتولى هذا الموضوع بأكثر عناية ودراية .

الرافعيون في التاريخ

إزاء ما قدمنا من أخبار لا بد لنا أن نلمّ بتعريف لأشهر الرافعيين فى التاريخ العربى بين يدي هذه الدراسة التي نهتم بها أن نحيي ذكرى إمام الأدب الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ـ رحمه الله ـ.

ذلك أن اسم « الرافعي » لم يكن وليداً في التاريخ الفكري والفقهي للعرب (١) وإنما جاء هذا الانتساب علماً ونعتاً لرجال عديدين من الفقهاء وأهل اللغة والأدب عبر تاريخ الفكر العربى، والحضارة الاسلامية طيلة قرون من إزدهارها، .. وحتى انفضاض الأيام من بين يديها.

وقد زخرت كتب الطبقات، وتراجم الأعلام، ومحتويات (فهارس) المؤلفين بأسماء أولئك الرافعيين، تنعت صفاتهم، وتعدد الكثير من مصنفاتهم.

وإننا لنوجز القول في بعضهم الأشهر تعريفاً، .. كي نفرق الالتباس والخلط والوهم الذي قد يعتري معرفة الناس لهم نسبة، أو يدور من حولهم لقباً:

* * *

---

(١) راجع محمد سعيد العريان ـــ حياة الرافعي ص ٢٦ وما بعدها ..

أولا - الرافعيون قديماً :

كانت النسبة الى « الرافعي » قديمة كما قدمنا ، وقد اشتهر من هؤلاء الرافعيين :

أ - اسماعيل بن الحكم الرافعي - هو من ولد رافع مولى رسول الله (ص) كان قاضياً بمدينة همدان فى خلافة الواثق وله كتاب (١) وكان حياً عام ٢٣٢ هـ ولم يعرف له تاريخ ولادة أو وفاة (٢) .

(ب) - إمام الدين أبو القاسم عبد الكريم بن محمد بن الفضل بن الحسين بن الحسن الرافعي - الشافعي - القزويني (٣) .

ينتهي نسبه الى الصحابي الجليل رافع بن خديج راوية الحديث عن رسول الله (ص) كما قال مظفر الدين القزويني الذي أرّخ له .

وهو صاحب الشرح الكبير المسمى « فتح العزيز على كتاب الوجيز »

---

(١) « أعيان الشيعة ١١ - ٣٨٨ .

(٢) سركيس - معجم المطبوعات - ٦ - ٢٩٢ .

(٣) المرجع السابق ، وانظر المصنف الحسيني - طبقات الشافعية ص ٨٢ ، والسبكي - ج ٥ ص ١٢٠ ، وحاجي خليفة - كشف الظنون . وكذلك محمد فريد وجدي - دائرة معارف القرن الرابع عشر ص ٢٦٥ ، وخير الدين الزركلي - الأعلام - ج ٤ ، وعمر رضا كحالة - معجم المؤلفين - وفهرس المكتبة الظاهرية بدمشق .

للإمام الغزالي ، فى ستة عشر مجلداً ، لم يصنف مثله في مذهب الإمام الشافعي .

وقد شرح « المحرر » وسماه الوضوح ، وكلاهما في فروع فقه السادة الشافعية ، كما أنه شرح مسند الإمام الشافعي في الحديث الشريف .

كان إماماً في الفقه والتفسير والحديث ، طاهر اللسان في التصنيف ، كثير الأدب ، شديد التثبت والاحتراز من النقل ومراتب الترجيح ..

نعته الأسفراني بأوحد عصره فى العلوم أصولاً وفروعاً .

وقال عنه الامام محيي الدين النووي ، - إنه إمام الدين ، وعدّه من الصالحين المتمكنين ،.. كما عدّد له كرامات ظاهرة ،.. وقد سلك الطريقة الرفاعية على الشيخ عز الدين الصياد ، وترجم للامام السيد أحمد الرفاعي في مختصره .

وقال ابن الصلاح : ما أظن أن في بلاد العجم مثله !.

توفي فى قزوين عام ٦٢٤ هـ وعمره ٦٦ سنة يرحمه الله .

وقد نقل له شعر جيد ، منه قوله :

أقيما على باب الرحيم أقيما   ولا تنيا عن ذكره فتهيما

هو الربُّ من يقرع على الصدق بابه   يجده رؤوفاً بالعباد رحيما..

قلت : هو الذي عناه الرافعي بتشبيه الامام عبد القادر الرافعي به ،.. فنقله المرحوم سعيد العريان باسم محمود الرافعي (١) سهواً .

ج - الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي ثم الحموي (الرافعي) .

---

(١) راجع سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٢٧ .

المولود عام ٦٢٣ هـ والمتوفى سنة ٧٢٠ هـ (١) .

لغوي كبير اشتهر بكتابه « المصباح المنير » في غريب الشرح الكبير ، الذي جمع فيه مفردات شرح الوجيز للامام عبد الكريم الرافعي ، وأضاف اليه زيادات من لغة غيره :

دوّن الألفاظ المشتبهات ، وقسم كل حرف منه باعتبار اللفظ الى مكسور الأول ومفتوحه ومضمومه ، والى أفعال بحسب أوزانها ، .. ثم اختصره على النحو المعروف ليسهل تناوله ، وقيد ما يحتاج تقييده بألفاظ مشهورة ولم يلتزم ذكر ما وقع في الشرح ،.. وقد جمع أصوله من نحو سبعين مصنفاً ومختصراً ، فصار ترتيبه كترتيب المغرب للحنفية ،.. وقد لحقه نعت « الرافعي » بسبب المصباح ا.

وله أيضاً كتاب « نثر الجمان في تراجم الأعيان » وما يزال من بين المخطوطات النادرة .

ولد في الفيوم ، ورحل الى حماه في الديار الشامية فقطنها ، ولما بنى الملك المؤيد اسماعيل جامع « الدهشة » قرره في خطابته ..

د ـ محمد بن علي بن محمد بن أحمد الرافعي التطواني المتوفى عام ١٠٤٠ هـ ، وقد وضع كتاب « المخارج المرئية في الرحلة المشرقية » (٢) .

---

(١) حاجي خليفة ـ كشف الظنون ١٧١٠ ـ خير الدين الزركلي ١ ـ ٢١٦ ، ٤ ـ ١٣٢ .

سركيس ـ معجم المبطوعات ٦ ـ ٢٩٢ ، ١١ ـ ٤٧٠ .

(٢) سركيس ـ معجم المطبوعات ١١ ـ ٤٧٠ .

هـ ـ أبو عبد الله الرافعي ـ الأندلسي المتوفى عام ١١٠٨ هـ .

وله ديوان شعر مطبوع (١) .

*

وهؤلاء الأعلام ـ وإن لم يكونوا عمريين نسباً ، ولا تمت الأسرة الرافعية الى أحد منهم بسبب قريب أو بعيد ،٠٠ فقد أردنا تبيان ذلك لمعرفة من انتسب هـذا الانتساب في التاريخ قديماً ،٠٠ لنخلص من ثم الى الرافعيين المحدثين .

(١) المرجع السابق .

ثانياً - الرافعيون فى التاريخ الحديث :

أ - الامام عبد القادر الرافعى - هو رأس الأسرة الرافعية الحديثة ، وإليه تنتسب بفضائلها ..

وكان من أمره أن أستاذه الشيخ محمود الكردي الخلوتى ، شيخ الطريقة المنسوبة إليه الآن ،.. حين رأى فيه من مخايل النجابة ، ومظاهر الفطنة وكرم الشمائل ما رأى أثناء زيارته له في مصر قال له :

« أنت من رافعى لواء العـــلم » فلقب من ثم بالرافعى تشبيهاً له بالامام عبد الكريم الرافعي المتقدم ذكره (١) .

وقد ذكر المرحوم محمد سعيد العريان - استناداً الى رواية الرافعي نفسه : أن الشيخ الخلوتي لقب جده الشيخ عبد القادر بهذا اللقب إلحاقاً له بالإمام عبد الكريم الرافعي صاحب الرأي المشهور عند الشافعية (٢) بعد أن عرف له من الفضل وسعة العلم والاجتهاد وبعد النظر ما أفرطه فى الإعجاب به .

والشيخ عبد القادر الرافعي بعدُ أديب صوفي ناظم ناثر ، كان قد توفي في

---

(١) محب الدين الخطيب - الزهراء - الربيعان ١٣٤٦ هـ ص ٤١ .

(٢) سعيد العريان - حياة الرافعي ص٧ ، وأحسب أن العريان - رح - لم يتثبت من الإسم فأورده على أنه محمود الرافعي عم الشيخ عبد الغني الرافعي والد الشاعر عبد الحميد الرافعي . وكانت شهرته بالتقي والورع والإحتساب على الطريقة لرفاعيـة ،.. والصواب ما ذكرت .

طرابلس الشام عام ١٢٣٠ هـ (١٨١٥م) (١)، ومن آثاره التي أوردها الشيخ عبد الرحمن الجبرتي فى تاريخية :

١ ـ إحياء القلوب ـ فى شرح حكم شيخه القطب محمود الكردي .

٢ ـ الزهر النضير في مدح طه البشير النذير .

٣ ـ مقامة فى المناظرة بين حمص وحماه .

٤ ـ شفاء الغليل فى مدح طه الجليل ـ تشطير البردة (٢) .

٥ ـ نيل المراد فى تشطير الهمزية وبانت سعاد .. الخ هذه المصنفات وكلها فِي التصوف وفى آداب السلوك(٣) وكان مصطفى أغا يقول فيه: لا أراه إلا أسداً(٤).

وما زالت هذه الأسرة من لدن ذلك الامام الجليل الى اليوم تقدم للأمة خيرة الأعلام من أبنائها البررة ممن « أوتوا حظاً من العلم، ورزقوا النهى ، منهم العلماء بالشريعة ، والقضاة والأدباء والشعراء .. ومنهم الفلاسفة وحماة الدين » ..

وكان لهم لدى الخلفاء والسلاطين من بني عثمان الحظوة والشأن الرفيع ،

---

(١) راجع محمد رشيد الرافعي ـ ترجمة الإمام عبد القادر الرافعي ـ الثاني وكذلك ترجمة علماء طرابلس ص ٤١ .

(٢) طبع سنة ١٣١٢ هـ .

(٣) راجع عبد الرحمن الجبرتي ـ عجائب الآثار في تراجم الأخبار ـ ترجمة الخلوتي ، وكذلك محمد زكي مجاهد ـ الأعلام الشرقية في المئة الرابعة عشرة الهجرية ج ٤ ـ ١٢٠ ص ١٤٢ .

(٣) راجع ترجمة الإمام عبد القادر الرافعي ـ الثاني .

وقد أسندوا لهم أرقى المناصب وأسماها ؛ وخصوصاً فى القضاء والادارة ، عرفاناً بفضلهم (١) وقد ولي كثير منهم القضاء في القدس الشريف ، وفي الشام وفي الحرمين الشريفين بأم القرى والمدينة المنورة (٢) وكذلك في صنعاء وبلاد اليمن (٣) ومصر .

* * *

وأول وافد منهم الى مصر هو :

ب ـ الشيخ محمد الطاهر الرافعي ، حفيد الامام عبد القادر الرافعي الكبير .

قدمها في سنة ١٢٤٣ هـ (١٨٢٧ م) ليتولى قضاء الأحناف ، ..

وكان كالرائد الطريق من جديد لهذه الأسرة ، .. حتى توافد أخوته وأبناء عمومته من ثم ، يتولون القضاء ، ويعلمون الناس مذهب أبي حنيفة (٤) .

وقد تنبه اللورد كرومر ـ معتمد الاحتلال البريطاني فى مصر ـ الى ذلك ، فأضاف الى تقريره السنوي لعام ١٩٠٥ م ذكر هذه الأسرة الفاضلة ، وعدّد القضاة الرافعيين في القطر المصري ـ وقد تجاوزوا يومها الأربعين قاضياً ، .. حتى

---

(١) مصطفى أبو طالب ـ من رسالة له بعث بها الى الأستاذ مصطفى محمود الرافعي مصنف كتاب « طرابلس الفيحاء » .

(٢) راجع قصيدة الرافعي في عمه الشيخ عبد الحميد الرافعي قاضي المدينة المنورة ـ ديوانه جـ ١ ص ٤٤ .

(٣) أبو طالب ـ تراجم علماء طرابلس ص ٤١ ، وكذلك مقدمة « يوبيل بلبل سورية » .

(٤) أحمد محمد عيش ـ سيرة الرافعي ـ المقتطف ٩١ ـ ٥٧٩ ، وسعيد العريان ـ حياة الرافعي ص ٢٤ .

كاد الإفتاء أن يكون لهم ، ولا سيما بعد إسناد منصب الإفتاء في تلك السنة الى الشيخ عبد القادر الرافعي ، .. فلم يكتم « كرومر » مخاوفه ، ولا اختصر ملاحظته حين قال :

« يكاد القضاء في مصر يكون وقفاً على الرافعيين ».. وأوشكت وظائف القضاء والفتوى (تأمل) أن تكون مقصورة على آل الرافعي » (١) أولئك الذين يقفون وراء « الخلافة » عنوان الوحدة القومية للأمة - بإيمان وجهاد !..

وكانت هذه إشارة انجليزية بارعة ، والتفاتة الى خطورة مكانة الأسرة .

ج - الشيخ عبد القادر الرافعي - الحفيد :

كان من رجال الفقه المعدودين ، وقد صنف فيه الأستاذ محمد رشيد الرافعي كتاباً ».. وكانت وفاته فى رمضان ١٣٢٣ هـ من الكرامات المشهودة ».. فقد ذكر صاحب « المنار » أنه « لما توفي الشيخ محمد عبده ، دعا الخديو عباس الثاني إليه الشيخ عبد القادر الرافعي ليتولى منصب الافتاء ».. وكان الشيخ - رح - زاهداً في الدنيا ورعاً ، لم يجد فى نفسه هوىً الى قبول الوظيفة ، تحرجاً من فتنة الحكم ، .. وغلبة الهوى فى شأن يتصل بحقوق العباد ..

وعلى ذلك ذهب الى الخديو - وفي نفسه هم ، وهو يدعو الله أن لا يؤول اليه هـذا الأمر - ضناً بمروءته ودينه !.. وهو سرُّ جده الإمام عبد القادر الرافعي الكبير .

وتمت مراسيم التولية ، ثم نزل الشيخ علي عربته عائداً بها الى داره ،

---

(١) راجع مصطفى محمود الرافعي - طرابلس الفيحاء - ترجمة عبد القادر الرافعي - الثاني .

وهو يتمتم بدعاء ، فلما بلغ الدار نزل الحوذي ليفتح له باب العربة ويساعده على النزول فإذا هو قد فارق الحياة ! قبل أن يجلس مرة واحدة يقضي في شؤون الناس (١).

.. وكانت وفاته على هذه الصورة التي تمت بها ، مثاراً لأضخم احتفاء وتأبين لرجل عظيم ، عُدِّدت فيه مآثره ، ونُوِّه بفضل أسرته ، .. حتى عدّت « المؤيد » أن مثل هذا الاحتفال سنة حميدة يسنها الشيخ الشربيني .. جديرة بالاقتداء (٢).

* * *

د ـ شاعر العروبة الشيخ عبد الحميد الرافعي :

هو من أشهر الرافعيين فى هذا العصر ، تقي الدين عبد الحميد بن الشيخ عبد الغني الرافعي بن الشيخ أحمد الرافعي ـ الرفاعي ، ..

لقب ببلبل سورية ، واقترن اسمه وشعره مع الثورة العربية الكبرى .

ولد في الخامس من شعبان ١٢٧٥ هـ (١٨٥٩ م) بطرابلس الشام موطن الأسرة(٣) وتعلم فى الأزهر الشريف ، ومكث مدة بمدرسة الحقوق بالقسطنطينية .

---

(١) أنظر المنار ـ شوال ١٣٢٣ هـ ـــ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٠٥ م ، وكذلك سعيد العريان ـــ حياة الرافعي ص ٢٤ .

(٢) راجع محمد رشيد الرافعي ـــ ترجمة الإمام عبد القادر الرافعي ـ الحفيد .

(٣) لا يرى مصطفى أبو طالب أن موطن الأسرة طرابلس الشام ولبنان فقط ، ولا دمشق وسورية وحدهما ، إنما وطن الأسرة هو الشرق العربي بأجمعه ـ من رسالته المشار اليها ، وانظر الرافعي ـ الديوان جـ ٢ ص ١٤ .

وقد تقلد عبد الحميد رفيع المناصب في العهد العثماني ـ الحميدي ـ وكان قائم مقام الناصرة في آخر عهده بالوظائف ،..

ولما حدث الانقلاب الاتحادي المشؤوم ، واستولى جماعة الترقي (الماسون) على الحكم بعد مجزرة الاستانة في ١٣ نيسان ١٩٠٩ م ، ضويق من قبل الطورانية التي مارستها « تركية الفتاة » ،.. وما لبثت به السلطات حتى نفته الى مدينة الرسول المنورة فى أوائل الحرب الأولى ،.. وهناك انضم الى الثورة العربية التي اندلعت من الحجاز بقيادة الشريف حسين بن علي .

والشيخ عبد الحميد الرافعي هو ابن العلامة الفقيه المحدث الشيخ عبد الغني الرافعي مفتي طرابلس الشام ، المولود بها عام ١٢٣٠ ﻫ والمتوفى في عام ١٣٠٨ ﻫ بمكة المكرمة ،..

كان قد درس على الامام الباجوري صاحب الحاشية ، وأجاب على الأسئلة النحوية التي وضعها الشيخ محمود نشابة ، كما هذب الجواهر المكية للأدريسي في التصوف ،.. حتى دعي بشيخ الشيوخ (١) .

وقد امتد العمر بشاعرنا عبد الحميد الرافعي ، وأحتفلت العروبة ببلوغه السبعين ، وعقدت له يوبيلا فخماً أطرى نعته فيه أمير الشعراء أحمد شوقي فقال:

أعرني النجم أو هب لي يراعا يزيد الرافعيين ارتفـاعا

تأمّل شمسهم وهـدى ضحاها تجـد في كل ناحية شعاعا

---

(١) راجع عنه أحمد الجندي ـ أعلام الأدب والفن ـ ، وعمر رضا كحالة ـ فهرس المؤلفين ، والزركلي ـ الأعلام ، وفهرس المكتبة الظاهرية بدمشق « يوبيل بابل سورية » .

إذا أسد الشرى شبعت فعفَّت ... رأيت شبابهم عفو جياعا

فلم ترَ مصر أصدق من « أمين » ... ولا أوفى - إذا ريعت - دفاعا .. (١)

وقال فيه آخرون من أدباء مصر وسورية والعراق .

ولما توفاه الله عام ١٩٣٢م بكاه أديبنا الرافعي ، ورثاه بقصيدة بليغة (٢) مطلعها :

سلو الطير نواحاً على الشجرات ... ليبكي غنى شاعر الزفرات

وكانت له صلة صداقة متينة مع أبي الهدي الصيادي شيخ الاسلام، ويقال أنه نحل الصيادي هذا الكثير من شعره (٣) وسلك معه على الطريقة الرفاعية .

وقد خلف عبد الحميد الرافعي من بين آثاره أربعة دواوين فخمة هي :

١ - الأفلاذ الزبرجدية في مدح العترة الطاهرة الأحمدية .

٢ - المنهل الأصفى فى خواطر المنفى .

٣ - الفرائد الرافعية في مدائح الحضرة الرفاعية .

٤ - ديوانه - ولم يطبع بعد .. وهو يضم قصائده الوجدانية وشعره القومي .

وعسى الله أن يفتح علينا بدراسة آثاره ، فقد كان شاعراً غزير المادة ،

---

(١) أحمد شوقي - الزهراء - شوال ١٣٤٧ هـ .

(٢) أحمد عبيد - شعراء العصر الحاضر ٢٤٨ ، زكي محمد مجاهد - اعلام القرن الرابع عشر ج ٤ .

(٣) سامي الكيالي - أبو الهدى الصيادي من أعلام النهضة الحديثة - الكتاب ١٠ - ٤ كانون لأول ، ديسمبر ١٩٤٩ م .

عالج الأساليب القديمة والحديثة، والتزم العروبة بأوسع معانيها القومية والحضارية،.. ومن ذلك قوله مفتخراً :

شنف بذكر مفاخر العربان ... سمعي وأنعش خاطري وجناني
فحديث آباء الفتى ينشي به ... عزماً كنفح الروح في الوجدان
أهل الشجاعة والبراعة والوفا ... والصدق والإيثار والاحسان
ولربَّ آثار لهم تذكارها ... يهب الضمائر قوة الايمان .. (١)

ويقول في الشريف فيصل الأول بن الحسين ـ رفيق صباه ودراسته في الاستانة وقائد الثورة العربية التي اندلعت من الحجاز في ٩ شعبان ١٣٢١ هـ (١٠ حزيران ١٩١٦ م) :

عشقته يعربي الخيم معصوماً ... أطل من غاب آساد الفلا ريما
كسته أم المعاني من جلالتها ... مهابةً كان منها البدر محروما
أميرنا فيصل الأشراف من فصلت ... عنا عزائمه الويلات والشوما
يغارُ للعرب أن يغتال حقهم ... أو أن يضام فتىً منهم كما ضيما

ومنها في ذم الاتحاديين المنقلبين في الدولة العثمانية :

عاديتمُ لغة القرآن عن سفهٍ ... وهي الأزاهر فتّقن الأكماما
لولا اختلاسكم منها الكثير لما ... رأى لسانكم المعوج تقويما .. (٢)

.. وهكذا في مثل هذه الأبيات القومية الثائرة، والمعاني الشعرية الدافقة والأخيلة الزاخرة، يمضي الى غايته ..

---

(١) و (٢) راجع القصيدة في مختارات اليوبيل .

ولا بدّ لنا من وقفة تأمل معه في مثل هذه الأبيات التي ينشدها من فوق منبر الفخر قائلا :

بنو الرافعي أولاهم الله رفعة ... سناها على أوج المفاخر ساطعُ
تباهي بهم مصر العزيزة قطرها ... ومجد طرابلس بهم لا ينازع
تساموا بأخلاق حسان كأنها ... عرائس حلَّاها التقى والتواضع
وقاموا بآثار لهم عمرية (١) ... توارثها منهم مسنّ ويافع
.. فمنهم وحيد الدين قطب زمانه ... ومن ذكره بالفضل كالمسك ضائع
فتى الدين عبد القادر المرشد الذي ... تباهي بعليـاه النجوم الطوالع
ومنهم أبو الأنوار محمود ذو الثنا ... إمام لأسرار الحقيقة جامع (٢)
ومرشد بر الشام من عُقدت على ... تفرده في العارفين الأصابع (٣)

الى أن يقول مضمنًا :

« أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا « فلان » المجامع »

* * *

( ) لا يعدل اعتداد الرافعيين بعمريتهم فخر، وما تزال الصرامة العمرية ظاهرة عليهم، وإن حاول الرافعي - متواضعاً ان يحسبها قد استحالت عنده يوماً الى « حماقة » أنظر العريان - حياة الرافعي ١٧ .

(٢) هو أحد أبناء الإمام عبد القادر الرافعي، اشتهر بالزهد والتصوف، ولم تثبت لي شافعيته، ولعله هو الذي وهم سعيد العريان في نسبة صفات الإمام عبد الكريم الرافعي اليه كما مر .

(٣) يريد به أباه الشيخ عبد الغني الرافعي .

هـ ـ أمين عبد اللطيف الرافعي :

هو زين الشباب ، الرجل الحر الضمير ، والكبير النفس ، الذي كان عجباً في الأخلاق والفضائل ، .. والذي اختطفته يد المنون في زهو شبابه .

ولد في الزقازيق عام ١٨٨٦ م وتعلم بها وبالاسكندرية ، ثم تخرج بمدرسة الحقوق في القاهرة .

إنضم الى حركة الحزب الوطني التي قام بها الزعيم مصطفى كامل ، وأنشأ جريدة الشعب ثم الأخبار للجهاد في سبيل الله والمسألة الوطنية ، وكان من أثبت الساسة على أخلاقه ومبادئه القومية !..

وقد فضح في جريدة « الأخبار » الكثير من التواءات الساسة المصريين تجاه المفاوضات مع الانجليز ، ولا سيما أولئك الذين تنازلوا عن مبدأ « الجلاء » الذي اتخذه (الأساس) في المسألة الوطنية ،.. مما تسبب له في اعتداء « جنود سعد » عليه عام ١٩٢١ م (١) .

وقد كتب الرافعي في ذلك كلّه بالعنوان طارت فيما بعد أحاديث بين الناس ، حيث انتصف فيها لابن عمه أمين من جنود سعد زغلول ، الذين شبههم بالمثل العربي في المصطلح « الجراد الذي لا يبقي ولا يذر » !.. بأسلوب فيه من التهكم والسخرية اللاذعة ما لا يطاق وسعد يومها في أوج عظمته الوطنية (٢) .

ونشيد الرافعي « اسلمي يا مصر » الذي وضعه على لسان سعد في الثورة المصرية ما يزال يملأ حناجر الجماهير بالنداء والهتاف !..

وقد توفي أمين الرافعي أواخر عام ١٩٢٧ م وهو في ريعان شبابه ونضج

---

(١) من حديث المرحوم عبد الرحمن الرافعي بالحرف .

(٢) راجع رسائل الرافعي ص ٧٧ .

رجولته إثر مرض عضال لم يمهله (١) ... وقد بكاه الناس فى سائر أقطار الأمة العربية وقيل فيه من الخطب والمقالات والقصائد ما اجتمع بعضها في مصنف « ذكرى فقيد الوطن ـ أمين الرافعي » الذى أخرجه محمد صادق عنبر .

وبكاه أمير الشعراء أحمد شوقي بقصيدته البليغة ، التي عرَّض فيها برفاقه فى الجهاد والساسة الذين تفرقوا عنه لثباته على المبدأ ، وتصلبه الاعتقادي أمام الانجليز ، وكونه كان كالعنوان للائتلاف الوطني كلما حزب الأمة أمر من تفرق أو ضياع حيث قال :

مال أصحابه خليلاً خليلا	وتولى اللدات إلا قليلا
نصلوا أمس من غبار الليالي	ومضى وحده يحث الرحيلا

*

.. قيل غالٍ في الرأي قلت هبوهُ	قد يكون الغلو رأياً أصيلا
وقديماً بنى الغلو نفوساً	وقديماً بنى الغلو عقولا
وكم استنهض الشيوخ وأذكى	في الشباب الطماح والتأميلا
عاش لم يغتب الرجال ولم يجعل	شؤون النفوس قالاً وقيلا
قد فقدنا به بقية رهط	أيقظوا النيل وادياً ونزيلا
يا أمين الحقوق أديت حتى	لم تخن مصر في الحقوق فتيلا .. (٢)

(١) راجع محمد صادق عنبر ـ ذكرى أمين الرافعي ص ٥٢ .
(٢) راجع محمد صادق عنبر ـ ذكرى أمين الرافعي ص ٢١٧ .

وأرسل الرافعي عبرته في مقالة بيانية ، وخاطب فيها مصر بقوله :

« ويحك يا مصر ! ..

أمن عظمتك أنك تنشئين النبي من أنبياء الوطنية ليؤدي رسالته ثم تصلبينه؟.

أمن عجائبك أن يعرف خصومك وأنصارك الذين هم كخصومك .. رجلا مثل « أمين » إلا أن يرغمهم هو على الاقرار ، حتى يجعله الموت جزءاً من ضميرهم الانساني ؟

يا إلهي كان الباطل يرى فى ذلك الرجل حقاً لا يتبدل أبداً .

كان الذل يرى فيه عزة لا تتحول أبداً .

كان الواجب يرى فيه عاملا لا يتململ أبداً .

كان رجلا من الأبد قامت بينه وبين مخازي الدنيا كلمتان : أبداً أبداً ثم يقول « أيهـــا المصري عش في حدود ضميرك لربك ووطنك وإخوانك ، ولا تكن من قوم يعيشون في حدود أمعائهم » .. الخ (١) .

و ـ عبد الرحمن الرافعي ـ مؤرخ الحركة القومية فى مصر الحديثة .

ولد فى شارع درب الحصر في القاهرة عام ١٨٨٩ م بعـــد أخيه أمين بسنتين ، وكان أبوه الشيخ عبد اللطيف الرافعي قد ولي القضاء في البصرة فترة من الزمن قبل نقله الى الديار المصرية (٢) .

أنهى الدراسة الابتدائية والاعدادية في الاسكندرية ، وانتظم بمدرسة الحقوق في القاهرة من ثم ،.. وظهر له نشاط قوي مبكر في هذه المدرسة عندما انتظم في نادي الحزب الوطني ، وبكر في ممارسة التعليم في مدارس الشعب التي أنشأها

(١) ذكرى أمين الرافعي ص ٢٢٥ .

(٢) حدثني بذلك الشيخ عبد القادر باش أعيان .

المرحوم مصطفى كامل ،.. وتتلمذ عليه سياسياً ،.. وأخذ عنه الشيء الكثير .

مارس المحاماة طيلة حياته ، فقد كانت له هدفاً وغاية في الوقت الذي كان فيه أخوه أمين ميالا الى ممارسة العمل الصحفي وتوجيه الجمهور ،..

يعتبر من أوائل المؤلفين فى « الجمعيات التعاونية » التي تعتبر من المراحل الاشتراكية الهامة ، وكان له فيها كتاب ناجح قرظه صادق الرافعي ، ثم أنه في سبيل الحركة القومية التي ظهرت في مصر آثر أن ينحو نحواً تاريخياً في توثيقها ،..

وقد حدثني أنه كان يعـــد لتاريخ حياة أستاذه الزعيم مصطفى كامل - فرأى أن الموضوع أكبر من أن يوجزه مؤلف في حياة زعيم ،.. فعكف على أوراق التاريخ ووثائقه ، يقلبها ، ويصنع منها موسوعته التاريخية العظيمة للحركة الوطنية في مصر متأثراً الى حد ما بالنظرة الأخلاقية للتاريخ (١) كما تحدث عن نفسه في كتاب « مذكراتى » أفرده للحديث عن نفسه بعد أن تحدث عن التاريخ ، وأن من حق نفسه أن يكون لها مع التاريخ مكان !.

عاصر الحياة السياسية فى مصر ولم يخرج على الحزب الوطني وبقي على وفائه للزعيم مصطفى كامل ، ولخلفه محمد فريد ، بالرغم من جميع الهزات السياسية التي أطاحت بعناصر السياسة المصرية .

ولما ولي وزارة التموين عام ١٩٤٩ م ، كان مثال الوزير الحق في أقوات أبناء الأمة .

وقـــد قضى حياته كلها مدافعاً عن الحزب الوطني وآرائه السياسية ،

---

(٢) حسين فوزي – الفكر المعاصر ٢٤ — ص ٨٤ .

وأفكاره الاجتماعية ، من لدن إيمانه بالجامعة الاسلامية ، وثباته على مبدأ الجلاء ،..
حتى قيام الثورة عام ١٩٥٢ م .

وتشهد له المحاماة بالباع الطولى والبراعة ، وقلما أخفق في دعوى التزمها أمام النقض والابرام .

انتخب غير مرة نائباً عن الشعب وفى مجلس الشيوخ ، ..

وقد هدت الشيخوخة صحته في أواخر أيامه ،.. ولقيته في صيف عام ١٩٦٤ م في الاسكندرية وكان لي معه حديث طويل فتح لي الآفاق على السياسة المصرية ـ العربية ، عسى أن أفيه حقه في يوم .

ولقي ربه راضياً مرضياً في كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٦٦ م .

آما مؤلفاته فأهمها :

١ ـ حقوق الشعب ـ شرح لمباديء حقوق الانسان والنظريات والقواعد الدستورية طبع عام ١٩١٢ م .

٢ ـ نقابات التعاون الزراعية ـ وعلاقتها بالنهضة الاجتماعية والاقتصادية طبع عام ١٩١٤ م .

٣ ـ الجمعيات التعاونية ـ تتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات القومية في طائفة من البلدان طبع ٩٢٢ م .

٤ ـ تاريخ الحركة القومية ـ في جزءين كبيرين من عصر المقاومة الأهلية للغزو الفرنسي حتى ولاية محمد علي .

٥ ـ عصر محمد علي ـ وفيه تاريخ مصر الحديثة .

٦ ـ عصر اسماعيل ـ في جزءين كبيرين .

٧ ـ الثورة العرابية ـ وأحمد عرابي .

٨ ـ مصر والسودان .

٩ ـ مصطفى كامل ـ باعث الحركة الوطنية .

١٠ ـ محمد فريد ـ رمز الاخلاص والتضحية .

١١ ـ ثورة ١٩١٩ م .

١٢ ـ فى أعقاب الثورة المصرية ـ ثلاثة أجزاء .

١٣ ـ مقدمات ثورة ١٩٥٢ م .

١٤ ـ ثورة ٢٣ يوليو ـ تموز ١٩٥٢ م .

١٥ ـ مذكراتي ـ طبع عام ١٩٥١ م

١٦ ـ شعراء الوطنية ١٩٥٤ م .

وقد طبعت كتبه غير مرة، وما زالت تثبت أمام محاولات النقد التاريخي والمنهجي بأصالة وعمق ؟

الفصل الثاني

سيرة الرافعي

لقد مرّ بنا أن الشيخ عبد الرزاق الرافعي كان قد آثر ولده الثاني ، واصطفاه من بين إخوته ، وعُني به عناية خاصة ، كان يغبطه عليها أخوه محمد الكامل الرافعي ! ..

نشأ إمامنا في كنف ذلك الأب الجليل نشأة عمريّة ، حيث كانت الأسرة الرافعية قد بلغت يومها ذروة المجد ومنتهى الكمال فى تهذيب أبنائها وإعدادهم للحياة الفاضلة .

« ينشأ الطفل منهم فيتناولونه بالتأديب وألوان التهذيب ، التي تطبعه على الطاعة ، وتقديس الدين ، ويغرقونه الى قمة رأسه في الثقافة التقليدية للأسرة » بجوانبها التطبيقية والعملية (١) .

وعلوم القرآن ، والفقه بالشريعة الاسلامية والحرص على العروبة فى لغتها ودينها وفضائلها ، هي المواد الأولية لأساس تلك التربية ، منذ انحدر أولهم من

---

(١) أنظر محمد سعيد العريان ـ حياة الرافعي ص ٢٧ ، وأحمد محمد عيش ـ المقتطف ٩١ ـ ٥٢٩ .

صلب أمير المؤمنين الفاروق عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - .

فلم يكد يتم أديبنا السادسة من عمره في مثل هذه الحياة المدنية للأسرة، حتى أخـــذ بيده أبوه ليختلف على « الكتّـاب » يتعلم عنده مبادىء القراءة والكتابة كما كانت عليه الحياة في ذلك العصر ..

وما لحق العاشرة من سنه حتى استظهر القرآن الكريم حفظاً وتجويداً، وكان له من معية والده في الاضطراب بين البيت والمسجد حياة كانت هي آخر ما تحدث عنه - رحمـه الله - في « قرآن الفجر » (١) في شيء من الغبطة بالذكريات، والاطمئنان الى المصير الذي آل اليه .

ولكن نظراً لانحراف في صحته ولكون التعليم مبعثراً آنذاك ما بين المدارس « الأميرية » ومدارس التبشير - ومنها « الفرير » .. والكتاتيب، .. فقد تأخر دخوله المدرسة الابتدائية في « دمنهور » حيث كان الشيخ عبد الرزاق الرافعي يشغل فيها منصب كبير القضاة الشرعيين عام ١٣١٨ هـ (١٨٩٣ م) .. حتى كانت سن أديبنا الرافعي قد جاوزت الثانية عشرة .

ولما نقل أبوه الى القضاء في مدينة « المنصورة » انتقل معـــه والتحق بمدرستها الأميرية ؛ حيث اختلط بكثير من الطلبة الذين أصبحت لهم مناصب مرموقة في الدولة والسياسة فيما بعد !.. (٢)

---

(١) الرافعي - قرآن الفجر - الرسالة ١٨٣ - ١٩٣٧ م . ووحي القلم ج ٣ ص ٣١ .

(٢) منهم توفيق نسيم الذي أضحى رئيساً للوزراء، والابراشي الذي صار رئيساً للديوان الملك .. وسواهم ممن كانت له معهم أكثر من معتبة !! .. كما سيمر بنا .

في هذه المدرسة حظي الرافعي بشهادة الدراسة الابتدائية بتفوق وامتياز ،..
وهي كل حظه من الشهادات الرسمية !.. وسنه يومئذ بضعة عشر عاماً !..

وقد أظهر الرافعي أثناء دراسته الابتدائية نبوغاً فى اللغة العربية وعلومها ، أدهش مدرسيه ولا سيما أستاذه المربي الكبير مهدي خليل - رح - ولكنه من الناحية الأخرى كان فى هذا النبوغ والتوفيق يوغر صدور بعض زملاء الدرس .

وكان مثال الطالب المجد في المدرسة ، لا يسمح لنفسه بالهزل ، ولا اللعب غير المباح ، ونظراً لما كان في لسانه من اللهجة الشامية ،.. فإنه آثر الفصحى في كلامه ومخاطبته ، وجهر فى الدعوة اليها توحيداً للسان العربي المبين .

وكثيراً ما كان يستنكر علي رفاق درسه رضوخ ألسنتهم لرطانة العامية المرذولة ، التي تذوب فيهـا الحروف بين ألفاظ السادة والعبيد ، حتى تخسر حلاوة النطق الفصيح ، والتعبير الصحيح ، مما كان أثر الحكام الترك والشراكسة وبقية الأورام فيه فاشياً ،.. يورث اللهجة المصرية الكثير من أمراض النطق والتعبير معاً ! .

وكان الشيخ عبد الرزاق الرافعي - وقد رأى هذا الميل في ولده - قد عمد الى تنميته ، ووفر له من الدروس الخاصة ما يستوعب فيه العلوم العربية ليل نهار ، والصادق ما يفتأ يلازم أباه الشيخ يستمع اليه في التثبت من حفظ القرآن وتفسيره ،.. ويعي عنه أخبار السلف من علماء اللغة وفقهاء الاسلام ،.. ويبصر عنده الفقه والنحو والبلاغة والبيان ،.. حتى انطبع على ذلك الأسلوب الفريد الذي تميز به من ثم ، وانفرد بين ادباء جيله ،.. بعد ما ارتسمت على مخيلته صورة

العربية الأولى عن أولئك الأفذاذ ،.. حتى أعدّه القدر من ثم ليكتب بنقائها ورونقها « أسرار الاعجاز » فيما بعد !..

ولعل ذلك الكلف المبكر بالعربية وفنونها ، هو الذي أدى به الى أن يعتزم مرة أن يضع كتاباً فيها ، يجعل شواهد النحو والصرف كلّها من نظمه (١) ويمضي في ذلك أشواطاً ! .. وهو الذي أنساه الفرنسية من ثم ، وكان قد تعلمها في الابتدائية باعتبارها اللغة الأجنبية قبل أن يتمكن الاحتلال من مزاحمتها بالانجليزية وإبداله !.

ذلك أن عدم اهتمامه بها أو مواصلته الدراسة النظامية ،.. ولقلة انتفاعه بما حصل عليه منها ، والذي لم يكن يتعدى فك الخط ببعض المقروءات المدرسية (٢).

وربما كان يستخف بها ، ولا سيما حين يرى المرتضخين للعامية ، .. ممن يغلبهم العيّ عن التعبير بالفصحي ، يلجأون الى لغة المستعمر يستعينون بها على قصدهم في القول !.. ولو عن طريق مثل هذه العجمة الرومية ، التي يتعثرون بها في هذرهم وتخبط ألسنتهم ! .. (٣)

وفي سنوات التلقي هاتيك كان مثال التلميذ الحريص على أداء واجبه من استذكار دروسه ، واستيفاء المعلومات حفظاً وفهماً ،..

يقول أخوه النبوي الرافعي فيما رواه لأبناء أخيه وسواهم من تلامذته ومحبيه ، أن صادقاً كان يقوم كل ليلة كالمذعور ، ـ وهو في سن العاشرة ـ

---

(١) محمد صبري ـ شعراء العصر ص ٢١٣ .

(٢) سعيد العريان ـ حياة الرافعي .

(٣) أحمد عيش ـ المصدر السابق .

ليحفظ الواجب الذي عليه من القرآن الكريم ، وليستظهر بعض النصوص !..

وفي سنوات طفولته هاتيك ، بدأت بواكير تأملاته في رحاب الكون ، يذهب كل يوم جمعة مع أخوته للنزهة في المدينة ، ويمم وجهه شطر الحقول ، يجتلي من رُقى السحر في الطبيعة ، وينعم بمجالي الحسن وآيات الجمال ، وينصت بجميع حواسه للجلال في كل ناحية !..

وهناك عبر المفازات القريبة من ريف « دمنهور » الوديع وشطآن المنصورة الغناء ، كان يظل هائماً طول اليوم بين الجداول الرقراقة ، والمزروعات الضاحكة بنضارها ، وتحت الظلال الوارفة ، حيث الأشجار الحالمة ، والطيور المغردة ، والطبيعة الباسمة ، . كأنه يخشع لله في محاريب آلائه البديعة .. وكثيراً ما كان ينفرد دون إخوته ، ليغرق في الاستجلاء والتأمل ، حتى ليكاد ينسى نفسه أحياناً ، ..

وكانت هذه الحال تلهمه معاني لا يستطيع لها تفسيراً ، كأنه أحد المتبتلين من القديسين والرسل ، .. ينتظرون موعدهم مع الإلهام !.

كما كانت تؤذيه أحياناً ، ولا سيما حين « يقاسي من الوحشة ، .. التي تجعله يتلهى عنها بوحشة أخرى من هذا الابتعاد والاغراق ،.. منطوياً على عشق بعض الصور الحسنة » (١) .

ولم يكن أبوه الشيخ وحده يهيء له مثل هـــذه الحياة الملآنة بالدرس والتأمل ، .. وإنما كانت أمه الزكية السيدة أسماء بنت الشيخ أحمد الطوخي ، هي الاخرى تخصه برعايتها ، وتؤثره بالمزيد من عطفها وحنانها !!.

---

(١) الرافعي ـــ الرسائل ص ٤٤ .

وكان هو يطيعها ويبر بها « وقد ظل الى آخر أيامه إذا ذكرها اغرورقت عيناه كأنه فقدها بالأمس » (١) .. وإليها كان يسند الفضل الأول فيما آل اليه أمره من الدرس والمطالعة ، والأخذ والاستيعاب .. ثم الامامة في الادب ، حيث غدا حجة العرب في لغتهم والعلم بأيامهم وشعرهم ، ومأثورهم حتى ليقول فيها :

أنا منك بين العالمين كأنني أشكك في الدنيا فما هي منهما
أراها خلاءً منك إلا محامداً وآثار فضل حيةٍ وترحما .. (٢)

ولعل حياة المتابعة والدرس هذه هي التي أتعبت جسمه الضاوي ، وأنحلت جسده ، مما مهد لاصابته بالحمى الثقيلة (التيفوئيد) في مرض مشفٍ أثبته في الفراش أشهراً ، ما كاد ينجو من وطأته إلا وقد ترك في أعصابه أثراً ، ومسّ منه أكثر من موضع في جوارحه ، ونال منه وآذاه بحبسة في صوته ، ووقر إحدى أذنيه ، وهزال يعتريه أياماً في السنة ، فلا يكاد يذهب عنه في شفاء ، حتى يعوده من غير عافية !.. مما أدى الى انقطاعه عن الدراسة المنتظمة في المدارس (٣) .

والتمس العلاج لنفسه عند كل طبيب ، وفي كل مستشفى فما كان يجديه بغير شيء من الشفاء لا يبلغ به الى العافية ولا الصحة الموفورة !..

وكاد الداء أن يمتد الى صدره ، فعقد حبال الصوت عنده ؛ بما كاد

---

(١) محمد سعيد العريان ـ حياة الرافعي ص ٢٢ ، وكانت قد توفيت عام ١٩٠٩ م ودفنت في أسيوط ، ثم نقل رفاتها الى مقابر الأسرة في طنطا .

(٢) الرافعي ـ والدتي ـ المقتطف تموز / يوليو ١٩٠٩ م .

(٣) سعيد العريان ــ حياة الرافعي ص ٣٠ .

يذهب بقدرته على النطق ،.. ولكن القدر كان أشفق عليه أن يفقد الكلام إمام البيان !..

وكانت هذه الحال قد جعلته كثير الحساسية ، لا تقوى أعصابه على إحتمال الأنواء فهو يكره الحر الشديد ،.. لما يعتريه به من الضعف عند الصيف (١) ، فكان يتخفف من أثيابه ويذهب الى « الدهليز » مباشرة وينام هناك دون غطاء على صدره يتقي به لذعات البرد في مثل هذه الحال !.. (٢)

على أن هذه الحال المرضية ، وما أورثته إياه من بوادر الصمم ، هي التي جعلته يختار لنفسه مدرسة جامعة يعدّ مناهجها بنفسه ، ويقوم شيوخ مصنفاتها ومؤلفو كتبها على تعليمه ،.. فكان المعلم والتلميذ معاً .

وكان يسعى بما أوتيه من الفطنة والنبوغ المبكر وذلاقة اللسان والفصاحة ، وقوة الأخذ والاستيعاب ، واستعمال الحجة في العقل والمنطق ـ أن يستكمل ما ينقصه من الدراسة النظامية ، حتى تفلسف بمعلوماته وشاخ ببعض العلوم العربية منذ أول شبابه .

وحين عرف الشيخ عبد الرزاق الرافعي في ولده الصادق ذلك الإتجاه نمّاه ، وهيأ له من أسبابه ما مضى به الى الغاية مبتدراً اليها خير الوسيلة ،.. حتى لقد ردّد عليه ـ جبراً لخاطره ـ أنه يجاهد في سبيل الله !. (٣)

---

(١) راجع ما سبق ، وموافقة اسم « مصيف » المرخم .

(٢) أحمد محمد عيش ـ سيرة الرافعي ـ عن رواية النبوي الرافعي ـ المقتطف ٩١ ـ ٥٢٩ .

(٣) المصدر نفسه .

وكان لهذه الإشارة في نفس أديبنا العظيم أن صادفت منه هوىً ، ومست من قلبه مكاناً خالياً بالبث والنجوى ، .. وكادت تملأ فؤاده بالطمأنينة بعد أن كاد يفرغ من شدة القلق والاضطراب ،.. وهكذا اندفع به الايمان الثابت حتى أضحى « الجهاد » له هدفاً ، لا يرى غير السبيل اليه ، حتى لا يخيب في نفسه ظن أبيه .

وكان من أثر هذا المرض أيضاً ، وقبل أن يتم تمامه ويكون أهلا لغشيان المجالس وأن يتحدث الى الناس ويستمع الى أحاديثهم ـ أن أصبح حظه من اللهجة المصرية قليلا ،.. حتى ليضطر أحياناً أن يسأل بعض خاصته عن عباراتها أحياناً الى آخر ايامه ! .. وربما مزح مع صفيه محمد سعيد العريان (رح) بمثل قوله : لتكن انت لي قاموس العامية ،..

ولما كان أبوه وأمه قريبي عهد بسورية منبتهما ، ولم يسمع في طفولته عن غيرهما فقد بقيت لهجته في الحديث أكثر شآمية ،.. وكأنه لم يقدم من سورية إلا من عهد قريب (١). وذلك ان الأصوات ما ابثت تتضاءل في مسمعيه عاماً بعد عام، كأنها صادرة عن مكان يبتعد عنه ، او كأن صوت محدثه كان يتخافت .. حتى فقدت إحدى اذنيه السمع ثم تبعتها الاخرى .. فلم يكد يتم الثلاثين من عمره ، حتى انقطع عن سمعه كلُّ صوت ، ولم يعد يسمع قصف المدافع (٢) .

على أن كثيراً من خاصته وأبنائه كانوا يحدثونه من غير كتابة فيفهم من حركة شفاههم ما يغنيه عن الصوت ،.. حتى ليخيل لمحدثه احياناً ان عاوده السمع ! (٣).

---

(١) و (٢) سعيد العريان ـ حياة الرافعي ص ٣٢ .

(٣) من رواية ابنته الحاجة زينب الرافعي .

ولما انتهى المطاف بالشيخ عبد الرزاق الرافعي الى مدينة السيد احمد البدوي ـ طنطا ـ آثرها على غيرها آثرها على سواها من مدن القطر المصري ،..
حتى غدت من ثم موطناً جديداً للأسرة ،..

في الوظيفة :

وإزاء الحالة الخاصة التي أصبح عليها أديبنا من اضطرار الى ترك الدراسة في المدارس وفناء الأيام من بين يديه حيث يقول :

ما لأيام ذا الصبا تتفانى   وقديماً عهدها تتوانى
ذهبت بالصبا سلام عليها   من فؤاد يحبها ملآنا (١)

فقد آثر أن يجد له عملا يتكفّل به ، ويملأ عليه وحشة أيامه ،.. واهتبل فرصة نال فيها أخوه « الكامل » وظيفة قائم مقام « مأمور مركز » ، . فاستدار من حول أبيه الشيخ يطلب اليه هو الآخر أن يظفر بوظيفة ،..

وعندما تهيأت له وظيفة كاتب بمحكمة طنطا الشرعية براتب أربعة دنانير (جنيهات) شهرياً ابتدر يحاور أباه بقوله :

ـ يا أبت كيف أعيّن كاتباً بسيطاً ؟ وأخي الكامل يأمر وينهى ، ويحكم و..

ـ إسمع يا ولدي .. أنسيت أنك أنت الذي اخترت التفرغ لدراسة القرآن وآدابه ، والفقه بالشريعة وأحكامها ، تسعى بما أوتيت من ذكاء وألمعية لاستكمال ما نقص منك في « الشهادة » والدراسة ،.. وأنّ في أذنيك ؟!.

ـ ولكن يا أبت !.

(١) الرافعي الديوان جـ ١ ص ١١ .

ـ ولـكن .. ولكنك أنت خلقت لتجاهد فى سبيل الله ،.. وما هذه الحياة الدنيا إلا متاع الغرور (١) .

.. وهكذا كانت الوظيفة لديه من ثم .. « متاع الغرور » وهي سهمه من الدنيا ، حتى ليراها أحيانا « ضريبة على الحكومة تؤديها له دينا عليها ، وسداداً لما كانت أسرته قد قدمته لها من الرأي والدالة ،.. ثم لمكانة أبيه منها ، .. ولمكانته بعد ذلك » .

وبهذا « نشأ في الوظيفة نشأة الدلال أيضاً ، لا يهتم إن بكر إليها صباحاً ، أو تركها لبعض شأنه عنـــد الضحى » (٢) مع التزامه بجميع مسؤولياتها عنده ، وعند الآخرين من رفاق مكتبه ،..

ومن هذه النشأة فى « الوظيفة » عاد يرى فيها « مكاناً للأديب ليس أحسن منه في حياتنا الحاضرة » (٣) ..

وعلى هذه الحقيقة أصبح الرافعي موظفاً .

ولما كانت إقامته في « طلخا » على الجانب الآخر من النهر مقابل المنصورة متعذرة عليه يومها عام ١٨٩٩ م ،.. فقد كان يحضر اليها كل يوم فى قطارات ذلك العهد !.. فكان الرافعي يرى بين مدينة السيد البدوي يغدو ، واليها كان رواحه ، .. وفى يده كتاب ، أو ملازم من سفر يقرأ ويستظهر ليقطع الوقت ويستفيد !..

(١) راجع هذه المحاورة في سيرة الرافعي ٩١ ـ ٥٢٩ ـ المقتطف .

(٢) العريان ـ حياة الرافعي ص ٣٤ .

(٣) الرافعي ـ مجلة كل شيء ـ كانون الثانى يناير ـ ١٩٣٤ م .

وقد تنقل في سنوات وظيفته الأولى ما بين محاكم إيتاي البارود الشرعية، وكفر الزيات، وشبين الكوم، ..

ولكنه كان يلحف في الطلب لنقله الى طنطا،.. وقد تم له ما أراد، بالوسيلة التي أظفرته بالوظيفة نفسها،.. حيث انتهى به المطاف الى المحكمة الشرعية فيها،.. ثم الأهلية بعد ذلك بسنين؛ حيث وجد استقراره الأول في بيت أبيه، وبين إخوته وأصدقائه وذويه،

ومن ذلك نرى أن محاولة نقله الى أسيوط عام ١٩٢١ م بدسيسة سياسية لم تخلُ من دناءة!.. همًّا من الهم!.. سعى بعض الأصدقاء بمروءته ليجعل النقل الى المنصورة، تخفيفاً!!. (١)

ومع ذلك فإنه سعى لابدال هذا النقل الأخير أيضاً لأنه لم يكن «يستطيع نقل البيت والأولاد في مدارسهم وقد دفع لهم الأقساط المدرسية، فضلا عن أن مصالحه كلها هنا في طنطا» (٢).

ولكنه بعد هذا التاريخ، وبسبب من أولاده أنفسهم، وموضوع دراساتهم العليا في الجامعة، حاول الانتقال الى ديوان وزارة العدل ـ الحقانية ـ والتمس الى ذلك غير سبيله هو في شهرته بالوظيفة، وما رافقه من التوفيق في الرأي والاجتهاد بكثير من القضايا الشرعية والقانونية،. التي كانت تفيد منها

---

(١) ربما كان النقل بسبب مقالته «جمرد سعود» التي تصدى فيها للوفد وحرسه في الأخبار عام ١٩٢٠ م

(٢) أنظر رسائل الرافعي ـ ص ٢١٨ .

الوزارة ، وتبعث بها منشورات وتعليمات لبقية المحاكم والقضاة ، - .

حيث توسط بعض أصدقائه المقربين من الحكام ، .. فقدم بذلك أكثر من طلب ، ورافق الطلبات أحمد فتحي زغلول تارة ، وأحمد لطفي السيد أخرى ،.. ومحمد نجيب (باشا) ثالثة ،.. ولكن ما استطاع واحد أن يبر بوعده ، او يحالفه التوفيق في مسعاه (١) .

* * *

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد أن الأستاذ منصور جاب الله ، كان قد قرر حقيقة أخرى في هذا الناحية ، عرفها من فم الرافعي ، يوم لقيه فى الاسكندرية يصطاف عام ١٩٣٥ م ودار بينهما حديث طويل ، جاء فيه سؤال الأستاذ جاب الله للرافعي :

- لماذا لا تغادر طنطا ؟! - وقد ظهر اسمك لامعاً بين أشهر أدباء العرب في العالم ! ..

حيث رد عليه الرافعي بجواب فيه صوت المستنكر ، الذي كاد يشبه الصياح :

- كيف تريدني أن أترك المدينة التي تضم رفات أبي وأمي ؟! .. أنا لا أغادر طنطا ولو وضعوا بين يدي مال قارون » (٢) .

.. وماذا يمكن ان يقول غير هذا الجواب ؟! فى مثل هذا التاريخ بعد

(١) عن رسائلهم حتى عام ١٩٢٧ م

(٢) جريدة السفير - طنطا - كانون الثاني - يناير ١٩٦٣ م ، وانظر العريان - حياة الرافعي ص ٣٧ .

بضع وثلاثين سنة في الوظيفة ، . كانت الحيلة قد اعيته في الانتقال ، او تبديل عنوانها على الأقل !.

وحياة الرافعي في الوظيفة تبعث على التأمل ، وقد تثير الأسف والاشفاق معاً !. إذ هو لم يكن « موظفاً » بالمعنى المفهوم للوظائف اليوم !. « فما كان هنالك احد يستطيع ان يلفت نظره الى ضرورة التبكير إن جاء في الضحى ،.. او يسأله الانتظار إذا دنا ميعاد القطار ولم يفرغ من عمله » (١) .

وكثيراً ما انقطع من الوظيفة ملتمساً احد الأسباب الى مسألة علمية بين مظانها من المصادر والمراجع ، .. او متناولاً غرضاً من الأغراض بالدرس والتمحيص ! ..

وهي – الوظيفة – وإن لم تكن ترضيه منها الأنظمة التي تغله في مكان العمل،.. وتفوت عليه الوقت ،.. إلا انه من الناحية الجوهرية فيالموضوع كان « شديد الحرص على تأدية حقها في دقة تبلغ الغاية ، فلا يكاد يفوته شيء مما يسند اليه ،.. حتى غدا المرجع الاداري لكتاب المحكمة جميعاً ، يستفتونه الرأي فيما يشكل عليها من أمور تقديرية ، ثم أصبح كذلك للوزارة نفسها ، التي تجعل من فتواه ورأيه منشوراً عاماً الى جميع محاكم القطر !.

ولكن سأمه منها كان مبكراً ،.. وكان يجد فيها معوقاً له عن اهدافه ،.. ومضيعة له ولوقته .. حتى ليتمنى في إحدى رسائله ويقول « ليت الزمن يهيء لي من اسباب الكتابة والتفرغ للشعر ما يغنيني عن « التكسب » من الوظيفة التي انا فيها » .

---

(١) العريان – حياة الرافعي ص ٣٤ .

ويبلغ بـه الضيق احياناً درجة التذمر حين ينفجر بمثل قوله « .. ماذا اصنع والأمة خاملة كما ترون ، فلا تكاد تقوم بعيش اديب واحد .. ليخدمها مدة عمره »(١) . فيا لهذا العرض من بيع سماح !! .

ومع ذلك وكثير من الصور سواه ، فقد كان يرى في تركه الوظيفة ، وإحالته على التقاعد ـ المعاش ـ ضرراً كبيراً ،.. وقد قضى أكثر من ربع قرن بعد ذلك ينتظر تشريع قانون يجعل الفرق بين مرتب الوظيفة والمعاش خمسة دنانير لا عشرة ،.. و « إن كان في نفسه فرق كبير » فتأمل !..

وهكذا بقي يتعلـل ، وتعتريه حالات من التفاؤل تجعله أكثر إشراقاً الى المستقبل حتى ليقول في رسالة « .. وقد اصبحت اعتقد أن الأحوال ستتيسر إن شاء الله ،.. واستطيع الخروج من الحكومة ،.. وإلا فكيف تؤدي الرسالة ؟ ارسول وموظف حكومة ؟! (٢)

وبالرغم من كلّ هذا فقد همّ غير مرة ان يطلب الإحالة على « المعاش » ليتفرغ لأدبه وفنه ورسالته ،.. فما كان يمنعه من المضي في طلبه إلا رجاء موظفي المحكمة ، وإلحاحهم عليه ان يبقى لئلا يخلو مكانه ! (٣) .

لقد عانى اديبنا من الوظيفة واغلالها الضنك والحرمان اربعين سنة ! ..

وكانت كثرة الولد تزيده منها هماً على همّ ، فتضيق عليه ايامه في عسر ، يضاعف عليه تكاليف الحياة ،.. وإن بقي في حالة من الرفاه يتمتع فيها بستر الحال !.

---

(١) الرافعي ـ الرسائل ص ٣٤ ، ص ١٠١ .

(٣) العريان ـ حياة الرافعي ص ٣٧ .

(٢) الرافعي ـ الرسائل ص ١٠١ .

فلو اشتغل بالتجارة كأخوته وأبناء عمومته ، لدرت عليه الوفرة بما يسخر به حقاً من « أرامل الحكومة » الموظفين (١) .

وكم كانت تلك الوظيفة نحسة الطالع عليه ،.. فقد أعاقته عن كثير مما كان يصبو اليه من المجاهدة في سبيل الحياة ، والسمو بها اعتقاداً وحباً وكرامة !.. يرتقي فيها الناس الى مطالع أخرى غير التي كانوا يألفون ! .

وقد انسحب نحسها على أولاده من ثم ، فلم يكد يلقى الله سبحانه وتعالى ، حتى وقفت وزارة الخزانة (المالية) منه موقفها المشين ! .

وكان وزير المالية يومها « مكرم عبيد » ، الذي أبت « كرامته » المرذولة أن يعترف لأبنائه بحق في مرتب أبيهم ، لا مكافأة ، ولا تقاعداً (معاشاً) !.

وبالرغم من هذا الاجحاف الجائر بحرمان الأبناء من صفة في الحياة ،.. فإن هذا الحرمان نفسه قـــد خلصهم من « نكد » تلك الوظيفة ، وفتح عليهم أبواب العيش الفاره الكريم ،.. وجاءتهم النعمة واليسار يسعيان اليهم في علم وعمل وكرامة !.

فالله سبحانه « أكرم » بهم من مروءة حكومة الأحزاب « التي يلعن بعضها بعضاً لعناً مقدساً » وأبر بهم من مكافأة الدولة لموظف قضى عمره في خدمتها !! (٢) .

---

(١) من مصطلحات الرافعي الفكهة .

(٢) أنظر سعيد العريان ـ خل عنك يا وزير المالية .. فالله أكرم الرسالة ٢٥٣ . وقد أيدت الحاجة زينب الرافعي ذلك ، كما حدثني عنه العريان ـ رح ـ حتى تساءلت أين « الثورة » من إنصافها للرجل ؟!..

على أن هناك قصصاً ومفارقات حدثت له فى الوظيفة جديرة بالوقوف على نماذج منها ، تقف بنا على صورة واقعية لممارسته الحياة آنذاك .

وأولى هذه المفارقات ما رواه الأستاذ أحمد محمد عيش عن أخيه النبوي الرافعي (١) : كان الرافعي شاباً ضاوي الجسد نحيلا أيام شبابه الأولى ، .. يختلف على وظيفة فى طنطا كل يوم فى القطار ، .. وحدث ذات يوم - وهو يهم أن يصعد الى القطار العائد به الى طنطا - ان رأى صبياً ضعيفاً بين يدي رجل فظ غليظ القلب من أعيان البلد . وقــد تناوله ركلا وضربا دون شفقة او رحمة ، .. والناس تنظر اليه من حوله بشيء من الملق وغير قليل من النفاق وقلة الحياء وتسويغ مثل هذا البطش الجائر ! .

فما كان من الرافعي إلا ان اهوى بعصاه على رأس ذلك (العين) حث طرحه ارضاً ، والقى به أهزوءة بين المتملقين له منذ ساعة ، والمنافقين انفسهم ، .. ثم تناول سلم القطار وهو يلوح بعصاه !.

وكاد ذاك « العين » المتنفذ ان يقف له برهط من اعوانه فى اليوم التالي ، ليقتص منه ، لولا ان تدارك الأمر بعض ذوي الجاه من المعارف .

والثانية صلته بالموظفين ، وقد كانت من الود والصداقة فوق ما يعرف من الصلات بين الموظفين ، . وكان المرحوم محمد محب (باشا) اقدر محافظ (مدير) عرفته طنطا في ذلك العهد .. اقرب قرابة الى الرافعي من ذويه وخاصته ، .. وادنى اليه من تلامذته واهليه ، وكذلك كانت صلة الرافعي بالمحافظ ، وما هي بصلة موظف صغير برئيس كبير !.

---

(١) أحمد عيش ـ المقتطف ٩١ ـ ٥٢٩ .

وحدث مرة - والرافعي في صدر شبابه - ان جاء المحكمة رئيس شديد الحول والطول ،٠٠ فلما صعد اليه الموظفون للتهنئة بمنصبه الجديد ، فتش عن الرافعي بينهم فلم يجده ، فاستشاط غضباً لإغضاء الرافعي عنه ، وكتب الى وزارة العدل - الحقانية ، يطلب اليها إقالته من الخدمة ، ويسبب لطلبه حيثيات من عاهة الرافعي ؛ واستطالته على الأنظمة ، وما يتبعها من عادات النفاق المسماة على « المجاملة » فى الأصول !.

وجاء الشاعر الظريف حفني ناصف ليحقق في الموضوع ، فاستمع الأديب لحجة الشاعر الأريب وطوى أوراقه التحقيقية عائداً الى الوزارة في تقرير يقول فيه « إن الرافعي ليس من طبقة الموظفين الذين تجري عليهم مثل هاتيك الأنظمة والتقاليد المتعارف عليها ، وإن للرافعي حقاً على الأمة وفيه قناعة ورضا ،٠٠ وما كان هذا مكانه ، ولا موضعه لو لم يسكن اليه !! .

.. وإلا فاكفلوا له عيشه الكريم في غير هذا المكان » (١) .

وأما الثالثة ،٠٠ فقد كانت بسبب قطعة أرض اشتراها الرافعي يوماً ما ، فأراد البائع أن يتحيّفها بعد العقد ، فدسّ عليه مفتشاً لئيماً يلازمه ثلاثة أشهر او أكثر من عام ١٩٣٤ م يستجوبه عن خطأ في تقدير الرسوم ، بلغ النقص فيه بضعة وتسعين جنيهاً !..

على حين لم يكن عليه في هذه التقديرات خطأ واحد ! وإنما هي من

---

(١) العريان - حياة الرافعي ص ٣٨ وما بعدها .

أخطاء زملائه في المكتب ، حملها عنهم حتى لا يتعرضوا لشرٍّ هو أقدر منهم على التخلص منه (١) .

والمحاولة التفسيرية الأولى لأمثال هــذه الممارسة للوظيفة تقف بنا أمام إنسان قد يبدو لأول وهلة غريب الأطوار ، .. ولكنه فى الحقيقة كان طبعاً خاصاً من الموظفين .

فهو من ناحية يعتدُّ بنفسه ، ويرتفع بالحفاظ على كرامته ، حتى لا يسمح لرئيس مهما علا منصبه ، أو تدنى مكانه أن يجحد منزلة الرافعى الاجتماعية والمثالية ،.. او أن يستعمل سلطانه للنيل من كبريائه ،.. وقـد يلوح في ذلك شيء من الغلو والإسراف ، يدعو الى الشك في حسن تصرفه أو توضعه ولباقته ! (٢) .

ومن الناحية الأخرى يبدو وكأنه يسرف على نفسه ، ويحمّلها فوق الطاقة إلتزاماً بقيم مثالية في الزمالة والصداقة ، والاجتماع الانساني بعامة !..

* * *

في بيتــــه :

لقد بينا سبق الرافعي المبكر الى استكمال أسباب استقلاله الشخصي ، وتحمل مسؤوليته الانسانية في الوجود الحيوي له ،..

وبالروح التي سعى بهـا يلتمس « الوظيفة » ليضمن استقرار المورد ،..

---

(١) الرافعي ـ الرسائل ص ٢٧٥ ، والعريان ـ حياة الرافعي ص ٢٧١ .

(١) العريان ـ المصدر نفسه .

راح يفتش عن نصفه الآخر ، ويتحرّى عن الإنسانة التي تشركه رحلة العمر !.

وفي وقت مبكر جداً لوحظ على الرافعي حسن تخير الأصدقاء وانتخابهم من بين رفاق الدراسة وزملاء العمل ، وأصدقاء العشرة ، وإخوة الأذواق والمشارب ، وصحبة الوفاق في المباديء والأفكار ..

وكان من بين أصفيائه العديدين شاب دنت منزلته عند الإمام محمد عبده ، وكان ثاني إثنين قربهما الامام منه ، وفوّض لهما من السعي والجهاد الكريم ما طبعهما على غراره في الاستهداف القيمي، والتطلع العلمي ، والارشاد والتقويم .

أما أحدهما فهو الشيخ محمد رشيد رضا صاحب والدعوة لإقامة « الخلافة العربية » ،.. بجمعيته ومجلته « المنار » المار ذكرها .

وأما الثاني فهو الشيخ محمد عبد الرحمن البرقوقي ذواقة الأدب ، والمعروف بين أدباء الجيل الماضي باللقب الظريف « الشيخ شرف الديباجة » لشدة ولوعه بالصيغة البيانية للآثار الأدبية !.

وقد جمع الأدب والشعر والرأي فيهما بين الرافعي والبرقوقي!.. فما تعارف معه حتى تصافيا ، واتصل بينهما الود بأسبابه !.. فأصبحا كالأخوين يختلف احدهما على الآخر كل حين .

وقد حدث للرافعي أن رأى فتاة أحلامه في بيت ذلك الصديق ، وكانت سنه يومها اربعة وعشرين عاماً ، وكانت نفسه في الزواج ،.. فلما جلسا يتجاذبان اطراف الحديث ، تحرّك خاطر اديبنا ينتقل فى الكلام من شجون الى شجون ،.. حتى استقرّ على ذاته وراح يصف لصفيه الصديق صورة لفتاة احلامه كما يتخيلها !! .

وما كاد ينتهي من حديثه و نعته حتى مدّ صفيّه الأديب يده اليه ، يهنؤه بأنها أخته ، التي يسعده ان يقدمها له ، فما برحا مكانهما حتى قرءا الفاتحة .

وهكذا بنى الرافعي بأهله ، وعاشا أهنأ ما يكون زوج وزوجه ثلث قرن او يزيد وكأنهما في شهر عسل مستديم !.. انبتهما الله خلالها صفوة من الرافعيين بنات وبنين !..

.. حتى ليرجع كثير من النقاد الى السيدة نفيسة البرقوقي كثيراً من الفضل الذي عاد بالخير على الرافعي الأديب ، والذي ارتقى فيه من الشاعرية الوجدانية ، حتى بلغ الإمامة في العربية والحجة عليها !.

وذهب الأستاذ سعيد العريان يحسب ان قولة الرافعي « إذا رأيت رجلا موفقاً فيما يحاوله ، مسدد الخطى الى الهدف الذي يرمي اليه ، فاعلم ان وراءه امرأة يحبها ، وتحبه » تنطبق عليه بالذات ، حين عقب عليها بقوله : « إنني لا اعرف ـ فيمن اعرف ـ احداً تنطبق عليه هذه الحكمة مثلما تنطبق على حياة الرافعي »(١) .

وكان الملاحظ على اسرة الرافعي انها كثيرة الولد ، وقد احصى العريان ابناء الشيخ عبد الرزاق الرافعي واحفاده في مصر عام ١٩٣٩ م فعرف منهم بضعة وسبعين ولداً وبنتاً (٢) .

---

(١) العريان ـ حياة الرافعي ص ٥٩ .

(٢) سعيد العريان ـ حياة الرافعي ـ ص ٢٤ ،.. ولكن هذه السنة لم تطرد في أولاده ،.. فالدكتور محمود سامي الرافعي لم يرزق بغير ولد وبنت ، وكذلك الدكتور محمد ، وعائشة .. كما أن الحاجة زينب لم تنجب ، وابراهيم لم يتزوج وكأنما سلبهم الرافعي هذه القوة الطبيعية ، فحولها من قبله الى مواليد أخرى من الأدب والعلم والفن !!. وهي حالة تستحق النظر والدراسة ،..

وقد ولد للرافعي من زوجه السيدة نفيسة البرقوقي ـ رحمها الله ـ (١) بضعة بنين وبنات،.. كانت المولودة البكر، أنثى ألقى عليها اسم «وهيبة» اخت صديقه الأديب جورج حنا وقد كان ينظر الى جمالها (٢)..

وسمع مناغاة «وهيبة» واستبشر بها خيراً، وارسل ابياتاً شعرية في مولدها، حتى تغنى لهـا بلغتها وهي تناديه «باي يابابا» وصنع لها نشيداً منها!..

ثم ولد له «محمود سامي الرافعي» (٣) الذي غلب اسمه في كنية الرافعي بأبي السامي، وكان في تسميته إحياء لذكر فارس الشعر العربي محمود سامي البارودي، وكان الرافعي ينظر اليه في صدر ايامه!..

وقد هزّ الرافعي «أرجوحة سامي» بأرجوزة غنائية اخرى (٤).

وولد له بعد ذلك (محمد) الذي ساهره في مرضه، وخديجة، وابراهيم الذي اتعبه كثيراً حتى ثار بوجه الامتحانات العامة من أجله،.. وزينب التي ارسل فيها اغنية «ندى الورد» وكانت ذات استعداد عظيم وذكاء مفرط قهرت به كلية الآداب فيما بعـد.. بالمسابقة والامتحان، وعبد الرحمن الذي كان يدعوه بالشيخ ويؤمل فيه الخير للأمة (٥)، ثم عائشة وسعدية، التي تركها

---

(١) توفيت عام ١٩٤٩م. (٢) يوسف حنا ـ السياسة (الكويتية) عدد ٢٨.

(٣) هو اليوم المدير العام للمؤسسة العامة للأغذية ـ قها..

(٤) سيرد ذلك مفصلا عند التعريف بأغاريد الرافعي.

(٥) .. تخرج عبد الرحمن في الثانوية، والتحق بالكلية الحربية، وتخرج فيها ضابطاً وعمل في سلاح المدفعية ثم انضم الى «الضباط الأحرار» وقاد الكتائب في منطقة شرق القاهرة ايام العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦م ولكن خلافاً ما وقع له مع أحدهم،.. فابتعد عن المسؤولية!.. وفقه الله ونفع الأمة به..

تلثغ بالراء ولما يستقم لها النطق والكلام !.

وهم اليوم مع اولادهم وبناتهم من احفاده ، من المتضمخين بطيب ذكراه ، وإن جرت عليهم الحياة فى غير مجالي الأدب والفقه والتاريخ ، تلك العلوم التقليدية للأسرة الرافعية .

ويتهيأ كل منهم أن يحفل بالرافعي ، ويحيي ذكراه ،.. ولكن الأيام تتبدل بهم وتنتزع من بين أيديهم فضلها في طلب العيش الكريم مخاطرة وعناءً !.

فتح الله عليهم جميعاً بما يبعث فيهم الإمام الرافعي حياً !.

* * *

وحياة الرافعي في بيته كانت مثالاً للرجولة والأبوة والمسؤولية ،.. فهو يكدُّ أول النهار فى الوظيفة ،.. ويكتب ويؤلف طرفاً من النهار والليل ، ويهيي لذلك البيت الجليل اسباب الرفاء وستر الحال ! .

وكثيراً ما كان يشرك زوجه وأبناءه فى شؤونه الخاصة ، ويلتمس عندهم الرأي والمشورة ، وإن كان « سيد بيته » بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معانٍ .

وما أمر « قلبه » وما عاناه من هوىً برّح به وألهمه آيات من الفن الأدبي الرفيع ، وموقف السيدة الفاضلة زوجه منه إلا المثل الرائع للحياة الفضلى التي وهبها الله سبحانه إياه . وقد هيأت له من مكتبته في بيته مكاناً يهبط عليه الالهام فيه .

ولكنه كثيراً ما كان يترك هذا المكان ليساهر أبناءه وهم أطفال ،.. ويلاطفهم ويمتعهم بمباهج الحياة حين يحبون أن يمرحوا ويسرحوا كما كان يهوى هو في صدر أيامه .

وحينما أشير عليه بممارسة الألعاب الرياضية لكسب الصحة لجسمه النحيل ، جعل من هؤلاء الأولاد (ثقلاً) يرفعه من بين التمرينات العديدة التي يمارسها ، او يعلمهم السباحة في سيدي بشر بالاسكندرية .

وقد يترك محراب فنه أحيانًا ، ليعكف على تدريسهم ساعات من الليل ، يمكنهم فيها من أداء واجباتهم المدرسية ، ليمتازوا في النجاح عند الامتحان .

وكل واحد من أبنائه يحمل من هذه الذكريات ما لو دونها في صفحات لكان فيها بعض الوفاء الذي يكشف الدارس عن جوانب نفسية أخرى غير التي تتهيأ له من آثاره الأدبية والنقدية .

ولا سيما أن الرافعي لم يُعنَ بتدوين سيرته الذاتية ، ولا هو روى لنا فى مذكرات خاصة اطرافًا من حوادث طفولته ، او صوراً من أيامه فى يفاعته ، وصباه وشبابه ، التي يمكن أن تكون ذات أثر فيما آل من ثم في زعامة الأدب الاعتقادي .

ولربما تكون أيضاً مادة غنية اخرى فى تفسير بعض نواحيه الخلقية والنفسية ومزاجه العقلي ، الذي مال به الى التصوف احيانًا !.

ولم يبق لنا من ذلك كلّه غير ذكريات من روايات لأحاديث سمعت عنه ، او أخذت من بعض إخوته ، كالنبوي الرافعي ، ولكنه هو الآخر لم يعن بتدوينها !.

وكان احد ابناء عمومة الرافعي قد أحسّ بفقدان هذا الجانب الخطير من حياته فراح « يستمليه كتبًا ورسائل فى معان مختلفة ، حتى اجتمع له بعد ذلك جملة صالحة ، فأراد طبعها » ولكن الرافعي نهاه عن ذلك ، و « اعلمه أنه يبرأ منها إذا هو نشرها » .

ولكن ابن العم هذاك قد غفل عنها بعد وفاته ، فما قدمها للأمة في طبعة خاصة ، وإن كانت « هناك أشياء اخرى لم يرد الرافعي أن يبوح بها » (١) .

ولا يدرى أين مكان تلك « الجملة الصالحة من المعاني المختلفة » الآن !.

وقد حدثنا الشيخ محمود أبو رية أنه أكثر من الإلحاف عليه بالطلب في شيء يشبه ذلك ، وكان عذره بعدم اتساع وقته .

ورأيت إحدى حبائبه تكتب له مثل قولها « .. كم أتمنى أن تدوّن ريشتك الساحرة بعض مذكرات خاصة ، تصبح مجموعة بعد زمن ، تخرج الى العالم مكامن النفس الحاسة ـ حبذا هذه الأمنية » (٢) .

وأحسبه قد همّ في استجابة ما لمثل هذا الطلب المتمنى الحبيب ،.. ولكنه لم يتيسر له أن يتمه ،.. وربما لم يبق ما شرع به أيضاً !. بعد المأساة التي انتهت اليها مكتبته ، على الأساس الذي تنتقل فيه الى دار الكتب لتكون جنب مكتبة أحمد زكي باشا وأحمد تيمور باشا وعبد الله فكري وسواهم ولكنها أضيعت !.

* * *

---

(١) الرافعي ـ الرسائل ص ٢٤ ،...ولعـله الشيخ محمد سعيد الرافعي وكم يكون جميلا لو أن « المكتبة الأزهرية.» قـد وقفت على هذا الأثر النفيس فقدمته منشوراً خدمة للتاريخ والعلم والأدب !..

(٢) ماري يني ـ من رسالتها المؤرخة في ٩ آذار ـ مارس ١٩٢٦ م .

حياته الأدبية

لقد مر بنا أن كلمة خرجت من فم الشيخ عبد الرزاق الرافعي تجبر خاطر ابنه ، وتبعث فيه العزيمة الماضية للجهاد في سبيل الله .. وكيف وافقت من ادبينا اليافع هوى في نفسه ، وكان لها وقع الإلهام عليه ، وآية الوحي لديه !.

ومن الدروس العلمية الأولى التي تلقاها على يد ابيه الشيخ ،.. الى ولعله بالعربية وفنونها ، الذي أظهره في المدرسة الابتدائية في المنصورة ، والذي كاد فيه أن يضع شواهد للنحو والصرف جديدة من نظمه ، غير التي تناقلها علماء اللغة والرواية !..

ثم إن حياته في العصر الذي يتنفس فيه العقل الأدبي للأمة ، وينهض فيها شعراء لسنّ وكتاب ذوو فكر ، ودعاة عقيدة وسياسة ، ومذاهب إجتماعية تضرب في جوانب الحياة ،.. وسوى هذا وذاك ، وما كان له من استعداد لدني ، وإرادة تنحدر في دمه ميراثاً لعزيمة آبائه وأجداده ،.. وقد هيأ له أن يسلك سبيله في حياة ادبية حافلة ،.. حتى ليصدق فيه إجماع النقاد من معاصريه « أن حياته ممثلة في أدبه » (١) .

وقد قامت حياة الرافعي الأدبية بين متوازيين ـ الوظيفة والبيت ـ فكان لها كالحدود الطبيعية والجغرافية والسياسية للدولة وكأنه قد عنى ذلك بمثل قوله :

أنا المقيد في نفسي وفي خلقي كأنني قيدُ حرّ قيده القسم !..
شتان بين امرىء في نفسه حرمٌ قدس وبين امرىءٍ في نفسه صنمُ
والعود أوتاره ان لم تشدّ به شدّ المقيد لم يصدح لها نغم (٢)

---

(١) راجع أنور الجندي في مصنفاته ـ مادة الرافعي .

(٢) الرافعي ـ أنا ونفسي ـ المقتطف ـ كانون الثاني ـ يناير ١٩٢٧ م .

.. ففي وقت سابق جداً من أيام صبوته ويفاعته كان يشعر وكأن « روحاً رفافة كانت تطيف بـه ، فتنزعه عن وجوده الذي يعيش فيه لتحليق في أجواء أخرى بعيدة ، وتكشف له عن آفاق مجهولة لم يسمع بهـا ، ولم يعرف مكانها ،.. فتوحي اليه الشعور بالقلق ، والاحساس بالوحدة ولذعات الحرمان ،.. حتى يضطرب فلا يجد متنفساً يتنفس بـه عن نفسه غير الشعر ، يقرؤه ويتمثل به ، وينسج على منواله ،.. وكان ذلك في أول عهده ، فما كانت أمنيته إلا أن يكون شاعراً وحسب » (٢) .

ومن يتأمل فى حديثه عن « الشعر العربي » (٣) آنذاك ، وقصيدته في « ذم الهوى » (٤) يدرك مثلا قائماً للاضطراب الذي كان يعانيه في تلك الأيام ، وهو يهم أن يولد فى حياته الأدبية .

ففي الحديث أطال الكلام ، وقدح فى القديم ،.. ولفت الأنظار الى « ما يقوله الشاعرون » . ولكنه في « ذم الهوى » تكلف حالة من الوعظ لم يوفق فيها !..

---

(١) العريان - حياة الرافعي ص ٣٥ .

(٢) الرافعي - الشعر العربي - المنار ١٥ - ٣ تموز - يوليو ١٩٠٠ ص ٢٦٤ .

(٣) » ذم الهوى - المنار ٤٦ ، رمضان ١٣١٧ هـ - كانون الثاني يناير ١٩٠٠ م ص ٧٣٤ .

ومن ذلك نفهم لماذا قاسى الوحشة في المنصورة فى تلك الأيام، مع أنه « كان منطوياً على عشق لبعض الصور الحسنة » فكان هذا يخفف عنه ».. حتى « ليلجأ الى شاطيء النيل وراء النهر الصغير ليجد فى تلك البقعة وحشة تعالج وحشته » (١).

وكانت أوصاف حسان هذه المدينة الحلوة قد طارت يومها فى الآفاق، تتناول عناوين الغزل من أفواه المحبين، وتستأثر بأرق النسيب للشعراء، ويهيم فتيانها بأبلغ التشبيه !!.

ولكنه بما كان فيه « من الاستعداد الأدبي الكبير ».. وبما فى أعصابه من دقة الحس وسرعة الاستجابة لما ينفعل به .. تهيأ ليكون كما أراد، وأن يبلغ بنفسه هذا المكان - بين أدباء العربية » (٢).

فما كاد يلمح فتاته الأولى على جسر « كفر الزيات »، ويرى فيها صورة مما كان يجنح اليه خاطره، وتهفو له نفسه .. حتى مال اليها بقلبه، وغلبته على هواه، حين « عصفرها » وعمره يومئذ إحدى وعشرون سنة !..

ومن وحي هـــذا الحب كانت معظم قصائده الغزلية في « عصفورة » الديوان، وولوعه من ثم بشاعرية الحسن(٣) وما ابتدر القول، وأنشأ الأبيات، وسار فى هذا السبيل حتى راح يبحث عن مكانه بين أدباء الجيل.

---

(١) الرافعي - الرسائل ص ٦٤، - ومع ذلك فقد كان يحلو له أن يذيل بعض ما يبعث به للصحف آنذاك بعنوانه على المنصورة.

(٢) العريان - حياة الرافعي - ص ٢٧.

(٣) الرافعي - الديوان ج ١، هامش ص ٦٨.

فسعى ليؤكد صلته بشيخ الشعراء العائد محمود سامي البارودي - رح - يطري نعته ، ويقرأ له ويلتمس عنده البركة والتشجيع (١) .

وعقد الآصرة بينه وبين الإمام محمد عبده - وقد كان كالطابع الأدبي للعصر كله !.. فهو يقول له مستأذناً :

ببابك العــالي ذوو حاجة   اولا التقى قلت ادخلوا سجّدا
فاذن لعلّ القوم مثل الذي   قادته تلك النار نحو الهدى (٢)

ومضى يغشى المجالس هنا وهناك يتحدث ، وينشر في الصحف ويذيع اسمه بين الناس ،..

ثم انتهز نهزة يستطيل بهـا في « شاعرية الحسن » ، ويسبق صديقه محمد حافظ ابراهيم الشاعر الذي ذاع صيته بين الناس ،.. وهو لا يقول في الغزل (٣) وهذا نقصه ،.. وكأنما تمام هذا النقص عند الرافعي الذي أكثر من النظم في هذا الفن الغنائي الجميل !.

وحدث أن جاء الى مصر في تلك الايام شاعر عراقي كبير نشرت له « المؤيد » غرة من قصائده فكانت كالاعلان عن مكانته ومقدمه !.

ومضى الرافعي أكثر مما ينبغي حين ترك الوظيفة وسعى للقاء الشيخ عبد المحسن

---

(١) أنظر الرافعي ـــ الديوان ج ١ ص ٤٠ .

(٢) » » » ج ٢ ص ١١١ ، وانظر ج ١ ص ٤٢ ، و ج ٢ ص ٧٢ .

(٣) أ . نجم (الرافعي) ـــ شعراء العصر ـ الثريا ـ كانون الثاني ـــ يناير ١٩٠٥ م.

الكاظمي ، ولكن سرعان ما اصطدم بـه حين لم يستقبله بما يليق نفسه ، فراح يكتب في ذمه والزراية به ، وينعته بما يغيظ !.. حتى ألجأه الى الاتصال بـه ، وتسوية ما حدث عن غير قصد في التجني ، ثم صفا ما بينهما الى الصورة المثالية التي جاءت في كتاب الكاظمي له وهو يغادر الى الأندلس : « .. ثق إني أسافر وأنت بقيّتي في مصر » (١) .

ثم إنه نفَس على أحمد شوقي شاعريته . وآذاه بالغمز تارة واللمز أخرى ، في الوقت الذى كان فيه شوقي يطري نعته ويتوسم فيه الشاعرية الجديدة .

كما نافس حافظ ابراهيم ، فلا يكاد يقول حافظ في معنىً ، او يرسل قافية إلا والرافعي يلاحقه في المعنى نفسه ، والقافية إياها كأنما يستبق معه على رهان!. (٢) مع ما بينه وبين الاثنين ـ شوقي وحافظ ـ من فوارق السن وتجارب الحياة !..

فما كاد حافظ يخرج ديوانه الأول ، ويقدم له بمقدمة بليغة ، ويترك لمحمد هلال ابراهيم المجال في شرحه !.. حتى نرى الرافعي يسارع فيخرج هو الآخر ديوانه الأول ويقدم له بمقدمة كادت تنسي الأدباء والنقاد مقدمة ديوان حافظ ، ووضع اسم أخيه « محمد كامل الرافعي » على الشرح الذي وفى به الديوان حقه !..

ولما أصدر حافظ الجزء الثاني من ديوانه ، أردف الرافعي ديوانه بالجزء الثاني أيضاً، ثم أتبعه بالجزء الثالث ، وقد حشد فيها من الشعر والقصائد والمقطعات والأبيات ما جعلت حافظاً ينعته بـ « المكثار » رداً على كلمته للرافعي عنه وصفه

---

(١) سعيد العريان ـــ حياة الرافعي .

(٢) سنعرض لذلك عند المقارنة .

فيها بأنه (مقل) في النظم !. على ما سوف نستفيض فيه دراسة في كتابنا التالي .

ولكننا في الموضوعات الاجتماعية والقومية نجده كثيراً ما خالف حافظاً، وشوقي ولم يسلم كلاهما من غمزه وتحديه !..

وفي حياة الرافعي الأدبية ظهرت بعض ميوله الوطنية والقومية ، ذلك أن الزعيم مصطفى كامل كان قد استأثر بنابغتين اثنين من بني عمومته المحامين ، أما أحدهما فهو زين الشباب المرحوم أمين الرافعي ، الذي كان بحق قلم الحركة الوطنية الحـر ، والثاني أخوه عبد الرحمن الرافعي ـ رح ـ الذي أرخ للحركة القومية في مصر بعد ذلك !..

ومن ذلك نجد الرافعي كالمستجيب لدعوة مصطفى كامل ، ولا سيما بعد احتفائه به والتعريف بديوانه ، والتأميل له بالمستقبل الحكيم والبيان الجميل ،٠٠ ـ فقد سارع لوضع « نشيد وطني » (١) لمصر مع ما عرف عنـه من ولاء لدولة الخلافة ،٠٠ فلم يجـــد غضاضة ولا فرقاً بين دعوة الجامعة الاسلامية ، والحركة الوطنية في مصر .

ومن هنا كانت تنفسح صحف الحزب الوطني للرافعي وأصدقائه من الكتاب والشعراء ،٠٠ ويجيء اهتمام الرافعي من ثم بدعوة مصطفى كامل الى إنشاء الجامعة الأهلية في « فكرة وطنية انشق لها مكانها في الحوادث ، وبذلت فيها الأمة ، وشمـرت لها وجدّ بها الجد » (٢) ٠٠ فلم يلبث أن كتب حول موضوعات دروسها في اللغة العربية وآداب العرب ، حتى مكّن لهذا العلم الفريد

(١) الرافعي ـ ديوان النظوات ص ١٥ .

(٢) الرافعي ـ المعركة ص ٦٩ .

أن تكون له أصوله ومناهجه فيها ، ويتسابق العلماء والفضلاء من الأدباء في وضع دراسات قيّـمة من أجل ثبات هذا الفرع في الدراسة الجامعية ! .

وحياة الرافعي الأدبية هي التي ميزته عن محيطه من الناس بعامة والموظفين بخاصة ، وعرفت بـه في أوساط أخرى ، ومنتديات اجتماعية وسياسية كبيرة .

وكذلك سمحت به للاختلاف على ديار الشام ، والتمتع بالاجازات السنوية بين أهليه وذويه بطرابلس الشام ، ومغاني الجبل في بحمدون ووديان الهوى ،.. وأغراس الفتنة الطبيعية والجمال الآسر !..

وكم أنشد من وحي تلك السفرات من أشعار ، وأرسل القصائد ، وكتب الرسائل ،.. وكانت آية هذه جميعاً تلك المقالة التي صرف فيها وجه الحديث الى القمر ، ناجى فيها « ليلاه » هناك ، وحاورها في شؤون الحياة والاعتقاد والفكر ومذاهب الاجتماع !..

ثم لما أراد نشر المقالة ، زعم أنها كتبت بأسلوب خاص ، يمنح من يُدمن قراءته وتأمله « ملكة الإنشاء » ذلك الموضوع الذي جعله عنوان الكتاب الذي كان يعقد النية على إخراجه !..

وكانت بوادر الاستقرار على خط الادب الماضي بـه الى الإمامة من ثم قد لاحت له بالرغم من تجاهل « الجامعة » المنشأة حديثاً لشأنه ،.. فقد تلقفها كما أسلفنا فئـة (ذوي المصالح الخاصة) من (المعتدلين) أتباع الحزب الذي سمى نفسه على الأمة ،.. وبالغ في نعت أوصافه !.. حتى يبعد عنها (المتطرفين) في الحركة الوطنية ، والحزب الوطني ، الذين آثروا الثبات على المبدأ ، والالتزام بالأهداف القومية للأمة .

وإزاء ذلك الموقف كان الرافعي سر أبيه ، الذي تقدم لامتحان (العالمية) عقب مشادة جدلية ، فأثبت فيها وجوده العلمي ، ودرجة تفوقه الفقهي ، وضلاعته بكلٍّ !.. فقد تقدم هو الآخر بمصنفه الفريد في (تاريخ آداب العرب) وقد افترع له منهاجاً مغايراً لما كان عليه المستشرقون في تقسيم ذلك التاريخ بحسب الظروف السياسية التي مرت بالأمة ، وتحرى أن يكون بدعاً من الدراسات العلمية .

تناول في الجزء الأول منه اللغة والرواية ، أثبت فيه من الدقة وتحري الحقائق في المعلومات ما أكبره عند (المقتطف) المجلة العلمية الرصينة - حتى عده كتاب السنة !.. وعكف عليه الامير شكيب أرسلان ، وإن أوغر صدور بعض الكتاب والأدباء كطه حسين وجورج زيدان - حسداً له على توفيقه فيه .. كما سيرد .. وقد أتبعه من ثم بالجزء الثاني الذي درس فيه القرآن والحديث في صورة من الكشف عن أسرار الأعجاز والبيان ندر أن يقف عليها سابق في الاستيعاب .

وحدث له أن اهتبل الفرصة فغشي الحياة الصحفية يوم استبد الرأي بصفيه وصهره الشيخ عبد الرحمن البرقوقي لاخراج مجلة « البيان » لتسلك سبيلها مع « المنار » مجلة الشيخ محمد رشيد رضا زميله في التلمذة على الإمام محمد عبده (رح) ، وبقية الصحف والمجلات الأخرى ! .

وما تزال المقالة الافتتاحية الأولى التي عقدها للمجلة تعتبر وثيقة قومية خطيرة يشير اليها معظم الذين تصدوا لدراسة العصر في شؤونه الأدبية والاعتقادية ، ويجمع بينهم نسبتها خطأً للشيخ البرقوقي (١) .

---

(١) يحتفظ الشيخ محمد أبو رية بمسودة هذه المقالة بخط الرافعي نفسه =

ولما كانت هناك بعض المذهبيات الحديثة ، تحاول أن تغشى الحياة الاجتماعية بنظريات في الاشتراكية ، وأفكار في تحرير الفرد من ربقة الأيام ، وآراء في تمكين المرأة من الاستقلال الذاتي ،.. فقد راح الرافعي يحاضر في جمعية « الاحسان » السورية ـ المصرية عن هذه الموضوعات ، ليجتمع له من ثم « كتاب المساكين » الذي يعدل عندي ثورة اجتماعية ، وإن انهم يومها بغموض العبارة ، وانبهام القصد ،.. فقد تحرى فيه المقارنة الحدية ، والصورة الواقعية للفقر والفقراء ، وطبقات الناس ،.. ولم تخدعه المتخيلات النظرية ، ولا الموائد الخيالية !.

ويوم أعلنت سلطات الاحتلال الحماية البريطانية على مصر وزوال صفة السيادة العثمانية عنها ،.. وفتحت السجون أبوابها لتتلقى عناصر الحركة الوطنية ، وفي مقدمتهم أبناء عمومته أمين وعبد الرحمن امجد الرافعي ـ وكان موظفاً في الحكومة ـ كالذي يؤثر السلامة ، ويميل ناحية الاجتماع ، فيتحدث عن المشردين والاطفال ، ويخاطب النساء المتبرجات ، والشبان المخنثين .. الى آخر ذلك من الموضوعات التي لم يكن يطرقها الأدب العربي فيما مضى ، وقلما تصدى لها معاصروه !.. ولكن بلغت به الحيطة حداً تقاعس فيه من رثاء محمد فريد الذي توفاه الله وهو في المنفى بأوربة .

وكانت سنوات الحرب ذات وطأة عليه وأذى ، واشتد عليه فيها المرض ، ومضى يلتمس له العلاج في كل مكان ، ومن كل مصدر ، حتى انتظر الخوارق والكرامات ، وجأر بالشكوى الى الله أن يمن عليه بالشفاء ، والتمس الدعاء عند كل صديق يسأله له في ذلك .

= وبالقلم الرصاص! ولكذلك قصة رواها لي العريان رحمه الله ، وانظر مقالات منحولة » في كتابه (حياة الرافعي) !.

ولـكن ما كادت الحرب تنتهي بالهدنة ، وتندلع الثورة الوطنية فى آذار ـ مارس ١٩١٩م ، وتمتد لتكون نهضة جديدة ، حتى نرى الرافعي يضحي فيها نشيد الوطنية والقومية ، ـ يعالج بعض موضوعاتها خفية على صفحات « الأخبار » جريدة أمين الرافعي (١) ، ويرسل فيها نشيده « الى العلا » ويعود فيلقى على لسان الرجل الذي اختارته الاقدار رائداً لها نشيده الثائر « إسلمي يا مصر .. إنني الفدا » الذي ما يزال من مرددات أبناء الأمة عند كل تطلع قومي من حركة وطنية أو ثورة ! مما جعله يأسف على نفسه أن يفوته زمن الشعر ، وهو في غِلّ « الوظيفة » ، ويدرك أن فرصاً فيه قد فاتته لو قال فيها شعراً كما ينبغي لزاحم منكبب سعد (باشا) فى شهرته (٢) .

ولما تمكنت دول الاستعمار من الديار العربية عقب انتهاء الحرب ، وقسمتها في الاقليميات الانفصالية القائمة والتي ما زالت تعاني من الانشقاق والانشطار الى اليوم ،.. كثرت الارساليات التبشيرية ، والمحافل الماسونية ، والمنتديات العلمية والثقافية التي كانت تمدها وتغذيها تلك الدول عن أنيابها ، وكشفت عن بعض المستور من حقائقها وغاياتها ، فسلطت العديدين من وارداتها على العرب ومقدراتهم ، وعلى الاسلام وجوانبه الاعتقادية ، فى حركة تزعم العلم والتجديد فيه ، والأخذ بأساليب الفرضيات المنهجية التي تنتهي بالأحكام المسبقة فى موضوعات لم تعرض فيها الحيثيات كما ينبغي !..

وسعت العادات الوافدة ، والتقاليد الجديدة تصور للناس « دين المحبة »

---

(١) أنظر رسائل الرافعي ص ٦٧ .

(٢) » » » ص ٨٣ .

فى صورة من بعض العرب ، والاستخفاف بدينهم ومعتقداتهم !.. وتسفيه الكثير من تقاليدهم وأعرافهم ،.. وقد جلّى الرافعي في هذا المسلك الخطير بناحيتين ، وانتظم مضمارين ،٠٠ وسابق فى ميدانين !٠٠

كان الأول منهما إنتقاؤه لموضوعات الحب وفلسفة الجمال ،٠٠ يكتب فيها « لفتاة الشرق » لبيبة هاشم فصلا ، ويرسل في « مي » بضعة رسائل يسميها على الأحزان ويضمنها مقارنات حدية ، وموضوعات جدلية يتسامى فيها مع عقيدته القومية ودينه الاسلامي الحنيف ، بما يجعل التوفيق حليفه فى الأسلوب والمضمون ، او بعبارة أدق في البيان الجديد وماله من حلة البلاغة وإشراق العبارة ، وإرادة الاعتقاد التي تستبد بالتكوين العقلي في غلبة وتسليم !..

ومن أجل هذه الحقيقة تصدى له شانئوه من واردات أوربة المستعمرين من أفكارهم ،٠٠ فحاولوا معه نقل المعركة الى قشرة الأسلوب ، إبعاداً للناس عن معانيه البيانية الوضيئة ، ولكن هيهات أن يطاولوه !..

وكان الميدان الثاني فى حمله لراية القرآن مجاهداً في سبيل الله بمعارك فكرية رهيبة ، كانت مجالاتها في الأدب والتاريخ والنقد ذات خطورة بالغة !٠٠ وإن حوربت بتجاهلها من قبل بعض الدارسين الأغبياء !.

وقد سار فى المضمار الأول يقطع الأشواط في « السحاب الأحمر » ويجمع اليه رسائل من أوراق الورد ، يتم بها خماسيته الانشائية الفريدة ، التي ضمنها دعوة العرب الاعتقادية في الحب والحياة الكريمة الفاضلة (١) ، يقتصد أن تكون

---

(١) راجع العريان - في ذكرى الرافعي - الرسالة ٣٥٤ ص٨٣٤ ،.. وقد كاد أن يصل هذه الحقيقة ، حتى غبطني رحمه الله على ما وصلت اليه من تأمل !.. وقال : سوف تتكشف لك أشياء أخرى ، وربما حان الوقت لإذاعتها ونشرها .

مادة ذلك من حبيباته المسيحيات بخاصة !.. كما سيرد في فصل خاص .

ومضى في الثاني على سجيته يترك منازليه أشلاء بين « الشعر الجاهلي » و « على السفود » ويلقيهم على الصحافة السياسية « صعاليك » للأحزاب !..

وقـــد أعجز بذلك مناوئيه من دعاة التجديد أن يطاولوه فى مجاراة ، أو يستبقوا معه في مباراة بالرغم مما آذوه بـه من الملاحاة والمهاترات !..

وخيّـل اليه أن تهدأ روحه الثائرة ، وأن يخاطب الأمة من شرفة يقف فيها « شاعر الملك » ليقول ما كان يريد أن يقوله فلا يتهيأ له !.. ولكن جواد الشعر كبا به ،.. وأحس أنه جاء متأخراً ، فلم يلتفت الى « فؤداياته » فى تجميع أو إعادة نظر فكان كالذي سلك غير سبيله ! ..

ولـكنه حين استقبل غرسه في بنيه ، وأوشك أن يثمر احدهم ،.. راح يستجمع قواه التي أنهكتها الثورة الحانقة ، وأتعبها النقد القاسي ، وصقلتها الأيام ليكتب تلك الفصول الرائعة التي اجتمع بعضها في « وحي القلم » عنواناً للمقالة البيانية في العصر الحديث ، والتي ضمت اليها كل طريف ، ورائع من أحاديث الأدب الاعتقادي العام ، وسير التاريخ القومي وجوانب تتناول الحياة الاجتماعية للأمة من أطرافها العملية جميعاً !..

والوحي ما يزال منبعاً ثراً ، وكرماً معطاء لآراء الرافعي ، واجتهاداته وأفكاره ، فكأنه كان الخلاصة الرائعة لحياته الممثلة بأدبه !.

على أن ما يؤخذ على الرافعي في حياته الأدبيه أنـه كان يعتزل الناس أكثر مما ينبغي ، ـ ولعل مرد ذلك الى عاهة الصمم التي أطبقت عليـه حين تجاوز الثلاثين من عمره ، ولذلك جاءت بعض ثماره الأدبية ، والشعرية بخاصة مما

يحتاج الى المراجعة والتهذيب لتقوى الى جانب مآثره الأدبيـة الاخرى التي حلـق فيها جواداً سابقاً !.

ويؤخذ عليه كذلك أن قصده فى البلاغة يفرط به حيناً الى توخي الايجاز بالحذف ، واعتساف الجملة بالاختصار ،.. حتى لتحتاج الى تأمل وإشفاق لادراك معانيها قصداً وهدفاً !..

والقصد فى البلاغة نفسه ، قد فرط فيه أيضاً الى المبالغة والتهويل ، ولا سيما حين يجهز على خصومه نقداً وإيذاء .

ولعل ذلك أيضاً ما حدا به ـ وهو يسابق أحمد شوقي وحافظ والمطران في مدح سعد زغلول والملك فؤاد ـ الى ركوب متن المبالغة في التقدير ، فجاءت أمداحه ـ على ما فيها من قيم واعتبارات ليست منها في مدائح معاصريه ـ وقد غالى فيها مغالاة مكنت مناوئيه من التصدي له وشتمه بعد موته !..

والمتأمل فى تلك القصائد والأشعار يدرك حقيقة ما هدف اليه فيها من مخاطبة أبناء الأمة لتحري المثال ، ولكنه يقف على صورة المبالغة التي كان الرافعي يخيل فيها لنفسه أكثر مما ينبغي ، ولعله كان تحت وطأة من المفارقة والايهام ،.. لينتج في المديح ما عفّ عنه دهراً !..

* * *

وقف الرافعي في آخرة أيامه يتأمل عصره ، ويستبطن ذاته ، ويستجمع أداته ، وأراد أن يتحول الى « الناقد الذي يملأ فراغ العصر » وقــد أعياه التفتيش عنه بين معاصريه ثلث قرن أو يزيد (١) و « أن يستعد لحملة التطهير

(١) راجع الرافعي في كلمات عن حافظ .

التي تهدم العصر من أركانه الضعيفة ، لتعيد بناءه على أسس من المتانة والقوة »(١) تحفظ له إرادة التغيير .. ولكن حكم القضاء كان ماضياً ،.. فقد وافته المنية فأسلم الروح في سكتة قلبية سقط بعدها في الحمـــام عقب اغتساله في فجر يوم الاثنين التاسع والعشرين من صفر عام ١٣٥٦هـ الموافق للعاشر من أيار ـ مايو ١٩٣٧ م ، وكأنها كانت تستجيب لدعائه المتصل أن لا يرى الكبر والهرم الذي قـد يرده إلى أرذل العمر !.. وهكذا لقي ربه راضياً مرضياً !..

ومنذ ذلك اليوم ، والأمة لا تملك غـير الترحم عليه ، ويتنادى بعض محبيه لإحياء ذكراه فتحول السياسات العجاف دون هذه « المجاملة » !.. ويطلب القراء بعث أدبه ، فلا يجدون غير طبعات رديئة لبعض جليل أعماله ، وتضيق الجامعات بدراسات تتناول جوانب من فنه وحياته أو آثاره !!.

فالله أسأل التوفيق والسداد فيما أنا بسبيله من هـــذه الدراسة الخاطرة في جوانب من حياته ، أن تكون محاولة جدية على المستوى الاعتقادي الذي تقوم بـه الأمم لعظمائها ، من ذوي الفكر والأدب والشعر والبيان إنه سميع مجيب .

---

(١) أنظر أحمد حسن الزيات ـ الرسالة ٢٠٢ ـ ٥ المتضمنة رسالة الرافعي المؤرخة في ٩ أيار ـ مايو ١٩٣٧ م . وراجع كذلك الرافعي ـ الرسائل ص ١٨٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٧ .

الفصل الثاني

الرافعي والحب

« إن النابغة في الأدب لا يتم تمامه إلا إذا أحب وعشق » (*)

الرافعي .

لقد نسب الرواة الى قيس بن الملوّح العامري (١) ـ سيد عشاق العرب ومثلهم الفريد ـ قصيدة يدفع بها عن نفسه تهمة الخبل والاختلاط ، ويصف فيها ما بلغ به الهوى من برحاء المواجد والآلام ، مما لم يحتمله سواه من المحبين فيقول :

.. لعمرك ما لاقى جميل بن معمر   كوجدي بليلي ،.. لا ولم يلقَ مسلم
ولم يلق قابوس وقيس وعروةٌ   ولم يلقـه قبلي فصيح وأعجم (٢)

(*) الرافعي .. سر النبوغ في الأدب ـ المقتطف : كانون الثاني ـ يناير ١٩٣٣ م وحي القلم جـ ٣ ص ٢٦٨ .

(١) يزعم بعض المؤرخين لآداب العرب من المستشرقين وذيولهم بخاصة ، بخيالية قصته ، ولسنا من مذهبهم .. وإنما نحن نقول مع الأستاذ زكي مبارك ـ رح ـ من المنقصة للتاريخ الوجداني للعرب أن يكون وحده « المجنون » بليلاه بينهم !.

(٢) .. هم عشاق العرب الذين أفاضت كتب الفنون والأمالي في استجماع أخبارهم وآثارهم .

ثم يعرض لحقيقة الحب في الحياة ، وكونه أول ما في الانسان من الانسانية ، ويمثل لذلك بقوله :

صبا يوسفٌ واستشعر الحبَّ قلبه ... وما كاد أيوب من الحب يسلمُ

.. ولم يخلُ منه المصطفى سيد الورى ... أبو القاسم الزاكي النبي المكرم

فإذا كان حال أنبياء الله وهداة خلقه في هذه الحقيقة كذلك .. فليس ثمة ملامة على مثل مجنون بني عامر !..

وإذا كان سيد الورى ، وأكمل خلقه ، ذو الخلق العظيم محمد (ص) لم يخلُ من الحب ، وكان له فيه مع أم المؤمنين خديجة الصديقة (رض) حياة لها سيرة ، لم ترتفع اليها « الحميراء » (١) بصباها ولادلها !!.. فهل في الحب عار أو مذمة ؟! (٢) .

* * *

وإن نحن انقلبنا الى حيوات الأبطال ، وسير المفكرين منهم بخاصة ،.. لوقفنا على حقائق ودقائق من أيامهم ، فيها من أخبار الحب ، ومواقف الغزل ، ومواجد العشق والصبابة ، ولوعات الفراق والحرمان ، ولذعات المرائر .. ما يثير في النفس الانسانية العواطف والتأملات ، ويبعث على الرحمة والاشفاق أبداً !..

وإذا كانت هذه القصص والأخبار قد اقتصرت عند العرب على بعض

---

(١) « الحميراء » هي سيدتنا عائشة الصديقة بنت أبي بكر الصديق - زوج النبي - وفي الحديث « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » وسميت كذلك للزهرة التي كانت تفيض على جمالها .

(٢) راجع العريان - حياة الرافعي ص ٩٦

عشاقهم ، وصفوة من شعرائهم ، وقلة من نبغائهم ،.. فان آداب الأمم الأخرى قد حفلت بهذه الناحية من الحياة الانسانية ،.. وزخرت تراجم عظمائهم وسير أدبائهم ، وحياة مفكريهم بروايات فيها أخبار عزائمهم ، وحوادث عشقهم ،.. وموافقات تنمت قصص حبهم ، وتطري ذلك بغير قليل من المبالغة واستهداف التسويغ فى كون هـذه العاطفة الانسانية الرفيعة مصدر الالهام لهؤلاء ، ومنطلق الطاقات الوجدانية عندهم ،.. ومثار الاحتفاء بالحياة لديهم !..

وكان العصر قد أحضر من مترجمات تلك الآداب ما فاض في هـذا الموضوع من قصص وروايات وسير وتراجم ،.. وإن اختلط فيها من الأخبار والوقائع ما يحلّ ويحرم في العرف القومي للعرب !..

وأحسب أن الرافعي قـد وقف على جملة ذلك ،.. حتى انراه يقول ، في سبب ذلك : « أن أمثال هؤلاء وأولئك من المفكرين والأدباء ، قد طغت فيهم الحياة طغيانها العصبي الشديد ،.. يريدون المرأة المغلّـة ، كأنها من الفن الحي تغل عليهم من ثمراتها » !!.

« ومن فسوق الـكتاب والـكثرة من العباقرة ،.. وهؤلاء بركة على الفن ، ولكنهم بلاء على الدين والفضيلة ، ومن سخرية الحياة بهم أن يكون العبقري فيهم هو من ناحية أخرى .. الحيوان العظيم » (١) .

ولعـل فى إلحاق الشيخ العروبة أحمد زكي (باشا) ـ رح ـ للرافعي بشكسبير الانجليز ، وتولستوي الروس وجوته عظيم الأدب الألماني ،.. قـد

---

(١) الرافعي ـ حديث عن الزواج ـ الرسالة ٤٢٠ ، محمد فريد جندي ـ أزمة الزواج ورأي الرافعي ص ١٩٤ .

إستطال به الى أن يكون « رافعي العرب » (١) ، وربما خلقت بـه هذه الحياة تلك الروح التي جعلته « على كل أحواله إنما ينظر الى الجمال كما يستنشي العطر يكون متضوعاً في الهواء » .. أن يقول :

« .. ثم لا يدفعني اليـه إلا فطرة الشعر والاحساس الروحاني دون فطرة الشر الحيوانية » .. « ومتى أحسست جمال المرأة أحسست بمعنى أكبر من المرأة ، أكبر منها .. غير أنه منها » (٢) .

وهكذا جعلته هذه « الرافعية » في الحب يتميز بها عمن سواه من المحبين العرب ،.. أو نبغاء الفرسان والأدباء في الغرب .

لقد تخذ الحب فطرة الله التي فطر الناس عليها ، بما ينطوي عليه الحب من قيم وأعراف ،.. وتوسل به الى أشرف الغايات ، وأعرس الأهداف فيما نوثقه من عزيمة المضاء ، ومخاطرة الايمان ، وصبر الجهاد !.. واستهدف فيه ما يشرق اليه من حيوات الضمير والوجدان وجـلاء البلاغة وصفو البيان !.. حتى لم يعدُ في حياة الرافعي غير قصة حبه (٣) عليها عاش في أدبه وشعره ،.. وبها تمكن من حفظ توازنه ومصابرته الأيام ، ومنها استمدّ عناصر القوة التي قهر بها خصومه ومناوئيه ،.. وفيها سكب ذوب روحه ، وعمرّ ضميره ، وأخلد وجدانه ، حيث حلا له أن ينظم ، وراق له أن يقول ، وشاقه أن يؤلف ويصنّف ..

ومن هذه النواحي مجتمعة انبهمت على معاصريه فصول من هذه الحياة

---

(١) راجع كلمة زكي (باشا) في مقدمة المساكين .

(٢) الرافعي ـ الجمال البائس ـ وحي القلم جـ ١ ص ٣٩١ .

(٣) العريان ـ في ذكرى الرافعي ـ الرسالة ٣٥٤ ص ٨٣٤ .

الفريدة التي عاناها فى الحب !. فوقعت بين براثن الدحض والافتراء ، لقصور في فهم مراميها ، أو إدراك أبعادها وغاياتها !..

ولو تهيأ لنا أن نتأمل فيها بخلوص نية وحضور قلب ويقظة وجدان أمام فرائد أخرى للحب عرفت لأفلوطين ،.. وغدت من ثم مذهباً ، وأغرق في بعضها عشاق العرب من بني عذرة ، حتى انتسب الحب اليهم ،.. ومحاولات وجد فيها المتصوفة المسلمون عرفاناً ، ونوادر فاز بأخبارها فرسان العصور الوسطى بأوربة ، وأمثلة اسوى هؤلاء وأولئك عند أصحاب الأذواق والمواجد والديانات في الشرق والغرب ، لوقفنا بأزاء مثال آخر للحب قد يحق لنا أن نسميه « الحب الرافعي » على ما يجمع اليه من صفات هاتيك الأمثال .

وعلى هذه الصورة فى التسامي لا بد أن نعرض لقصة الحب في حياة الرافعي، بما يتهيأ لنا من حيثياتها الواقعية ، وحقائقها التاريخية مهما كانت الأبعاد !.

* * *

لقد كان لنشأة الرافعي في أسرة معروفة بعراقة التربية ، والمحافظة على تقاليد السلف الصالح، وإعداد أبنائها للحياة السامية أثر كبير فيما آل اليه من بعد . حيث تغلغلت آداب تلك التنشئة في عروقه ، وملكت عليه جوانب حسه ووجدانه ، وانطبعت صورها في ذهنه لتظهر من ثم أصداء يقظة في فنه وشعره وأدبه ، ولتنتظم بعد ذلك كله في كلمته وفلسفته .

يحدثنا رحمه الله عن صفحة من طفولته هاتيك فيقول فى « قرآن الفجر » : « كنت فى العاشرة من سني ، وقد جمعت القرآن كله حفظاً ، وجوّدته بأحكام القراءة ،.. ولا أنسى أبداً تلك الساعة ، وقد انبعث في جو المسجد صوت

غردٌ رخيم ، يشقّ صدفة الليل في مثل رنين الجرس تحت الأُفق العالي ، وهو يرتل آيات من آخر سورة النحل : « أدعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ، إن ربك أعلم بمن ضلّ عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين » الآية (١) .

ثم يصف لنا تأمل هذه الآية في جوّ ذلك المسجد حيث يقول القرآن عند الفجر !.. وكان من أمره في هذه السن المبكرة ، التأمل والاغراق في رحاب الكون ،.. وحب السفر والتجوال و « الرحلة الى أقصى حقول دمنهور الضاحكة ، وأشجار البساتين الحالمة ، والطيور الباسمة» (٢) كأنه يقرأ في كتاب آلاء الله .

وقد « يترك أخوته في نزهتهم ولهوهم يوم الجمعة ، فيمم شطر هـــذه المجالي .. فيظل هائماً طول اليوم ، حيث السماء الصافية الطبيعة الحالمة ، خاشفاً أمام الجمال اللانهائي .. كالأنبياء القدامى !! » (٣) .

كل ذاك كان يملك عليه مشاعره ، ويجعله كلفاً بجمال الريف الخالص ، بعيداً عن زيف المدنية وصحبتها ،.. منطلقاً الى غير المحدود من مفاتن السحر ، ومغاني الطبيعة ، وصور الجمال وما يجتليه منها في تأملاته وأخيلته !..

وليته عُني بتدوين حوادث طفولته هاتيك ، وكيف كانوا يسمونه « المجنون » (٤) ولماذا كان يحتفي بالحياة الطبيعية ومجاليها ، وكيف كان يتفرد

---

(١) الرافعي - قرآن الفجر - الرسالة ١٨٧ - شباط - فبراير ١٩٣٧ م .

(٢) أحمد محمد عيش - سيرة الرافعي - المقتطف ٩١ - ٥٢٩ .

(٣) و (٤) المرجع نفسه .

بنفسه بعيداً عن عبث رفاق طفولته ، وأذى أترابه لمناظر من هاتيك الحياة !..

ولما لم يكن له من همٍّ يومئذ غير الدرس والحفظ ،.. فقد كانت تنازعه هذه التأملات في آفاق الفضاء ورحاب الأرض والسماء بعض وقته وواجباته !..

حتى إذا ما ألقى « عبقر » على لسانه لغة الشعر ، نازعته صورة فيها الى « ذم الهوى » بلون من الوعظ ـ يجاري فيه الفقيه الحنبلي ابن تيمية في العنوان ـ وإن لم يوفق فيه :

.. رويدك ما الهوى إلا هوانٌ وهل يرضى العنا إلا اللئام ؟!..

ومن خبر الغواني فالغواني ضياءٌ في بواطنه ظلام

أأنّ لك الحديث فلِنتَ قلباً وعهدي ما يخادعك الكلام

وكيف تذود نفسك عن حياض وقد وُردت ؟! ـ فما هذا المقام ؟!

وقد أخذه من قول الشاعر :

وتجتنب الأسود ورود ماءٍ إذا كان الكلاب ولغن فيه !..

ثم ينتقل الى حالة يراها على الواقع فيقول :

تمرُّ على المساجد غير باكٍ وتبكيك المنازل والخيام !..

ويذكرك الحمام إذا تغنّى ولا ذكرى إذا غنّى الحمام

.. فديتك ليس هذا عصر ليلى .. الخ (٢)

ولعل إهماله لهذه القصيدة بالذات من أن يحتويها أحد دواوينه ، وأطرحها

(١) أحمد عيش ـ المصدر السابق .

(٢) الرافعي ـ ذم الهوى ـ المنار ، رمضان ١٣١٧ هـ ـ كانون الثاني ـ يناير ١٩٠٠ م .

مع ما أطرحه من أشعار أخرى .. يعود الى حرصه على « شاعرية الحسن » التي تطلع اليها أولاً ؛.. ولكي لا يبدو متناقضاً - لأول وهلة - عند قارئه الذي يراه يغرق بحبه ، ويهيم في وديان هواه ،.. بعد ذلك !..

على أن القصيدة نفسها قد تكون سابقة على نظمه في الحب ، وشعوره بالجمال ،.. وهي تعطينا صورة طفلة مراهقة لمفهوم التدين الذي ينشأ عليه أبناء الأسر الكريمة ، التي تعتمد بالفقه منهاجاً وعلماً ،.. وترى في الوعظ وقاية ، وبعث عزائم !.

وعندي أن وجود مثل هذه القصيدة للرافعي ، كان يجب أن تولد فى ذهنه آنذاك ، كالضرورة التي يشفُّ بها عن روحه ، ويكشف فيها عن مكنون سريرته ،.. ويدفع عن نفسه - وإن خلا منها الديوان - لتفسر لنا من ثم قولته السائرة في السحاب الأحمر (١) :

قلبي يحب وإنما أخلاقه فيه ودينه

وثمة حادثة أخرى تعطينا الدليل على ما لقيه من معاناة الحب فيما بعد ..

ذلك أنه همّ بتأليف جماعة من الشباب تدعو الى نوع من الاصلاح الديني ، وقد تخذوا من مسجد البهي فى طنطا ملتقى لاجتماتهم في « جمعية السُّنة الاسلامية » وكتب هو فى ذلك الى الشيخ محمد رشيد علي رضا لاعتمادها فرعاً لجمعية « شمس الاسلام » التي انتشرت فروعها في القطر آنذاك .

ولكن الرافعي لقي عداء طلبة الجامع الأحمدي ، وعلمائه يومها ،.. حتى

---

(١) الرافعي - السحاب الأحمر ص ١٦ ، وراجع الدسوقي - في الأدب الحديث ج ٢ ص ٢٨٩ ، ورأيه في هذه القصيدة .

لقد هموا بـه وبأصحابه ، ودبروا لهم كيداً ، لولا أن تداركه جاه أبيه ومنزلة أسرته .

.. وهكذا انحلَّت الجمعية الرافعية الصغيرة (١) بعد أن أظهرت الرافعي الشاب داعية التحرر الديني والقومي !.

ويفسر لنـــا اعتراضه على كلمة « شمس » ومحاولة إبدالها بالسنة !.. كراهيته للوثنية المتعلقة بها ، . والتي قد تنسب الى فارس المجوس ،.. كما تكشف لنا عن مقدار تمسكه بعروبته ديناً واصطلاحاً !.

ولعل ردَّ الفعل فى هذه الحادثة أيضاً هو الذي مكَّـن للجمال من أن يزيد من جذوته فى نفسه ، ويلذع قلبه الشاب فى تلك الأيام !..

* * *

كان للرافعي في صدر شبابه مغدى ومراح على جسر كفر الزيات ،.. ومن عيون الملاح على هذا الجسر تفتحت زهرة شبابه للحب ،.. وجاشت بمعاني الشعر كما قدمنا .

كانت « عصفورة » أول من فتح لهـا قلبه ، فسيطرت عليه وغلبته على نفسه ،.. لقيها ذات يوم على الجسر وسنه إحدى وعشرون سنة ، فهفا اليها بقلبه ، وتحرك لها خاطره (٢) .

ومن وحي هذا الحب كان تحول الرافعي الى القول فى الفنون الجميلة من

(١) سعيد العريان ـ حياة الرافعي ص ٣٢٦ ،.. وراجع المنار الصادر في المحرم ١٣١٨ هـ ـ أيار ـ مايو ١٩٠٠ م ص ١٩٠ .

(٢) سعيد العريان ـــ حياة الرافعي ص ٩٧ .

الشعر غزلاً وتشبيباً ووصفاً ونسيباً ، مما حفل به الجزء الأول وبعض الثاني من ديوانه ، ومنه أيضاً كان ولوعه بلقب « شاعر الحسن » وقوله في قصيدة العصفورة :

سلوني أنبئكم فلم يدر ما الهوى سواي ، ولا في الناس مثلي من صب
إذا شعراء الصيد عدوا فإنني لشاعر هذا الحسن في العجم والعرب

ويظهر أن الرافعي هو الذي « عصفرها » على طريقة ابن المنجم ومريضه صاحب « الصفيراء » (١) حين قال في مطلع القصيدة :

عصافير يحسبن القلوب من الحب فمن لي بها «عصفورة» لقطت قلبي (٢)

وقد بالغ في الرقة والتشبيب حين خاطب العصافير بمثل قوله :

أيا العصافير والدنيا عليّ أسىً أما تروّح عني بعض أحزاني ؟!
لي فيك عصفورة لو أنها انطلقت رأيت كيف يعاد الميت الفاني (٣)

.. ولقد كاد يفصح عن اسمها بالرغم من محاولته التكتم عليه بالعصفرة ،.. ولا سيما عندما امتد في المحاورة وكاد ينسى نفسه على سجيتها حيث قص لنا الحكاية :

.. وبي من إذا شاءت وصفت جمالها فو الله لا يبقى فؤاد بلا حب
عرضت لها بين التذلل والرضا وقد وقفت بين التدلل والعتب
وأبصرت أمثال الدمى يكتنفنها فقلت : أهذي الشهب أم شبه الشهب ؟!

---

(٢) راجع هامش ٢ ص ٦٧ ـ ديوان الرافعي ـ جـ ١ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) الرافعي ـ الديوان جـ ٢ ص ٩٧ .

فما زال يهدي ناظري نور وجهها كما نظر الملاح في نجمة القطب
وقالت: تجلد.. قلت: يا «مي» سائلي عن الحزن يعقوباً، ويوسف فى الحب(١)

وهذا البيت يفسر لنا أيضاً ذلك « الشوق العائد » عليه والذي برّح به فى تورية الاسم من ثم وكأنما عاد به الى أيام صباه هاتيك .. كما سيأتي عند حسم القول في علاقته بماري زيادة « مي » الأديبة.

ويقول العريان: « إن الرافعي قد أنجب من بنات أفكاره فى حب « عصفورة » ثمرته الشعرية الأولى فى الجزء الأول من الديوان » وربما كان يحسب أن يقع فى يدها فتقرأه، .. فتتعرف مكانها عنده.

« وعلى مثال هذا الحب كانت له حبيبات، .. وكم أنجب فيهن من ثمرات .. » (٢).

فتلك (هند) التي أقلقت عليه الجزء الثاني من الديوان، وحرمته القرار، وكادت له بدلها ومفارقاتها حتى اضطرته الى القول:

.. ولا عجب أن تراني على (تقلّب) هندٍ عدمتُ القرارا
و (هند) على ما بنا لا تبالي وحبك يا هند ليس اختيارا
لماذا تجافين يا هند عني؟! هبيني ظلاً وراءك سارا
هبيني أخاً، وهبيني طفلا هبيني فتى وهبيني « جارا »
متى قلت يا « ليتني » مرة لأمرٍ توجعت منها مرارا! (٣)

(١) الرافعي ـ الديوان جـ ١ ص ٦٩.
(٢) العريان ـ حياة الرافعي ص ٩٧.
(٣) الرافعي ـ الديوان جـ ٢ ص ٨١.

وهكذا المراهقة في أول الصِّبا ».. وهكذا ابنة الجيران معها دائماً في دلال وتمنع ، يبعث الألم واللوعة ، ويزيد من الأسى والحسرة والمرارة .

وهاتيك « ماري » ودينها « المحبة » حنت عليه ، كما كانت تواسيه من جراحات هند ومفارقاتها ».. فهو يطمع منها بكرامة تكون من سر معجزة السيد المسيح عليه السلام ، فتحيي قلبه :

يا « مريَ » زيديني هوىً فهواكِ نــور لم أزل أسري على مشكاته !..
أحيي فؤادي ليس مثلك من يدي عزَّ القتيل ».. فأهوني بدياته
ها أنت « مريم » والهوى عيسى وعيسى كان ردَّ الروح من آياته
قولي لكاهنك الذي قدســته قولاً .. وعودي فاسمعي لصلاته
فلسوف يزعم أنها في آيــة نزلت من الانجيل أو توراته (١)

ويلوح لي أن هذا الصبا قد كاد يعود عليه في مثل هاتين الحبيبتين (٢) بعد عشرين حجة !.. وفى البيت الأخير التفاتة رائعة الى كون « التوراة » تمتد بأحوالها الشخصية ومعاملاتها الأخرى الى أتباع السيد المسيح وقراء الانجيل !.

وهكذا أضحت تتنازعه روح الغزل ، ويتلذذ بآلام الحب ، وموجعات الهوى ، ويرى فى حرمانه هند ، وإشفاق « وهيبة » وحنان « ماري » ».. حياة أخرى من الحياة نفسها ، له فيها وطر ، وبها عنده مغاني فى آلاء الحسن ،

---

(١) الرافعي — الديوان جـ ٢ ص ٨٩ .

(٢) الرافعي . الرسائل ص ٨٦ ، ٩١ ، ٩٩ . الخ . وانظر يوسف حنا — الرافعي . السياسة الكويتية عدد ٢٨ .

ونعم الجمال ،.. حتى ليقول :

أحب ولا أدري، وأدري ولا أعي وإن أع لا أسلو.. ولست أطيقه(١)

ذلك أن مبلغه من الحب جملة أن يضيء قلبه ، ويرقق روحه ، ليصفو خاطره ، ويقوم وجدانه ،.. وتنتظم عواطفه ، حتى ليحسبه « نعيم النفس » حين يقول :

يا نعيم النفس ما أبغي سوى أن أضيء القلب من ذاك الرُّواء (٢)

وحين يصل هذه الغاية الطبيعية في الحب ، نراه يعتزم جاداً أن تكون وراءه إمرأة تحبه ويحبها ،.. تضيء له قلبه من رواء نعيم النفس ! .

وهنا تلتقي الفكرة بالتوفيق، وييسر له فيها ما يعسر على أمثاله من الشباب ،.. فما كاد يلمح اخت صفيه البرقوقي ، حتى تحرك خاطره ،.. وامتدت يد الصفي تبارك له وتقرأ الفاتحة على ما بيناه سابقاً !..

وأدركت هذه السيدة الفاضلة من أول يوم منزلتها التي لا تنازعها فيها إمرأة ،.. ولكنها عرفت أيضاً أنها (رواء) نفس متعطشة ، يذهب بها الجمال مذاهب من الفتنة والتأمل والإغراق ،.. وانها ضياء قلب قد تظلم عليه الأيام أحياناً ، وأنها بعد زوج لشاعر شاب يتطلع الى مكانته التي يطمع اليها في دنيا الأدب والبلاغة !..

ومن هنا أوجبت على نفسها ما لا توجبه زوجة ، وقد لا ترضى به أخت احيانا ،.. وربما امتعضت منه أم ، واستنكرته بنت ،.. ولكنها الزوج التي يسكن اليها الرافعي ، وقد جعل الله بينهما مودة ورحمة !..

---

(١) الرافعي ـ الديوان ج ٣ ص ٨٦ .

(٢) » » ج ٣ ص ٩٣ .

فلم تكن ترى تثريباً عليه إن هو سار نحو الجمال بقدميه يطلبه و يتعشقه ، ويهيم بآلائه ومجاليه ،.. ولا تجد غضاضة إن هو قد تغزّل بأخرى ، . أو تذكر لواعج هواه ، ونسب بهذه وهاتيك ،.. أو شبب بإحداهن !..

وفي أيامه الأولى من زواجه بهـــذه الانسانة الصالحة ، ما فتيء يرسل قوافيه ، ولا يكتم شيئاً مما كان يعتلج في صدره حتى ليقول :

وما أنس يوم البين من « هند » أنه تطايرَ منها بانفجار الهوى قلبي (١)
إذ يظهر أنها ندمت على ما كان منها معه قبل الآن !..

ويخاطبها بقوله :

بربك يا « هند » اجمعي بين مهجتي وبين شهود من جفونك واحكمي.. (٢)

وقد حاول « السلوان » مرة ،.. ولكن ما كادت تبسم له في لقاء حتى لجَّ به لاعج الشوق :

.. الى أن تلاقينا .. فلما تبسَّمت رأيت فمي قد خان عهدي وسلما
فما يصنع « المجنون » والكون كله لدى حسن (ليلى) لم يقاوم تبسما ؟!

وبالرغم من امتلاء بيته (بوهيبه) وقد أصبح منها روضاً فيه تغرد :

لا يصبح البيت روضاً للذين بـه ما لم يكن فيه هذا (الطائر الغرد) (٣)

فقد واتته الفرصة عام ١٩٠٧ م فسافر الى الديار الشامية ، حيث نزل عند اهليه بطرابلس مصطافاً ، وما كاد يحس بما حواليه من رُقى السحر وآيات

---

(١) لرافعي - الديوان ج ٣ ص ١١١ .

(٢) « « « ص ١١٨ .

(٣) الغرد الذي اسمه الطفل ــ الرافعي ــ الديوان ج ٣ ص ٦١ .

الطبيعة الحسناء حتى تحركت نفسه وجاش خاطره وأنشأ يقول ، وقد وجد فيها صورة أخرى من (ليلى) :

.. فيا طرابلس حيَّتك المنى بلداً بي من هوى الحسن فيك فوق ما أصف

أحس بين ضلوعي كلما خطرت ذكراك أن اليك القلب ينعطف (١)

.. فاذا ما عاد الى مصر ، برّح به الهوى هذاك فشكا البعاد وأرسل الأنباء :

يا نسيم الفجر يا طفل الربى لاهياً فوق أراجيح الشجر

خذ لمن أهوى على البعد نبا إن جهد الشوق في البعد خبر (٢)

ويبلغ به الوجد غاية يفزع الى القول :

ويح هـذا البعد ـ لا خلّ لديّ

يحمـل الأشـواق مني أو إلي

أترى لم يبق فـوق الأرض حي ؟

أم ترى لم يبق غيري مغرماً أم أنا بعد هواها لا أعي ؟!

٥

يا حمى (ليلى) ويا (ليل الحمى) هل الشمس غربت من مطلع ؟! (٣)

* * *

وما كانت مسؤولية الأسرة ، ولا تبعة الرجولة لتعيقه عن هذه الحياة الملهمة !..

---

(١) الرافعي . النظرات جـ ١ ص ٦١ .

(٢) « « « ص ٣١ .

(٣) « « ص ٦٦ .

ولما أراد أن يريح نفسه من عناء الدرس والمراجعة والتأليف في (تاريخ آداب العرب) الذي انقطع له ما بين عامي ١٩٠٩ م - ١٩١٢ م .. فيتردد على مغاني لبنان في بحمدون و (المنظر الجميل) حتى يدرك حقيقة في نفسه كأنما يكتشفها لأول مرة :

آفة الحرّ أن يكون محباً   وكذا الحب يتبع الأحرارا ..

.. ويطيف به خيال (المليحة) التي أسهرته الليل ، وألقت به على شرفة الفندق في مناجاة عند السحَر يقول فيها :

سَحر فيه رقة وابتسام   بعثته حور السما للعذارى

كلُّ حسناء حيثما تنفض النـوم   تراه بثغرها أنوارا

.. وتنسمته لابدع منه   في صفات (المليحة) الأشعارا (١)

ويطوّح به الغرام في إحدى الربوات من الجبل الأشم ، بعد رحلة اليه في صيف عام ١٩١٢ م ، فيلقيه معرفةً عند شاعرةٍ من شواعر لبنان ، ويكون بينهما حديث طويل ، يصفو فيه القلب أمام القلب ، وتناجي الروح إلفها ، وتسر النفس للنفس بعض ما يجيش بها من معاني اللقاء .. فلا يكاد يبتعد عائداً حتى يجد نفسه بحاجة الى ان يقول ، فيرسل لها على صفحات الزهور (عبرات البين) يذكر فيها ما أضرّه من ألم الفراق ، ويصف لها من حاله :

من دونك البين يا (ليلى) ومن دوني   وبعض ما كان قبل البين يكفيني !.

حتى يقول لها كيف أنه انتهى الى حياة هو فيها :

مُلقى لدى الناس ـ لو أبصرت حالته   في الناس ـ أبصرت حياً غير مدفون (٢)

---

(١) الرافعي ـ أحلام بحمدون ـ الهلال ـ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩١٠م .

(١) الرافعي ـ عبرات البين ـ الزهور ٣ ـ ٣ أيار ـ مايو ١٩١٢ م .

وكان الأستاذ حبيب ثابت رسوله اليها، بعد ما كان عرّيف الهوى في اللقاء !.. فما كان منه إلا أن حمل القصيدة اليها، ونقل اليه عواطفها بقصيدة يقول فيها على لسانها بالوزن والروي:

ليلى تحييك من اعلي (بحمدون) والبين فاعلم كما يشجيك.. يشجيني

إن كنت قد مُتّ قبل البين من شجن (فبعض ما كان قبل البين) يحييني

و (الصادق) الحب يبقى في مودته إن كان من دونه بينٌ ومن دوني

.. وتزيد في اللطف والمودة،.. فتسترسل في المخاطبة حتى تدعوه لزيارتها

.. إني لأذكر مصراً ـ لا لبهجتها !! لكن لمن هو في مصر يحييني

واذكر الحر ـ والحر الشديد بها كنار قلبي،.. لا تعنو لتسكين

إلا إذا (صادق) وافى وأدركني محمومة ـ فهو من يأسو فيشفيني (١)

وقد حاول الجميل ان يمازحه، فيسائل عن نسبتها، أهي (خيالية) أم أخيلية ؟!. (٢).

على ان عمر الحب لم يطل بينهما،.. فقد اضطربت الأحوال في تلك السنين، وانقطع ما بين مصر وسورية من سبيل،.. حرمت الرافعي من زيارة لبنان والديار الشامية، واهليه ومحبيه هناك !.. وإن كان هذا الحب قد اثمر غير هذه القصيدة،. (حديث القمر) في مقالة صرف فيها وجه الحديث الى (القمر)،.. وقال فيه (تورية) (٣) وانه هو الذي

(١) المصدر السابق.

(٢) حبيب ثابت ـ الى الرافعي ـ الزهور ٥ ـ ٣ آب ـ أغسطس ١٩١٢م.

(٣) الرافعي ـ حديث القمر، وانظر الرسائل ص ٧٠.

سماها (القمر) لفرط جمالها،.. ومن ذلك جاءت المقابلة بأسلوب فيه رمز وشاعرية وقد حفل بالعبارة البيانية يجريها في نسق جميل تلد فيه البلاغة العربية عهداً جديداً في الكتابة والأدب وإن اتهم- لكثرة احتفائه باشتقاق المعاني، وتركيب الأخيلة - بالانبهام والغموض عند بعض الأدباء ..

ثم كانت الحرب، وظهرت حدود الأقطار الأقليمية،.. التي ما لبثت أن اصبحت من ثم وكأن لها سلطان الجنسية والعداء بين البلدان العربية،.. فلم يعد يتهيأ له أن يرى أهليه في ديار الشام بمثل تلك الحالة التي كانت،.. وهكذا حرم المتعة في مغاني الجبل، والإجازة في ربوات الطبيعة الفتانة،.. والاسترواح من عبير الحسن ونعم الجمال!..

ولكنه بقي كثير الحنين الى تلك الديار، شديد الشوق الى مثل ما كان عليه من اختلاف ولقاء وزيادة واحتفاء ..

وكان يرسل بتحاياه في خطبه السنوية بمهرجان جمعية (الاحسان) السورية - المصرية بطنطا،.. ومنها في قصيدته التي ألقيت بمهرجان عام ١٩٢١م وفيها يقول:

يا نسمةَ النيل مري بالسلام على ... نسيم وادي الهوى من أرض لبنان
قلبي يرف رفيف الطير بينكما ... كأنما أنا فيه جناحان (١)

* * *

في سنوات الحرب كان الرافعي يعاني من الضيق والاضطراب،.. ذلك أن سلطات الاحتلال قد تمكنت من إعلان الحماية البريطانية على مصر، وزوال

---

(١) الرافعي - مصر والشام - الهلال - حزيران - يونيه ١٩٢١ م.

صفة السيادة العثمانية كما مرّ .

وانقطعت كثير من أسباب الاتصال بالعالم الخارجي ،٠٠ وقلّ الغذاء وندر الدواء ،٠٠ وذرّ الخوف بقرنه يملأ القلوب خشية ،٠٠ مما ستؤل اليه الأيام من مصائر الأحداث !٠٠

وفي الوقت الذي استضافت السجون أبناء عمومته ،٠٠ ألحّ عليه هو المرض ،٠٠ وراح يصيب كل موضع من جسمه !..

وأمام هذه الحالة التي أركست فيها البلاد من المجاعة والتشرد ،.. نرى الرافعي الواجد العاني ، ينصرف بكليته الى المساكين يمسح عن عيونهم بيد الحب عبرات الأيام !.. ويحاول أن يستر عليهم عُريهم برقعة جديدة !٠٠

وكما تنتهي كلُّ حرب وتخلف وراءها من الأوضار والمفاسد الخلقية والاجتماعية ، كذلك انتهت الحرب العالمية الأولى في الوطن العربي .

وكان من بين الموضوعات التي انفتح لها في الفكر العربي ميدان المساجلة والنقاش ، المرأة وحقوقها في الحياة والحب والحرية !..

وإزاء ما يتخلل ذلك من غزو ثقافي ، يحجب عن الناس فقههم بدينهم ، وإلمامهم بأصول حضاراتهم وعلومهم ،٠٠ أحسّ الرافعي أن عليه واجباً كبيراً قد لا يدرك تبعته بعض معاصريه ، وأن ذلك الواجب قد يكون مذهباً في تجديد الفكر العربي بالعطاء العقلي ،.. وبالأساليب والأسلحة الغزوية نفسها ،..

وفي رسائله التي كان يبعث بها الى الشيخ محمود أبي رية ،.. ما يشف عن حالة من الاضطراب النفسي ـ قد تصل به حدّ الهوس أحياناً ـ كانت تعتريه في تلك الأيام !..

على أنه كان له من مذهب « الحب الرافعي » الذي تفرّد فيه خير سبيل الى ما يهدف اليه من المباراة في الميدان ،.. والمطاولة في الحلبة بالتحدي والمقارنة، ثم إعجاز هؤلاء وأولئك من واردات أوربة ، وأنقاض الحرب ، ومخلفات الرقابة والاحتلال ، من تراجمة الفكر الأوربي ، . ومقلديه عميان البصيرة !..

وما كادت تلقاه « فتاة الشرق » السيدة لبيبه هاشم ، حتي استكتبته في معنى من المعاني التي تدور حول المرأة ،.. (١) وما كاد يراه منشوراً حتى عزم على أن يكون أساس كتاب صغير (٢) .

وهو وإن كان وقته في علم الله ، إلا أن الحوادث المتتابعة الأخرى قد صرفته عنه !..

وكانت بعض الآلام النفسية ، والمرضية تعاوده بين الفينة والأخرى ، وتجعل منه كالسؤال الحائر الذي لا يجد جوابه أحياناً .

وتدور في واعيته الباطنة معانٍ جليلة ، وأفكار سامية ، وتحتدم بينه وبين نفسه الآراء باختلاف تارة ، واضطراب أخرى ، ولا تكاد تستقر على شاطيء في الحكمة المرسلة التي فيها فصل الخطاب . وكأنما كان يحس بنداء بعيد يدعوه يتخافت أحياناً كالهمس غير المسموع ، ويختلط بالأصداء أحياناً أخرى فلا يكاد يبين أو يظهر بشيء من الفهم والوضوح !..

ويخيل إليّ أن تلك الحالة ومعاناتها هي التي ألجأته الى إعادة طبع « حديث القمر » لعله يصرف عن نفسه منها ما يستطيع ، ولكن هاتيك المعاني

(١) الرافعي .. فتاة الشرق ـ ٦ ـ ١٩١٩ م ص ٢٧١ .

(٢) الرافعي ـ الرسائل ص ٥٨ .

والأخيلة تشبثت به هنا ايضاً ، فعدل بعض العبارات ، وشرح بعض المفردات .. ثم وجد أن الحديث « يحتاج الى زيادة بسط ، وربما الى كتابة جديدة في بعض جهاته » .. ولما لم يجد متسعاً لذلك ، ولا أعانته حالته هاتيك عليها « أدخر ذلك للطبعة الثالثة متى هدأ الزمن ! » (١) .

ومضى يلتمس في المترجمات لعله يظفر بصورة مما يأمل ،.. وتأمل في « أحزان فرتر » وكان أسعد وداغر قد قام بترجمة ما لها ،.. ولكنه لم يخرج منها بطائل (٢) .

وافتعل معركة النشيد الوطني ـ المصري ـ ولذع أحمد شوقي بالجمر نقداً وتجريحاً ، ونال من اللاجنة ، والوزير جعفر والي ، الذي التمس من أمين الرافعي أن تهدأ ثائرة الرافعي (٣) ، ولكنه ما كاد ينتهي منها حتى وجـد نفسه ثانية في الدوامة يريد أن يتفرغ « لتأليف جديد يكون قصة شقاء وحزن وبؤس وعذاب ، ولهفة وهوس» (٤) تلك الحياة النفسية التي تعترك في روعة ، وتصطرع بين جنبيه ، والتي أراد بها معارضة آلام فرتر مرة (٥) ونازل بها « النفاق » الاجتماعي أخرى (٦) وتصدى للوفد و «جنود سعد» ثالثة (٧) ولم يتورع ـ وهو

---

(١) الرافعي ــ الرسائل ص ٦٧ .

(٢) و (٥) المرجع السابق ص ٦٦ .

(٣) الرافعي ـ النشيد الوطني المصري ـ طبع ديسمبر عام ١٩٢٠ م ، وانظر الرسائل ص ٧٠ .

(٤) الرافعي ــ الرسائل ص ٧٤ .

(٦) الرافعي ـ مجلة البيان ٩٢١ م . (٧) الرافعي ـ الرسائل ص٧٦ .

موظف ـ أن يقول رأيه في « الحالة السياسية التي أفسدها اهلها» (١) بعدما أدرك أن « لا حياة لأمة يلعن بعضها بعضاً لعناً مقدساً » (٢) .. حتى لم يعد يبالي بأدب هذا الزمن (٣) .

وقد عرف أثناء ذلك أنه قد فوّت على نفسه فرصاً في حمل لواء الشعر ، ما لو كتب فيها او انتهز بعضها ونظم لزاحم منكب سعد فى شهرته » (٤) .

بينما كان الرافعي يحيا هذه الحياة ، تختلط عليه فيها الرؤى والأحلام ، وتعيش أفكاره في نفسه بمثل هذه الدوامة والأوهام ، هبط عليه خطاب من مصر ، وكأنه كان على موعد وإياه مع القدر .. وعلى غلافه بخط جميل :

« حضرة الشاعر الناثر العربي الفذ مصطفى صادق الرافعي المحترم » ..

ويدعوه في بطاقة الأستاذ إلياس زيادة صاحب « المحروسة » لتناول الشاي ، حيث يجتمع فريق من الفضلاء في منزله بشارع المغربي رقم ٢٨ بالقاهرة !.

وقد صحبه فى هـــذه الزيارة صديقه الأستاذ جورج ابراهيم حنا ، « وشهد ما كان من تأثره وانفعاله وجذبته» (٥) لماري زيادة ابنة صاحب الدعوة ، والتي ذاع اسمها « مي » كاتبة عربية ، واحتضنها (المقتطف) شيخ المجلات العربية بمثل ما احتفى فيه بالرافعي منذ أول أيامه !..

---

(١) و (٢) وردت الإشارة الى ذلك .. في غير هذا المكان ، وانظر الرسائل ص ٧٦ ، ٧٨ .

(٣) الرافعي ــ الرسائل ص ٨٢ .

(٤) « « ص ٨٤ .

(٥) راجع العريان ـ حياة الرافعي ص ١٢٢ .

ذلك أنه لم يكن يذهب الى مجلسها يوم الثلاثاء تزجية للفراغ ، يلقي النكتة ويحتفل بالنادرة ، ويلقى فلاناً وفلاناً من الأدباء والشعراء الذين يزدحمون على بابها ، ولكنه « سعى اليها سعي الخلي الى الغزل ، يلتمس فى مجلسها مادة الشعر ، وجلاء الخاطر ، وصقال النفس » ، فما أن جلس اليها وتحدثت اليه .. حتى لمسه الحب لمسة ساحر ، جعلت فى لسانه حديثاً ولعينيه حديثاً ، وأطالت انفرادها بـه عن ضيوفها ، فما تركته إلا لتعتذر اليهم .. ثم تعود اليه ، ثم قامت تودعه الى الباب حين انصرافه وهي تقول له : متى تكون الزيارة الثانية ؟ وهكذا وقع من نفسها كما وقعت من نفسه ، فما افترقا من بعدها إلا على ميعاد » (١) .

« لقد كان يلتمس مثل هذا الحب من زمان ليجد فيه ينبوع الشعر وصفاء الروح ، وقد خيِّـل اليه أنه وجدها ، ولكن في نفسه ، لا في لسانه وقلمه ، وأحس وشعر ، وتنورت نفسه الآفاق البعيدة » (٢) .

فثارت فى نفسه العواصف ، وغلى دمه ، واصطرعت عواطفه تبحث عن البيان الذي يكشف فيه عن خواطره ..

ونهى النفس عن الهوى ، ولكنها محت في صورتها من ماضيه كل ما كان من ايامه ، وكل من عرف ، لتملأ هي نفسه بروعتها التي لمحها عند « عصفورة » ودلالها الذي افتقده عنـد « ماري » وسحرها الذي لم يشرق بمثـله « حديث القمر » .

وحدث بعـد ذلك بأسابيع أن أقيم مهرجان لتأبين طيب الذكر

---

(١) العريان ــ حياة الرافعي ص ١٠٠ .

(٢) » » » ص ١٠١ .

فرح أنطون ، صاحب مجلة (الجامعة) التي احتفت بالرافعي شاعراً ، وبشّرت بميلاده في دنيا الأدب والفكر العربي الحديث ، وكان فرح انطون نابغة في الأدباء ، ومترجماً فذاً ، وله على الأدباء والشعراء من ابناء سورية بخاصة يد برة رحيمة ، أخذت بأيديهم في مدارج القول والعرفان ، ولكنه انتهى من دنياه بمأساة كمعظم العباقرة الذين يموتون في أوربة !.. (١)

ووقف الرافعي في الحفل يرثيه بقصيدة بليغة ، ووقفت مي خطيبة تطري نعته ،.. ولم يتورع الرافعي يومها وهما ينصرفان من أن يناديها الى جانبه ، .. ويطلب اليها الوضوح في العلاقة وكان يصحبه جورج ابراهيم حنا ،.. وينصت اليهم أسعد حسني (٢) .

« وهكذا تحابا ، وتراءيا قلباً لقلب ، وتكاشفا نفساً لنفس ،.. ومضى الحب على سنته ونظر الرافعي اليها والى نفسه وراح يحلم !.. »

وهنا « خيّل اليه أنه يمكن أن يكون أسعد مما لو أنها .. لو أنها كانت زوجته !.. فراح يستدرجها للرضا به زوجاً (٣) .

وبعث اليها مجموعة مؤلفاته تزفها اليها رسالة حب معطرة بالثناء ، فكتبت اليه في ١٠ آذار ــ مارس ١٩٢٣ م تقول :

---

(١) راجع عنه مجلة المجلة ــ ١٢٣ .

(٢) حدثني بذلك أسعد حسني في حضرة الأستاذ قاسم الخطاط بالجامعة العربية في ٢١ آب ١٩٦٦م .

(٣) العريان ــ حياة الرافعي ص ١٠١ .

سيدي (١) ..

رسالتك التي كانت هي الأخرى قصيدة من قصائدك ، جاءت في الواقع « أما قبل » (٢) تبشر بـ « أما بعد » ..

جاءت ديباجة حسناء شغلت مني نهاراً بتمامه ، محدثة عن مجموعة مؤلفاتك التي أقبلت في اليوم التالي .

وإني حيال هذه المجموعة المنوعة ، وكلمات الإهداء المرسلة على صفحاتها الأولى .. بدقة زهرات آذار وبهائها ، لأشعر تارة بأني عند روض من الفضل والشعر ناضر ، وطوراً أمام يمّ من نوعه زاخر ، وسأكون طائف الربيع يتجول بين اعطاف الرياض ، مستوحياً ما فيها من وشي وعبقر ، ثم اكون الغواص يهبط الأغوار ايغلبها ولو على بعض ما حوت من درّ وجوهر ..

وإني لشاكرة لك ما أتحفتني به من الآيات الصادقة الرافعية ،.. واجية أن تقبل شعائر (*) إن تعذر علي تجميلها بالتشطير والتخميس ، فحسبي أن منثورها ضمن دلائل الاعجاب والاكرام .

(مي)

---

(١) أنظر الرافعي — القلب المسكين الأعظم — انتصار الحب — وحي القلم ج ٣ ص ١٧٩ ، وقوله « لم يأمر الحب أمره بأبلغ ولا أرق من كلمة العبودية اللطيفة هذه — سيدي — حين تنطق بها المرأة في صوت قلبها وغريزتها » .

(٢) من موضوعات الرافعي في العربية ، أنظر — أوراق الورد ص ١٤٩ والتحقيق التاريخي لكلمة (أما بعد) في الصفحة التالية لها .

(*) يظهر أنها نسيت المضاف اليه فلم تكتبه على الورقة ، وتركته صوتاً لمعنى يرن في قلبه !

وهكذا خيل اليها هي ايضاً فيه « الرجل الذي تتمثل فيه قوة الأبطال ومصارعة الصناديد » ولم تجد فيمن حولها ممن يحيطون بها أمسية الثلاثاء إنساناً تلوذ به غيره (١) .

وقد استطاع الرافعي أن ينتزعها من أيامها « فما بقي لها من اصحابها وصواحبها غير « مُصيف » مشغلة ليل نهار » (٢) .

وبدا له أن يمتحن صاحبته فى مدى تعلقها به ،.. فكتب اليها كالعاتب الذي يُزري عليها وقد استبطأها الكتابة عن نشيد سعد ـ اسلمي يا مصر ،.. إنني الفدا فردت عليه فى دلال المحبة ، وغنج الواثقة تقول :

سيدي :

.. وكذلك يغضب اهل البحور والأوزان (٣) .

أما أني أبطأت فى إسداء الشكر على « نشيد السعد » فذلك لأن الشكر انواع ولأني اخترت أن يكون شكري هذه المرة نشيداً مترددآ ،.. فأنشدتُ النشيد السعيد على توقيع البيانو كلما وجدت لذلك متسعاً من الوقت » .

ثم إنها هي تبعث اليه بأبيات لاسماعيل صبري كان قد ارسلها فيها وتقول له :

« لست لأضنّ بها عليك » .. وتطيب خاطره من الغيرة بقولها في رقة :

---

(١) أنور الجندي ـ نساء في حياة الأدباء ص ٤٦ ، ٤٨ .

(١) العريان ـ حياة الرافعي ص ١٠٠ ـ وانظر ما سبق في كلمة « مصيف »

(٣) هكذا دلالا ـ وكأنها تخفي وراءها جملة من مفهوم المخالفة ـ ولا يغضب الملهمون !.

« . رغم اعتقادي ان الشعراء لا يعنون دواماً ما تضمنته منظوماتهم ، ولله الحمد » حتى تختتمها بقولها :

« عسى أن تشفع هذه الأبيات في تصويري ، وعلى كل فلست لأخشى غضب أرباب القوافي والقريض ،.. إذ كثيراً ما يكون الغضب لهم وحياً ،.. والوحي فى الدنيا هو كل ما ينشدون » ..

« مي »

وهكذا أدركت مهمتها الإنسانية معه ، فهي إن لم تظفر به زوجاً ،.. فلا أقل من أن تحرك خاطره ، وتجيش فى نفسه بوادر الإلهام التي ينفث فيها الشعر !.

وكان قد شاع بين خاصة من الأدباء بأن « الزواج كاد يتم بينهما » (١) فما الذي صرفه عنها ؟! (٢)

لقد كان هنالك شيء يقف في وجه هذه الفكرة عرض له العريان بقوله « أن مي المسيحية اللبنانية الأصل على هذه الصورة التي ترضاها لحياتها ، وصالونها لا يمكن أن تكون لرجل واحد ! .. وهو المسلم المتحرج بطبعه الحساس الذي يريد أن تكون المرأة له وحده ، فقد كانت مثل هذه الفكرة أبعد عنه في عرف الحياة مما يأمل » .

وكانت زوجه السيدة نفيسة البرقوقي تدرك ذلك كله وتعرف خبره ، وتطلع على رسائلها ، (٣) وما وقفت في سبيله حتى فيما التجأ اليه من « تميمة » كتبها

---

(١) عبد السميع المصري ـ في موكب الخالدين ص ١٢٦ .

(٢) العريان ـ حياة الرافعي ـ هامش ص ١٠٢ .

(٣) نفس المصدر السابق ص ٦٣ .

« فعلقها في خيط وربطها في سارية بأعلى الدار تتلاعب بها الديح » ، « ولكن أموراً عجيبة مفزعة وقعت له ولأهله ولسكان الدار جميعاً ، وجعلته يسارع فيفض خاتمها لتعود الحياة الى الرفق والأناة ولتهدأ نفسه من هذه الناحية (١) .

.. ولكنه ندم على ما أقدم عليه ، وأبصر حقيقة ، ورأى برهان ربه فأطرق من حياء ، وقد خلف وراءه نيفاً وأربعين سنة حافلة بأيام الهناءة مشرقة بذكريات الهوى والأحلام (٢) وهكذا كانت خطرة عابرة من خطرات الهوى ، أطافت به لحظة ، وما عادت ، فكأنما انكشفت له أشياء لم يكن يراها بعين العاشق !. (٣)

ثم بدا قلقه النفسي الحاد يوقظ فيه الحقيقة شيئاً فشيئاً .. فما كادت القصة تبلغ غاية ما ، حتى انتفضت به كبرياؤه تخطُّ لها خاتمة مأساوية عنيفة !.

يقول العريان : « .. راح الرافعي الى ميعاده يوماً ... وكان في مجلسها شاعر (٤) جلست اليه تحدثه ويحدثها ، ودخل الرافعي فوقفت له حتى جلس ،

---

(١) العريان - حياة الرافعي ص ٢٣٣ .

(٢) و (٣) المصدر السابق ص ٩٩ ، ١٠٢ .

(٤) حسب العريان - رح - أنه اسماعيل صبري (باشا) وكان قد توفاه الله في ٢١ آذار - مارس ١٩٢٣ م ، وربما تداعى اليه ذلك من قول الرافعي في قصيدة :

متى ينتهي هذا الجفا وقد انتهي   لما يعلم العلام من زمن صبري

الذي عدله بقوله

.. . .   ومن أول لأيام فيه انتهى صبري

وكأنه يؤرخ لبداية الحب في نهاية صبري !.. =

ثم عادت الى شاعرها لتتم حديثاً كانت بدأته ؛ .. وجلس الرافعي مستريباً ينظر ، وأبطأت بـه الوحدة ـ على غير عادتها معه في الإقبال عليه والانشغال معـه في الكتابة والحديث عمن سواه (١) ـ وقد ثقل عليه أن تكون لغيره أحوج ما يكون اليها !..

ونظر الى نفسه وإلى صاحبته ، وقالت له نفسه « ما أنت هنا وهي لا توليك من عنايتها بعض ما تولي الضيف ؟! » .

.. فاحمرّ وجهه ، وغلى دمه ، ورمى اليها بنظرة او نظرتين ، ثم وقف واتخذ طريقه إلى الباب ،.. واستمهلته فما تلبث وكتب اليها كتاب القطيعة» (٢) .

وكأنما كان يريد أن يقع ذلك ، فاتخذ موقفها الطبيعي هذاك حجة للوقوع !.

وعاد البريد اليه برسالتها تعتذر، وتعتب وتجدد الحب في أسطر ثلاثة (٣) ،

= ولا تدل رسائلها قبل هذا التاريخ أو بعده على أنه هو « صبري » ، وهذه رسالتها المؤرخة في ٢٣ تموز ـ يوليو ١٩٢٣ م تقول فيها :

أما قبل .. فعلى الرافعي الصادق سلام ، وله بالعيد السعيد تهنئة .

وأما بعد .. فإن لي أمر أبديه .. .. فهل لك يا سيدي أن تكون رسولي الى لجنة تأبين صبري ، ولا أظنني مقتحمة أو متطفلة .. ولا إخال فضلك إلا ملبياً طلبي .. الخ » .

(١) كان محدث الرافعي يكتب له !..

(٢) العريان ص ١٠٢ .

(٣) ما تزال بعض هذه الرسائل بين آثار العريان ـ رح ـ .

ولكن الرافعي حين وجد كبرياءه .. نسي حبه ، وكان الفراق !..

ومع أن هذه القطيعة التي اتخذها العريان خاتمة القصة في كانون الثاني - يناير عام ١٩٢٤ م ، فقد بقيت الرسائل بينهما طائرة تحفل بآيات الإعجاب والولاء .. وإن لم تكن تتعدى مقاطعة ندوتها كل ثلاثاء ،.. والى ذاك يشير الرافعي بقوله مخاطباً أبا رية :

«ذلك الحادث الذي تعلمه .. لا يزال يرمي بي هنا وهنا وهناك وهنالك» (١).

وقد جاء في قصيدته « رقة روحي » قوله :

يا واصـلاً بالمعـاني وهاجري في الكلام (٢)

بما يفسر لنا هـذه الحقيقة بطريقة أقرب الى الصواب من الذهاب بالقطيعة الى ما يخيل المرء أنها كانت على التحديد الذي ذكره العريان.

وقد نشر الاستاذ طاهر الطناحي أطيافاً من حياة مي ، ذكر فيها أن الرافعي « بعث اليها بعد القطيعة برسالة مؤرخة في أول كانون الثاني يناير ١٩٢٤ م تقول فيها شعراً بعاطفة مكبوتة :

هنيئاً لك الأعياد تأتي وتنقضي ولا ينقضي أن يستجد لك السعدا
يعزُّ علينا أن تكوني بموسمٍ ولا نلتقي فيـه سلاماً ولا ردا
فإن كان هذا الغصن أنبت شوكة فما ذاك إلا أنه أنبت الوردا (٣)

---

(١) الرافعي - الرسائل ص ٩١ .

(٢) الرافعي - أوراق الود ص ٤٦ .

(٣) راجع طاهر الطناحي - أطياف من حياة مي - أيلول - سبتمبر ١٩٤٧م ، وكذلك » » » الرافعي » » ١٩٥٧ م .

ولكننا نجد « ميّاً » تسارع في الردّ بعاطفة أقوى، وأبعث حرارة، تحتفظ فيها له بالود والاعجاب؛ . وإن كان ذلك الأمل الذي راودها فيه ما كاد يأتلق حتى غاب، فى مثل هذا البريق الخلّب !.. فتقول وقد تغيرت لهجتها :

سيدي الأستاذ الكريم !..

لئن قصرت في تسطير الشكر على أبيات حوت غصناً عليه ورد، وعليه شوك، فإني لم أقصر دون الشعور بذلك الشكر على تفضلك بازجاء التهنئة إلي، والتمني .. في مثل هذا الموسم من العام، بتلك الصيغة الشعرية الأنيقة » .

وتقول له بنوع من العتاب المستطاب والاعتذار الأديب،.. الذي لم تجد ضرورة ما فى اللجوء اليه : « .. ولكني أبادر بالرد على خطابك الأخير لأن فيه ما يدل على الألم، ويسوؤني أن أكون سبباً في هذا الألم الوهمي،.. ولا سيما أنك بارع فى ابتكار موضوعات الألم، والجد في شعبها ومناحيها » .. « وهي البراعة التي ألهمتك في العام الماضي أني عنيتك خلال بحثي عن التيمورية » .

ثم هي تختتمها بقولها : « .. أشكرك كل الشكر على حسن ظنك بي،.. والسلام عليك أيها الأستاذ فنحن نقدرك أديباً كبيراً، ورافعياً نبيلاً » . (مي)

ولا تكاد تسنح لها الفرصة بعد ذلك،.. حتى تبادره بكل أدب وإخلاص،.. فى طاقات من حر الكلمات تضمّخ بها إحدى رسائلها المؤرخة في ٤ أيار ـ مايو ١٩٢٤ م تقول فيها :

« أيلزم أستاذنا الكريم سماه الشعرية السحيقة في هذه الأيام ؟!. أم هو يغادرها حيناً يتفقد شؤون الحياة الارضية، ويتلقى تهاني أصدقائه ؟!.

فليتقبل ـ إذا كان على الأرض ـ طاقة أهديها اليه من خالص التهاني وحار التمنيات » ؟ (مي)

ولكننا نجد الرافعي كالذي يخشى أن يتراجع عما ارتكبه بحقها خطأ أو عناداً، بالرغم من كل ما كان يعانيه من برحاء ذلك الهوى ،.. ولعل في رسالته اليها بعد ذلك ما يشف فيها عن روح واجدة، ونفس غير مطمئنة الى ما اختار من سبيل ،.. ولكنها الكبرياء ،.. التي تقتل أول ما تقتل في الانسان عاطفة الهوى حتى لتجهز عليه.

وانظر معي اليه كيف يقول لها في هاجرة من تموز - يوليو ١٩٢٤م.

يا نسمةً في ضفاف النيل سارية مسرى التحية من ناءٍ الى نـاء
يا ليت رياك مسَّتْ قلب هاجرتي فتشعريه بمعنى رقـة الماء
ليست تحب سوى أن لا تُحبَّ فما أعصى الدواء على من حبُّه دائي

«.. هذا وإن النفس لتنازعني اليك .. ولكن لم أتطفل على أحد من قبلك ،.. ولن أتطفل عليك مرتين» !.

فأين إمامنا من عمر بن الفارض سلطان العاشقين ؟ وقوله:

ومن أجلها طاب افتضاحي ولذّ لي اطراحي وذلي بعد عز مقامي !.

ويخيل إلي أن الرافعي لم يكن قد خلق لمثل هذا الحب الذي قد أتصوره غير متكافيء، ولكنه أحب على طريقته هو !.

«والحب عند الناس هو حيلة الحياة لإيجاد النوع، ولكنه عند الرافعي هو حيلة النفس الى السمو والاشراق، تطل منه البشرية الى غاياتها العليا، وآمالها في الأهداف السامية، وتنفتح فيه الروح على عالم غير منظور تنوّر فيه

الأفق المثير في جانب من النفس الانسانية..

الحب عنده نبوة على قدر أنبيائها، فيها الوحي والالهام ، وفيها الأسراء الى الملأ الأعلى على جناحي ملك جميل ، وهو مادة الشعر وجلاء الخاطر وينبوع الرحمة وأداة البيان » (١) .

ومن ذلك يتضح لنا أن الرافعي حين سعى بقدميه الى الحب أدرك الصراع بين عقله وقلبه فأراد صنع الألم كما تصنَّـع الهجر ورمى بـه صاحبته !..

وإلا فما بال رسائلهما متطارحة هكذا بعد هذه « القطيعة » ؟!.. بأكثر من سنتين ؟! أيكون هناك موضع آخر لم يسجل فى أوراقهما وما باح أحدهما لصاحبه أو خاصته بخبره ولم يتنازل أحدهما للآخر فيفضي له بما في ذات صدره؟!.

ولا أشك بأن القصة ما تزال تحتاج الى المتابعة ، بالرغم من جميع الحيثيات التي تصدق الوقائع ، ولعل في رسائل الرافعي اليها ، والتي حظي ببعضها الطناحي، واطلع على البعض الآخر عباس العقاد كما زعم في مقالته « رجال حول مي » ، ورأى فؤاد صروف القسم الأخطر ، وفيـه رسالتان بعثهما اليها فى مطلع عام ١٩٣٤ م ! (٢) .

وإلا فما بال السيدة السورية تحمله تبعة ما جرى لها من ثم؟! وتطلب اليه أن يبادر بعمل ما تقترحه عليه ، لينقذها من الحالة الأليمة التي كادت تنتهي اليها عقب

---

(١) العريان ـ حياة الرافعي ص ٩٦ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٣

المؤامرة الدنيئة التي دبّرها لها بعض ذويها، فأقامت في مصحة العصفورية بلبنان (١).

وقد هفت نفسه اليها من جديد في لون من الحنين المعاود، وغير قليل من الندم (٢) فكان يكتب الى صديقته السيدة الدمشقية لتزورها وتكتب اليه بخبرها،.. وكأنه أدرك بعد فوات الأوان عظم الخطأة التي اجتهد فيها لقطيعتها.

وبقي الرافعي حتى وفاته لا يفتأ يذكرها، ويذكر أيامها معه، وما تبرح خاطره لحظة (٣).

وحين علمت هي بوفاته - رح - قالت في حسرة باكية:

« لقد مات - وفي نفسي منه ألم، وبقلبي عليه لوعة! » (٤).

* * *

لقد أحب الرافعي ميا من أعماقه، ولكن الحوائل حالت دون ما يبتغيه إنسانا هما،.. وبقيا يتجرعان كؤوس الالم والحرمان، وتلجُّ بهما الكبرياء،.. ولا أقول العناد!.. حتى وسائلهما في المراسلة ما لبثت أن انتقلت الى موضوعاتهما العامة التي يكتبان بها في صحف ذلك العهد،.. ويوم همّ الرافعي أن يكتب « أوراق الورد »، ويجمع رسائله ورسائلها،.. سابقته هي الى إخراج كتابها

---

(١) راجع طاهر الطناحي - الساعات الأخير في حياتهم ص ٩٢.

ويذهب كل من أنور الجندي وعبد السميع المصري الى أن أهلها خشوا عليها العودة الى الرافعي، والزواج المسلم،.. فافتعلوا قصة جنونها وسجنوها في لبنان حتى مات الرافعي!.. راجع كتابيهما..

(٢) و (٣) راجع العريان - حياة الرافعي - فصل الرافعي العاشق.

(٤) من حديث السيدة السورية نفسها.

« ظلمات وأشعة » وجعلت إحدى رسائلها فيه !.. حيث بادر هـو بنقلها الى مصنفه الفريد (١) وفيها تقول :

« سأدعوك أبي وأمي ، متهيبة فيك سطوة الكبير وتأثير الآمر ..

سأدعوك قومي وعشيرتي ، أنا التي أعلم أن هؤلاء ليسوا دواماً بالمحبين .

وسأدعوك أخي وصديقي ، أنا التي لا أخ لي ولا صديق !.. (تأمل) .

وسأطلعك على ضعفي واحتياجي الى المعونة ، أنا التي تتخيل فيك قوة الأبطال ومناعة الصناديد » (٢) .

وتقول أيضاً :

سأستعيد ذكرك في خلوتي ، فأسمع منك حكاية غمومك وآلامك ، وأطماحك وآمالك ، . حكاية البشر المتجمعة في فرد واحد !..

من أنت ؟! وماذا كنت ؟!.

لقد كنت وحياً من فيض شاعريتي المكتضة ، وكنت طيفاً من أطياف شوقي وعذابي ، وأنت حقيقة محسوسة ، مرت في أفق حياتي مرور السفن في البحر الى الشواطيء النائية .

يا مهذبي .. (٣)

ومن وحي هذا الحب كانت محاولة الرافعي بعث فكرة « أغاني الشعب »

---

(١) ، (٢) ، (٣) أنظر مي ـ ظلمات وأشعة ص٧٣، والرافعي ـ أوراق الورد ص ١٥٦ .. وتأمل لماذا لم تعترض مي على ذلك !؟ ؛ وكذلك مي مختارات الهلال ـ الأمنية ، وراجع العريان ـ حياة الرافعي ـ ورسائلها في الرسائل ص١٤١ .

من جديد (١) فقد خيل اليه أن يشرك الأمة في عواطفه ونوازع وجدانه، ويتسامى بهذا الحب الى صبوة فريدة، لا يبقى فيها هنالك حرج من أن يحب صاحب الاعجاز، ويصبو ويتدلّه!.. في وقت كانت فيه الكتابة عن الحب لا تعدو قصصاً تلتصق بدعاوى التبشير والاستعمار.. أو تعلق فيها ما لا تقبله نواميس العرب في العرض والمروءة والتقوى!.. وإن جهدت بعض النحل آنذاك أن تتنطع في تسويغها!..

ومن وحي هذا الحب أيضاً وجد الرافعي الألم الذي هو ينبوع الشعر، ذلك الذي كان يحوّم حوله ويفتش عنه في تلك الأيام.. حتى ألقت به الأقدار أمامه!..

ومن إلهام هذا الهوى عاد الى معاني «فتاة الشرق» والمقالة التي جعلها أساس كتاب صغير، يحولها الى «رسائل الأحزان» ويتحدث فيها عن نفسه بأسلوب التجريد.. ويستفيض ببيان منطقي عالٍ في مناقشة الكثير من موضوعات الاعتقاد المقارنة.. التي ينتصر فيها للعقل العربي المؤمن، من غير أن يثير جدلا مذهبياً، أو صراعاً دينياً، كما كان يحاول أن يجره اليه مناوئوه!..

ومن نتيجة هذا الغرام ظلّل على نفسه بالسحاب الأحمر، فأكمل ما كان بدأه في الرسائل وأتم الحديث في تلك الموضوعات التي أثارتها الحياة الجديدة، وفصّل بعض الذي أوجز هناك.. وإن قسا في جوانب من أحكامه!.. وانبهم في بعض عبارته وغمض عند فصوله!..

ومن آثار هذه الحياة الفريدة في الحب وعشق الجمال كانت «أوراق الورد»

(١) سيأتي بيان ذلك عند التعريف بأغاريد الرافعي.

تلك الرسائل التي اعتبرت معجزة لدعاة التجديد والمجددين عن أن يجاروها أو تلد أفكارهم بعض رسائلها !..

وكان الهلال قد نشر منها « رسم الحبيبة » فى جزء كانون الثاني - يناير ١٩٣١ م ورسم لها الفنان صورة رائعة ، فيها شبه كبير من صورة « مي » نفسها ، وحسبتُ عند اطلاعي عليها أن افتضاحاً للموضوع كان فيها ،.. ولكن العريان والطناحي - رحمهما الله - أجابا عن استفساري بمعنى واحد يقول :

« وهل كان حب الرافعي من الأسرار ؟! » (١) .

وقد أحدثت هذه الحركة الأدبية البارعة للرافعي صدىً عميقاً في النفوس ، كان الأديب الرفيع ، من قبلها ندر أن يتدنى الى موضوعات « الهوى » والحب ،.. وكانت حصة هـذا الجانب العظيم من العواطف الانسانية تكاد تقتصر على بعض المستهلات الغزلية التقليدية لبعض قصائد الوصف والمديح !.. وقصائد الغزل المعدودة ، وما تحدث تاريخ الأدب العربي بغير نتف لمحاولات (٢).

ولكن المعجزة حدثت على يد الرافعي ،.. فقد اقتحم هذا الميدان ، وركب له متن الخطر ، وألقى بقلبه فى عذاب الحب ، فألهب عواطفه ، وأحرق دمه وآذى أعصابه ، وصارع نفسه وعقله بقوة دينه ، وإشراق روحه .

وهكذا شمّر عن ساعد الجد فى الموضوع وراح يقطع الأشواط فى مذهبه القيم الذي يبعث الحياة فى الحب الانساني ،.. ويعود به الى السمو بالعذرية ،.. ويشرق على الاجتماع الحضاري الوليد بروح عربية مؤمنة !..

---

(١) العريان - حياة الرافعي ص ٩٥ .

(٢) أنظر الرافعي - في مقدمته لأوراق الورد .

حتى جاراه المرحوم محمد صادق عنبر في الرسائل التي كتبها على لسان المجنون وليلاه، والسيد زيادة في «حب الشاعر» .. والدكتور زكي مبارك في رسائل (مجنون سعاد) وخليل الخشالي في (رسائل قلب) !..

* * *

ولقد أثير سجال أدبي حول الرافعي ومي وقصة الحب التي لم تكتمل بينهما غير مرة،.. ولا أعرف موضوعاً استغرقت فيه المناقشة من الأيام ما استغرقته هذه القصة !،.. وهي تطلع كل حين على صفحات المجلات العربية والصحف الأخرى في جميع الأقطار !..

يثبته أديب فيما يراه، أو وقف منه على خبر، ويحاول به آخر رأياً يتفلسف به، في تعليل لما بعد الوقوع قد لا يوفق فيه.

وينفيه آخر البتة، ويلتمس التعلات لهذا النفي، ويجيء سواه من ثم ليجتهد بتفسير لا يثبت ولا ينفي، وقد يقصره على القول في الحب من طرف واحد !.

ثم تجيء طائفة غير هؤلاء وأولئك، والاشفاق يملأ عليها أفق الموضوع من ناحيته الواقعية والعاطفية، فتحاول أن تجد له مسوغاً خاصاً مما يزعمه المحبون لها في شيء من المجاملة، وغير قليل من الوهم، والضلال !.. حتى تنتكس بهم المحاولة نفسها !..

وربما كانت أصول هذه الحالة المأساوية في البحث منذ أيامها الأولى، وحيث كان الرافعي ومي ما يزالان أحياء !.. وقد أفصح عن ذلك لطفي جمعه بحسبانه ذلك خيالاً لا يمكن أن يكون في الواقع (١).

---

(١) الرافعي - الرسائل ص ١٩٦.

وقد حدثني الأستاذ كامل أمين أنه حضر وخاله المرحوم كامل كيلاني مجلساً للرافعي في بيته عام ١٩٣٤ م وكان هناك سؤال عن ماهية هذا الحب يدور بين الجلوس ، والرافعي بلباقته المعروفة يؤمل حضوره باليوم الذي تكتب فيه القصة كاملة ! (١) .

ولكنها انطلقت ـ مكابرة ـ عقب كتابة العريان فصل « الرافعي العاشق من كتابه (حياة الرافعي) الذي كان ينشره منجماً في الرسالة منذ عام ١٩٣٨ م !. فتلاحقها بالتعقيب (٢) غير أديب !.

وعادت بعد ظهور الكتاب فى طبعتيه الأولى عام ١٩٣٩ م ، والثانية ١٩٤٦ م .. وكانت تتخذ من مجلة الرسالة ميدانها الأول ، ثم تنتقل الى صحف الدنيا العربية كالمكشوف فى الشام والهلال في مصر والتفيض فى العراق .. والإحسان بدمشق !.

ولما أخرج الشيخ محمود أبو رية (رسائل الرافعي) التي وجهها اليه الرافعي في حياته .. تصدى لها العباس خضر في محاولة الشك في القصة ، والتجاوز بالطعن في شخصية الرافعي (٣) ، وإرسال الرأي فى أدبه (٤) .

---

(١) الرافعي ـ الرسائل ص ٨٧ .

(٢) راجع العريان ـ حياة الرافعي ص ١٢٢ .

(٣) الرسالة ٧٩٥ ـ ١٩٤٨ م وما بعدها ، وكذلك الرسالة ٩٢٢ ـ ١٩٥١ م .

وقد رأيت هذا « الأديب » العباس ! في القاهرة عام ١٩٦٥ م فلا والله ما رأيت « بليداً » في الأدباء كمثله !.. وكنت أقرأ له وأحسب له خطراً !!..

(٤) الواقعية في الأدب ص ١٩١ .

ويوم كتب الأستاذ حسنين مخلوف فصولاً عن (مجلس الرافعي) لمجلة الإحسان، السورية وذهب في بعضها مذهباً من التفسير قدمناه فى اصطناع الرافعي للحب ليكتب ويبدع !!. وعاد عباس خضر فتلقف ذلك وتساءل في (الرسالة) ليجر العريان الى القول ، والايضاح (١) فكتب حسن حمدان ، وقال كامل محمود حبيب ، وتكلم الشيخ محمود أبو رية بما جعل الشك في الموضوع غير وارد أصلاً ،.. وأن انتحال أسلوب من أساليب المغالطة المنطقية لا يجوز على مثل هذه القصة ثابتة الحيثيات (٢) .

فقد علق العريان يومها بقوله :

« أما أن الرافعي قد أحب ميّاً صدراً من كهولته والى آخر عمره فشيء لا أنكره ولا أشك فيه ،.. ولكن شك « الفضلاء » في « ماهية هـذا الحب » - وهذه قضية سيكولوجية يحتاج بحثها والفصل فيها الى مقدمات ، والى دراسة نفسية معقدة تستند الى أسانيد « الرواية » وإلى خبرة عملية فى الحب !.. »

حتى يقول : « أصر على أن الرافعي أحبَّ (ميّ) وأنها أحبته ذات يوم حباً ما ،٠٠ وبعبارة أدبية بارعة يستأنف « .. ولكن حبها قد انتهى قبل أن ينتهي حبه - أعني قبل أن ينتهي عمره » . (٣)

وقد حدث أيضاً أن شجر ما بين الأدباء عقب الثورة المصرية عام ١٩٥٢م، وحين حظي بعض الأدباء الموتورين ، الذين يحسبون أنفسهم على « اليسار » والاشتراكية ، من واردات أوربة وتلامذة مكاتب الارشاد الحليفة ونوادي إخوان

---

(١) و (٢) راجع الرسالة ٧٩٧ ، ٧٩٨ - ١٩٤٧ م .

(٣) العريان - الرسالة ٧٩٨ .

الحرية في الحرب العالمية الثانية ـ بغير قليل من « الحرية » ويوم فسح لهم المجال كبيراً للنشر وإذاعة آرائهم وأفكارهم ، سواء منها ما يسرقونه ترجمة بالمقص ، أو ما توحيه اليهم وكالات الاستخبارات الأجنبية ومؤسساتهــا الثقافية ذات الطابع الغزوي الذي قدمنا ذكره في الباب الأول .

فكتب سلامة موسى في صحف أخبار اليوم ،.. وتابعه فتحي غانم بـ « قلة أدب » في آخر ساعة ، . وتنطع أنور المعداوي (رح) في مجلة الآداب يدرس علاقة مي !! (١)

حتى لقد بدا دفاع العريان خافتاً ،.. ومحاججة « رضوان ابراهيم » المنطقية وكأنها لا أداة لها !.. وردّ صدر الدين متهماً ، . وكلام محمد عبد الغني حسن ضائعاً .

فقد غشيت الصحافة موجة من التهريج الشيوعي ، والانتهازية اللا أخلاقية ما شغل الناس عن متابعـــة موضوعات الاعتقاد القومي بعامة ،.. مما لا تزال آثاره قائمة الى اليوم !..

وما كادت الثورة تثبت على قواعدها الشعبية ، وأسسها العربية ، . حتى كان زمام المبادرة في الدراسات القومية والمنهجية يأخذ طريقه الى الجامعات ،.. ليرسي قواعد البحث العلمي ، بعيداً عن أضاليل الصحافة ، وأباطيل التراجمة المهووسين !.

وقد بدا أن هناك « مغالطة » يحاول بها الأدباء المسيحيون بخاصة ،

---

(١) راجع « الآداب » البيروتية لعام ١٩٥٣ ـ ج ٤ م ١ ص ٣ ، و ج ٥ م ١ ص ٧٧ وما بعدها .. وجريدة الأخبار ومجلة آخر ساعة لعام ١٩٥٣ م .

رفض القصة جملة وتفصيلاً ،..

فقد حسب جورج ابراهيم حنا أن الحب ربما كان من طرف واحد (١) . وتردد فؤاد صروف بين الاثبات والنفي (٢) . وسخر جميل جبر فى كتابه « مي فى حياتها المضطربة » من حقيقة العلاقة ،.. وتهرّب من وقائعها وحيثياتها ووسائلها (٣) بعد ما لجّ سلامة موشي بذلك (٤) ، ولهج بالافتراء سواه !..

وتبعه من أبناء ملته أو من بلوذ بهم (تأدبًا) كتّاب آخرون .. حتى تولت مجلة (الأسبوع) اللبنانية عام ١٩٦٣ م إثارة الموضوع مجدداً ،.. وجندت له قسيساً ربما كان بعض آلامها من الذين تآمروا عليها بتلك الدناءة المعروفة (٥).

وقد حاول هذا أيضاً نفي علاقة مي بالرافعي في طائفية صليبية لا تخلو من قلة ذوق إن خلت من قلة الأدب !.. (٦)

على أن الشاعرة جميلة العلائلي كانت أول من تنبه الى ذلك حين ذكرت أن لبعض ذويها يدّ فيما أصابها ،.. ولا سيما بعد وفاة والدها إلياس زيادة ،.. فقد كان لهم مطمع فيها (٧) وسعوا الى تزويجها قسريًا لئلا تقع في يد الرافعي ثانية فتكون من ثم زوجة فاضلة .

---

(١) و (٢) راجع العريان ـ الرسالة ٢٨٨ و حياة الرافعي ص ١٢٢ .

(٣) راجع جميل جبر في كتابه المذكور ص ٤٢ .

(٤) » سلامة موشي ـ الكاتب المصري أيلول ـ سبتمبر ١٩٤٦ م .

(٥) » طاهر الطناحي ـ على فراش الموت ص ٩٢ .

(٦) » مجلة الأسبوع العربي ـ أيلول ـ سبتمبر ١٩٦٣ م .

(٧) » أنور الجندي فيما كتبه عن مي ! أضواء على حياة الأدباء ص ١٧ ، و نساء في حياة الأدباء ص ٤٧ .

وربما تشبث هؤلاء الغرقى بقشة !.. ذلك أن أستاذنا الكبير أحمد حسن الزيات كثيراً ما يحلو له أن يكتب بأسلوب يردف فيه الكلمات والعبارات بسجعات تتناغم مع صوته الأديب ،..

ومن ذلك أنه كتب في أربعين « مي » عام ١٩٤١ م يقول :

« كان لمي آثار وسمات ، ألهمت صبري ، وأوهمت الرافعي ، وألهبت جبران ثم أخرجت من سواد المداد صوراً مختلفة الألوان ، متنوعة الأفنان أضافت الى ذخائر الفكر الانساني ثروة » (١) حيث صف كلمات الالهام والايهام والالهاب .. مع النغم في جرس يطيع به أدبه ، ويتفنن في المقالة البيانية بواسطته ..

وهكذا تشبث « بالوهم » من يوهم نفسه !..

على أن ما قدمت الآن من إيجاز سريع ، وما أحضرته من أدوات القصة نفسها ورسائلها الحقيقية غير القابلة للتردد في الرأي ، لأنها تدحض الاستئناف ، ولا تقبل التمييز من غير إبرام في الحكم بواقعية القصة ،..

وربما كان فيها غناء عن الإطالة ،.. وعسى أن يتهيأ للدارسين من ثم بقايا من هـذه الحيثيات في آثار مي نفسها ومخلفاتها ،.. وفي رسائل الرافعي الأخرى التي كتبها لبعض معاصريه من الكتاب والأدباء ،.. فيجعل منها مادة دراسية في رسالة خاصة تجيء تتمة لهذا كله !

* * *

---

(١) لزيات ـ الرسالة ٤٤٠ ـ ١٩٤٤ م .

وكان من نعم الله ورحمته الرافعي أن يكلأه بعنايته ، ويرعاه بالتوفيق والتيسير لما خلق له ،.. والحالة التي عاناها من الحب ما بين « هند » ودلها و « ماري » وحنانها في مطلع صباه ،.. كادت تمود عليه في شبابه وعنفوان رجولته !..

وقد عبر عن ذلك أصدق تعبير بقوله :

« .. وما أسعد الناس وأهنأهم في سعادته إلا ذلك الذي يجمع قلبه وعقله أن لا يصدر أحدهما عن الآخر إلا راضياً مرضياً »... فترى في آثار عقله طهارة القلب وإيمانه ، وفي آثار قلبه إجادة القلب وإحسانه ،.. ولو كشف لك عن بواطن الأنبياء لتجلت لعينيك هذه الحقيقة ماثلة » (١) .

وما تصدق مثل هذه العبارة على أديب كما تصدق على الرافعي نفسه وفي أدبه الجمالي بالذات !.. ولو أدرك بعض هذه الحقيقة شانئوه والمعترضون عليه في قصة قلبه هـذه ،.. أو تجلت عليهم بعض آياتها ، لما أركسوا أنفسهم في حمأة الاتهام ، أو أداروا أقلامهم في ضلال الأوهام .

ففي الوقت الذي كان يغالب فيه أشوقه ومواجده ، إبان العاصفة الهوجاء من حب « مي » وهو كما عبر عن نفسه بقوله :

مقيدٌ في وثاق من خلائقه فما له لذة إلا لها ألمُ !..
يناشد الملأ الأعلى وفيه الى الـ أدنى مجاذبة ما دام فيـه دم (٢)

---

(١) حديث القمر ص ٦٧ .

(٢) الرافعي - أنا ونفسي - المقتطف - كانون الثاني - يناير ١٩٢٧ م .

وكأنما يكشف عن نفسه في هذا البيت ، وأن « الحب الرافعي » الذي أراد ، ـ كادت العاطفة الانسانية أن تتغلب عليه .

وهنا ينبعث فيه صوت من واعيته الباطنية كنداء الأذان في الفجر .. بقوله :

يا مُفني العمر في التفتيش عن حلم لو كان يدرك ما كان اسمه الحُلم !..

.. فيعود به الى نفسه يحاورها ، ويداور معها الحديث في شجونه !..

وبينا هو كذلك هبطت عليه رسالة من سورية ؛ وفيها « مرض آخر » (١) ربما أحس فيه لأول وهلة علاجاً ، إن لم يكن فيه برؤه وشفاؤه ، فلا أقلّ من الدواء بالتي هي الداء !!.

وهكذا كانت « ماري » من ثم معه ، تمده بأحوج ما يحتاج اليه آنذاك وهو في دوامة القلق النفسي ، والاضطراب العاطفي، « فيستمدّ من لينها وسماحتها » (٢)

(١) الرافعي ـ الرسائل ص ٨٦ .

(٢) يستبعد الأستاذ محمود أبو رية أن تكون ماري يني صاحبة الرافعي في « حديث القمر » !.. وما بين يدي من رسائلها اليه لا يثبت ما ذهب اليه العريان من أنها هي !.. وفي رسالتها المؤرخة في ٢٨ أيار ـ مايو ١٩٢٤م وافى قولها:

« .. وإني لأحمل منك ـ وانت لا تدري ـ تأمل !! ذخيرة غالية من آيات الإبداع ؛ زودتني إياها « أحاديثك للقمر » منذ رمتها الأقدار بين يدي » (لاحظ !) فكانت خير ما حملت ، ترافقني في وحدتي ؛ فتحدثني بألف صوت وصوت ، وتسير معي الى البرية ، فتنشدني ألف أغنية بألف نغمة !.. ـ وكان « حديث القمر » قد طبع ثانية قبل التاريخ بأربع سنوات ـ أنظر رسائل الرافعي ص ٦٦ ـ .

وذكرياتها السعيدة « معاني الحب التي تملأ النفس بأفراح الحياة » (١) .

فما كانت « صاحبة مجلة منيرفا الكاتبة الأديبة ذات الشأن » ماري يني تعزيةً وسلوى فحسب حتى يتأوه الشيخ أبو رية بحسرة ويقول « آه لو كانت ميّ قد جاذبته ُجلّ المراسلة » (٢) ،.. وإنما كانت « ملهمة » بأروع ما تعنيه هذه الكلمة !..

وإذا لم تكن لها تلك الأصداء التي ترددت من حول (مي) ،.. وأنها كانت « أنثى تستجيب لنداء العاطفة الانسانية ».. فقد استطاعت أن تمزج قلمها بقلمه ، وتستحث نشاطه الذهني في الكتابة والقول ،.. وتستنجزه الوعود ، وتلحف عليه بطلباتها العديدة ،.. وتفتح له قلبها الكبير !.

وتأمل كيف يخاطبه بتواضع جم وأدب عالٍ فتقول في رسالة :

« .. أحقاً أنك تقول عن اعتقاد ثابت في إمكان مزج هذا القلم الضعيف ، بقلمك الكبير النشيط ؟!.. ولا أخالك هازئاً فما بيننا هذا .. » .

وتردف القول بالرسالة نفسها تستحثه « .. إذن - وقد عرفت درجة العجز التي أنوء بها - أراك ساعياً الى إنهاء الجزء الثالث من كتابك تاريخ آداب العرب أقول هذا مع رغبتي الشديدة في إصدار الكتاب الثاني » (٣) .

وتختتمها بقولها « أهديك من عاطفة إعجابي ما لا يستحقه سواك » .

ماري يني

---

(١) سعيد العريان - حياة الرافعي ص ١٤١ ، وتصدير أوراق الورد ص٦ .

(٢) أبو رية - رسائل الرافعي - هامش ص ١٧٥ .

(٣) تريد به « السحاب الأحمر » .

وتقول له في رسالة أخرى : « .. أأنساك ؟! .. قد أتسامح للذاكرة أن تستبد بي ما شاءت ، . ولكني لا أجيز لها أن تتعدى هذا الحد المقدس ، في جعل نفسها حاجزاً بيني وبين صديق أفاخر به سراً وجهراً ، وأغار من نفسي في نصيب منه قد يسطو على العبث به فكري او فكر سواي !.

هـذه مكانتك من نفسي ، وهي مع سعتها قليلة في نظري الى جانب ما تستحق .. الخ .. وتختتمها بقولها : « .. شكري لمقامك الجميل أحس بـه إحساساً ، وأعجز عنـه تعبيراً ، فهلا كنت رسول نفسك لنفسك ، وقبلت مني كل شعور الإعجاب والاحترام ؟! » .

ماري

وكان الرافعي ـ رح ـ قد أحس بالفرق العظيم بينها وبين هذه الثقيلة « مي » ،.. ولكنه كان قلقاً أيضاً بشأنها ، وقد تخوف من أن تكون كسميتها (ماري إلياس زيادة) فتؤلمه هي كما آلمته تلك !..

ولكنها كانت عليه فيضاً من السماحة ،.. حتى لتقول له مؤكدة « .. أما وقد شئت أن تجعلني على ثقة ـ كرماً ولطفاً ـ في أن رسائلي اليك تجلب السرور لنفسك ، فأنا أشكر لك هذه النفس الطيبة ، التي ترى في الظلمة نوراً .. وأعدك بأنني لن أنسى .. وكفى » (١) .

وتدلُّ عليه بمثل قولها : (.. الله منك !. تجعل من نفس الشيخ علي (٢) قوّة مفكرة تفوق قوانا ومقدرتنا ؟!.

---

(١) من رسالتها المؤرخة في ٦ حزيران ـ يونيه ١٩٢٤ م .

(٢) هو صاحب الرافعي في كتاب المساكين .

ثم إذا أتيتك بفتاة نابغة ساحرة (١) تقول (.. قد يكون بها بعض ما لدى الشيخ علي الأمي الجاهل) !..

ولكن هذه الفاضلة حقيقة بأن يكون في رأسها عقل رجل ، أتظن أنك قد رفعت منزلتها فى هذا التعبير ؟!) (٢) .

وقد قطعت معه أشواطاً بعيدة فى المراسلة والحوار والأمنيات العـذاب ، حتى لقد أدركت شيئاً مهماً حين كتبت اليه تقول :

(.. ألا تجد أن محادثتي إياك هي نوع من الجريمة التي لا تغفرها شريعة ولا دين ؟! .. وأن فيها خروجاً من حد اللياقة التي تقتضيها حقوق(المرأة)(٣) .

ولكنها تنسى ذاك ونفسها بسرعة فتقولى له :

(تكلم وأطل .. فبي شوق الى سماعك مهما أطلت !.. إن مقامك هو لك ، فلن ينازعك فيه منازع !) (٤) وتقول : (أنا لا أملُّ قط سماعك .. فهل أنت مثلي) (٥) .

---

(١) تريد بها « مي » .

(٢) من رسائلها المؤرخة في كانون الأول - ديسمبر ١٩٢٤ م .

(٣) كان الرافعي قد جاوز الأربعين من عمره ، وهو متزوج وأبو أولاد بنين وبنات ، وليس بينه وبين زوجه غير شهر عسل دائم - راجع العريان - حياة الرافعي ص ٥٩ !

(٤) من رسائلها المؤرخة في ٢٠ شباط - فبراير ١٩٢٥ م .

(٥) « « « ١٧ أيلول - سبتمبر ١٩٢٥ م .

وتقول له أيضاً(.. لا وحقك إن لك عندي غير صفحات منيرفا مسكناً)(١).

وتذكر له في وخزة « هنيئاً لهـذه الفتاة ـ فتاتك ـ لأنها قدرت أن تجرحك هذا الجرح الدامي فتخرج للإنسانية منك هـذه العصارة الطيبة في « رسائل الأحزان » (٢) .

وتكتب في مجلتها بعض ردود عليه ،.. تلحقها بقولها « عسى أن تكون جارحة حتى أرى ثورة هذا الدم العربي » (٣) فكأنها كانت تريد أن تفجر فيه روح الكتابة والشعر !..

ولم تزل رسائلها تجيء فترى على « أديب القطرين » و« أمير البيان العربي » و « صديقي الغالي » و « الحبيب المستبد » .. حتى تطلب صورته ، فيبعث بها اليها ويكتب لها تحتها :

ارسموا شخص الوفا .. ثم انظروا من بعدُ رسمي

لو يُسمى في الأنام الحبُّ ما اختار سوى إسمي

فتسارع في نشرها مع البيتين أمام موضوعة (المرأة والسماء) من رسالة الجاذبية (٤)

.. وتكتب مذكرات يومية ، فتدعوه أن يشركها في مثلها :

« .. كم أتمنى أن تدوّن ريشتك الساحرة بعض مذكرات خاصة ، تصبح مجموعة ، تخرج بعد زمن الى العالم مكامن النفس الحساسة العميقة ـ حبذا هذه الأمنية » (٥) .

---

(١) و (٢) و (٣) من رسالتها المؤرخة في ٢٠ شباط ـ فبراير ١٩٢٥ م .

(٤) راجع الرافعي ـ منيرفا ج ٤ ، ٥ ١٩٤٤ م .

(٥) من رسالتها المؤرخة في ٩ آذار ـ مارس ١٩٢٤ م .

ولكن ما تكاد ظروف فتاته هذه تستولي عليها ،.. ولم تكن تخلو من لحية القسيس ، . بل كادت تقذف بها عبر البحار الى بلاد المهجر مع رفيق لا بأس بـه ، لولا رفضها بدون ندم (١) حتى تعودها رسالة الرافعي فتخلد الى السكينة تتأمل ذاتها ، فتحلم وتكتب له تقول :

« .. ففي أواخر أيار (مايو) أحلم بمرآك ، وزيارتك مع رفيق جديد سيحملني الى المهجر ولعله الرجل الذي قذفت به الأقدار ليجعل في حياتي تطوراً جديداً لم أكن أحلم به » ..

وترتبك في قولها « .. أنا مندفعة الى الرضا اليوم بحكم الواجب والعقل ، أما العاطفة فأرجو أن يكون لها عمل في وقت قريب .. » .

وتختتمها بقولها « .. أنت لا تزال صديقي الغالي . فثق بمركزك الذي لا تزعزعه تطورات الحياة ،.. تحيتي اليك تزداد إخلاصاً ونقاءً » (٢) .

ثم تنشر منيرفا في صدر صفحتها الأولى صورة لقران ماري عبده يني وابراهيم عطا الله ، ويظهر فيها جمال ماري الرائع ، وبسمتها التي لم تكن موجودة في بعض صورها السابقة بمجلة السيدات والرجال !.

وكانت الخطوة الأولى لها وهي تغادر بيروت على الباخرة كندا الى عاصمة الشيلي ، أن تهبط مصر ، وتستضيف عند الرافعي في طنطا ، ثم تغادر الأسكندرية الى أوربا فأمريكا !.

---

(١) من رسالتها المؤرخة في ٢٧ كانون الأول - ديسمبر ٩٢٥ م .

(٢) » » » » ١ نيسان - ابريل ١٩٢٦ م .

وكم كان الرافعي يومها حليماً ،.. حيث استقبلهما الاستقبال الحسن وودعهما الوداع الجميل .

ولما عاودت ماري يني الكتابة اليه من سانت ياغوا .. كتب اليها كالذي يلفت نظرها الى منطق العقل والواجب يقول - إنكِ إن أبيتِ النسيان بسرعة ،٠٠ فلا بد أن تنسي ببطء » ولكن هـذه الـكلمة تقع عندها كالصاعقة ، فتقطع عليها سلسلة أحلامها الجميلة ، وتصدمها بالواقع ، مهما حاولت الفرار منه ٠٠ ومن بين مغالبتها لدموعها تكتب له قائلة :

« .. أتكون ظالماً في تقديرك المرأة حتى بين أحضان الصداقة ؟! إذا أنت تسامحت مع نفسك فأنا لا أغفر لك هذه الهفوة ، وأضيفها الى عديد ظنونك نحو هذه المخلوقة ، التي لا ذنب لها سوى طيبة في نفسها هي أصل بلائها » (١)

ثم تأتي كلماتها تنتحب. في هذه الرسالة ،.. والتي بعدها ، فيعمدها رحمه الله تطييب خاطرها بمعاودة الـكتابة اليها عام ١٩٣٠ م ٠٠

وتعثر في بعض أجزاء المقتطف على « رسالة الغضبى » وسواها من أوراق الورد التي « تطرب وتشجي » فتعتب عليه ، لم لا يذكرها بنسخة من هذه الآيات وتكتب اليه قائلة بثقة وحزم :

« أريد نسخة برجوع البريد ، وأريدها مزينة بآية من يدك ،٠٠ ولا إخالك إلا ملبياً نداء هذه الصديقة التي تحمل من فضلك ما يجعلها مدينة لك أبداً ، كما أنت مدين لي بأرجحية إخلاصي .. أتنكر ؟!

هات البرهان (١) ماري

---

(١) من رسالتها المؤرخة في ١٧ أيلول - ديسمبر ١٩٢٦ م .

(٢) من رسالتها المؤرخة في ٧ تشرين الأول ١٩٢٩ م .

أقول .. وعند مقابلتي هذه الرسائل وسواها مما لم أشر اليها ، مع ما جاء بالرسائل التي نسبها الى صاحبته في « أوراق الورد » ظهر لي أمرها فى الكتاب أكبر بكثير من أثر مي .

ولو تهيأت لنا رسائله الأصلية اليها ،.. لكان بين أيدينا مادة غنية جداً فى دراسة خماسية الرافعي الانشائية فى الحب وفلسفة الجمال ،.. قد تكون موضوعاً قائماً بذاته .

وهكذا عاد الرافعي من ثم « كلما أحس حاجة الى الحب راح يفتش عن واحدة يقول لها : تعالي نتحاب لأن في نفسي شعراً أريد أن أنظمه ،.. أو رسالة فى الحب أريد أن أكتبها » (٢) .

وكان للرافعي سلطان على النساء ، ولهن عليه سحر وفتنة ، وإحساس عجيب فى مجالسهن ، وهو فكه ظريف مداعب لا تملك السيدة الرزان في مجلسه إلا أن تخرج عن وقارها ،.. وكانت هذه أداته في استمالتهم حين يلتمس الوحي أو يجد الحاجة الى أن يقول .

وقد سمعه العريان يقول لإحداهن ، وسمع إحداهن مرة تقول له :

---

(١) العريان ـــ حياة الرافعي ص ٩٧ .

متى أراني في مجلسك لتكتب عني رسالة في « ورقة ورد » ؟! (١)

إذ لم يكد يخرج هذا الكتاب ، حتى « جاء الشيطان فعرض عليه (عينات) جديدة كأنه ـ أخزاه الله ـ كتبي يعيش من بيع هذه الكتب !.. (٢)

* *

وقد حدث له أكثر من واقعة كاد فيها الاعجاب به أديباً ورجلاً أن يتحول الى لون من الحب ، فهذه « فاطمة .. » تحسب أن « أوراق الورد » من وحيها هي ،.. ولا ترضي أن تشركها فيها سواها ،.. فلا تكتفي بادعاءاتها هاتيك ، وإنما تبعث اليه بقصيدة تقول فيها :

يا حيـــاتي وغـذائي	وصباحي و ـ مساه ـ كذا
من يُضحِّي في سبيلي	كلٌّ غال لي يراه
وإذا ضاقت حيـــاتي	وسـعتني راحتـــاه

.. الخ .. (٣)

.. والأخرى (فتحية) كان أبوها أديباً محباً للرافعي ، وقد توفاه الله قبله ، وتنكَّر لها ولأختها الزمن والأصدقاء ، فهي تسعى اليه تعرض الحال ،.. وبدافع من إنسانيته العالية وبره بأصدقائه يعطف عليها ويرعاها ، ويتوسط لحفظ حقوق الأبناء في مرتب أبيهم ، فتحسب أن ذلك « حباً » منه لها . فلا تلبث أن تلقاه فى الاسكندرية كلما أمَّها للاصطياف !.. (٤)

---

(١) المرجع السابق .

(٢) الرافعي ـ الرسائل ص ١٩٩ .

(٣) و (٤) عن رسائلهن العديدة اليه !..

وثمة أديبة أسكندرية أيضاً هي « سعاد .. » تتجلى له بروحها الشعرية ، وتحفل بمحبته وتبعث له بأبيات تقول فيها : (١)

فيضٌ من الرحمن شعَّ بروحه كالشمس فاض على الحياة سناها
سر مصطفى ، فالله جلَّ جلاله مع روحك المعطار إذ أنشاها

أما الأديبة السورية (فلك طرزي) فقد ملأ عليها أفق حياتها إعجاباً ،.. وتمنت عليه أن يكون لها أثر في كتاب آخر من هذه المجموعة !..

وكانت بينهن أيضاً « فكرية زكي » التي كان للرافعي يد فى حصولها على وظيفة فى التعليم ، وقد أحبته نوعاً آخر من الحب نادر المثال ،.. فهي تصرح أن لا أمل لها معه أن تشركه الحياة ،.. ولكنها تفيض عليه بترجمات عن اللغة الانجليزية فيها شيء من شعر « شبلي » وبراوننج وسواهما من شعراء العاطفة ..

ولقد كانت هذه الحياة المتصلة به مع الناس ، ولا سيما أمثال هذه النسوة الأديبات ذات أثر بالغ على أدبه وفنه .. صورت له من الاعجاب والاكبار عالماً قائماً من الحب والصداقة .

وعلى ما كان عليه رحمه الله من الخلق الثابت والتقوى ،.. فإنه كان يغشى المجالس والمتنزهات والنوادي ، وربما اختلف على دور اللهو والسيما التي يرحل فيها الى « عالم خارجي » كما كان يصطلح لها .

وقد حدثت له قصة « فى اللهب ولا تحترق » المشهورة (٢) وكيف أغري بالذهاب الى فرقتها الراقصة .

---

(١) عن رسائلهن العديدة اليه .

(٢) راجع العريان ـ حياة الرافعي ـ كيف كان يكتب .

كما حدث أيضاً في صيف عام ١٩٣٥ م ان التقى في مصيفه بسيدي بشر بحسناء إيطالية ، وكان لقاؤه بها من ثم مادة مقالاته عن « الجمال البائس » .. والتي تحوّل بها رحمه الله الى « الملب المسكين » تلك المشكلة التي تركها تنتظر الحل !.. وعندما أخرج الأستاذ خليل جرجيس خليل ديوانه (أغاريد الصبح » وضمنه رأيه في الحكم بقضية ذلك القلب !.. كما كانت هنالك خلول لآخرين لم يكشف عنها حتى اليوم !..

.. وفي عام ١٩٣٣ م لقي ملكة الجمال (كريمان خالص) في حفلة تكريمها التي أمته له جريدة (السياسة) فكتب فيها (رسالة صغيرة) قال فيها :

(أني رغماً عن نقمتي على سفور المرأة المسلمة راضٍ عن سفور هـذه بخصوصها لأنها أشبه بتسبيحة إلهية فى شكل نسائي) (١) .

وقال: (سأضم الرسالة لصغيرة هذه الى أوراق الورد فى طبعة أخرى)(٢) .

وهكذا كان سلطان الجمال عليه يرحمه الله .. ينظر اليه كما يستنشي العطر يكون متضوعاً فى الهواء ، لا يستطيع أن يمسه ولا أحد يستطيع أن يقول أخـذ منه ،.. ثم لا يدفعه اليه إلا فطرة الشعر والاحساس الروحاني (٣) .

وليس للرافعي فى أدبه مثل قصة حبه ، وهيامه بالجمال ، بدأ حياته شاعراً بها ، وتناول جوانب العلم والعرفان من أجلها ،.. وأرخ للغة والأدب فيها ،.. وأدار فلسفته الخاصة فى الحياة والدين والاجتماع من حولها ، حتى جعلها فلسفة الحب والجمال .

---

(١) و (٢) الرافعي - الرسائل — ص ٢٥٥ _ الهامش .

(٣) الرافعي - الجمال البائس - وحي القلم جـ ١ ص ٣٩١ .

على أن خير تفسير لظاهرة « الحب الرافعي » هو ما جاء في كلام الرافعي الفنان نفسه وقوله :

« .. وذو لا يفيد من الحب فائدته الصحيحة إلا إذا جعله تحت عقله ، فيكون في حبه عاقلاً بجنون لطيف ، ويترك العاصفة تدخل في التفكير ، وتضع فيه جمالها وثورتها وقوتها ،.. ومن ثم يرى مجاهدة اللذة في الحب هي أسمى لذاته ويرى بها في نفسه ضرباً إلهياً من السكينة تُوليه القدرة على أن يقهر الطبيعة الانسانية ، ويبدع فيها عمله الفني العجيب .

والرجل الكامل ، والمفكر المتخيل ، إذا كان زوجاً وعشق ، أو كان عشيقاً ، وتزوج بغير من يهواها ، . استطاع أن يبتدع لنفسه فناً جميلا من مسرات الفكر ، لا يجده العاشق ولا يناله المتزوج ،.. وإنه ليرى زوجته من الحبيبة كالتمثال جمد على هيئة واحدة .

مثل هذا المفكر العاشق يحتاج الى الزوجة كما يحتاج الى العشيقة ،.. فهو في قوته يجمع بين لزامه هـــذه ، وقدسية تلك ، لأن أحداهما توازن الأخرى ، وتعدلها في الطبع ، وتخفف من طغيانها على الغريزة ، وتمسك القلب أن يتبدد في جوه الخيالي » م؟

الفصل الرابع

صورته الخلقية والنفسية

لم تكن للرافعي صورة خلق تميزه عن الناس.. حتى ليشك الناظر الى وجهه - لأول وهلة - أن يكون وراء هذه السحنة والملامح مثل ذلك النبوغ الذي اشتهر بـه ، وتلك العبقرية التى خرق بهـا بعض النواميس ، وبين يدي خمس صور له مختلفات ، ربما كان لها فى مراحل حياته بعض عطاء يوحي للمتأمل فيها نوعاً من المعاني الملهمة ، وكأن بينها اتساقاً يجري من خلاله نور زاهي الظلال.. وتلوح فيها جميعاً صفحة من بقايا آثار تلك الروح رفافة ، كأنها تنبيء عن قافية ولدت فيهـا قصيدة عذراء .. فما استطاعت - ليتمها - أن تستكمل إشراقها .. وتظهر على كل صورة مسحة من كآبة كأنها تكبح شدة وطأة همّ دفين !..

ويطل عليّ وجه مصطفى صادق الرافعي - الحفيد ، نجل الدكتور محمـد الرافعي يمد تلك الاشراقة بشعاع ضئيل لا يكاد يحس به أهلوه !.

« وجه ممسوح مستطيل أقرب ما يكون الى بياض أهل الشـام منـه الى

سمره المصريين»(١) أسيل الخدين ، أزهر ، في وجنته احمرار دائم ، لا نجد بعضه في وجه حفيده .. ولكن شمس النيل قـد منحته الرضاء في سمرة لمياء تنطبع على شفتيه اللتين تفترّ بهما ابتسامته وقد استحيت أن تولد ، وخفرت في خشية خاشعة ، تتوسل بحُرّ الدعاء فهو يتمتم لها بالمأثورات ، وكأنما ينطبق فمه قبل أن تفلت منه هذه الابتسامة الوديعة خارجة مع الأنواء .

كأن تعاقب الصحة عليه والمرض لم يفلح في إحالتها او تبديلها ،..

وفوقهما شاربان كثيفان ، اختلط الشيب والصهب فيهما بشمطظاهر فلا تكاد تستبين أيهما !.. ولا سيما بعد أن تحتفتهما الأيام من طرفيهما فتصاغرا في تواضع وجمال ، بعد استعلاء وكبر .

وله عينان شهلاوان ، تشردان هما الأخريان في تفكير أمضّهما وسهاد أخذ منهما حتى جعلهما « كأنما ينظر بهما الى نفسه لا الى الناس » (٢) .

وجبهة تبـدأ فوق الحاجبين غائرة قليلا ، لتنبسط مقوسة من ثم ، نازعة الى فروة الرأس في طلعة عالية لها رونق وبها بهاء !..

وأنف طويل يستدق أعلاه ، وتبرز فيه عتبة صغيرة ، ولكنه يتدارك ذلك فينفتح من حول الأرنبة نوعاً ، ليصوره بالتناسق المثيل .

وأذنان فيهما كبر ، ولكنهما لا تؤديان عملا ، ولا تنقلان اليـه معنى ، ولا يبعث الحس والحياة فيهما قصف المدافع ،.. ومن ذلك كان قليل التلفت

---

(١) العريان — حياة الرافعي ص ٢١ .

(٢) نفس المصدر — ولم يبق هذا اللون الأشهل في بنيه ولا حفدته !.. وإنما تناول عيونهم حور مصر ! .

بمجلسه (١) ،.. شرود النظرة أحياناً .

لقد بعث بإحدى صوره ـ وهو يعاني من وطأة الحب ما يعاني ـ الى رفيقة أدبه الآنسة ماري يني ـ ولم تكن قد تزوجت بعد ،.. ولا تركت مجلتها « منيرفا » التي كانت تعتبر الرافعي أباً راعياً لها ،.. ورأت فى تلك الصورة مسحة من تلك الكآبة ، وكأنما شفّت عن أسى بين ضلوعه دفين ،٠٠ فلما قرأت تحتها البيتين القائلين هديةً ونداء :

أرسمي شخص الوفا ثم انظري من بعـد رسمي

لو يسمى في الأنام الحب ما اختار سوى اسمي

أشفقت عليه من نفسه أن يبرح بـه الألم ، ويمضّه الوجـد (٢) ٠٠ وبادرته بالقول رسالة:

« ٠٠ تكلم ٠٠ وأطل ، فبي شوق الى سماعك مهما أطلت ،٠٠ إن مقامك هو لك ٠٠ فلمن ينازعك فيه منازع (٣) .

على أن الناظر في البيتين يجدهما يشيران اليه في نفسه ، وكيف صور له الحب بأنه رسالة الانسانية وبقية روحات النعيم الذي غادره آدم !٠٠

* * *

(١) راجع العريان ـ حياة الرافعي .

(٢) أنظر مجلة منيرفا ج ٤ ـ ٥ السنة الثانية ـ وكانت ماري يني قد طلبت اليه إهداءها صورة فاعتذر لهـا .. ثم عاد فأرسلها مشفوعة بالبيتين اللذين سارعت الى نشرهما .

(٣) من رسائلها المؤرخة في كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٢٤ م .

وقد كانت للرافعي قامة متناسبة ، بريئة من الفضول ، لا يشينها قِصرٌ ولا طول ، ولا ينقص منها سمن أو ترهل ، ولا تؤذيها نحافة ،.. وإنما هي فراعة رافعية ، تمتد في شموخ وتبدر في استطلاع (١) !..

أما شبهه القريب فكان بأبيه الشيخ عبد الرزاق الرافعي - رح - كبير القضاة الشرعيين في محافظات القطر المصري حتى عام ١٩١٩م ، يوم فارق الدنيا ليلحق بنداء الرفيق الأعلى (٢) .

فإذا كان كذلك حقاً فإنما نعت صفته سمتاً وقيافة يوم رثى ذلك الأب الجليل بمثل قوله :

« تروعك منـــه هيبة عمرية — وحسبك من أمسى له عمر جدا (٣)
فجاء كنصل السيف يهتز مصلتاً — يد الله منه وحدها سنت الحدا
كما اعتصرته أنفس عربيـة — رماحاً وأسيافاً وألسنة لِدّا (٤)
ومن كان في التاريخ لحدُ جدوده — تجدْه من التاريخ قـد ورد المهدا ..

---

(١) لعل الفراعة في القامة الرافعية من العلامات المميزة ، فأغلب من رأيت من أفراد الأسرة في الديار الشامية أو مصر كان يلوح لي بها !..

(٢) هكذا قالت السيدة أم الكامل - وهيبة الرافعي ، كبرى بناته وكذلك حدثني الدكتور محمود سامي الرافعي وهما من أدرك جدهما الشيخ في طفولتهما وصباهما .

(٣) أنظر الرافعي في النظرات ج ١ ص ١٠٣ - من فضل الله أسرتنا أن نسبنا يتصل بالإمام العادل عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ورضي الله عنا بهم .

(٤) اللدد : الخصومة ، والمراد هنا بالألسنة اللد ، التي تغلب في خصومتها أبداً لقوة بيانها وفصاحتها .

وفي الناس أبطال ترى الفرد منهم وحيداً ومن أخلاقه حشد الجندا (١)

على أن من كان قد رآه من الأساتذة الفضلاء والأدباء يكاد يصفه بالسمت الشامي ، والزهرة في اللون ويلحظ شعره الأصهب حتى بعد أن وخط الشيب فوديه .

كان الرافعي حلو الملبس ، أنيق المظهر كلفاً بكل ما يتحدث به شكراً لنعماء الله .. وقد حسر عن رأسه في شبابه سبقاً في الأخذ المدني ، .. حتى فضل الطربوش (٢) أمام غزو القبعة ، حليق اللحية ، دقيق الحاجبين ، سابغهما من غير قرن ، عريض المنكبين ، غليظ العنق نوعاً ما ، قوي الكف والساعد مفتول العضل مما يعالج من تمرينات الرياضة ، التي يكافح بها آثار المرض (٣) .

وكان له صوت ، دقيق الأداء ، رفيع النبرات عال ، يحتبس أحياناً ، حلو النغم ، يكاد يشبه صراخ الأطفال له عذوبة ، وفيه رقة وتطريب ،.. ونغمة الفرح والحزن عنده سواء (٤) .

ومع ذلك كله فلم يكن يحفل بمظهره هذا بالرغم من دلالاته عليه أثراً وموجدة ، وإنما كان يدعو الى التغلغل في دراسة الشخصية ، وخفاياها .

---

(١) الرافعي – أبي – المقتطف – أيلول - سبتمبر ١٩١٩ م .

(٢) الرافعي – الطربوش والقبعة – الهلال – ١٩٢٩ م – وقد أدهشت صورته بعض فضلاء الأدباء في الشام فكتب بذلك يسأل عن « الشيخ الرافعي » الذي كان يحسبه أحد الأزهريين !..

(٣) نعمات أحمد فؤاد – دراسة في أدب الرافعي ص ١٦ وما بعدها .

(٤) العريان – حياة الرافعي ص ٢٣ .

وأول ما يتداعى فى دراسة صورته النفسية ، تلك الحياة العاصفة التي عاشها ، والتي لم تكن تحلق به الى مصاف طموحه ، وإن لم تكن لتتهافت به أيضاً ، ـ وإن أقلقته بعض جوانبها ، واضطربت به كثير من أحداثها ، .. وهمّت أن تضايقه بعض منغصاتها ، .. « وهو لا يرحم نفسه إلا اذا حملها على شيء (١) » .

لقد كان ثابتاً أمام زعازع تلك الحياة ، .. يقف بـه على قدميه أمام أهوالها وعواصفها إيمان عظيم ، ونزعة نفسية تتواجد صوفياً مع الألم ، .. وروح تصفو بـه حتى لتتصل بشيء من أسرار الحقيقة عند سبيل من السلوك عال ، .. واستعداد للتلقي فريد ! ..

وقـد استبطن ذاته يوماً فكتب فى تحليل شخصية صديقه المزعوم الذي تلقى عنه رسائل الأحزان فقال : « .. يحسُّ منذ الصغر أنـه رجل هرم ، أو كما يقول الفلاسفة في تعليل ذكاء الأذكياء ، أنهم يتذكرون ما يرونه ، ولا يتعلمونه ، لأن فيهم نفوساً خرجت من الدنيا كاملة ثم رجعت لتزداد كمالاً (٢) » .

وكانت حياته « ليلاً طويلا انبسط على فنن من الظلام كأنه مورق بالسحب والغمائم السود ، لا ينقشع بعضها عن بعض ، .. حتى كأن صباحه كان يموت فيه أربعين سنة ، .. ثم انبعث آخراً في وجه فتاة أحبها فأشرق له من غرتها واستضاء على وجهها ! .. » (٣)

---

(١) الرافعي ـ الرسائل ص ٤٨ .

(٢) و (٣) الرافعي ـ رسائل الأحزان ص ٢٣ .

ونكاد نلمح مثل هذه الصورة النفسية العاصفة في مثل قوله :

ومن تكن نفسه بحراً ترجرجه أمواجه ، لم يزل يدوي ويلتطم

ومن يكن طامي البركان منفجراً فوّاره .. طاش منه الجمر والحمم

وكأنما نفسه ذاتها كانت تضيق بأعنانه لها : فهو يصرف هواها ، ويحاذر أن يواليه ، ليذكرها بشأنه ، ويقف بها على مجلى من حقيقته في زهو وخيلاء ، وعصامية عالية تسمو به الى طموح عمري مهيب :

يا نفس ويحك أرضي الجد منك فتى ماضي العزيمة وثابٌ .. فمقتحم

لا تعرضي لي لذات الهوى أبداً ما للهوى في لساني «لا» ولا «نعم»(١)

ما لذتي أنا إلا أن أكون فتى كما يرفرف في أعلى الذرى علم

حتى إذا ما حاول الفخر ـ ولا عجب ـ عقد المقارنة بينه وبين خصمه ـ الحقيقي أو الوهمي ـ في آية ليس منها أدب سواه :

أنا « المقيَّد » في نفسي وفي خلقي كأنني قيد حُرٍّ قيده القسم

شتان بين امرىء في نفسه حرم قدس ، وبين امرىء في نفسه صنم(٢)

فإن اعتداده بما أوتيه من قوة الإيمان ، وتوفره على أسبابه ليدل في تقريره طلب الحكم له من نفسه .

---

(١) راجع الرافعي ـ لا ونعم ـ منيرفا ج ١٢ ـ آذار ـ مارس ١٩٢٥ م .

(٢) الرافعي ـ أنا ونفسي ـ المقتطف ـ يناير ـ كانون الثاني ١٩٢٧ م ـ إبان معارك السفافيد مع العقاد ، وفي البيت مقارنة فيها غمز للعقاد الذي « يعبد نفسه » !..

ولكن مهما اعتدَّ الرافعي بنفسه لم يبلغ الدرجة الحدية التي تطوِّح بصاحبها في ذهان خاص ! اسمعه يقول :

« .. أنا رجل ليس فيَّ أكثر مما فيَّ !.. كالنجم يستحيل أن يكون فيه مستنقع !.. فما اعرف من طبيعتي موضعاً للنفاق تتحول فيه البصلة الى تفاحة ، ولا مكاناً من الخوف تنقلب فيه التفاحة الى بصلة » (١) وإنما اتصفت طبيعته بالانصاف مع الحق الذي لا يتهاون فيه حتى عاد « حاد المزاج حلو الصداقة ، مرّ العداوة ، يعتدُّ بنفسه ، ويصونها عن المهانة والابتذال » . ورهن نفسه للدفاع عن العربية والدين (٢) في تواضع ومقدرة كما عبر عن ذلك الأمير شكيب ارسلان:

لا غروَ أن يرقى شخانيب الذرى　　من كان من ذاك النجار تحدَّرا
هي عترة أبقى أبو حفصٍ لها　　مجداً ، يتيه على الزمان ومفخرا
الرافعيون الأولى فرعوا العلى　　وتدبروا في كل فن عبقرا (٣)

ولعله كان يجد في نفسه ذلك الفضل الذي يسمو به ، ويفرده بين الناس :

سما بك أصل طبق الأفق ذكره　　وسارت به الأمثال في الأرض تضرب
وقوم هم الغرُّ الكواكب كلما　　تغيَّب منهم كوكب لاح كوكب
وهم معشر الفاروق من كل أغلب　　نماه الى ليث العرينة أغلب (٤)

---

(١) الرافعي - صعاليك الصحافة - الرسالة ١٨٣ - .

(٢) بدوي طبانة - تاريخ الأدب العربي الحديث ص ٤٣ .

(٣) شكيب أرسلان - رثاء جاحظ العصر - الرافعي - الشباب - ٩ حزيران - يونيه ١٩٣٧ م . وانظر أيضاً الشيخ أحمد الشرباصي - منبر الشرق ٣ مايو - أيار ١٩٥٥ م - والجزء الثاني من كتابه في الأمير شكيب أرسلان .

(٤) الرافعي - الديوان ج١ ص ٤٦ .

وليس هو أفضل فحسب ... وإنما هو فضل ، ناله كابراً عن كابر :

أنا الذي أرســـل ذكر الهوى   في الناس مثل المثـــل السائر

من معشر نالوا العلى كابرا   تُعزى له العليـــاء عن كابر

حلو ذرى المجـــد وما غيرهم   يسمو الى الذروة من فاخر (١)

* * *

«عاش غريباً ، ومات غريباً يرحمه الله» ..

هذه العبارة زفرة حرى لا تكاد تبلغ هدفاً عند الدارس ، وتكاد تسمعها من معظم الذين عرفوا الرافعي من قريب أو بعيد ... وربما سمعتها من خصومه ايضاً (٢) .

وقد نحاول السؤال عن وجه الغرابة عنده ، وهل هناك حلقة مفقودة بينه وبين الناس ؟.. تغرب بـه هـــذا الاغراب ، أو الاغتراب ، أو التغرب أو ما في مادتها ؟! .

لقد حاول بعض المفسرين إرجاع الغرابة هذه الى عاهة الصمم الذي ابتلي به في مطلع شبابه (٣) ولكننا نجد الرافعي نفسه يشير اليها من ناحية أخرى فيقول :

وهي الفضائل في زمان أهله   ـ فيهم فضائل دينهم ـ غرباء (٤)

---

(١) الرافعي ـ الديوان ج ١ ص ١٠ .

(٢) أنظر العقاد ـ الديوان ج ٢ ـ ما هذا يا أبا عمرو ـ وكذلك محمد خليفة التونسي ـ النقد عند العقاد هامش ص ١٩٣ .

(٣) شوقي ضيف ـ الشعر المعاصر ص ٢٢٥ ـ أخذ من طيب الذكر الأستاذ صديق شيبوب ـ البصير ٤ ـ ٦ ١٩٣٧ .

(٤) الرافعي ـ الشعب ـ ٢٣ نيسان ـ ابريل ١٩٣١ م .

وربما كان يحاول التحليلية النفسية في مثل قوله :

.. لا يخدعنك منا ظاهر حفل بالابتسام وغلغل في خوافينا
فإن عييت ـ بنا ، فانظر ضمائرنا فما ضمائرنا إلا مرائينا (١)

وقد يجيب عند كل سؤال يطرد في الموضوع على لسان اليتيمة بقوله :

كأنني لست إنساناً يشابههم ولا أعد ولا بين « المرائينا » !!

.. فيبين لنا أن الصراحة ، والحياة الواحدة ، التي ليس لها ظاهر يفرقها ، ولا باطن يخفيها هي التي جعلت منه « غريباً » . وتلك السيرة التي تطبع السلوك العام بنوازع الوجدان وقصد الضمير ، .. فلا مجال لازدواج الشخصية عنده ، أو لمجاملة فيها مراآة ، .. أو لانتهازية فيها دجل وزيف ونفاق ، أو تخاذل يظهر في لون ، ويختفي بآخر !.

ولما كان قد بدأ حياته شاعراً ، فقد خيّل اليه يوماً أنه بسبيله الى المثل الأعلى للإنسان حتى لم يعد « يحسب الشاعر إنساناً ، إلا إذا قال الحق ، وأودع نظمه الصدق ،.. ولو مات من الجوع »! فالشاعر خلق حراً في أفكاره ، وليس في طاقته أن يقيد نفسه أو يذلها .

واعتبر أن « طباع الشعراء ثابتة لا تتغير ، ولا تتبدل ، وأفكارهم شديدة الرسوخ لا تحيد ولا تتحول ، . فإذا خطر لهم شيء قالوه أو كتبوه .. ولو كان فيه قطع أعناقهم وإزهاق أرواحهم » . ويغرب أكثر حين يحسب في ذلك أن الشعراء « صنف من المخلوقات غريب الأطوار والمزايا ، قائم بذاته ، لا يحسب من الناس ولا من الملائكة ولا من الشياطين » ...

( ) الرافعي - المقتطف ـ حزيران - يونيه ١٩١٣ م .

ويمتد أبعد في هذه الصورة المثالية المتخيلة فيقول « .. وقـد بحث بعض العلماء الطبيعيين في كيفية خلق الشاعر وتركيبه ، فوجد أنـه مركَّب من خليط من الوهم ، والخيال ، والحقيقة ، ومن الذكاء والنباهة والجهل ، والغباوة والفقر والغنى ، والسعادة والشقاء وغير ذلك من الصفات » فالشاعر عنده « حائز على مزايا المخلوقات بأسرها ، قابض على ناحية الأخلاق كلها (١) » .

وكان يرى شعراء العرب وقد « ملأوا بقاع الأذهان حكمة ، وغرسوا في الأفكار فسيلة الخيال ،.. فإذا هي شجرة طيبة أصلها ثابت في الجنان ، وفرعها في اللسان ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها (٢) » .

فلا بدع أن يتسامى ،.. ويغرب في هـذا التسامي ،.. ويحاول أن يضع على عاتق شعرائنا مهمة المسئولية الفكرية والاعتقادية أمام حقيقة يضيء فيها الغرب ويظلم الشرق :

بني الشرق ، ليس الذي بيننا وبين رجال العلى من نسب !..
لقد غابت الشمس عن أرضكم الى حيث لو شئتم لم تغب .. (٣)

---

(١) شاعر صغير ـ الثريا جـ ٨ ـ ١٩٠٤ م .

رجحنا أن الكلمة له لمشابهتها كلامه في الكليات ، واعتماده صياغة النظريات العلمية بأسلوبه ، وقـــد لاحظ عليه المقتطف ذلك ـ في ديسمبر ١٩١٢ م ـ عند نقده لكتاب تاريخ العرب ـ وانظر فصل العرب والعروبة ص ٣١ .

(٢) الرافعي ــ الشعر العربي ــ المنار ١٥ ـ ٣ غرة ربيع الأخر ١٣١٨ هـ ـ تموز ١٩٠٠ م .

(٣) الرافعي ــ الديوان جـ ١ ص ٣٨ .

فهو ثائر من أول يوم ، يريد أن يلحق الأمة بركب الحضارة والحياة الجديدة ، في إرادة التغيير وقوة المشيئة !..

« .. فما لنا وللجزع اليماني ، وهذا اللؤلؤ والمرجان ، وما لنا ولحصباء العقيق ، وهذا العقيق والعقيان ؟ وما لنا ولماء الغدران ، وهذه سحب الغيم غاديات رائحات ، وأمام العين ما يذكر بالجنان ويعلم الانسان كيف يكون الشعر في الشعراء » .

ويعجب أن ينخدع بعض الشعراء بخلّب ذلك البرق الذي لا يخرج بالفكر الى معنى جديد و « أمامهم الغور الذي لا يدرَك والبحر الذي لا يخاض، وفي بلادهم ما يأخذ بمعاقد البيان ، ويغنيهم عن جرعاء الحمى (١) » فهو يحمل نفسه رسالة الشعر الجديد من أول بادرة فيقول :

أداري بهند كلما أصف الهوى　　وبي غيرها .. لكن تدأري الهوى هندُ
وأذكر نجداً . أين نجد وأهله　　وفي مصر حسنٌ ما رأى مثله نجد
يسيل بروح النيل ريّان كالندى　　وفي شاطئيه ينبت الظرف والود

فلا غرو أن يغدو « فتى عمره الهموم جميعاً » وليس ذلك بمعجزة ولا خارقة .

وإنما هو انبعاث بالفضل يرسي المدنية على أسس من القيم الفضيلة :

مضى زمن كانت به حاجة الورى　　لبعث نبي في يديه الرسائل
وذا زمن مسّت به حاجة الورى　　ليبعث في هذا التمدن فاضل (٢)

---

(١) الرافعي - الشعر العربي - المنار السابق.

(٢) » ـــ الأهرام - ص ٥ ، ٢٠ مارس - آذا ١٩٢٣ م .

ومن هنا كان قوي الايمان بجدواه ، عامر القلب بدينه ، مخلص الضمير في دعوته ، صادق النية مع عزيمته وجهاده (١) كبير الثقة بنفسه وحمل رسالته (٢)

او كما يقول :

« أنا لا أعبأ بالمظاهر التي يأتي بها يوم ، وينسخها يوم آخر ». والقبلة التي اتجه اليها في الأدب إنما هي النفس الشرقية (*) في دينها وفضائلها ». فلا أكتب إلا ما يبعثها حية ، ويزيد في حياتها ، ويمكن لفضائلها وخصائصها في الحياة ».. ولذا لا أمس من الآداب كلها إلا نواحيها العليا (٣) » .

« ثم أنه ليخيل إلي دائماً أني رسول بعث للدفاع عن القرآن ولغته

---

(١) العقاد ـ ساعات بين الكتب ص ٤٦ .

(٢) محمود ابراهيم ـ تاريخ الأدب العربي ص ٤٣ .

(*) في قوله « النفس الشرقية » ملء للفراغ الذي قد يتركه مثل مصطلح النفس العربية أو الإسلامية و (Orientism) من المصطلحات الأوربية التي تجمع الشرق بحضاراته وروحانياته وطوابع فنونه واعتباراته أمام الغرب في ذلك بعامة في مقارنة وصراع .

وقد بقي هذا المصطلح في النصف الأول من القرن الرابع عشر الحالي عنواناً للوحدة الوطنية ، والتسامي فوق الطائفية والإقليمية . حتى صدع بالمترادفات شاعر العروبة الأستاذ محمود غنيم في وقفته على الطلل وقوله :

هي العروبة لفظ إن نطقت به فالشرق والضاد والإسلام معناه

فدل بالاقتصار على الشمول ، آتياً على القلق الذي يتركه انفراد أحد هذه اللفظات الثلاث ، وانظر الرسالة ٩٣ ـ وديوانه « صرخة في واد » .

(٣) يوسف حنا ـ فلسفة القصة عند الرافعي ـ الرسالة ١٩٣٤ م .

وبيانه (١) » كما ألقي في روع يوسف حنا وهو ينقل عنه بعض رأيه في القصة والأدب .

.. ومن أجل ذلك الهدف الاعتقادي الرفيع صرف حياته لفن رسالته ، وسلك أخطر السبل غير مبال بصحة أو مرض ، ولا بحاجاته إنساناً ، يعيش في مثل هذا العصر العصيب .

* * *

« .. على أن الجليس اليه ليشعر بما يشفُّ عن القناعة والرضا ،.. ذلك أن الرافعي كان مثال الزهد ، يكتفي بما يحفظ كرامته ، ويرعى حرمته ،.. ولا أدلّ على قناعته من تواريه عن الأكثرية ، واقتصاره على نفر من الأصدقاء الخلص ، الذين كانوا يدركون نفسيته ، ويدرك نفسياتهم (٢) ومع ذلك .. كان كثير المرح ، حلو الدعابة حاضر النكتة ، يميل الى الجذل والانشراح ، ويودع أحاديثه الكثير من الطرائف (٣) .

« وكان له فى مجالس النساء إحساس عجيب ، وكان لهن عليه سلطان ، وله عليهن سحر وفتنة ، وهو فى هذه المجالس فكهٌ مداعب رائق النكتة ، لا تملك السيدة الرزان إلا أن تخرج عن وقارها » (٤) .

---

(١) أنظر الرافعي - الرسائل ص ١٩١ وكيف دهش أن تجري هذه العبارة على قلم حنا ،.. حتى عدها إنباء من الغيب !..

(٢) الهلال - حزيران - يونيه ١٩٣٧ م .

(٣) أنظر الرافعي - كلمات عن حافظ - وحي القلم ج ٣ ص ٣٢٣ .

(٤) العريان - حياة الرافعي ص ٩٨ .

وترجع السيدة زينب الرافعي كريمته ذلك السمو ، وتلك الغرابة والانفراد في أدبه الى كونه « سيد بيته » بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان !.

أو كما قال هو : إذا رأيت رجلا موفقاً فيما يحاوله مسدد الخطى الى الهدف الذي يرمي اليه ، فاعلم أن وراءه امرأة يحبها وتحبه » كما مر فى الفصل السابق .

ولم يكن للرافعي باطن وظاهر ، أو ما يعبر عنـه في نظريات علم النفس بالشخصية وازدواجها وأمراضها التي تبدع في الفن !.. « فما كان له سر يستطيع أن يطويه بين جوانحه » (١) بعد أن ملكت عليه الصراحة والرسالة حياته كلها ،.. حتى وإن حاول إخفاء اسمه الصريح أو كناه أو نحل غيره آراءه ،.. فقد كان اسلوبه ينم عنه ، او يتحدث بـه هو لخاصته من غير ما سؤال !..

لقد استطال الى شاعرية الحسن في وقت كان الغزل فيه والشعر بعامة مما يزري بالعلماء ، وأبوه وأعمامه شيوخ الفقه وكبار القضاة الشرعيين :

ما عابني أن قيل ذو صبوة ... أو قيـل مجنون بني عامر (٢)
والحب أهـدى لفؤاد الفتى ... من حاجة النفس الى الخاطر
أوحى الي المعجزات التي .. ... ليس لهـا غيري من شـاعر

---

(١) سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٢٥ وانظر أيضاً الزيات ـــ الرسالة ٢٥٣ السنة الخامسة .

(٢) الرافعي ـــ الديوان جـ١ ص ٦٨ وقد خففت عامر فأصبح « عمر » وهنا تورية بعيدة تشير الى نسبه الكريم الذي يتصل بالإمام عمر بن الخطاب كما مر ، ص ٦٨ .

ولذلك يقرر فى السحاب الأحمر بعد ربع قرن من ذلك التاريخ :

قلبي يحب وإنما أخلاقه فيه ودينه

وكأنما يسوّغ لنفسه اتجاهه المبكر هذا .

وقد يبلغ به الادعاء العريض الذي نجده عند الامام عمر بن الفارض ـ سلطان العاشقين ـ المتصوفة فيقول :

سلوني أنبئكم فلم يدر ما الهوى سواي ـ وهل في الناس مثلي من صب؟!

إذا شعراء الصيد عدوا فإنني لشاعر هذا الحسن في العجم والعرب(١)

أو يقول :ـ

وأقل الغرام عندي أني بين قومي على الغرام دليل ..

* * *

ولكن الرافعي من الناحية الأخرى يبدو إنسانًا ، يضجر ويتألم، ويتأفف ، وقد يضيق بالحياة كلها وكأنما تنفرط منه هذه الزفرات مع حرصه الشديد أن لا يبوح بها (٢) كتلك الأشياء التي كتب بها الى أحد أبناء عمومته ، وكان قد استدرجه للكتابة حتى توفر له قدر منها وهمّ أن يطبعه فنهاه عن ذلك ، وهدده أن يبرأ منها إذا ما حاول نشرها !..

فهو يقول مخاطبًا طيور الرياض :

.. باتت تناغي لا تحاذر فاجعًا مما تكابد فى الزمان الأنكد

---

(١) الرافعي ـ الديوان ج ١ ص ١٠٠ .

(٢) الرافعي ـ الرسائل ص ٢٤ . وليت ذلك القريب نشر تلك الأشياء !!.

يا طير ما في العيش إلا حسرة ... إن خلتها نقصت قليلا تزدد
تأبى على الأحرار إلا ذلـــة ... ولو أنهم صعدوا مدار الفرقد (١)

أو تظهر في شكاة ولوعة، تثير الاشفاق :

أنا يا دهر لم أسيء لك يوماً ... فلماذا أسأتني أنت دهراً ؟!

وقد يفزع الى الله سبحانه فيقول :

فيا رب حسبي ما مضى إنما الدنا ... عذاب وهذي روح عبدك يا ربُّ (٢)

ولكنه يستسلم - أحياناً - طواعية للقضـــاء والقدر فى ما يسمونه الحظ :

.. وأرى الحظوظ الفن كلَّ مرَفَّهٍ ... ونأت بجانبهـــا عن البؤساء
سبحانك اللهم تعطي ذا الغنى .. ... وتقـــتِّر الأرزاق للفقراء ؟! (٣)

ويقول فيوهم بالشك واختلال التوازن :

هيهات يغشى الأرض ظلُّ سعادة ... ما دام من جهـة السما التدبير (٤)

* * *

ومن أخلاقه النفسية الفريدة أنه كان « عجيباً فى إيمانه بالغيب، وتناحي الموتى والأحياء ».. وكثيراً ما كان يسمع عنه محدثه مثل قوله « حدثتني نفسي ، التي الي ، هتفت بي هاتف .. الخ (٥).

---

(١) الرافعي - الديوان ج ١ ص ٥١ .
(٢) » » ج ٢ ص ٩٣ .
(٣) » » ج ٣ ص ٣٠ .
(٤) » » ج ٣ ص ٣٩ .
(٥) سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٣٢١ .

والمتأمل في بعض أدبه يجد مسحة من الصوفية الرائعة ،.. وعلى أن ثبت نسبه يشير الى مبدأ السلوك العام في أسرته ، واتصالهم بالطريقة الرفاعية (١) فإنه لم يتهيأ له مثل ما تهيأ لهم بحكم العصر أو حياة الوظيفة التي عاشها ،.. فهو يقول :

« .. وأما التصوف فقد اجمع أهله على أنه لا يمكن أن يفلح فيه من لا واسطة له ،.. وأنا التجيء دائماً الى الاستمداد من رسول الله (ص) فإنه واسطة الجميع » .

ويتواضع فيقول أيضاً « ولا أدري إن كان فيّ استعداد للتلقي عن هذه الغاية البعيدة أم لا ؟! غير اني لما عدمت الواسطة (الشيخ) لم أر بداً من الالتجاء الى حضرته صلى الله عليه وسلم (٢) قبلت او لم تقبل ، فإنه اصل كل فتوح ، ولا تطفل على مائدة الكريم !.. فكيف بكرمه عليه الصلاة والسلام » .

ومن ذلك توسلاته بصاحب الشفاعة العظمى فى مطلع حياته :

رعاك الله هل مثلي محب   وقد امسى محمد لي حبيبا

شفيعي يوم لا يجدي شفيع   وطبي يوم لا اجد الطبيبا

وغوثي حين يخذلني نصيري   وغيثي إن غدا ربعي جديبا (٣)

وهذه الصوفية العالية ، تترجم لنا في ذلك العهد من حياته صورة من

---

(١) يوبيل بلبل سورية الشاعر المرحوم عبد الحميد الرافعي ، وربما كان الإمام عبد القادر الرافعي قد سلك على الحلوتي محمود .

(٢) الرافعي - الرسائل ص ٥٢ .

(٣) الرافعي الديوان ج ١ ص ١٨ .

الآلام النفسية الحادة ، التي كان يعانيها بسبب وطأة المرض ، الذي كان يطبق عليه :

.. متى تخضرّ ايامي وتزهو ويصبح عود آمالي رطيباً ؟!
فقد ضاقت بي الدنيا وهبت فجائعهـا على قلبي هبوباً .. الخ

.. وقد مضى فى ذلك أشواطاً ، يدرس فيها جوانب من حياة الرسول عليه السلام ، ويطبع بها أفكاره ودعواته (١) .

وكان من أثر هـذا الاستمداد والتلقي أن ألهم ما أملى عليه من ثم « البلاغة النبوية » والصفحات المؤمنة التي حاول بها كتابة السيرة العطرة .

ومما يلحق هذا الوجدان أيضاً ما ذكره العريان عن الصلة الروحية بين الرافعي ـ رح ـ والسيد أحمد البدوي ـ قدس سره ـ الولي المدفون بطنطا ، وقد اعتبرها كالعلاقة التي ترتفع عن الجدل ،.. فقال :

« كان الرافعي إذا أمّ الحرم البدوي للصلاة ، تخذ مجلسه تحت القبـة ، فلا يملّ الجلوس ساعات ، يقرأ ويدعو ، وعيناه مسبلتان ،.. وإذا فرغ من دعائه رفع رأسه ومسح بيده على صدره » (٢) .

وأشار الى مدائح وتوسلات شعرية للرافعي فى السيد البدوي ،.. وقفت على واحدة منها كان قد أشار اليها الشيخ محمود أبو رية مرة فى الرسالة (٣) .

---

(١) سنفصل ذلك في مقدمة « الكتاب النبوي » الذي نعده للنشر بإذن الله ، وانظر الرسائل ص ٢٧٢ .

(٢) العريان ـ حياة الرافعي ص ٢٦ .

(٣) أبو رية ـ هامش رسائل الرافعي ص ٤٧ .

وهي القصيدة التي أحجم الرافعي عن نشرها مخافة الفتنة التي خالها الشيخ أبو رية تحدث بين المسلمين إن هي عرفت عنه ... والتي يقول فيها :

لقد ضاق بي في محنتي كل ملجأ ... وضقتُ فلا النفس استقرت ولا القلب
مرضت فيممت الطبيب وبعده ... طبيب وكل في صناعته ندب
فها أنا أمددني بسرك إنني ... ضعيف مُعنّى لم يزل دهره يكبو
رمته رزاياه بميدان عيشه ... ومن حوله طارت بفرسانها الحرب

* *

وكان يؤمن بالأحلام والهواتف ، ويجدّ في طلب تأويلها ، وفلسفتها ... وحين لا يجد ما يوافق رأيه فيها يقول « متأكداً من صدق الأحلام - إن لم يكن كلها فبعضها - وإن لم يظهر صدقها في الحال ... ففي الاستقبال » (١) .

وقد حدث حين حضرت الوفاة والده الشيخ عبد الرزاق الرافعي - أن وقع لأخته في الجيزة أنها سمعت هاتفاً يقول لها أن أباك مات !.. فكتب الى المقتطف يلتمس التفسير العلمي لمثل هذه الظاهرة ويحترز من أن « بعض ما نقرأ عنه من هذه الهواتف يرجع - إن صحت الرواية - الى خطأ في الحس ، أو خطأ في الوهم ، أو المبالغة ، التي أشار اليها في تاريخ آداب العرب .. « ولكن ما تقولون فيما نحن بصدده وهو واقع لا ريب فيه » (٢) .

فلما أجاب المقتطف بما لا يشفي الغليل ، عقب عليه بجواب ضمنه التفسير الصواب - يقول في آخره :

---

(١) الرافعي - الثريا ج ٢ آذار - مارس ١٩٠٣ م .

(٢) « - المقتطف - أنباء الهواتف - آب أغسطس ١٩١٩ م .

« إنما يقع مثل هـــذا الهاتف فى الندرة ، والفلتة لأمر من الله !

« وما نتنزل إلا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما كان ربك نسياً » صدق الله العظيم ».. وما تشير اليه هذه الآية الكريمة هو رأي هذا الضعيف (١) .

.. ثم عاود الموضوع يوم وقع لأخيـــه الأصغر في ٢٠ آذار ـ مارس ١٩٢٠ م . وقد رأى أباه رحمه الله في ثياب من ثيابه التي كان يلبسها فى حياته ، ولم ينكر منه شيئاً » (٢) ثم يطلب الرأي فى هذه المكاشفة وكان يرى قصوراً في التفسير العلمي الحديث لمثل هذه الحالات

.. وهذه الى كثير من أمثالها لم يعن بتدوينها ، ولكن أهليه من أولاده وأصدقائه يروون عنه بعضاً مما تسعف به الذاكرة .

ويظهر أنه رحمه الله ـ كان يفرق أحياناً في الايمان بالعرافة ، والتميمة ، والحجاب ».. وما اليها مما لا يزال شائعاً بين ظهرانينا »..

ولما وقع له حب (فلانة) ونال منه الوجد بها لجأ الى مثل ذلك (٣) .

وهو يؤمن بحسد العين وأصابتها « ولعل نظرات الناس قد أصابتنا بعد ظهور كتاب المعركة » (٤) .

ويطوّح به الضعف الانساني الى ما يكاد فيه لا يحتفظ بتوازنه من الهواجس والأحاسيس فى مثـــل اشارته : « قابل عبد الرحمن (الرافعي المؤرخ) وقل له

---

(١) الرافعي ـ حقيقة الهاتف ـ أيلول ـ سبتمبر ١٩١٩ م .

(٢) الرافعي ـ المكاشفة ـ أيار ـ مايو ١٩٢٠ م .

(٣) راجع العريان ـ حياة الرافعي ص ٣٢٣ .

(٤) الرافعي ـ الرسائل ص ١٢٨ ، وانظر ص ٢٢٧ أيضاً .

إن (مي) قد أرسلت اليه تعزية ، وهو كلفني بنسخها ، وإرسال صورتها اليه ،.. هذه التعزية لا بد فيها إشارة !! » (١) .

* *

هذه لمحات من صورته النفسية ، قد يضاف اليها ذلك الشعور الذي كان يخالج الرافعي بين الفينة والأخرى - وهو يكاتمه ولا يريد أن يبوح به - من أنه مغموط الحق ، غير معروف المكانة ،.. وقد استوى يوماه فى الغبن .. وأن مكانه ليس هذه الوظيفة التي تغله اليها صدر النهار ،.. وهو الانسان الذي تضيء له الجملة القرآنية (٢) ويخيل الى يوسف حنا « انه المختار لحراسة لغة القرآن » فيحسبها إنباء من الغيب ، ويعتقدها .. ثم يتساءل - فى استفهام إنكاري - : أرسول وموظف حكومة ؟! (٣)

ويرى الرأي لا يصيبه علماء الاجتماع في أوربة ،.. ويحلل الآلة في الحضارة بما يأت به برجسون نفسه في هذا الشأن ثم لا يجد من الانصاف « شيئاً من البرجسة ولا رائحتها » (٤) .

ويؤلف في تاريخ آداب العرب - مصنفه الفخم الذي أدهش صاحب المقتطف نفسه ، فلا يجد مكانه اللائق في الجامعة ، التي كانت تستعين بالمستشرقين وسواهم من تلامذتهم الناسون ممن يتخبطون علمياً في آثار الآداب العربية !..

---

(١) الرسائل ص ١٨٥ .

(٢) الرافعي - الزهراء ١٣٤٥ هـ ج ٤ - المعركة ص ٢٤ .

(٣) الرسائل ص ١٩٢ .

(٤) الرافعي - الرسائل ص ١٥٤ . وانظر مقدمة كتاب المساكين !.

لقد حاول الأستاذ عباس خضر أن يستخرج من رسائل الرافعي التي وجهها الى الشيخ محمود ابي رية نوعاً من الحكم عليه « بالاعتزاز الذي يبلغ درجة الغرور ،.. ومحبته السافرة للتقريظ والثناء » (١) .

كما حاولت نعمات أحمد فؤاد أن تدرس حالات المرض ، التي شكت منها رسائل الرافعي لتزعم من ثم أن أدب الرافعي مما يجب اطراحه من المكتبة العربية لأنه صادر عن إنسان عاش مريضاً غير معافى .. وهكذا تهافتت فكشفت بذلك عن نفس وراءها مريضة (٢) .

.. ولكن المتأمل لهذه الصوة النفسية ، التي تبدو أحياناً عاصفة مع الحياة التي تلتف من حولها فى دوامة ، فيها من القلق والاضطراب ما يثير الطموح ، ويتهاوى مع التهافت ،.. وفيها من الضيق والحد من الانطلاق ما يقف أمام السمو النبيل ،.. حتى التسامح والكبرياء والفضل كانت تكلف صاحبها ما لا يطيق !.

يضاف الى ذلك انحراف دائم فى صحته العامة ، وعوز مادي لا يستر حاله رفاءً ،.. غير الصمم الذي يطبق عليه الدنيا ، فيتركه يستبطن أكثر مما

---

(١) العباس الأخضر ـ الأدب في أسبوع ـ الرسالة ٩١٩ ـ ١٢ فبراير ـ شباط ١٩٥١ م . وانظر أيضاً كلام طه حسين في « أضواء على حياة الأباء » لأنور الجندي، ص ١٢٧ .

(٢) نقل الينا أن العقاد ـ عفا الله عنه ـ كان وراء هذه المحاولة في دراسة (أدب الرافعي) بعد موقف خاص له مع أحد تلامذة الرافعي ـ على ان « المؤلفة » قد أعادت طبع المحاولة غداة وفاة العقاد ... متسترة على موضوعها !.

يتلقى الأصداء،.. فيثب به الخيال الجامح،.. والتطلع الفريد..

كل أولئك وسواه جعل من الرافعي صورة نفسية متواجدة، تصفو أحيانًا حتى تتصل بالحقيقة، وتلهم، وتتلقى عن الغيب في سبيل متصوف عال (١).

وقد تنفرط به أحيانًا حتى تضيع عليه أعز الأصدقاء وأقرب الأحبة (٢).

وقد تشكك فيه حينًا بمرارة من لوعة العتاب (٣) فتضطر الى الحكم عليه بأنه «لم يكن رجلا اجتماعيًا يلتزم بما تفرض عليه الجماعة من تقاليد، ويتخذ أسلوب الناس فيما يليق وما لا يليق فهو لا يعتبر إلا رأيه او حاجته او مصلحته» (٤).

ولكننا من ناحية أخرى نجد المرحوم اسماعيل مظهر يفسر ذلك بقوله:

«كنت أشعر بأني الى جانب الرافعي في رحابة صديق خالص الود، ذكي القلب، نقي السريرة بعيد عن أن يستغل الصداقة إلا للصداقة، فإن غضب وإن عتب وحتى إن قطع.. فللصداقة» (٥).

ولا تكاد تصفو هذه الصورة النفسية فى تساميها، حتى تكاد تنفرد فتلوذ بالخوارق، وتلتمس الكرامات كما مرّ.

---

(١) العريان ـ حياة الرافعي ص ٢٣١، ٢٧٤.

(٢) المرجع السابق- الهامش ص١٥، أبو رية - رسائل الرافعي ص٢٧٩.

(٣) عن ماري ينى - من رسالتها المؤرخة في ٢٩ أكتوبر ١٩٢٩ م.

(٤) سعيد العريان ـ حياة الرافعي ص ٢٧٥.

(٥) اسماعيل مظهر ـ ارتحال الصديق ـ المقتطف ٩١ - تموز ـ يولية عام ١٩٣٧ م.

على أن أستاذنا العادل الغضبان لا يرضى مثل ذلك الحكم على الرافعي « ذي الروح السامية في كل ما تصدّر له من فنون الشعر والأدب ..

فهو شاعر الحسن ، وأديب التسامي في الحب ، ودليل الصبابة الى الجمال ، وراعي المساكين وداعية الاحسان الاجتماعي ، للحد من غلواء الفقر ، وصاحب الاعجاز ، ونشيد القومية ، وغرّيد الشرق ، وكاتب الوحي !..

وقد يكون لعاهته ـ الصمم ـ السبب في انفراديته ، ومن ثم الانطوائية ـ التقريبية ـ التي ابتعدت به عن غشيان المجالس مما يجعل حيثيات ذلك الحكم عليه قاصرة .

وإن كان أحد من تلامذته (!!) قد آثر مثل الحكم عليه ، وقد يزيد من (عنده) فيتهمه بالأنانية ، او ما يقرب من ذلك (١) ، أو يذهب الى أن « السخط » كان ظاهراً عليه بحيث يستهلك أعصابه ويطغى على بعض فنون أدبه ، ولا سيما النقد بصورتيه الفنية والاجتماعية (٢) .

وتفسر لنا قصيدته « أنا ونفسي » ذلك كله أصدق تفسير ،.. وقوله فيها :

أعنتُ نفسي حتى مضّها السأم	وكدّها عمرٌ في الجد ينصرم
قالت تحاورني : يا ويح قلبك من	قلب بنى ما بناه وهو ينهدم
مقيّدٌ في وثاق من خلائقه	فما له لذةٌ إلا لها ألم !..
يناشد الملأ الأعلى وفيه الى الـ	أدنى مجاذبة ما دام فيه دم (٣)

---

(١) أذكر في هذا الصدد الأستاذ الجليل محمود محمد شاكر ـ رعاه الله ـ وقد كان للرافعي عليه يد !.. وانتظر دراستنا في « عيال الرافعي » !.

(٢) العريان ـ حديث خاص .

(٣) أنظر المقتطف كانون للثاني ـ يناير ١٩٢٧ م .

وهذه حياة لا تستدعي مثل ذلك الأغراب في التأويل والتفسير والتعليل ، إنما هي حالة من يلتزم بقيم علياء ومثل ، يسير بها الى الهدف الذي يرنو اليه في الحياة على هدى من الايمان يشرعه له منهاجاً ... ووحي من الفطرة ، يسلك به سجية وطبعاً .

ومثل هذا الالتزام قد ينقلب شذوذاً في بعض الأحيان إذا ما تجاوز في حدّيته ... او عند قصور التفسير في تمييز خصائص الاستقلال في الشخصية والانفراد بالرأي الذي يباعد بين صاحبه وبين جماعات الناس !

ولا بدع أن يخرج هذا الالتزام - فى حالة عدم الوضوح - سخطاً على التثمين العام ... وربما دفع بصاحبه الى مهاوٍ أقلها الورطة والانزلاق (٢) .

* * *

وهنالك خصيصة في الرافعي أشار اليها غير واحد ممن تصدى له في دراسة أو نحوها ، هي مبلغ اعتداده بنفسه ، واستطالته على الأنواء والأحكام النقدية !.. ويوردون في ذلك الاشارة الى مقالته في الثريا ، التي وضع نفسه فيها آخر الطبقة الأولى من الشعراء ... وكذلك يشيرون الى موقفه من الجامعة ... ثم يتهيبون ويشككون أمام معاركه الأدبية التي طارت أخبارها في الآفاق منذ وقف للماسون ودعوتهم الى العامية على لسان اسطونهم الكبير لطفي السيد (الذي اسمه أحمد)

(١) سعيد العريان - حياة الرافعي ص ١٧٧ ، وانظر أيضاً عباس محمود العقاد - ما هذا يا أبا عمرو في الجزء الثاني من (الديوان) .

يناصبهم العداء ،.. ثم مواقفه من واردات أوربة ،.. ودفاعه عن التراث العربي ، والقيم القومية في الأدب والدين والعلم والحياة (١) .

ولكننا لو تأملنا قليلا مع طيب الذكر الأستاذ فرح انطون صاحب مجلة الجامعة التي صدرت في الاسكندرية والمهجر أكثر من ربع قرن ، وقوله فى قصيدة الرافعي « اللغة العربية والشرق » :

« يحق للقاريء أن يقول معنا بعد تلاوة هذه القصيدة الغراء : هذا هو الشعر العربي المبين ! وكل من يعرف شباب الناظم لا يشك أنه سيكون له في هذا الفن أرفع مقام » (٢) وهو فى أول حياته الأدبية ، لأدركنا الكثير مما يجب على الدارس أن يقف عنده !..

ثم إن الرافعي نفسه كان السبب في تدريس الآداب العربية وتاريخها فى الجامعة ، وما كان من وضع مؤلفات فى فنونها من ثم (٣) .

ولما علم أنهم سيعهدون بتدريس الكتاب لغير مؤلفه قال باعتداد وتحدّ :
« .. فما بالهم لا يعهدون بالتأليف لمن سيعهدون اليه بالتدريس ؟! » (٤) .

فهو يجد في نفسه الكفاءة والمقدرة ، ولكن لا سبيل الى المكانة التي يتطلع

---

(١) راجع في ذلك - المعارك الأدبية لأنور الجندي ، ومادة الرافعي في موسوعته الكبرى ! وكذلك بدوي طبانة في « أسس النقد الحديث » وغيرها .

(٢) فرح أنطون - الجامعة ج ٦ ، ٧ - أيلول - سبتمبر ١٩٠٣ م .

(٣) الرافعي - المعركة ص ٦٩ - وانظر الدسوقي - في الأدب الحديث ، الجزء الثاني - التأليف .

(٤) الرافعي - المعركة ص ٧٩ .

إليها !.. وأمامه الماسون من أعضاء حزب الأمة الانفصاليين وأساتذة الجامعة الاقطاعيين !..

ويضع في الجديد خماسيته الانشائية الرائعـــة ، يتحدث فيها الى القمر ، ويدرس أحوال المساكين وأخطاء الناس ،.. ويهدي أوراق الورد . ولا يجد لها ذلك الصدى الذي يرن في أوربة وسواها بتفاهات !..

ويقف بنفسه وحيداً في معارك رهيبة ، فكرية وعلمية وأدبية ، لا يستطيع منازلته فيها أديب ولا قليل أدب (١) لقوة حجته ووفرة علمه ، وفصاحته .

ويكتب صفحات من البيان العربي ، لم يتهيأ لآداب اللغة في صدر أيامها ، وعنفوان صورتها البلاغية ،.. فلا يجد غير الجحود والكفران !.. وضيق العيش ، وهو إنسان قبل أن يلتزم بمثالية ، او يتسامى بقيم رفيعة !.. فكيف لا تتحول بعض أخلاقه في ساعات ؟ وكيف لا يضيق ويضجر في أحيان ؟! وكيف لا يسخط ويلج في النفور ؟!..

ومع ذلك كله فلم يكن يتولد عنده نوع من الخور في العزيمة ، يكفه عن المضي في سبيله التي ارتضاها لنفسه مؤمناً بأهدافه ،.. راعياً للمبادىء العليا التي وثق بها ،.. حسبه من خصومه وناقديه أن يؤمنوا بصحة ما يأخذون ، لا زيف ما يترجمون ، ولا انتحال أساليب ما يكتبون بـه ولا إخفاء الدوافع التي تملي عليهم (٢) .

---

(١) أنظر طه حسين ـ حديث الأربعاء ج ٣ ص ١٤٤ ــ لترى مبلغ الأدب والنقد والحجة في ذلك العهد (الجديد) !!

(٢) اسماعيل مظهر ـ المقتطف تموز ـ يوليو ١٩٣٧ م ، وصديق شيبوب ـ البصير ١٩٣٧/٥/٣١ م .

وهذا وحده كان يسمو بـه على سائر أدباء العصر ، بروح عالية وأدب جم ، ومثالية قلما ظفر بها من تصدوا له في منازلة او مدارسة !.

ومن اجل ذلك فقد ثقف نفسه بمـا وصلت اليه يده من نتاج العصر ، ومطبوع التراث موضوعاً ومترجماً ، دلّ بـه على حسن التناول وحـلو الاستيعاب ،.. حتى ليكاد يقرأ كل شيء ، ولا يفوته بعض ما يكتب او ينشر من العلوم والمعارف (١) :

ـ واضيء حياتك بالمعارف إنما هي في ظلام العمر كالنبراس
واجعل اساس العمر حب الله إذ لا خير فى حب بلا اســاس (٢)

وعلى هذا الأساس جعل طموحه ، فاتخذ الحكمة وسيلة الى غايته ، والاعداد سبيله الى الهدف والتربية قوامه في الحياة ، الذي يحفظ له قيمه ويمكنه من السداد .

فهو حيناً كان يبصر بالسر فى ضياع البلاد وأهلها :

إنما ضيّع البـلاد واهليهـا قديماً نساؤنـا الضعفــاء (٣)

ويرى أن تربية المرأة ، وإعداد الأم ، المنطلق الذي يبدأ الحيـــاة في الشرق العربي :

ربوا لذ الشرق يا قومي ممرضة تحنو عليـه باحساس ووجدان
ربوا له الأم يا قومي ـ فلو وجدت فى الشرق.. ما طاح في ذُلٍّ وإهوان (٤)

(١) عمر الدسوقي ـ في الأدب الحديث ج ٢ ص ٢١٦ وما بعدها ، وكذلك مذكراته في مناهج البحث الأدبي .

(٢) و (٣) الرافعي ـ الديوان ج ١ ص ١٨ ، ج ٢ ص ٤٩ .

(٤) الشرق المريض ـ المقتطف ـ كانون الأول ـ ديسمبر ١٩١٣م ، حديث القمر ص ١٢١ .

وهو لا ينظر الى الاجتماع بعين الشاعر الذي يكتفي بالمحة المصورة فحسب ،.. لا ، بل يتأمل جوانب ذلك الاجتماع ببصيرة نفاذة ، وعقل متدبر حكيم لا يحار في تناقص صور الحياة :

حنانيك يا رباه !.. كم بات سيد   يمدُّ يديه يسأل الناس مطعما
وكم من اشم الأنف ارغم انفه   وما كان يوماً يطرق الرأس مرغماً
إذا هم بالتسآل امسك بعدها   حياءً ، فلم يفتح بمسألة فما ! (١)

ويكاد ينفلق في استفهام استنكاري لا نجده عند دعاة الاشتراكية انفسهم :

أليس من التغابن – وهو ظلم –   جزاء السعي يكتب للقعود !! (٢)

ويتساءل كأنه يرى خلل الرماد :

.. فهل أرى رجلا فينا او وامرأة   بعد الخمود وطول الذل يتقد ؟ (٣)

وينظر بعيداً في سخرية لاذعة :

وقد أراني في قوم اولي كسل   كأنما انتفضوا من تحت ارماس (٤)

ويتعالى على المفهوم العامي او ما يسمى شعارات « الجماهير » :

.. ومما يزيد الهمَّ لهفاً وحسرة   تصايح فتيان لنا ان تقدموا ..
يريدون ان يجري الى مرتقى العلى   رجالٌ ضعاف ان جروا يتحطموا (٥)

فكأنه يريد وسائل القوة التي تضمن ثبات التقدم الحضاري :

---

(١) الرافعي – حريق ميت خمر – الديوان ج ١ ص ٦٥ .
(٢) و (٣) » – الديوان ج ٢ ص ٢٠ ، ج ٢ ص ٤٥ .
(٤) و (٥) » – » ج ١ ص ١٣١ ، ج ٣ ص ٩٦ .

يا قوم ما نفع الضعيف شكاته | كلا ولا شفع البكاء لباك
ذُلّ الضعيف مع القوي طبيعة | إلا اذا ســـاواه في الادراك (١)

* * *

ويقول في السياسة وضلالاتها :

من شرّ ما عاب السياسة أنها | وجدت،.. ومن يرضونها لم يوجدوا
الناس ما طلبوا الضلال وإنما | ضلوا لأن هداتهم لم يهتدوا (٢)

ويخاطب الملك فؤاد بمثل قوله :

لن يشبع الجوع من علم ومن حجج | إن البراهين عند الجوع رغفان !..
ري الشعوب كري الارض أخضله | صوبان بأثينهما الريان ريان
ولو رأيت شعوب الارض يحكمها | خيارها.. ما طغى في الارض طغيان (٣)

وقد رأينا كيف انه لم يكن يحفل بالزمان الذي غدا فيه غريباً في التاريخ :

زمن غرب الكرام فأمسوا | كنبيين ما لهم من دعاة (٤)

ومن يتأمل في مثل قوله :

إذا ما دعاك الحق للظلم مرة | وقد كنت ذا حلم فلاتك ذا حلم
فإن من الاشفاق ـ إن زاغت النهى | عن الحق ـ ميل المشفقين الى الظلم (٥)

---

(١) الرافعي ـ الديوان ج ٣ ص ٢٠ .

(٢) « ـ وياسون ـ المقتطف شباط ـ فبراير ١٩١٩ م .

(٣) « ـ الأخبار ـ مايو ١٩٢٧ م .

(٤) « « شباط ـ فبراير ١٩٢٧ م .

(٥) « الديوان ـ ج ١ ص ٢١ .

لا يشك أن الرافعي كان من دعاة « المبضع » في إرادة التغيير ، وتطوير الاجتماع وربما كان مؤمناً أيضاً بنظرية المستبد العادل !..

ومما يضاف هنا موقفه من محاولة « الوفد » جره الى الكتابة في صحيفته يومياً بعد عام المعاهدة ١٩٣٦ م ، وخروج العقاد على خلفاء سعد .. وكيف دفعه إباؤه الى رفض مئة وعشرين ديناراً - جنيها - شهرياً على قبول مثل هذا العرض الزائل !..

ولكن هذا الرفض ايضاً دفع وزير المال - الى الانتقام منه بعد وفاته (١) بحماقة تدل على حقيقة « الروح السياسية » الشريرة التي كانت آنذاك ، والتي طوّحت بها أنانية مكرم عبيد الى حرمان ابنائه حقهم في مرتب ابيهم ذلك المرتب الذي تأخر في الوظيفة عن المعاش (التقاعد) من اجله لهم .. فلم يحصلوا عليه حتى اليوم ..

فأين بضعة عشر عاماً من الثورة في الإنصاف ؟! ورد الحقوق والاعتبارات ؟!

---

(١) سعيد العريان - الرسالة ٢٥٣ السنة الخامسة . خل عنك يا وزير المالية .. فالله أكرم .

الفصل الخامس

ثقافة الرافعي وروافدها

إن حظ الرافعي من الدراسة النظامية لم يكن يتعدى الكتاب والمدرسة الابتدائية ، التي ظفر بشهادتها وعمره بضعة عشر عاماً (١) كما قدمنا ..

وفى السنة التي نال بها هذه الشهادة بتفوق ، أصابه مرض مشف ، اثبته في فراشة أشهراً ، فما نجا منه إلا وقد ترك في أعصابه أثراً (٢) بقيت منه صحته العامة الى آخر أيامه غير منتظمة ، فلا يكاد يرى العافية بضعة أشهر من السنة يعاود فيها نشاطه ، حتى ينتكس بمرض آخر ! (٣) .

ولم يكن هم المرض قاصراً على ما يسمعه ، بل مس من جسمه أكثر من موضع ، فعاش حياته كلها معتلا ، ليس بالسليم المعافى (٤) .

---

(١) أحمد محمد عيش – سيرة الرافعي – المقتطف ٩١ – ص٥٢٩ – ١٩٣٧م .

(٢) محمد سعيد العريان – حياة الرافعي – ص ٢٩ .

(٣) أنظر الرافعي – في الرسائل التي أخرجها محمود أبو رية .

(٤) نعمات أحمد فؤاد – دراسة في أدب الرافعي ص ١٦ .

وكانت علة الصمم التي أصابت أذنيه، فتركتهما لا يؤديان عملا ولا ينقلان معنى (١) هي التي قطعته عن التعليم في المدارس، لينقطع بعصامية وطموح لمدرسته الخاصة التي أنشأها لنفسه ..

على أن نبوغه في العربية وعلومها أدهش مدرسيه وزملاءه في الابتدائية، ولا سيما حين هم أن يضع شواهد للنحو من نظمه .. (٢).

.. وذلك لتوفره على الدراسة ليل نهار، وملازمته لأبيه، يصحبه ويأخذ عنه علوم البلاغة، والتفسير والحديث والمأثور في تلك المدرسة التقليدية الرافعية التي لا ينشأ الناشيء منهم حتى يتناولوه فيها بألوان التهذيب والثقافة التي تطبعه بطابع الأسرة وقيمها العمرية.

« وكان لهذه التربية في بيت أبيه مكتبة حافلة، تمدها بأشتات من نوادر كتب الفقه، والعربية، فأكب عليها حتى استوعبها وراح يطلب المزيد »(٣).

وكانت علته من هذه الناحية خيراً عليه وبركة، فسرعان ما غدت هذه المكتبة جامعته ... « يقيم الكتب نفسها مقام العرب والرواة الذين كانوا أصل دولة البلاغة (٤) وعلماؤها رواته، وأدباؤها سماره، يأخذ عنها العلم كما كان

---

(١) العريان ـ حياة الرافعي ص ٢١.

(٢) » ص ٢٨ عن أستاذه المرحوم مهدي خليل، وانظر محمد ـ صبري ـ شعراء العصر ٢٣١، سعيد ميخائيل ـ آداب العصر ص ٢٩٣.

(٣) العريان ـ حياة الرافعي ص ٣٠.

(٤) الرافعي ـ الهلال ـ مستقبل اللغة العربية ـ الهلال ـ شباط (فبراير) سنة ١٩٢٠ ـ ص ٤٠٠.

يأخذه المتقدمون من علماء هـــذه الأمة فما لفم » (١) .. فنشأ بذلك نشأة السـلف يرى رأيهم ، ويفكر معهم ، ويتحدث بلغتهم وتتراءى له أحلامهم ومنامهم .

وقد ظل على هذا الدأب من القراءة والاطلاع الى آخر يوم من عمره ، يقرأ كل يوم ثماني ساعات متواصلة ، لا يمل ولا ينشد الوحدة لجسده ، وأعصابه ، كأنه من التعليم فى أوله ، (٢) متوسعاً في المحفوظ ، ومتثبتاً من النقل ، وبالغاً الغاية فى الأخذ والاستيعاب (٣) .

وهكذا عرف العلم سبيله الى رأس هـذا الفتى الضاوي الجسد ، الذي هيأته القدرة بأسبابها ، والعجز بوسائله ، فساعدته على اتساع خياله ، ودقة تفكيره وإرهاف حسه ، منذ أن ضربت علي أذنيه بذلك الستار حائلة بينه وبين شبابه .

ولكنها مكنته من أن يعيش منطوياً على نفسه لا تزعجه أصوات هذا العالم الذي يكاد يختبل من ضجيجه وصخبه .

« وهو يذكرنا من هذه الناحية ـ ومن ناحية سلامة اللغة بالكاتب الفرنسي الكبير شارل موراس زعيم الحزب الملكي ، ومدير صحيفة (الاكسيون فرانسيز) .. فإنه مثل الرافعي ، أنزل الله على أذنيه صمماً جعله يعيش في نفسه

---

(١) العريان ــ حياة الرافعي ص ٣٢ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) الرافعي ــ تاريخ آداب العرب ص ٧٣ ، الروايـــة والرواة المقتطف ـ أيار ـ مايو ١٩٠٥ م .

حياة كلها رؤىً وأفكار » (١) .

وكانت أول امتحانات هذه الجامعة ، في ذلك الالمام الواسع الذي تدلنا عليه مقالاته الأولى ، وهو لم يتعد العشرين من عمره ،

ففي رسالته المؤرخة في ١٨ محرم ١٣١٨ هـ ـ التي أشار فيها الى تأسيس « جمعية السنة الاسلامية » لتكون من شعاع « شمس الاسلام » (٢) يظهر لنا أثر دراساته تلك واضحاً ، بما لم يكن يتهيأ لخريجي الدراسات العليا في أيامنا هذه ، من البصيرة والرأي ، والاستشهاد ، والأخذ والتضمين لمذاهب القول ، وفنون الحكمة ، ورَيِّق الشعر ، وعذب الحديث ، واعجاز الآي الكريم .

كل أولئك يجري بأسلوب الداعية المتفائل ، والبشير الغنيم .

وما يلبث في تلك الأيام نفسها ـ وقد بدأ قرض الشعر ، وراح يطاول الشعراء ، حتى راح يعقد « للشعر العربي » (٣) محاضرة ، يتنقل فيها من التاريخ

---

(١) صديق شيبوب ـ البصير في ١٩٣٧/٦/٤ ـ وقد حدثني شيبوب نفسه والشيخ أبو رية أن الرافعي (رح) كان يسأل من يعرف الفرنسية لينقل له بعض ما يكتبه موراس !..

(٢) لرافعي ـ المنار ـ الأحد ٢١ محرم ١٣١٨ هـ ـ مايو (أيار) ١٩٠٠م ص ١٩٠ ، وفي تلطفه بالتسمية اعتراض ضمني على اسم جمعية شمس الاسلام، التي اضطلع بها السيد محمد رشيد رضا (رح)، لاختلاط الشمس بالشعارات الوثنية (شمس المجوس) .

(٣) الرافعي ـ الشعر العربي ـ المنار ـ غرة ربيع لأول ١٣١٨ هـ ـ تموز سنة ١٩٠٠ م ـ ص ٣٦٤ .

وملحه وطرائفه ، الى النقد وأساليبه ونماذجه ، فيأتي علي صفات الشاعر ، وثياب أداته، ومواد فنه ، وآيات انفراده، وفيض قريحته ، فيقرر حالاً ويقارن بأخرى .

ثم يعرج علي الآراء يلاحقها ، فيقطع شوطاً مع الخليل ، وآخر مع ابن رشيق، وثالثاً مع ابن أبي الاصبع العدواني ، ويستتطرد بنماذج للشعر والشعراء من الملك التضليل الى الحطيئة .. والى جرير ، وابن المعتز ويحيي بن هذيل ، وأبي العتاهية ، حتى يصل الى زجل الشيخ علاء الدين بن مقاتل الحموي ..

كل ذلك وكثير غيره يهيئه في مقال واحد ، ينقض به على « شعرائنا اليوم » وهم بين من لا يخرج بمعنى جديد كالأخرس ، وبين من يتعصب للغرب من أبناء الشرق ، و « هم بمعزل عما يقوله الشاعرون » .. حتى يرى الرأي ..

وقد أخذ عليه « المنار » الغلو في قدح القديم ومدح الجديد .. ثم اتفق معه على « أن حالة العصر تقتضي أن تكون « الأدبيات » موافقة للشؤون الاجتماعية ، التي تجذب وجدان الأمة الى الفضائل التي ترتقي بها » (١) .

* * *

أما أولى شهاداته فكانت في مقدمة ديوانه الأول ، والتي نشرتها المؤيد فى صدر صفحتها وفتنت الشيخ ابراهيم اليازجي ، وناهيك به انفراداً بالنقد والبلاغة فى ذلك العصر ، حتى قضى ثلاثة أسابيع يبحث فيما عنده من المظان لعله يعثر بها مسروقة من بعض الكتب (٢) .

---

(١) المنار السابق . (٢) الرافعي - الرسائل ٢٣٠ ، وسعيد العريان - حياة الرافعي ٤٨ ، وكلاهما عن طيب الذكر جورج ابراهيم الشاعر .

والشهادة الثانية كانت في نقده لشعر البارودي (١) ومحاولته البحث في « الرواية والرواة » في ذلك الفصل الكبير الذي عقده للمقتطف (٢) والذي أضحى من ثم بعض مادة كتابه الخالد في تاريخ آداب العرب .

يضاف اليهما المقدمتان الأخريان لجزئي الديوان الباقيين .

وعلى أن الرافعي ، قد جعل للصياغة الشعرية ، والصورة البيانية فى هذه المقدمات تحليقاته ، إلا أنه دل بها على ما كان له من واسع الاطلاع ، ووافر الأخذ والمعرفة .

« وبقي الرافعي في مدرسته الجامعة هذه التي أنشأها لنفسه ، يدرس ، ويطالع ، لا يرى أن انتهى من العلم الى غاية ، ليتزوّد للشعر زاده ، وليبلغ من العلم مبلغاً يعينه على أن يقول وينشيء » (٣) .

ومضت سنتان على إنشاء الجامعة الأهلية فى عام ١٩٠٧ ، أخرج خلالها الجزء الأول من ديوان النظرات ، ومقدمته فى نوع من نقــد الشعر ، دلت كسابقاتها على علمه وفضله ، ولم يجد فيما استحدث فى الجامعة من دراسات في الأدب ما يفتقر اليه ، وما تحدث أساتذتها حديثاً لا يعرفه الرافعي (٤) .

حتى أقدم على الكتابة في « الجريدة » ورئيس تحريرها يومئذ أحمد لطفي السيد ، المهيمن على الجامعة ،.. حاملا على الجامعة وأساتذتها ، ناعياً عليهم مناهج الأدب فيها ، حتى رن مقاله رنينه وأحدث أثره ، وكان السبب في التأليف

---

(١) الرافعي - شعر البارودي - المقتطف - مارس (آذار) ١٩٠٥ م .

(٢) الرافعي ــ الرواية والروة ــ المقتطف - مايو (أيار) ١٩٠٥ م .

(٣) و (٤) محمد سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٦٥ .

في تاريخ الأدب العربي (١) .

وحين أقدم على التأليف في « تاريخ آداب العرب » سنة ١٩٠٩م ، فكأنما تقدم لنيل شهادة (العالمية)- الدكتوراه - من جامعته هو ! .. أمام « الجامعة الأهلية » مستكملا سره من أبيه ، ومذكراً ببراهينه في جداله بعض العلماء (٢) .

وقد أدهش العلماء تأليفه - ولم يكن قد تعدى الثلاثين من عمره ، على وضع وسائل البحث آنذاك ، وتنكبه مناهج المستشرقين ، واقتراعه منهاجاً ينفرد بـه ويصونه (٣) حتى عجب القوم « أين ومتى اجتمع له هذا القدر من المعارف في شئون العرب والعربية ، فألف بينها في كتاب » (٤) .

وهكذا .. حتى غدا إماماً في الأدب ، وحجة في الشعر العربي ، وأوسع أهل العربية اطلاعاً وعلماً (٥) .

وحسبنا أن نوجز القول فيما أشار بـه على طلابه ، وما أفاضت به رسائله من السلوك في الدراسات والاطلاع ، والأخذ ومناهجه العلمية في ذلك ، لندرك أي مدى قطع الرافعي في اشواطه العلمية والثقافية ، بما جعله بحق يأخذ على عاتقه

---

(١) الرافعي - تحت راية القرآن ص ١٦ - الرسائل ص ٣٩ ، والعريان - حياة الرافعي ص ٦٧ .

(٢) محمد سعيد العريان - حياة الرافعي - ص ٢٠ وما بعدها .

(٣) عمر الدسوقي - مذكرات في مناهج البحث .

(٤) العريان - مقدمة الجزء الثالث من تاريخ آداب العرب للرافعي .

(٥) زكي محمد مجاهد - الأعلام الشرقية - ج ٤ - ص ٤٣ ، وشكيب أرسلان بمقدمة رسائل الرافعي .

مهمة الارتفاع بالمستوى البياني للأسلوب العربي ، ليقف بـه أمام العصر بجدارة واستعداد !..

ففي الرسالة الأولى المؤرخة في ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٢ م ؛ التي وجهها الى الشيخ أبي رية ولم يكن بينهما سابق معرفة « .. يشق على أن أدلك على غرضك من كتب النحو ، لأني لست على بينة من قوتك في فهم كتب القوم والبصر بها ..

غير أنك لو سألتني عن أنفع وأمتع كتاب طبع فى النحو ، لدللتك على « شرح الكافية للرضي » وهو كتاب ضخم ، ليس فى كتب العربية ما يساويه بحثاً وفلسفة » (١) .

وهذا قول يشف به الرافعي عن نفسه ، وقد أتى على كتب النحو جميعاً دراسة ونقداً ، ومن ينظر في نقده لشعر أحمد شوقي (٢) ، والردود التي طارت حوله في المقتطف وأبولو والرسالة ، ولا سيما رده على العقاد (٣) ، يدرك مبلغ علم الرافعي فى النحو ، فقد يذهب أحياناً الى القول :

« إن مذاهب العرب واسعة ، ولنا ما لهم من التصرف في الاستعمال إذا لم نخرج من قاعدتهم ، وأعتقد أن مذاهب العرب ليست بالضيق الذي يتصورونه » (٤) .

(١) الرافعي ـ الرسائل ص ١٢ .

(٢) الرافعي ـ شوقي ـ المقتطف ـ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٣٢ م ـ وحي القلم جـ ٣ ص ٣٤٤ .

(٣) الرافعي ـ نقد ورده ـ المقتطف ـ شباط ـ فبراير ١٩٣٣ م ، وانظر مجلة أبولو ـ مجلد عام ١٩٣٣ م .

(٤) الرافعي ـ الرسائل ص ٦٧ .

ويرسم في رسالة أخرى طريق امتلاك « ناصية الأدب » .. ينبغي أن تكون لك مواهب وراثية تؤديك الى هذه الغاية ، وهي ما لا يعرف إلا بعد أن تشتغل بالتحصيل زمناً، فإن ظهر عليك أثرها، وإلا كنت كسائر الذين يستعيضون عن الموهبة بقوة الكسب والاجتهاد » (١) .

وهذه نظرة تشبه الى حد رأي بيكون في أن « المقدرة الطبيعية كالنبات تحتاج تشذيباً بالدراسة » (٢) وكذلك في محصلة اليزابث درو :

« والشعر ينبع من مصدرين ، من جبرية غامضة تكمن في اللاوعي ، ومن تنظيم صناعي تام الوعي ، فهو عملية تختلط فيها الحياة باللغة ، ويلعب فيها كل من التنقيح والطبع » (٣) .

ولو تأملنا في الخلاصة التالية لجوابه على استفتاء الهلال عام ١٩٢٦ م عن الكتب النافعة والتأليف المفيد (٤) ، فقد أجاب بما يدل به على حمله رسالة التعليم والرأي في التربية والثقافة والأمة !..

« .. في أيام التحصيل كنت أقرأ كل ما أصابته يدي ، وكنت أكثر من الملاحظة وأدقق فيها ، فلا اعرف كتاباً أنا منه أكثر مما أنا من غيره ... ولكن إن يكن ، فلعله كتاب في الحديث اسمه « الجامع الصغير » كنت أحضر بـه درس أبي ـ رحمه الله ـ .

---

(١) الرافعي ــ الرسائل ص ١٥ .

(٢) اليزابث درو ــ الشعر كيف نفهمه ونتذوقه ـ ترجمة محمد ابراهيم الشوش ص ٩ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٥ .

(٤) الرافعي ـ الهلال ـ كانون الأول ـ يناير ١٩٢٧ م ص ٢٧٥ .

ثم قرأت بعد ذلك للأفغاني ، والشيخ محمد عبده ، وكتاب « سر النجاح » الذي ترجمه يعقوب صروف ، ثم كتب غوستاف لوبون ،.. ثم الكتب كلها !.

فلم تغن أوربة عن روح الشرق ، ولا يغني الشرق عن فكر من أوربة .

ويقول بعـــد ذلك : « أنصح بقراءة كتب الأديان قبل سواها ؛ فإذا استوفى الشاب منها قانون ، ضميره فهو أبصر بعد بحاجاته ، وليكن عربياً شرقياً ، ثم ليقرأ ما يشاء ، فالصحة تجعل كل غذاء صحة » .

ويرى ايضاً ضرورة « تهذيب المكتبة العربية تهذيباً فلسفياً (١) ، وبيان أسرار حضارة الشرق في أديانه وآدابه ، ونقل اسمى ما في الأدب الاوربي » .

أما منتهى سعادته وآماله فتبلغ في قوله :

« ولو أحياني الله حتى ارى لقومي مجمعة « انسكلوبيديا » عربية كبرى تبلغ من السعة والوضع وحسن الترتيب وشدة التبين ، وقوة الاستيعاب ما بلغته المجمعة الفرنسية ، لكنت سعيداً حق سعيد ...

فإن لم نكن اهل هذا العمل الجليل ، فلنحرص على أن نساعد اهله بوضع ما يعد من مواده وأجزائه » (٢) .

* *

ثم إنـه يصف اقرب الطرق الى الحظـــوة فى دراســـة الأدب « .. فاجتهد أن تكون مفكراً ناقداً ، وعليك بقراءة كتب المعاني قبل كتب

(١) راجع نعمات أحمد فؤاد - دراسة في أدب الرافعي - المقدمة ص ٣ ! وتأمل المفارقة !!

(٢) الرافعي — الهلال - يناير ١٩٢٧ م - ص ٢٧٥ .

الألفاظ ، وادرس ما تصل اليه يدك من كتب الاجتماع والفلسفة الأدبية في لغة أوربية ، او فيما عُرِّب منها ! . .

واصرف همك من كتب الأدب الى كليلة ودمنة ، والأغاني ، ورسائل الجاحظ ، وكتاب الحيوان والبيان والتبيين ، . . وتفقه في البلاغة بكتاب المثل السائر .

وهذا الكتاب وحده يكفل الملكة الحسنة في الانتقاد الأدبي ، وقد كنت شديد الولوع بـه - (١) .

وبعد أن يرى حفظ ألفاظ نجعة الرائد لليازجي ، والألفاظ الكتابية للهمداني ، يدعو الى مطالعة يتيمة الدهر للثعالبي ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وزهر الآداب للحصري ، . . و « لا تنسَ شرح الحماسة ، ونهج البلاغة فاحفظ منهما » (٢) .

ولا ينسى أن يشير « بمجلتين يعنى بقراءتهما كل العناية - المقتطف والبيان (الشهرية) ، ثم الصاعقة (الاسبوعية) ، وأخيراً الجريدة (اليومية) (٣) .

ويختم الرسالة بقوله :

« ورأس هذا الأمر بل سر النجاح فيه أن تكون صبوراً ، وبعبارة صريحة أن ما يستطيعه الرجل لا يستطيعه الطفل إلا اذا صار رجلا » (٤) .

(١) و (٢) الرافعي - الرسائل ص ١٥ ، ١٦ .

(٣) المقتطف لصروف ونمر ، والبيان كان يصدرها الشيخ عبد الرحمن البرقوقي ، ويشرف عليها الرافعي نفسه ، والجريدة للطفي السيد ، والصاعقة لأحمد فؤاد .

(٤) الرافعي - الرسائل ص ٢٢ ، ٢٣ .

وفي الرسالة المؤرخة في ١٠ يناير (كانون الثاني) ١٩١٦ م ، يورد أسماء بعض كتب الاجتماع والفلسفة الادبية ، كتاريخ التمدن لكيزو ، وسر تقدم الانجليز ، وتطور الأمم ، والتربية الحديثة ، والواجب تعريب طـه حسين ، والسلطة والحرية لتولستري ، وكتاب (الفلسفة النظرية) وفيه وحده الكفاية .. وهو من تأليف قوم من أعلم الناس بفنون الفلسفة والاجتماع وعلم النفس والتربية والأخلاق (١) .

ولا ينسى في آخر الرسالة أن يعيد قوله « إقرأ كل ما تصل اليه يدك ، فهي طريقة شيخنا الجاحظ ، وليكن غرضك من القراءة : إكتساب قريحة مستقلة ، وفكر واسع ، وملكة تقوى على الابتكار .. فكل كتاب يرمي الى إحدى هذه الثلاث .. فاقرأه » (٢) .

.. وفي رسائل أخرى ، يستفيض ويتوسع فى الايضاح كأنه يكشف عن سرّه وطريقته فى تناول المعلومات والدرس والحفظ ، والاطلاع والاستيعاب (٣).

وحسبنا أن نتأمل في مثل قوله :

« .. أعتقد أن طريقتي في التفكير المستمر قبل الإقدام على العمل أفضل وأنفع » (٤) ، فلماذا التفكير والتفكير المستمر ؟! .

ذلك أن الرجل من إحاطته وعلمه ، يتحرى الفضل فيما يصنع ، بحيث لا يندم على عمل فيه مشابهة لآثار من سبقه ، وإلا فما هو بالتأليف !..

(١) و (٢) الرافعي - الرسائل ص ٢٢ : ٢٣

(٣) الرافعي - الرسائل ص ٤٠ ، ٤٢ ، ١٢٢ ، ١٩٦ ، ١٩٨ . الخ .

(٤) الرافعي - الرسائل ص ٢٢٤ .

أرأيت من أدباء جيله من دعاة التجديد من له مثل هذا التفكير ؟! وهل هناك معنى للتجديد أرفع من هذا ؟!.

* * *

ومن يتهيأ له أن يرى الرافعي في رود، وإيضاحاته لمسائل اللغة، والتاريخ (١) والتفسير، يهوله سعة اطلاع الرجل، وشدة بصره، وتبحره في هاتيك المسائل جميعاً، ويأخذه العجب من توفره على مادة كل مسألة من هاتيك في مظانها من أمهات المصادر والمراجع، وقد استوفى فيها العلم، وزاد عليه رأيه، الذي قلما يخطيء، وقد يضع فيها وضعاً جديداً ليس منه علم معاصريه.

ومن ذلك مناقشته للأب أنستاس ماري الكرملي (كلدة) او (مستهل) في الأدب والأديب (٢) وعروبة كلمة قريش (٣) والخليفة.

في أو كلامه (حسب) (٤) والنسبة الى الطبيعة (٥).

أو مناقلته للدكتور زكي مبارك حول نشأة فن المقامات (٦).

أو كلامه في التجديد والمجددين (٧)، ومستقبل اللغة العربية (٨)،

(١) الرافعي ـ الرسائل ـ ص ٢٢٤.

(٢) الرافعي ـ المقتطف ـ تشرين الثاني ١٩٢٣م، كانون الأول ١٩٢٣م.

(٣) الرافعي ـ المقتطف ـ آذار ١٩٢٤ م.

(٤) » » ـ أيار ـ مايو ١٩٢٤ م.

(٥) » » ـ آب ـ أغسطس ١٩٢٤ م.

(٦) » » ـ أيار ـ مايو ١٩٣٠ م.

(٧) و (٨) الرافعي ـ الهلال ـ آذار ١٩٢٩ م، شباط ١٩٢٠ م.

ونهضة الشرق العربي (١) ، الى آخر ما هناك - عدا مقالاته وأبحاثه الأخرى ، والتي ما يزال الجزء الكبير منها ما بين منحول لغيره ، او مخطوط في أوراقه التي أسرع اليها البلى، ومكتبته التي أضاعتها « دار الكتب » بعد شرائها !.. من أولاده عام ١٩٤٣ م على أساس أن تكون جنب مكتبة أحمد زكي وتيمور باشا !..

* * *

ولم يكن اطلاع الرافعي مقصوراً على الأدب والحضارة العربية وتاريخها وعلومها فحسب ، بل جاوز ذلك الى كل ما هو معرفة على طريقة الجاحظ (رح) - وكما تقدم ذكره ، من قراءته كل ما يصل الى يده ، فبالرغم من عدم إتقانه الفرنسية التي تعلم مبادئها في الابتدائية ، إلا أنه قرأ كل ما ترجم الى العربية في زمانه من لغات العالم أجمع (٢) .

وقد كان يدعو لدراسة بعض العلوم في لغة أوربية كما تقدم ، ولا يفتأ يذكّر كل ما يراه يتقن هذه اللغة الحديثة ، أن ينقل لنا عنها .

ويقول المرحوم اسماعيل مظهر « .. لم أكن ألقاه إلا استعجلني ترجمة كتاب عن علم من أعلام أوربة ، مختاراً في الاغلب الكتب التي تدعو الى حرية الفكر ، وإلى نشر المباديء العلمية الحديثة ، كأنه كان يعتقد أن الإيمان الصحيح لا ينبغي أن يقف عثرة في سبيل الفكر ، أياً كان مصدره ومرماه » (٣) .

---

(١) الرافعي - الهلال - حزيران ١٩٢٣ م .

(٢) عمر الدسوقي - مذكرات في مناهج البحث الأدبية .

(٣) اسماعيل مظهر - المقتطف - ارتحال الصديق - حزيران - يونيه ١٩٣٧ م .

.. لقد أطلعني الأستاذ أبو رية على مسودة ترجم فيها العقاد (رح) كلاماً لبرنارد شو في المرأة ـ وقد جرى في الترجمة قلم الرافعي الأحمر ، حتى جعل منها قطعة أدبية رائعة ، وكتب عليها مترجمة بقلم الاستاذ الأديب الفاضل عباس محمود العقاد (١) .

وفي ورقة أخرى ، يشير عليه بالمعنى في الترجمة (٢) .

ومن يتصفح كتابيه الجليلين « المعركة ـ تحت راية القرآن » و « على السفود » يرُعهُ منه ذلك البصر بآداب اللغات الأوربية ، كأنما لم يكن يفوته منها شيء ، بالرغم من اعتماده على الترجمة حسب ، كما قدمنا .

فنرى مثلا أنه يعرف أناتول فرانس ، ونزعته الاشتراكية ، وتقريره أن القرن السابع عشر هو عصر البلاغة الفرنسية (٣) وقد عدّ بوسيويه المثل الأعلى للنثر (٤) وأن موريس باريس ـ الكاثوليكي ، لم يتحفظ حين قال إنه حفظ اللغة (٥) .

---

(١) تجدها في مجلة البيان ـ ١٩١٢ م .

(٢) .. ومن أجل ذلك ، لم يكن الرافعي (رح) ينظر اليه من غير هذه الناحية ـ وانظر مقالاته في نقد وحي الأربعين ـ البلاغ ١٩٣٤ م .

(٣) الرافعي تحت راية القرآن ٣٤٩ ، المقتطف ـ إبريل (نيسان) ١٩٢٥ م حول السحاب الأحمر .

(٤) الرافعي ـ تحت راية القرآن ـ ص ٣٦ .

(٥) المصدر السابق ص ٣٧ .

ويوصي بشراء كتاب أنتول في مباذله ، فهو « فيما عدا أفكار الالحاد - محصول عقلي مفيد جداً - » (١) .

ويكتب مقدمة المساكين ، فيظهر له أنها « أوسع وأمتن وأرقى من كلام برجسون فيلسوف فرنسا كلها » (٢) .

ويبصر في الاستشراق ، فيرى مستر جب ومرجليوث وتلفيقهما على الأدب العربي (المسكين اليتيم) (٣) .

* *

ويحتفل بنقد جون لمتر ، و « شعوره النبيل القائم على الفهم والحق ، وعلى القلب والعقل معاً » (٤) .

ويعرف هايني الشاعر ، ويصوغ لشلر الألماني شعراً (٥) (في وليم تيل):

يفنى البرايا ويأتي الوقت مختلفاً ليخرج الدهر تاريخاً من الرمم

ويستنجز ترجمة لشيلي (٦) ... ويكشف سرقات أدباء الجيل عن برنارد شو ، وهيرتشو مدرس التاريخ بكلية الملك بجامعة لندن (٧) .

---

(١) الرافعي - الرسائل ص ١٢٠ .

(٢) الرافعي - الرسائل ص ١٥٤ .

(٣) الرافعي - الرسائل ص ١٦٨ .

(٤) الرافعي - على السفود ص ١١ .

(٥) شكيب أرسلان - مقدمة - حاضر العالم الإسلامي - عجاج نويهض ترجمة عن لوثروب ستوارد ص ١ ج ١ .

(٦) من رسالة للأديبة فكرية زكي - المؤرخة في ١١ أيلول - سبتمبر ١٩٣٥ .

(٧) الرافعي - على السفود - ص ٢٦ ، ٦٧ .

ويرد أصول الترجمة ، والمصطلحات الى اللغة نفسها ، ويسخر من الترجمة الصحافية بالمقص (١).

وقد قطع بذلك أشواطاً ، جعلت من صديق شيبوب لا يتردد عن مقابلته بشارل موراس زعيم الحزب الملكي فى فرنسا ، ومدير صحيفة « الاكسيون فرانسيس » « ... فإنه مثل الرافعي شاعر وأديب يعيش في نفسه حياة كلها رؤى وأفكار ، وانه شديد الوطأة على مجادليه ، سليم اللغة مرهف الاحساس » (٢).

* *

ولا بدع أن من يتوفر على بعض هذه الثقافة الواسعة الشاملة ، وتهيأ له من روافدها ما تهيأت للرافعي ، أن يغدو إماماً في عصره ، او يضحى بعد ذلك « أعلم أهل زمانه بالشعر واللغة وتاريخ الأدب » (٣).

ومن ثم لا تراه يكتب بعد ذلك إلا بلغة الشعر ، فكأنما « كانت الروح الشاعرية عنده ، تلاحقه الى النثر ، لتشبع الكلمة هناك بعطاء فذ يخلقها خلقاً جديداً » (٤).

---

(١) الرافعي – صعاليك الصحافة الرسالة ص ١٨٩ .

(٢) صديق شيبوب – البصير ٤/ ٦ /١٩٣٧ ، وقد مات موراس حوالي عام ١٩٥٣ م .

(٣) زكي مجاهد – الأعلام الشرقية – ج ٤ – ص ١٤٣ .

(٤) محمود حسن اسماعيل – في حديث خاص .

يظهر لنا مما تقدم بجلاء أن الرافعي قد تفاعل مع عصره ، بالرغم من جميع المعوّقات التي وقفت في سبيله السويّ !..

فإذا فاتته الفرصة في الصحة والعافية ، لم يفته منهما الفكر والتأمل الواعي والدرس الذي يؤتي أبلغ العبر ، وأسمى آيات الحكمة ، في استبطان الذات والغور في أعماق النفس الانسانية ، والتسامي الى المصاف الاجتهادية العليا للفكر ، والتي لا تقل رفعةً عما هي عليه عنـــد الأفذاذ العلماء من مفكري الانسانية في أوربة والعالم الجديد (١) .

وإن تحيفه الزمان فأبقاه دون الانتظام بجامعة ، او التخرج على أستاذ بعينه ، لم يكن العصر نفسه ليبخل عليه ، بأطايب العلوم والفنون ، وآيات الفكر الانساني ، في الفلسفة والتاريخ والاجتماع ، الذي نهضت فيه الدنيا العربية بعامة ، وأخذت من أسباب التقدم ومنازع الحرية ما عملت فيه على تحطيم الاغلال وكسر قيود الضياع الذي ران عليها حقبة من القرون .

فقد تيسر له من الثقافة ما عرفنا روافده ، وتوفر لديه من معطيات الحضارة الجديدة ، ما كان سباقًا اليها يلقفها بنهم ، ويغار عليها ، فيلتمس ما فاته في اللغات الأخرى عند تراجمها والملمين بها .

---

(١) بدوي طبانة ، ومحمود ابراهيم - تاريخ الأدب الحديث الرافعي ص٤٣ .

ولئن ضاقت ذات يده ـ أحياناً ـ أن يحوز ما يبتغي من مظان العلم ومصادر البحث، ومراجع المقارنة والأخذ، فقد فتحت الصحافة أبوابها وفرشت له دور الكتب ردهاتها، وناوله المرشدون فيها ما يهفو اليه من علوم ومعارف، وآداب وفنون، وآراء وفلسفات، وقيم!..

حتى ليكاد الدسوقي يجزم بقراءته كل ما ترجم من كتب النقد والآثار الغربية في عصره، متأثراً بها، وكان أسرع أدباء جيله في مثل هذا التأثر!..

ومن ناحية ثانية فقد برزت آثار العصر الحضارية في فنه وشعره، فكان من المستبقين في نعت الصفات الجديدة من آيات العلم والمدنية، كالنور الكهربائي والمخترعات الحديثة في القطار والعربات ـ وسوى ذلك!.. بروز اغتباط وأخذ، لا سلبية وإحجام!..

وفي غمرة هذه العصرية الجديدة، وهو ينتصر لعقيدته وينشد لوطنه ويتغنى لأمته، لا ينسى المضاعفات الوليدة التي كانت تعوق الحياة الحرة الكريمة التي يتوخاها.

فهو يغمز الحكم، ويثور على الخيانة، وينتصر للضعفاء والمساكين، ويهتز لزحف الجمهور، ويسارع في نظم شعارات الوعي القومي على لسانه، في شعر وأناشيد وأغاريد!!.. يريد بها التربية الاستقلالية قبل الاستقلال، ليحافظ عليه الجمهور من ثم!..

وينظر بعيداً في آفاق الحركات الاجتماعية في العالم، ولا سيما تلك التي أورثتها الحياة السياسية الانقلابية في الثلث الأول من القرن، ويحاول معها المحاولات التي تقف بعقيدة الأمة شامخة أمام الآراء والمذاهب التي اجتاحت

البشرية قبل الحرب الأولى وبعدها ..

* *

إن الرافعي كان صورة صادقة من مرآة عصره ، اضطرب في آفاقها واختلف عليها ، وحاول معها الجلوة والوضوح الى حد كبير .

وهو بذلك كله كأنما كان يسابق أدباء جيله ، ويباري شعراء العصر ، ويعارض المتأثرين الآخرين الذين كان الوعي القومي ينقصهم عند الأخذ والنقل والتأثر والاستيعاب ،.. ثم هو لا يدعهم في مثل ذلك التخبط يضطربون وإنما يدعوهم الى طريقة الأخذ والتمثيل والهضم قبل التقليد أو التخبط الذي يورث الزيف والتضليل والانحراف ، أو يرسم لهم المثل ما استطاع !..

ولم يكن وحده في هذا المضمار ، وإنما جاراه الكثيرون ، وسابقه الصفوة من الأدباء ،.. وبذلك كان معاصراً حقاً ، ومصابراً صادقاً للأيام والحدثان .
فلا يكاد واحد منهم يقول في أمر ما حتى يبادره القول والرأي ولا يتحدث متحدث منهم حتى يرسل شعره وفنه حكمة في الموضوع ، ومنهجاً في الاصلاح ، وهدفاً في الحقيقة ؟

ملحق
آثار الرافعي

آثار الرافعي الشعرية

للرافعي ثروة شعرية عظيمة ، أخرج بعضها في أجزاء ديوانه ، وما يزال القسم الأكبر منها موزعاً في شتيت الصحف والمجلات ، وأوراقه الخاصة ، التي حال لونها ، وأدرك بعضها الاهمال والضياع .

آثاره الشعرية المطبوعة :

---

١ ـ (ديوان الرافعي) :

الجزء الأول ـ طبع في المطبعة العمومية بمصر عام ١٣٢١ هـ ـ ١٩٠٢ م كتب عليه : نظمه مصطفى صادق الرافعي ، وشرحه محمد كامل الرافعي (١) .

وقد جاء بخمس وأربعين ومئة صفحة من القطع الكبير ، وتوزعت القصائد فيه بحسب الأبواب التي اختارها لها ، كالتربية والتهذيب ، وما فيها من أمجاد عربية ، وقيم إسلامية ، ومُثل رائعة ،٠٠ ذاعت منها قصيدته القومية « بلادي » :

بلادي هواها في لساني وفي دمي يمجّدها قلبي ويدعو لها فمي

وما يزال شعراء العروبة يحومون حول معانيها الى اليوم ٠٠!

---

(١) الشرح بما فيه من أدب وطرف وفكاهة هو للرافعي نحله أخاه لأمر ما ؛ فكان من أسباب الدعاية لنفسه ، وشهرته .

والمديح ، الذي شفَّ فيه عن روح عالية تلتزم بالولاء للأمة في صورة من وحدتها القومية ، المتمثلة بالخلافة ، ورجال العصر من العلماء والفضلاء ، الذين كانوا من أهل الحل والعقد .

والوصف ، الذي لمس فيه مواطن الجمال بحسٍّ مرهف وشاعرية مبكرة ، وشباب مفتون وطبيعة تغدق عليه من محاسنها في الأصيل وإقبال الليل ، وتغريد الطيور وانفراد العنادل ، ما يخطُّ على قلبه من المعاني والعبارات الفنية .

ثم الغزل والنسيب ، وبهما أضحى بحق « شاعر الحسن » كما مرَّ بنا في حياته والباب نفسه يؤلف أكثر من ثلث الجزء ، وفيه خبر « عصفورة » التي عرفها على جسر كفر الزيات وقال فيها :

عصافير يحسبن القلوب من الحَبِّ ... فمن لي بها عصفورةً لقطتْ قلبي

وفرَّت فلما خافت العين فوتها ... أدالت لها حَبّاً من اللؤلؤ الرطب

وهي أول ما غنته « أم كلثوم » من القريض .

وأخيراً باب الأغراض والمقاطع ، وقد حوى الكثير من الخواطر والحكم المرسلة ، والأبيات التي تجري مجرى الأمثال ،..

وعلى أن هذا الجزء باكورة شاعريته ، وأنه نظمه ما بين عامي ١٣١٩ هـ ـ ١٣٢٠ هـ ، من غير تفرغ للشعر ، ولما يتخطَّ العقد الثاني من سنيه ،.. فقد عرف بالرافعي الشاعر الأديب ،.. ووضعت مقدمته في « الشعر واجتماع أسبابه » العنوان الكبير أمام أدباء العصر ونقاده ، مما غبطه عليه أئمة البيان كالشيخ محمد عبده ، والبارودي ، واليازجي ، وشوقي وغيرهم .

* * *

٢ ـ ديوان الرافعي :

الجزء الثاني : طبع في مطبعة الجامعة بالاسكندرية عام ١٣٢٢ هـ ـ ١٩٠٣ م

وقد جاء بعشرين ومئة صفحة من القطع الكبير والورق الصقيل ، وزُيِّن بصورة فنية للسلطان عبد الحميد ـ رح ـ وقصيدة فيها كل ألقابه المشهورة ، .

قدم له بموضوعة في « سرقة الشعر وتوارد الخواطر » ثبت فيها مكانته التي ارتقى اليها أدبًا بمقدمة الجزء الأول ، ووضع الدرجة الأولى في سُلم النقد الأدبي الحديث مما أذهب الشك عن صدور ناقديه ، والمغتبطين به معًا .

افتتح باب الحكمة والتهذيب فيه بخريدته الرائعة « اللغة العربية والشرق » :

أمّ يكيد لها من نسليها العقب ... ولا نقيصة إلا ما جنى النسبُ

كانت لهم سببًا في كل مكرمة ... وهم لنكبتها من دهرها نسب

لا عيب في العرب العرباء إن نطقوا ... بين الأعاجم إلا أنهم عرب

وقال فيها بفخر واعتداد قومي سديد :

إذا اللغات ازدهت يومًا فقد ضمنت ... للعرب أي فخار بينها الكتب

وهي القصيدة التي عُدّت من المحلقات في أفق الانبعاث القومي ، والتي منحته بسببها طيب الذكر فرح أنطون لقب « شاعر الشرق » (١) وهو يقدم لها وينشرها في مجلته « الجامعة » .

وفي هذا الجزء تظهر على الرافعي بعض الميول الفكرية المحدثة ، كتعريفه بالاشتراكية ، ونظمه في الحرب والسلام قصيدة ما جاء شاعر بمثل ما جاء به من دعوة عاقلة :

---

(١) راجع ما سبق في كلمة « الشرق » والشرقية .

لحا الله دهراً شدَّ بالقوة الهوى فكلُّ قوي شاء ما شاء يتبع

وهب أن هذا الظلم كان سياسة .. فمن قال : أن الظلم في الظلم يشفع ؟!

وفتح باباً جديداً في النسويات ، ينصر المرأة في طبيعتها الفطرية . وينظر اليها عند صورتها المثالية التي تظهر له فيها :

بوجه الجمال ، ورأي الذكاء وعين العفاف ، وصدق اللسان

وقلب المحبّ ، وصدر الصبور ونفس الكمال ، ودم الحنان

ويعيد للوصف روحه بتحليقات شاعرية تجدد القول في الطبيعة وآثار الحياة ، ويعود المديح في بابه ... ثم ينعطف نحو الغزل ليبدع في زحمة معانيه ، حتى يختتم الجزء بأغراض ومقاطع فيها خواطر أخرى ، وأمثال وحكم .

* *

٣ ـ ديوان الرافعي :

الجزء الثالث : طبع في مطبعة الأخبار بالفجالة ـ مصر عام ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ م وصدر بخمسين ومئة صفحة من القطع الكبير والورق الصقيل .

قدم له كسابقيه بمقالة في « نوع من نقد الشعر » وفق فيها بتلخيص مذهبه النقدي الأول من بين آثار النقاد العرب وأصحاب الطبقات والتراجم ، وزاد عليه أن فتح الباب للحديث عن النواحي النفسية للشاعر عند النظم ، وتسليط الأضواء على عبارته وتجويدها ، ومادته البيانية ، وثروته من المعاني والألفاظ .. الخ مما يشغل الدراسات النقدية اليوم باستغراق كبير .

وقد افتتح باب التهذيب فيه بقصيدة في حال مصر الاجتماعية عام ١٩٠٥م قال فيها :

.. وما يتقون البؤس لكنهم متى   تعضُّ بهم أنيابه يتألموا

ويبطرهم عهد الرخاء ، فإن مضى   فسهلٌ عليهم بعد : أن يتندموا

يقولون هبوا وانفضوا سِنة الكرى   .. وما نحن ـ لكن الليالي نُوَّم

وحذر « الترجمان » من خطر « السياح » :

تجيبهم كلما يسألون   بما يغض الشرق للسائل

ويعود الى المعاني الاجتماعية الاخرى في الافكار المحدثة ، فيحاول رسم نظرية الأخماس في الاشتراكية ، ويقول في الوجود ، ويتكلم في الفلسفة ، ويرى في الحياة والطبيعة والناس بما يثقل على شاعريته .

ولكنه في باب « النسائيات » يقارن بين حسان الأرض والسماء ، ويرقص ابنته وهيبة .. الخ هذه الموضوعات .

ثم يدخل للوصف معاني جديدة يحرك فيها الطبيعة عند الغروب ، ويشرك معه الربيع ومفاتنه ،.. وهو لا تفوته في هذا الصدد آيات المخترعات الحديثة ، الساطعة بنور الكهرباء في صفحة الليالي ، كما لم يفته قطار السلك في الجزء السابق ..

ويلاحظ عليه أن شعر الغزل يقل في هذا الجزء حيث يزدحم باب الاغراض والمقاطع فيحشر فيه المدائح والتقاريظ ، وشؤون الاجتماع الأخرى .

ولكنه يفتح باباً المراثي يبكي فيها أستاذه البارودي والشيخ محمد عبده ، وعمه الشيخ عبد القادر الرافعي .

وكأنما أدرك ارتباك هذا الجزء فقال على لسان أخيه الكامل ـ الذي

نحله شرح الديوان – « أنه عرضت لشاعرنا أحوال خاصة ، اضطرته الى الانتقال، وشغلته عن شعره والعناية به كثرة الاعمال » .

* * *

٤ – ديوان النظرات :

الجزء الاول : طبع في مطبعة الجريدة بمصر عام ١٣٢٧ هـ – ١٩٠٨ م وجاء في ثمان وعشرين ومئة صفحة من القطع المتوسط .

لقد شاء الرافعي أن يسمي هذا الجزء من الديوان بالنظرات ، وبشَّر به في مقدمة شرح الجزء الثالث ،.. وقدم له بحديث ثمين يبين فيه « حقيقة الشعر » حيث اجتاز بـه مرحلة أخرى في الاستيعاب الأديب ، حتى حسب شبلي شميل هذا الموضوع مترجماً !..

فقد ميز الشعر بين الفنون الجميلة ، وأشار الى المؤثرات النفسية فيـه ، ولاحظ عليه ملاحظات قيمة ، بحيث أحدثت هذه المقدمة دويّ المقدمة الاولى .

ولكنه ترك فيه الأبواب السابقة ، وافتتحه بنشيد نظمه لمصر الوطن الصغير ، وقصيدة « نبأ مصر » وحال الاجتماع في تلك الايام :

تبـاين ما بين الرجال وكلهم على زعمـه بالأمر خير كفيل
فيا عصبة «الاحزاب» ردوا حلومكم وجرُّوا على غير الثرى بذيول
ألمـا تزالوا قاصرين فأمركم ضياع إذا لم يعتصم « بوكيل » ؟!

وبالرغم من ازدواج الولاء الوطني والقومي عنده فإنه يلتفت نحـو الخونة يبحث عن « قيمة الذمة » وأصل البلاء في « شبان مصر » .

وينظر في الطبيعة حيث قامت طرابلس الشام في « العراء » :

تلوح في (عين) (راءٍ) نحوها أطلعت كهمزة رفعتها فوقها ألف

ويواصل الذكرى ، ويتذكر « حمى ليلى » بموشحة غنائية فريدة ، ويساهر ولده المريض ،.. ولا ينسى حق « الحسان » عليه في شعره .

والجزء صغير جداً بالنسبة لأجزاء ديوان الرافعي ، حيث أرجأ بعض قصائده لجزء آخر من النظرات ينشره فيما بعد ،.. ولكنه لم يتوفر على أسبابه .

وعسى أن نتوفر على إخراجه ضمن الجزء الرابع من ديوان الرافعي .



آثاره الشعرية غير المطبوعة

١ ـ ديوان النظرات :

الجزء الثاني :

اجتمع للرافعي من شعره قصائد شتى ، نظمها على فترات مختلفة ، نشر بعضها في الصحف ، وتوزع الباقي بين أوراقه ، وأيدي أصدقائه ،. وحاول غير مرة أن يجعل من بعضها الجزء الثاني من النظرات ،.. وأشار مرة الى أن آخرها القصيدة التي يرثي فيها والده الشيخ عبد الرزاق الرافعي ـ رح ـ .

وقد اجتمعت لدينا منها مجموعة ، عسى أن نتمكن من إخراجها مع « النظرات » عند إعادة طبعه .

وهي تضم قصائد ومقطعات فيها تاريخ تلك الفترة من حياته الأدبية ،.

فقد توفى الله السيدة أسماء بنت الشيخ أحمد الطوخي ـ والدة شاعرنا ، بعيدة عنه في أسيوط فما فتيء يبكيها حتى آخر أيامه ومنذ أن قال :

من الصدع في قلبي غداة تهدّما سعت نظرات الروح خلفك للسما

وبين ضلوعي زفرتان من الأسى تتيهان في صدري متى بلغا الفما

وظهر مذنب « هالي » فتطير الناس منه ، والأمة تعاني من الانقلاب العثماني ومضاعفاته ، فإذا بالرافعي كالذي يرسل الزفرة الحرّى بقوله :

أحقًا ستجمع غلّ القلوب فتنفجر الارض منك اضطراما

وترحم هذي الشعوب الضعاف ، يقاسون داء الملوك العقاما

ويتهيأ له السفر الى ربوع الشام، فيطل على وادي لبنان من ربى (بحمدون) ليشهد الجمال الآسر فيقول :

يا «بحمدون» كم شهدنا جمالاً   من ربى «المنظر» استنارا

ولكنه عندما يعود الى مصر يرسل «عبرات البين» التي مرّ ذكرها في فصل الحب، وينظم لفضليات سيدات «الإحسان» حقيقة فى قصة قائلا :

لقد يبصر المرء السما ونجومها   وما في العُلى من معجزات خوارق

ولكن متى يبصر بحسناء ينتفض   ويستشعر المخاول هيبـة خالق

ويسارع في رد عدوان الطليان على طرابلس الغرب - بسيف الاسلام العثماني، ويتغاضى عن موقفه السابق من الاتحاديين :

من الصواعق .. لا يبقي ولا يذر   إذا انتضاه لأهل النقمة القدر

يرمي بـه الله رجماً لا تقوم له   هام الشياطين .. إلا ريث ينحدر

سيف الطبيعة بل سيف الفجيعة بل   سيف الشريعة : فيه العدل والعبر

ويضطرب الشرق أمام الغرب في اتجاهات سياسية ومذاهب فكرية، وآراء وأهواء يعقوزها النضج والحجة،.. فيرسل قصيدته فى «الشرق المريض» التي مرّ الاستشهاد وبكثير من أبياتها فى هذه الحال الاجتماعية .

ويغشى الرافعي الاجتماع بأدب القصة الشعرية في منظومته «دموع الهرم لدموع الصبا - من الشيخ البائس الى حفيدته» فيقول :

دجا الظلام : أيا ليلى أما فينا   روح؟ أم الموت مثل الرزق جافينا ؟!

وبقصيدته الأخرى التي تحدث فيها عن مأساة الانسانية في الحرب :

طريدة بؤس ملّ من بؤسها الصبر   وطالت على الغبراء أيامُها الغبر

وفيها يقول :

.. وما الحرب إلا غضبة الله لامست مخازي هذا الدهر .. فانفجر الدهر

وما الحرب إلا مطرة دموية إذا دنست روح الورى فهي الطهر

وينظم فى « غليوم الثاني » الوجه الشيطاني للحرب وفي « ويلسون »
الذي حسبه روح الجبهة الإلهية ،.. ويتصدى لأغرار تحرير المرأة ، بقصيدة
« التبرج » ويسخر من شبان العصر في أخرى عن « التخنث » ،... ويعود
الى أطفال الشوارع في رائعته الانسانية :

صبيـة هم بوادر التنكيد إن صبونا الى زمان سعيد

وفيها تنبأ بالمضاعفات التي تعانيها الأمة في كل تغيير من انقلاب أو ثورة ،
من مثل أولئك الصبية !

هذا الى جانب قصائد أخرى فى الغزل المحمس والمقطعات والمراثي .

* * *

٢ ـ أغاريد الرافعي :

ديوان فريد في الشعر العربي الحديث ، كان من بعض شغفه بالغناء ،
وولعه بالفنون والمرددات القومية .

وقد تم لي جمعه وترتيبه في مجموعات منها القصائد الغنائية المرقصة ، التي
ناغى بها أبناءه ، وساهرهم ، وأرقصهم ، وهزّهم أرجوحاتهم ،.. وأحيا هـذا
الفن الرفيع فى أدب التربية النفسية ، ودعا الأمهات أن يقبلن على شعر الترقيص
ويقوّمن ألسنة أبنائهن بـه . والثانية ، مجموعة من الأناشيد الوطنية والقومية .
وقد وفق فيها بما لم يوفق اليه شاعر عربي .

وحسبه منها النشيد القومي العربي ، الذي كان آخر ما نظم ، والذي ما يزال يندلع بحماسة من أفواه الجماهير الهادرة فى الأقطار العربية كلها :

حماة الحمى يا حماة الحمى هلمّوا هلموا لمجد الزمن
لقد صرخت بالعروق الدما أموت أموت ويحيا الوطن

وكذلك نشيده لكتائب الشبان المسلمين :

يا شباب العالم المحمدي ينقص الكون شباب مهتدي
فأروه دينكم كي يهتدي دين عقل وضمير ويد

والمجموعة الثالثة ، تشمل الكثير من الموشحات والمقطوعات التي حاول أن يتمها غير مرة في ديوان « أغاني الشعب » يضع لكل طائفة أو جماعة أغنية ، فكان منها « نشيد الفلاح » وما فيه من قيم اجتماعية و نظرات اقتصادية و « نشيد الفلاحة » و « نشيد الربيع » والشباب وسواها .

والمجموعة الأخيرة ، تنتظم أغاني وموشحات نظمها في فترات متباعدة من حياته ،..

وما تزال تتمتع بروح موسيقية عالية ، حبذا لو سعت اليها الألحان بدلاً من هذه الأغاني المرتضخة للعامية المرذولة ، التي طغت على الاذاعات العربية في السنوات الأخرى .

وقد جهزته للطبع أيضاً (١) .

* * *

---

(١) راجع البدري ـ أغاريد الرافعي ـ الأقلام ـ جزء شباط ١٩٦٧ م .

٣ الفؤاديات :

مجموعة قصائد أرسلت بمناسباتها من الأيام الملكية وسواها .

فقد انتظم الساسة ورجال الأحزاب في مصر بمحاولة ائتلاف وطني ، يفتتح صفحة جديدة للحياة القومية في البلاد عام ١٩٢٦ م (١) فكانت التفاتة محمد نجيب (باشا) بارعة في اختيار الرافعي الوظيفة « شاعر الملك » الفخرية ، التي كان يتطلع اليها حافظ ابراهيم وسواه من الشعراء في مصر .

ولعل في المنافسة الأدبية بين الاثنين ، ولميول الرافعي مع الحزب الوطني صاحب فكرة الائتلاف ، السبب الأول في هذه المبادرة .

لقد ضمن الرافعي قصائده هاتيك الكثير من الأفكار القومية التي كان ينافح دونها ، وميزها عن شعر المديح بدعوته الاعتقادية ، وضمنها شيئاً من أحابيل السياسة ، يضطرب فيها معها بين التسويغ والتأييد ، أو البرم والامتعاض ، على ما سوف نتحدث عنه فى كتابنا (الشعر عند الرافعي) .. ذلك أنها جاءت في ظرف عصفت فيه الأفكار الوافدة عاصفتها ، وتوزعت الآراء بين أفرادها وأحزابها ، ولكن موقف التحدي الرافعي كان يتجلى فيها غالباً بأروع ثبات ،.. فقد استطاع أن يضمنها غير شعر المديح فنوناً أخرى من القول لم تك ترد فى المدائح سابقاً ، وكأنه أراد تجديد حياة الشعر في هذا الفن .

ودهش العريان ـ رح ـ ان لم يجد في قصيدة الصحراء ، أو الراية ما يجب أن يشتمل عليه شعر المدح (٢) .

---

(١) راجع الحالة السياسية في الباب الأول .

(٢) العريان ـ حياة الرافعي ص ١٦٨ .

وأضيف هنا أن الرافعي كان ربما أضاف لبعض قصائد له ، كـ « النيل والطبيعة المصرية » أبياتاً مادحة يلحقها بها وزناً وقافية ، لتجيء القصيدة (ملكية) .

ومن فوق هذا المنبر استطاع أن يتنفس « سياسياً » بما لم يستطعه (موظفاً) (١) ، وقد استشهدنا فى الباب الأول بكثير من هذا الشعر .

وهي بمجموعها تؤلف ديواناً صغيراً ، جديراً بالانفراد والدراسة الخاصة .

* * *

٤ ـ بقايا الديوان .

لقد حسب العريان أن الرافعي قد تحول من الشعر الى الكتابة ، بعد تصنيفه لتاريخ آداب العرب (٢) .

ولكن الحقيقة أن الرافعي لم يصمت عن قول الشعر مثل بعض معاصريه الذين لم يستطيعوا التحليق في آفاقه ،.. فقد حاول التجديد فى عطاء المعاني وبسطها بروح بيانية جديدة ،.. كثيراً ما وجد أوزان الشعر العربي كالتي تحدُّها ،..

فكان إذا ما أراد أن ينظم شعراً بموضوع ما واعتاصت عليه المعاني أن تقيد بالأعاريض فى مفردات خاصة ،.. نفر الى النثر يستوعبه أخيلته ومعانيه ، ويؤنقه بألفاظه ومبانيه ،..

وعلى ذلك كانت بعض من موضوعاته الشعرية ، مادة أولى لكثير من أحاديثه المنثورة من ثم (٣) .

---

(١) راجع الرافعي ـ لرسائل ص ٣٨ .

(٢) راجع للعريان ـ حياة الرافعي ـ من الشعر الى الكتابة .

(٣) سنوفي الموضوع حقه في دراستنا التالية .

فقد واصل النظم في فنون الشعر جميعاً الى آخر حياته ـ يرحمه الله ـ ولو وزع ديوانه الكبير فنياً ـ وهذا ما اتجه اليه الآن ـ لوقفنا على ذخيرة شعرية ضخمة ، تؤلف أجزاء خمسة من مثل الشوقيات ، غير ديوان الأغاريد المار التعريف به .

فهو يعد ديوان النظرات الثاني واصل النظم في أحداث الأمة ، وثورتها وزعيمها سعد زغلول ،٠٠ وحاول أن يصنع للشعب أغانيه .

وعاد يتذكر أيام لبنان ، وصرفه هواه الى القول شعراً في مادة أخرى غير رسائله .

وكانت خلة الوفاء التي عرف بها تدفعه بين الحين والآخر الى رثاء أصدقائه ومعارفه وأساتذته ، وإطراء نعوتهم فيرسل فيهم مراثي فيها من جدة التعبير وأسر البيان ما يأخذ بمجامع القلوب .

وقد اجتمعت لديّ مجموعات أخرى من هذه القصائد تؤلف جزءاً آخر من بقايا ديوان الرافعي عسى أن أخرجها في القريب العاجل ؟

آثار الرافعي النثرية

هناك حقيقة نفسية دقيقة يظهر فيها الرافعي الأديب أكبر وجدانا من شخصياته الأخرى ،.. وهـــذه الخصيصة كانت تلازمه دائما وأبدا في كل ما يصبو اليه من الالمام بفنون الشعر والكتابة والنقد .

وتتمثل أكثر وبصورة أوضح حين ندركه ذواقة بيان ، وعريف معاني ، يستدل عليها بما أوتيه من ذكاء يفرط أحيانا ، وفهم يستوعب دقائق الامور ، ويستبصر بأسرار الاعجاز ويتميز بالانفراد في الموضوعات أحيانا أخرى .

وكذلك تجيء وصيته الى أحد تلامذته « وأول عهدك أن تستفيد ، وآخر عهدك أن تجتهد » (١) فهو ما بين الاستفادة والاجتهاد ، أراد طبع أدبه بهـذه الخصيصة ،..

فمهما نظر الى « الشاعر » لاحقـه بالحديث عنـه ، وبسط معـــانيه وشرح عبارته ، وتفسير مفرداته ،٠٠ ومن هنا جاءت شخصية الرافعي الكاتب الأديب ، الذي أخرج مؤلفاته النثرية التي عرف بها أكثر مما عرف بفنـه الشعري الجميل . وفي الصفحات الآتية تعريف موجز بها .

* * *

(١) الرافعي ـ الرسائل ص ٤٤ .

آثار الرافعي النثرية المطبوعة

١ ـ حديث القمر :

صدر في طبعته الأولى عام ١٩١٢ م عن ناشره الشيخ محمد سعيد الرافعي ـ المكتبة الازهرية في بضعة وسبعين ومئة صفحة، اشتملت على مقدمة وتسعة فصول.

ثم إنه « مرّ عليه وأصلح منه قليلاً مما يستبين به بعض معانيه ، مع إضافة قليل من الشرح ليكون فى الطبعة الثانية شيء جديد » (١) .

ولكن الكتاب فى طبعاته الأخيرة زادت فيه الأخطاء ونقصت منه بعض الشروح والهوامش .

وقد كتبه بأسلوب المقالة البيانيه ، والطريقة الشعرية التي يكتب بها نبغاء أدباء الفرنجة ،.. قالت فيه المؤيد : « إنه نثر مطرب ، وشعر مرقص في غير أبيات ، بل قلب راق فسال ، ودقّ فكان الخيال ،.. مقالة واحدة صبت فيها عواطف النفس صباً في طراز بديع من الانشاء » .

وقد قال فى المقدمة : « أرجو أن أكون قد وضعت لطلبة الانشاء المتطلعين لهذا الأسلوب أمثلة من علم التصور الكتابي الذي توضع أمثلته ولا توضع قواعده » ورب كلمة تلد تاريخ جيل !..

ثم تكلم عن آلام الانسانية ، يشفق على البائسين ويتوجع للمحرومين ، ويمسح دموع العشاق والمتيمين ، حتى انفجر يصف ضمير الطبيعة في استبداد الطغاة ، وحالها مع الشعب المستضعف ،.. وراح بعدها يفتش عن « الرجل الالهي » الذي يتعرف به الناس معاني الاصطلاحات النفسية كالشهامة والنجدة ، والصدق

---

(١) الرافعي ـ الرسائل ص ٦٧ .

والايثار وما اليها من مفردات معجم الفضيلة » لينصر الله به الأمة (١).

ويطل على مسألة المسائل في السعادة وكنهها ، فيراها « طفولة القلب » عائداً بالانسانية الى الفطرة الإلهية التي فطر الناس عليها ، وكيف تذهب عن الأغنياء بالبخل ، وتصدف عن الفقراء بالجريمة (٢) ص ٤٤ .

ورأى الشعر أول ما في الانسان من الانسانية ، ولكنه لم يجد رجل الكمال السماوي في شعراء الشرق (٣) ص ٥٢ .

وتصدى للفئة الباغية التي تلحد للعقل الانساني فتصرفه عن حرية الفكر ، الى انحلالية الكفر ،.. ورأى أسعد الناس « ذلك الذي يجمع قلبه وعقله أن لا يصدر أحدهما عن الآخر إلا راضياً مرضياً » (٤) ص ٦٧ .

وبعد ذلك التمس العلاج للشرق العربي المريض فى صيدلية الانسانية لعل في قيمها ومثلها ما تشفيه،.. فوجد أن لا بد من معالجة روحانية تتعهده بها ممرضة رؤوم :

ربوا لذا الشرق يا قومي ممرضةً　　تحنو عليه بأحساس ووجدان

ربوا له الأم يا قومي فلو وجدت　　في الشرق ما طاح فى ذل وإهوان

.. حتى تنكشف له حقيقة في ميراث الانسانية وهدية التاريخ « حقيقة الألوهية فى والرح، وحقيقة الانسانية فى القلب ، كما يرى الحب في جمال حواء ، والدين فى تقوى آدم » (٥) ص ١٤٢ :

تطيه روحها مما ألمّ بـه　　فإن أقتل داء الشرق روحاني

وكذلك يثبت الأساس الاجتماعي للإنبعاث القومي للأمة ، على هدى من مثل رفيعة يحفها إيمان عظيم .

(١ ـ ٥) الرافعي ـ حديث القمر ص ٢٩ .

والكتاب بعد ما يأخذ بمجامع القلوب ويستهويها لما فيه من صور البلاغة العالية ، والأخيلة الشعرية والمعاني الفلسفية ، فى صفاء اللغـــة واطراد التعبير البياني البديع .

وقد قيل فيه أنه كتبه فى فترة فراغ أراح نفسه فيها من عناء التاريخ ، وقال أنه كتبه لطلبة الانشاء ، وقيل أيضاً أنه عرف القمر ـ وفيه تورية ـ في ربوة من لبنان ، وهي شاعرة ، فكان بينهما حديث طويل فى الحب (١) .

ولكن ما اشتمل عليه الـكتاب من موضوعات هامة وسائل دقيقة ، يدل دلالة واضحة على القصد الاعتقادي الذي هدف اليه الرافعي من الكتاب ؟

* *

٢ ـ تاريخ آداب العرب :

الجزء الأول ـ اللغة والرواية :

سفر نفيس خرج في طبعته الأولى عن مطبعة الجريدة فى ٤٥٠ صفحة من القرار الكامل .

وقد حاول طبعه في حياته ، ثانية حتى يكون جديداً ممتلئاً يعوّل عليه فى بابه (٢) ولكنه حين أخرجته المـكتبة التجارية بعد وفاته بأعوام لم تزد عليه غير ضبط العريان لأصوله .

أما الزيادة والتوسع والمواد الكثيرة الأخرى ،.. فلم نظفر بها حتى

---

(١) محمد سعيد العريان ـ حياة الرافعى ص ٧٢ .

(٢) الرافعي ـ الرسائل ص ١٦٤ .

في الهوامش !.. ولم أقف على نسخته الخاصة التي كان يبسط بها ذلك - بعد مأساة مكتبته !.

لقد آثر الرافعي أن يجعل الكتاب دائراً « على الأبحاث التي هي معاني الحوادث لا العصور ، وبذلك يأخذ كل بحث من مبتداه الى منتهاه متقلباً به على كل عصوره» ضارباً مناهج المستشرقين عرض الحائط ،.. وبه عرف الرافعي بين أدباء العرب .

وكان يؤمل أن يخرج التاريخ في أثني عشر باباً تستغرق خمسة أبواب ضخام ،.. ولكنه لم يكد يخرج جزءين منه حتى شغلته الأيام والأحداث عن المضي بسبيله التي اختطها بدءً رغم إلحاح محبيه وتلامذته عليه لاتمامه !..

قدم له بمقدمة نشرتها « الجريدة » أولاً و « البيان » ثانياً ، وقد جال فيها بين المصنفات وكتب التراجم وكل ما يتصل بهذا الموضوع ، ورأى التأليف في هذا العلم وضلال منهج « بيكون » في تمييز الفن عن الاجتماع والأدب عن الدين ،.. واختلاط أدبيات اللغة « من صنيع المستشرقين والمستغربين وما فيها من اجتلاب يغرق في الحشوء ويتسع من ضيق » (١) .

ولوحظ أنه لم يبالغ في تهذيب العبارة ولم يستكثر من الأمثلة ، وضرب صفحاً عن الروايات الضعيفة ، ولكنه تصفح الآراء وجرح النقلة والرواة مقتصداً فى الثقـــة .

ثم عقد عصلا لكلمة « الأدب » فتقلب مع أدوارها اللغوية ، وأبان عن معناها في الجاهلية وصدر الاسلام من وزن الأخلاق وتقويم الطباع ،.. وكيف عرفت حدود الأدب فى القرن الثاني وبقيت كلمة « الأدباء » خاصة بالمعلمين ،..

---

(١) الرافعي - تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٢ .

فلما فشت أسباب التكسب بينهم وبين الشعراء أدركتهم « حرفة الأدب » التي تعاورها الأدباء ميراثا دهريا الى اليوم (١) .

وتكلم عن العرب بفصل خاص ، صاغ فيه الكلام العلمي صياغة بلاغية جميلة ليست منها سائر فصول الكتاب ، وقد أخذ عليه المقتطف ذلك (٢) فقد لاحق علماء الحضارة في هذا الشأن ،.. ومهد بذلك كله للباب الأول في اللغة .

تحدث عن أصل اللغات ، وفرق بين التوقيف والمحاكاة ، ودار مع السلسلة التاريخية وعماد اللغات السامية ، وتهذيب العربية منذ عهد اسماعيل (ع) وانتشار القبائل حتى سيادة قريش وأسواق العرب (٣) .

ثم عقد فصلا لمناطق العرب والحروف العربية وصفاتها واختلاف اللجهات وحقق معنى اللغات في الاصطلاح ، وعرض لعيوب المنطق العربي ، وبقايا آثار اللغة بمقارنة بديعة (٤) .

وفى فصل كبير تحدث عن نمو العربية ، والوضع والارتجال والاشتقاق والمجاز .. الخ . وأوجز كلام أعز اللغة في ذلك كله .

وبعد أن كتبت في تمدن العرب اللغوي انتهى الى أسرار النظام اللغوي (٥) وعلاقة الألفاظ بالمعاني والقرائن الحسية والنفسية .

---

(١) الرافعي ـ تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ٢٢ .

(٢) المقتطف ـ شباط ـ فبراير ١٩١٢ م .

(٣) الرافعي ـ تاريخ آداب العرب ص ٦٦ ـ ٨٧ .

(٤) الرافعي ـ تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ١٦٤ .

(٥) « « « « جـ ١ ص ٢١٦ .

ثم تكلم عن العامية واللحن وفساد اللغة فى البـــادية والحاضرة ص ٢٢٨ ـ ٢٦١ .

* * *

أما الباب الثاني فقد عقده للرواية والرواة ، وكان فى الأصل بحثاً نشره في مقتطف أيار ـ مايو عام ١٩٠٥ م فتوسع فيه ، وتكلم عن الأصل التاريخي للرواية والرواة ، والرواية في الاسلام ، وتدوين الحديث والاسناد .. ثم اتصال الروية بالأدب ص ٢٨٩ حتى انتهى الى عـــلم الرواية حيث عرض لأقسامها ووظائف الحفاظ وعقد فصلا لرواية اللغة وأرخ للفظني اللغة واللغوي والأخذ عن العرب ، والرحلة الى البـادية والوضع والصنعة والشواهد والكوفيين والبصريين ٠٠ الخ .

ثم تكلم عن الرواة الوضاعين للشعر ، واختلاف الروايات ، والتزيد في الأخبار والقصاص ص ٣٧٤ ـ ٣٩٤ .

وبعد أن عقد فصلا للرواة ، والاخباريين عرض للشعر وكونه عمود الرواية العربية .

وتحدث عن العربية باعتبارها علم النحو ، ثم اللغة ، ومذاهب الطائفتين في الكوفة والبصرة ... الخ .

وقد قال المقتطف فى الكتاب إنه « حافل بالفوائد اللغوية والنتائج الفلسفية، ولغته فى المقام الأول من الفصاحة، وهو حقيق بأن يدعى كتاب الشهر بل كتاب السنة، لأننا لا نذكر أننا رأينا كتاباً عربياً اقتضى جمعه وتبويبه واستنباط أدلته ما اقتضاه هذا الكتاب » (١).

وأعجب به أحمد زكي باشا، وعكف عليه الأمير شكيب أرسلان وتحدث عنه لطفى السيد في المحافل، وأشار اليه آخرون.

واحتفلت به الجريدة والبيان وسائر صحف ذلك العهد،.. وما يزال الى اليوم يقف في مقدمة الكتب التي وضعت فى الموضوع.

* *

٣ ـ إعجاز القرآن :

أو تاريخ آداب العرب ـ الجزء الثاني

صدرت الطبعة الأولى عام ١٣٣٢ هـ ـ ١٩١٤ م مشتملة على الباب الثالث من منهاج التاريخ الذي وضعه لآداب العرب، وقد درس فيه تاريخ القرآن وإعجازه، والبلاغة النبوية.

ثم انفرد بعنوانه الجديد فى الطبعة الثانية والثالثة التي صدرت عن دار المقتطف عام ١٣٤٦ هـ ـ ١٩٢٨ م،.. وأعيد طبعه مرات، كان بعضها جزءاً من التاريخ.

بحث الرافعي تاريخ القرآن آتياً على جميع ما عرف في هذا الشأن، بإيجاز بالغ القصد والخطورة من نواحي : جمعه وتدوينه، وحكمة نزوله مفرقاً، وترتيبه

---

(١) المقتطف ـ شباط ـ فبراير ١٩١٢ م.

ورسم المصاحف ، ورواية القرآن .. الى آخر هذه المباحث .

وعقد فصلاً للغة القرآن وموسيقاها ، حيث أبان عن إعجاز الفطرة ، واختلاف القراءات ، والملاءمة بين الألفاظ والمعاني ،.. كما أوضح التوفيق في استنباط الأحكام ، ليخلص من ثم الى قراءة القرآن في فصيحها وغريبها ، والمعربة منها .

ولعل من أروع فصول الكتاب دراسته القيمة لتأثير القرآن في اللغة ، بمقارنة علمية ، يستدل بها على حال العرب بالقرآن ، واجتماعهم على لغته ، ثم خلود لغتهم به واتصالهم بمادة العلم ،.. لينطلق فى فصل خاص يستعرض فيه موضوع « الجنسية العربية في القرآن » ويمتد به حتى يجعل منه ميثاقاً قومياً لإعادة بناء الأمة ، مهما امتدت بها الأيام ، أو تعاورتها الحوادث .

وربما كان أول من نبَّه الى خطر القرآن الأدبي في العصر الحديث ، فقد تصدى للانسانية فى آدابها عادة وطبيعة ، وفرداً وجماعة ، وحرية وشريعة يقرن ذلك كله بتاريخ العرب الحضاري ،.. ليرقى الى أصول الأخلاق الاجتماعية في القرآن ،.. أو ما ندعوه اليوم بفلسفة القيم وإرسائها ، عند إقامة الناموس الأدبي للفكر الإنساني ،.. وهو ما غفل عنه كثير من دارسي القرآن ،.. فقد استطاع أن يقيم الدليل على أسرار الاعجاز في هذه الناحية ، بين دعائم الثبات ، ووسائل النهضة ، وآداب الفطرة ، والارادة الاجتماعية للإعتقاد .

ثم يفرد فصلاً للقرآن والعلوم ، يستوعب فيه هذا الموضوع الكبير بموجز لا يتوفر عليه سواه ،.. إذ يتناوله بالتاريخ العلمي إبتداءاً ، والأديان وتطورها فى عقل البشرية ،.. ثم نشأة علوم التفسير والفقه والبلاغة والتاريخ ،.. وما لحق

العامة وأهل النظر من دعاوى المستحدثات العلمية ،.. حتى يقف على مفترق ، يدل فيه على تطور العلم ، وتطور العقل البشري في فهم القرآن .

ويجول بعد ذلك جولة فى أسرار القرآن ، يفسر بعدها آية الخلق وأطوار النشوء ، وما يؤلف اليوم ما يسمى بعلم الأجنة EMBRYOLOGY الذي ما يزال يحبو بين افتراضات ونظريات ومختبريات تبحث في أسرار الحياة .

كل أولئك وكثير سواه يجعله كالمقدمة في دراسة « إعجاز القرآن » .

فهو بعد أن حاول حد الاعجاز ، وعرض لآراء السابقين من المتكلمين والفقهاء ، وناقشها جميعاً ، كاد يحكم عليها بالقصور عن إدراك آفاق الاعجاز كلها .

فقد تحدث معهم في حقيقة الاعجاز ، التي حاول إطلاقها على تربية لغوية جديدة ، ونظر فى التحدي والمعارضة ، وما رافقهما من خذلان ،.. ثم أسهب في دراسة نفسية فريدة لأسلوب القرآن ليست منها سائر الدراسات البلاغية ، فقد أدرك مرونة ذلك الاسلوب القرآني المعجز ،.. حيث لا يصادم ولا يضاد الآراء المنقلبة علمياً على اختلاف العصور .

ثم أفاض فى الحديث عن نظم القرآن وإعجاز تأليفه في الحروف وأصواتها والكلمات والجمل ، وأوضاعه التركيبية ، التي صيغت بها بلاغته المعجزة ، التي هي تمام إعجازه .

فالقرآن عنده « معجز فى تاريخه دون سائر الكتب ، ومعجز في أثره الانساني ، ومعجز كذلك في حقائقه ، وهذه وجوه عامة لا تخالف الفطرة الانسانية في شيء ، فهي باقية ما بقيت ،.. وإنما مذهبنا بيان إعجازه في نفسه من حيث هو كلام عربي ، في هذه الجهة من تاريخ الأدب .. دون جهة التأويل

والتفســـير » (١) .

تلك الجهة التي كانت وجهاً ظاهراً من وجوه الإعجاز ، وسراً من أسراره .

* *

البلاغة النبوية :

حين انتهى الرافعي من دراسة تاريخ الأدب القرآني وإعجازه ، انتقل الى دراسة الأدب النبوي ، الذي هو الثمرة الأولى في الغرس الإلهي للأدب العربي بالقرآن المبين .

فقد وفى الرافعي خبر فصاحة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، حقها ورآها توقيفية من الله تعالى ، بغير تدريب ولا رواية ، ..

ثم تحدث عن نشأته اللغوية ، وإقرار العرب بها عرفاً وأدباً ، وأبان عن إحكام منطقه عليه السلام ، وتعبير اللغة والصوت ، واجتماع كلامه وقلته ، وبلاغة الطبع التي أثرت عنه ، وهو يؤتى جوامع الكلم ، وينصر بالرعب .

وبعد أن نفى الشعر عنه تاريخاً وأدباً ، تكلم عن تأثيره في اللغة ، بما أحدثه من التراكيب والمصطلحات والأوضاع المفردة ، التي تنامت بها علوم اللغة من ثم !.

ودرس رسائله وما فيها من بلاغة وقصد أدب ، .. حتى أدرك الفطرة اللغوية التي كان عليها (صلى الله عليه وسلم) وهي تتميز بالالهام والتوفيق .

أما نسق البلاغة النبوية ، فإن الرافعي قد اعتبرها في وجوه البيان ومناقلة الحديث بلا صنعة ، وكون ذلك النسق من سجاياه عليه السلام . وأشار كذلك الى أثر النفس الانسانية وطابع الوضع الالهي للنفس النبوية ونفس النبي العربي

---

(١) الرافعي - إعجاز القرآن - ص ٣٦٤ .

الأمين » . مستوفياً بذلك القصد في إقامة دعائم البلاغة النبوية على أسسها من البيان والحكمة والأدب العالي ، تلك « البلاغة الانسانية التي سجدت الأفكار لآيتها ، وحسرت العقول دون غايتها ،.. تعرف الحقيقة فيها كأنها فكر صريح من أفكار الخليقة ، وتجيء بالمجاز الغريب فترى من غرابته أنه مجاز في حقيقة » (١) .

* * *

٤ ـ كتاب المساكين

صدر في طبعته الأولى بمطبعة المعاهد بمصر عام ١٣٣٥ هـ ـ ١٩١٧ م عن المكتبة الأزهرية ، وقد جاء في ثمانية فصول و ٢٦٨ صفحة من القطع المتوسط .

قدم له بمقدمة بليغة حاول فيها أن يشكو الفقر برقعة جديدة ،.. وأتبعها بمقالة في غرض الكتاب الذي أوجزه في الصبر على الفقر ، والعزاء عنه ، « فقد تكون مصاحبة البائس ثروة نافعة لاثنيهما في معاملة الزمن » .

ثم عقد الفصل الأول لشخصية الشيخ علي الجناجي ـ الفيلسوف الصامت ، الذي كان له معه حديث الروح والقلب ، وفلسفة الرضا والقناعة ،.. وهو على ما يخيل لي يشبه الى حد شخصية الشيخ طه الفريع ـ رحمه الله ـ المجذوب الذي كان الى سنوات ممن يهبط في قرى سامراء ، وتظهر له الكثير من الكرامات التي يعتقدها الناس .

وكذلك عرف الرافعي الشيخ علي الجناجي ـ وقد سدت في وجهه منافذ الجهات كلها إلا جهة السماء ، وهو يكاد يخرج الدنيا تلك الحقيقة الالهية التي لا تغذوها مادة الأرض » .

---

(١) الرافعي ـ إعجاز القرآن ص ٣٦٤ .

وأضاف للطبعة الثانية مقالته الفلسفية « في وحي الروح » التي صور نفسه فيها تراباً متكلماً أمام تراب أخيه الصامت محمد الكامل الرافعي ، وكانت مادتها من وحي ذلك الروح الأثير عنده ، الذي كثيراً ما نحله أفكاره .

« إن أحزاننا ودموعنا هي كل المحاولة الانسانية العاجزة التي نحاول بها أن نكون فى ساعة من الساعات مع أمواتنا الأعزاء » !

أما الفصل الثالث ،.. فقد كان خطبة اجتماعية ألقاها فى جمعية الاحسان بطنطا فى نيسان ١٩١٣ م ، تحدث فيها عن أخطاء الناس في فلسفة الاجتماع ،.. وتصدى لبعض الحلول القاصرة في حل مشكلة الفقر وقد أدرك عصر الاشتراكية العلمية ، تمحق رأس المال ، لتصل معنى إلهيا في محق الربا ،.. التي وجدها ولكنه وجدها أيضاً تتغابى عن تربية الصدقات ،.. وتتعامى عن نظام الزكوات ، ولو أخذ بهذه الأصول الانسانية العامة للدين الاسلامي العظيم ، لأصلح الفقر والغنى معاً .

« أنظروا فى باطن الانسان بالفضيلة التي هي من نور الله ، وبالحقيقة التي هي من نور الطبيعة ،.. فإنكم لا ترون حقيقة الغنى تبتعد عن حقيقة الفقر إلا بمقدار شبر واحد : هو ملء هذه المعدة »! ، ولكن متى لم يؤمن الغنى .. كفر الفقـر !! »

وكان قد أردف هاتيك الخطبة بقصيدة فيها قصة « دموع الهرم لدموع الصبا : من الشيخ البائس لحفيدته »،.. ولكنه لم يلحقها بهذا الفصل من الكتاب .

وتحدث في الفصل الرابع عن « مسكينة » وصف فيها فتاة بعينها تهبط الى أهل الغنى تلتمس الحياة بسد الرمق !.

وتحدث عن تفاوت الناس فى العيش ومقداره بفصل « لؤم المال ووهم

التعاسة » كما عرض للحياة والسعادة بفصل وجدها فيه « لم تعد في إشباع العواطف ، وتغذية الشعور ، وليست في موضعها الذي هو بين الضمير والعقل » ذلك أن السعادة في رأيه « كل ما استشعرت النفس أنها زادت فيه » .

وكان قد كتب للبيان مقالة يصف فيها «البخيل » قدم لها بحديث الشيخ علي وأتبعها بقصة مترجمة صاغها بأسلوبه الشاعري ، وتصرف بها ، مصوراً مأساة جميلة ساذجة مع كونت غني بخيل في فصل « سحق اللؤلؤة » ،.. وقد حول بعض مشاهد القصة الى صور بيانية هائلة نفذ فيها الى الحب وفروقه بينهما في الحفلات والمراقص ، والموسيقى وعلى المائدة ، وشهر النحل .. ثم ختمها بقولتين على لسانيهما .

الفقر خلو من المال ، ولكن أقبح الفقر الخلوُّ من العافية ـ فكتور .

الغنى أن تملك من الدنيا ، ولكن أحسن الغنى أن تهنأ في الدنيا ـ لويز .

ومن امتع فصول الكتاب ما كتبه عن « الخط » تلك الكلمة التي وجدها « يستوي عندها خطأ الانسان وصوابه » .

ثم تحدث عن الحرب وجبهتيها الشيطانية والالهية ،.. واتبع الفصل بقصيدة « على الكواكب الهاوية » التي حكى فيها قصة حسناء افقرتها الحرب وكيف تتلقاها الحقيقة » :

وكم قيل إنسانية ومحبة ... وعلم وتمدين ، وأشباهها الكثر

فلا تخدعوا الانسان عن نزعاته ... فما الناس إلا ما أساءوا وما سرّوا

ولا بد من ضدين في كل حالة ... وبينهما إما النجاة او الأسر ..

ونقل في الطبعة التالية فصلا في الجمال والحب عن كتابه « السحاب الأحمر »

الذي وضعه لمساكين الحب ، لمناسبته مع هذه الفصول »..

واختتم الكتاب بمقالة « الدين ولادة ثانية » ترك فيها الشيخ علي لينقل عن نفسه باعتباره صاحب المساكين !.. وقد وصف أغرار دعوة التجديد ، فوجدهم أحد أربعة ، الأول ملحد أديب معني بجمع كل نفيس من الكتب ، ولكنه يزعم أنه نبذ الدين بالخلق ».. والثاني متفلسف انقلبت عقيدته الى زيغ فله رأيان في أمور الحياة ، يستمتع بالحرام والحلال ، ثم يرجع الى ضميره فيتألم !!. والثالث ، يزعم أنه مصلح يركب الناس بمزاعمه وخرافاته وبث أوهامه ».. والرابع جعلته الكتب عالماً وقسمت له ما شاء ، ولكن الله لم يقسم له شيئاً !..

ولو مد الله في عمره ، لأضاف الى المساكين مرثاته لسعد زغلول « أكانت مصر في حلم .. وهذه دهشة الحلم » ».. ودموعه في « وحي نعش زين الشباب امية الرافعي » ومرثاته لمحمد نجيب باشا والملك فؤاد .. الخ .

* * *

٥ ـ النشيد الوطني المصري :

وضعه نابغة كتاب العربية وزهرة شعرائها ، ونشرته المكتبة الأزهرية بمصر عام ١٣٣٩ هـ ـ ١٩٢٠ م وصدر في ٩٦ صفحة من القطع المتوسط .

حين نهضت مصر عام ١٩١٩ م تنشد استقلالها ، تلفت القوم يبحثون لهم عن هتاف يكون لسان الثورة والفداء ، وسبق المرحوم جعفر والي بين الشعراء لنظم نشيد وطني ، فتقدم الرافعي بنشيده :

الى العلا .. الى العلا : بني الوطن   الى العلا .. كل فتاة وفتىً
الى العلا في كل جيل وزمن   فلن يموت مجدنا .. كلاّ ولن

وفى مقطع منه يثير الأدباء والفقهاء معاً حيث يصور الوحدة الوطنية :

إيماننا كنيسةً ومسجدا دين اتحاد للبلاد وهــدى

وكل ما في العمر يوماً وغدا وكل ما نملك للمجد ثمن

وحدث أن اللجنة حاولت أن يسبق نشيد أحمد شوقي - رح - فما كان من الرافعي وجريدة الأخبار غير الثورة على اللجنة وشوقي نفسه بمعركة أدبية لها مكانها من تاريخ الأدب الحديث .

وقد كتب عن نشيد الرافعي أساطين البيان ، وفحول السياسة ، والأدباء فعمد الرافعي الى هذه الـكلمات يجمعها كلها - وهي من وحيه وإملائه - فأخرجها في الـكتيب هذا .

على أن النشيد هو أحد أغاريد الرافعي القومية الموفقة ، التي كان لهـا دوي خاص في النهضة المصرية الحديثة .

* * *

٦ - اسلمي يا مصر - نشيد سعد زغلول :

صدر عام ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٣ م ، في بضع وستين صفحة عن المطبعة السلفية .

كان لتوفيق الرافعي في النشيد السابق ، ولظهوره على نشيد أمير الشعراء أحمد شوقي ،.. ولتطور الحركة الوطنية ، وبروز سعد زغلول على أساس من الواقع الفعلي فى النهضة ،.. ما حفز الرافعي على المضي في هذه السبيل التي اختطها لفنه الشعري المردد شعارات على ألسنة الجماهير .

ولا سيا أن ما لاقاه من إقبال أبناء الأمة ، ورجال نهضتها ، قد بعث فيه الهمة لـكي يعود الى موضوعة « أغاني الشعب » التي حاولها غير مرة .

ويوم نالت مصر الحديثة حظاً من الكيان الجديد ، وأضحى لها دستور
أرسل الرافعي نشيده يقول :

إسلمي يا مصر .. إنني الفدا ذي يدي إن مدّت الدنيا يدا
أبداً لن تستكني أبداً أنني أرجو مع اليوم غدا
ومعي قلبي وعزمي للجهاد واقلبي أنت بعد الدين دين
لك يا مصر السلامة وسلاماً يا بلادي
إن رمى الدهر سهامه فأتقيها بفؤادي
واسلمي في كل حين

وقد طبع مراراً ، وأنشد في حفلات وطنية ، تبارى رجال الفن والموسيقى في أساليب تلحينه ، وبث أنغامه ، وترديده ، فكان من وسائل الدعاية لأدب الرافعي نفسه بالإضافة الى مكانته في الروح القومية .

وعلى هذا الأساس أخرج الرافعي النشيد في طبعة خاصة ، قدم له فيها الشيخ محب الدين الخطيب فقال فيها « إذا صاغ الشاعر معنى من معاني القلوب في أبيات كان ذلك لسان الأفئدة وقيثارة العواطف .. والنشيد بعد فريدة من الفرائد التي يجب أن تترنم بها الحناجر ، وتشترك في تصويرها أعصاب القلوب وأوتار الموسيقى حتى تكون أنشودة العاطفة الوطنية من ينبوع النيل الى مصبه » .

وأتحفه شيخ العروبة أحمد زكي (باشا) برسالة تاريخية مسهبة في الموسيقى والأناشيد وفعلها في النفوس ... آتياً على صيحات العرب ونخواتهم وما لدى الفرنجة من أوضاع الشعارات ، مبيناً أهمية النشيد القومي للأمة .

ولما كان موضوع النهضة ما يزال على أوجه .. فقد ألحق به رسائل

أخرى وفصل منثور وصف فيه كيف أن روح العظيم تبث فى النفوس من أشعتها فتعظمها .. وقال فى سبب عروبته الفصحى :

« نحن نريد إرجاع اللغة الى منزلتها الأولى أو قريباً منها ، إذ القوة والحماسة من استعداد النفس بالتربية الوطنية للتأثر ، والعمل على تربية النشء تربية لغوية ،.. إذ ليس النشيد لهذه الأيام ،.. ولكن للشرق كلّه »(١) .

وهكذا كان ـ رحمه الله ـ يتوخى العربية الفصحى في الأغاريد لتكون اللسان القومي الجامع للأمة في شعاراتها ومرددانها وأسلوب تفكير أبنائها .

على أن خير ما في هذين الكتابين سيجتمع في « أغاريد الرافعي » بإذن الله وتوفيقه ؟

* * *

٧ ـ رسائل الأحزان

مرّ بنا فى الفصل الذي تحدثنا فيه عن الحب فى حياة الرافعي ، شيء من خبر هذه الرسائل ، حيث كانت تتنازعه الأفكار ، وتنثال عليه المعاني فيحاول معارضة جوته في آلامه ، أو كتابة قصة شقاء وحزن وهوس ..

ثم « حدثت له أمور غريبة قطعته عن كثيرين ، وكانت رسائل الأحزان نتيجة لها » (٢) .

زعم أنه تلقى هذه الرسائل من صديق « إجتمع من تاريخه إنسان بلغ الزمن تحت عينه نيّفاً وأربعين سنة ، تلك السنة التي ينقلب فيها الآدمي من

(١) لغوي ــ المقطم ـ ٢٦ شباط ـ فبراير ١٩٢٣ م .

(٢) رسائل الرافعي ص ١٦٨ .

وفرة القوة ليثاً ، ويرجع من قوة الحكمة نبياً ، ويعود من تمام العقل إنساناً »(١)
.. غير أن هذه الأربعين بما تعاورت عليه ، قد هدم فيه بعضها بعضاً ؛ فجاءت
« هي » تبنيه وتشد منه وترمم بعض نواحيه المتداعية ، وتقيمه بسحرها
بناءً جديداً » .

فتحدث عن الذكرى ببقايا آلام كأنها أشلاء من فريسة تشير الى تاريخ
من الموت والألم والتمزيق ، تركته يتحدث عن أنه أحب فتاة كأنها قصيدة
غزلية في ديوان ،..

وفي رسالة قال : « الحب الصحيح إنما هو كالطفولة ، لا تعرف الفنى إلا
شبيهاً بوجه الفتاة ، حالة متشابهة كاخضرار الشجر تبعث عليها الحياة حين لا يجيء
الحس فيها إلا من جهة القلب » (٢) .

وكانت « حيلة مرآتها » موضوع الرسالة الثالثة في قصيدة من أبرع شعر
الغزل وأصفاه روحاً ، وأجده ديباجة ، وإن التزم فيها ما لا يلزم من القافية :

حسناء خالقها أتم جمالها ... سألته معجزة الهوى فأنالها

وبعد أن أفاض فى وصفها ونعت حسنها ، عرض لها أمام المرآة ، بعد أن
لم يجد لها مثالاً فى غيرها وقد :

نظرت لها حسناً إذا ما احتل فى ... دول النهى سلب النهى استقلالها

فتذكرن شمس الجمال متيماً ... تركته من فرط النحول هلالها

ورأت صفا المرآة يشبه قلبه ... مهما تحمله يكن حمالها

(١) رسائل الأحزان ص ٢١ .

(٢) » » ص ٤٧ .

الى ان يقول :

كادت تقول رضيت عنه فأمسكت ومضت على عجـل لتخفي حالها

أواه .. لو مرآتها نجحت ولو فمهـا تبسّم عند ذاك وقالها

واستعرض الصورة الأدبية في الحب وقد رآها : « تريد أن تجمع الى صفاء وجهها وإشراق خديها وخلابة سحرها ، صفاء اللفظ وإشراق المعنى وحسن المعرض وجمال العبارة » وحسب أن الحب عندها كالكلمة التي يكتبها أو المعنى الذي تتخيله » (١) فكأنه يريد البلاغة بفن جديد ،..

وتدركه المقارنة بينها وبين القمر ، فيذكر لبنان وأيامه :

يا نفحـة الجنات من تلك الربى كم ذا بطول تلهفي وهيـامي

وفي رسالة اخرى تحدث عن فتنتها التي خلقت الهوى في امرأة ،..

واكتشف فى الرسالة الثامنة أن « الرجولة والضمير والدم الكريم ـ وهي عناصره هو ـ اذا اجتمعن في عاشق هلك بثلاث : بتسليط الحبيبة عليه ، ثم فتنته بها ، ثم إنقاذها منه ـ وكل ذلك هلاك ـ إلا أن شرف الهلاك خير من نذالة الحياة» (٢).

وفي التاسعة تحدث عن القلب الكريم المتألم فكان قلب مجنون ليلى هو المثال .

وفي العاشرة أراد أن يسمي الجمال بعلم تجديد النفس ، ففيها الفكر والجمال وفيه الخيال والحب .

والأخرى وجدها تخشى غضبه ولكنها تراه يحمل اليه ملك الوحي الذي

---

(١) رسائل الأحزان ص ٦٨ .

(٢) « « ص ١٠٣ .

لا ينزل عادة إلا في جو من البرق والرعد .

ونقل من سطورها وحديثه محاورة ، فيها نشوة المحب المفتون بـ « قلت وقالت » ،.. حتي لمست روحه روحها في الرسالة الأخرى ، حين وجد اللغات تعجز أحيانًا فلا تحسن التعبير .

والرابعة عشرة فى الورد ولفظها له وقد تضامت شفتاها كأنها تهم بقبلة ، حسبها تقول له اسمه ،..

وفي الرسالة الأخيرة قال« كل ما سطرت كان عجاجة ثائرة فيحرب الهوى ، ليس تحتها في حومة القلب إلا ألم كضربة سيف او طعنة رمح او كيّة برصاصة ملتهبة » (١) ص ١٥٧ .

وقد رأى « أن مسّ استقلال دولة من الدول العظمى قد يكون أحيانًا أيسر وأهون من مسّ استقلال نفس من النفوس الكريمة » ..

ولكن « ساعة من الضعف الإنساني تنشيء للقلب تاريخًا من العذاب ».

فقد كان فى « تدبيره والرأي فيه كمن يؤرخ عهداً من شبابه بعد أن رقت سنّه ، وذهب يقينه من الدنيا ولم يبق إلا ظنه ، فهو يكتب والكلام يحن لديه والقلم يئن في يديه » .

قال الغافلون اني اتكلف لها خيالاً ورواية ، وقال العاشقون إنها كلام قلوبهم ، وقال الذين يفهمون الكلام : إنه هو في كلامه ! وكنت في ذلك شاعراً ، وحب الشاعر لا يخلو من الوزن .. ووقع القضاء فى الحب على القدر» (٢).

---

(١) راجع الرافعي ــ الرسائل ص ١٦٨ .

(٢) الرافعي ــ السحاب الأحمر ص ١٢ .

والكتاب بعد محاولة قومية في تجديد البلاغة العربية ، وسمو بعاطفة الحب في صورة من التحدي الاعتقادي ، والانتصار البياني والاشراق الروحي ،٠٠ وقد ضمنه الكثير من الحقائق العلمية . ولكن لم يدرك ابعاده الكثيرون . وبالرغم من طبعه غير مرة ، فإن تاريخه لم يكتب (١) .

٨ ـ تحت راية القرآن

المعركة بين القديم والجديد

كتاب في أربعمئة صفحة من القطع الكبير ، طبع غير مرة .

جمع الرافعي فيه مقالات له عن الأدب في الجامعة المصرية وسواها، وأضاف اليه فصولا من ملاحاته الدكتور طه حسين وكتابه « فى الشعر الجاهلي » .

وقد نبه فيه الى العمل على إسقاط فكرة خطرة ، ونزع فى اسلوب الكتاب الى منحى بياني يديره على سياسة من الكلام بعينها ،.. « ولو كان اصحابنا غير من هم في الأثر والمنزلة لكان اسلوبنا غير ما هو فى النمط والعبارة » ص ٣٠ .

وقدم له بدعاء ، وقد رأى فئة « المجددين » يأكل الدليل الواحد أدلتها جميعاً ، وأن أستاذ الجامعة إنما يقلد الهدامين من جبابرة العقول في أوربة ، وأنه وأمثاله غلطات إنسانية تخرجها الأقدار لتعارض بها صوابًا كاد يهمله الناس .

وفي المقالة الأولى ـ التي كانت رداً على سلامة موشي حين نحله زعامة المذهب القديم (٢) ـ تحدث عن مفهوم القديم والجديد بغير قليل من المقابلة والتحدي ، والإجهاز على دعوة التجديد وطيشها وجهلها ..

---

(١) الرافعي ـ الرسائل ص ١٦٨ .

(٢) الهلال ـ يناير ١٩٢٣ م .

وفى الثانية تحدث عن الميراث العربي ، وكأنما امتد بها قومياً ليكمل شيئاً مما فاته قوله للمجددين الجهلة .

وفي الثالثة وضح هدفه فى « الجملة القرآنية » وعربيتها وفصاحتها وسموها وقيامها في تربية الملـكة وإرهاف المنطق وصقل الذوق .. فلا يسفّ الى الرطانة الأعجمية ، فيتبع الترجمة في الجملة الانجيلية !.. وقد تلقى تعقيباً من الأمير شكيب أرسلان على هذه المقالة المتحدية يكشف فيه عما « وراء الأكمة » .

ثم ينتقل الى موضوع الفصحى ، فينقل رده على لطفي السيد ودعوته الى العامية المصرية الذي كان قد نشره افتتاحية للبيان عام ١٩١١ م .

وفي هذا الرد البليغ كان قد قرر « إنما القرآن جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة الى العربية ، فلا يزال أهله مستعربين بـه متميزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكماً حتى يتأذن الله بانقراض الخلق وطي هذا البسيط » ص ٤٧ .

وبثبات قومي هادف يقول « ولولا هذه العربية التي حفظها القرآن على الناس ، وردّهم اليها ، وأوجبها عليهم .. لما اطرد التاريخ الاسلامي ، ولما تماسكت أجزاء الأمة ولا استقلت بها الوحدة الاسلامية » .

وكان قد أتبع ذلك بمقال آخر في « تمصير اللغة » سخر فيها من دعاة الصلح بين اللغتين : الفصحى والعامية ، « وليس عندنا في وجوه الخطأ اللغوي أكبر ولا أعظم من أن يظن امرؤ أن اللغة بالمفردات لا بالأوضاع والتراكيب » ص ٥٦ حتى صرح بقوله « لن تجد ذا دخـلة خبيثة لهـذا الدين إلا وجدت له مثلها في اللغة ».. وإن أصحابنا لا يجهلون أن الأصل فى التربية بالحمل على الأخلاق وعلى روح الأمة التي تتميز بها » ص ٦٣ .

وكان قد أجاب جريدة السياسة عن سؤالها ما الجديد وما القديم ؟! وقد رأى « فئة من الصحفيين ترى في كلمة الجديد معنى بديهاً من معاني « لغة الاعلانات » وهذه لا تبالي ما ينفع مما يضر .. ولكن ما يروج وما يكسد ، فالجديد عند هؤلاء إنما هو كذلك فى تسميته ، أما في معناه فهو جديد « أمريكاني » !! من الخلط والركاكة والتحامل والطعن والعيب .. من أساليب جراميق أمريكا .. الخ .

ثم انتقل الى موضوع الأدب العربي في الجامعة المصرية ، ومهد له تاريخاً ، بما ثبت فيه أنه السبب فى تدريس الآداب العربية وتاريخها في الجامعة .

ففي المقال الأول عرض لما نُصَّ فى دستور الجامعة على نوعين من الآداب الأجنبية وليس بينها آداب العرب ».. ورأى أن الجامعة لن تكون مفلحة في الأدب إذا هي لم تحي ذلك العهد من الرواية بأنواعها بحثاً وشرحاً وإيراداً وتمحيصاً ».. « فإن الأمة لا تحيا إذا ماتت لغتها ، ولن تموت لغة أمة حية ».. وما دامت العربية على أصلها فأدبها ما أخرجه لنا السلف ، لا ينقص منه ولكن يزاد عليه بما تمثله الأيام ، وتبدعه الأفهام ، وتستأنفه القرائح ، وتتدبره العقول ويمحِّصه التحقيق ، وتبدعه مذاهب النقد .. » ص ٧٥ .

والمقال الثاني كان جواباً على خطاب صديق تحدث فيه عن طريقة التأليف الميتة في « الأدبيات » او التحرير بالمقص .. وكيف يتهيأ الكتاب الممتع في الأدب ، الذي يوفي على الغاية ..

ثم نقل مقالة الأستاذ عباس فضل في « الدكتور طه حسين وما يقرره » التي كانت سبباً في إسقاطه ما كان قرره عن الشعر الجاهلي ».. بما تستطيع أن

ونقل كذلك مقالة الأمير أرسلان « التاريخ : لا يكون بالافتراض ولا بالتحكم » وقد كان احتال على الدكتور طه حسين محرر الصفحة الأدبية في السياسة برسالة ورطه بنشرها ، وقد سخر منه ومن أسلوب تجديده بما يثير الضحك والاشفاق معاً ، بحيث تقع يدك على مكان التمزيق من تلك المرقعة !

ويظهر أن الدكتور طه حسين كان يحمل في صدره ضغينة ما على الرافعي وما قد خشي على نفسه من أن يقرر كتابه « تاريخ آداب العرب » على طلبة الجامعة ، فلا يتهيأ له استيعابه ، او الطراد مع أشواطه ».. فكان منه أن أشهد الله والناس على أنه لا يفهمه ».. ويوم أخرج الرافعي « رسائل الاحزان » عاد طه الى علة فهمه ».. فما كان من الرافعي غير الرد بقسوة ، شبهه فيه بدءً بكيسان مستملي أبي عبيدة الراوية ، الذي كان يكتب غير ما يسمع ، ويقرأ غير ما يكتب ، ويفهم غير ما يقرأ ».. وعلل ذلك بثلاثة :

« إما طبيعة في النفس مبنية على المكابرة والمراء في اللجاج والسفسطة كما يفعل أهل الجدل في غلبة ثرثرة ».. وإما طبع مستوخم فى الخيال والفكر ، لا يرتفع وإنما يسف ويخبط ».. وإما عقل لا كالعقول .. » ص ١٠١ .

ثم مضى يناقش نقد طه مناقشة علمية ومنطقية أظهر فيها علله جميعاً ..

ومن هنا تهيأ الرافعي لملاحقة طه ، وكأنه كان ينتظر ظهور كتاب « في الشعر الجاهلي » فوجه الى الجامعة المصرية خطابين مفتوحين أحرجها فيهما بأسئلته ، ومقالين آخرين « وشهد شاهد من اهلها » و « فلسفة كمضغ الماء » كان قد نشرهما في « كوكب الشرق » وقد ضايق بهما أهل السياسة والجامعة معاً ».. في حكاية طه وكتابه وعندما تهيأ له يقرأ الكتاب أدرك طه متمثلا بقوله

بقوله تعالى « قال إنما أُوتيته على علم بل هي فتنة » الآية . فقد لاحظ عليه تلاعبه بالنصوص بالحذف والاصلاح ومتابعته لخديعة المستشرقين بالعلل الحمقاء .. التي يتجرأون فيها بالكذب على التاريخ ، وزعمهم أن النبي نهى عن رواية شعر النصارى ، واليهود .. الخ ،.. وكيف ان طـه غير أمين فى نقله عن ابن سـلام والمرزباني وسواهما ،.، وفج له دعواه في التجرد من دينه عند البحث وقد ناقشه بعلمية ومنطق في كثير من موضوعاته وأحكامه .

وعندما لج زبانية طه في طغيانهم استعدى الرافعي مجلس إدارة الجامعة وهيئة كبار العلماء « على أستاذ الآداب ، بسبب من موقفه من القرآن الكريم في كتابه ، وأبرز لهم تخليطاته ووقاحاته ، وما تورط فيه من آراء فكرية ،.. حيث تبين له انـه « مجموعة اخـلاق مضطربة وأفكار متناقضة ، وطباع زائغة » ص ١٥٦ .

ثم مضى يؤرخ للمعركة في جبهاتها وكيف طارد العلماء الإلحاد ، ورأى لجنة العلماء في الـكتاب ، وكتاب طه الى مدير الجامعة نفسه بعد ما أدرك الغرق وحراجة موقف الوزارة والجامعة .. الخ حتى « قد تبين الرشد من الغي » ص٢١٣.

ومن تحليقات الرافعي في هذا الشأن ما زعمه من نسخة فريدة من كتاب كليلة ودمنة يحتفظ بها ، فأراد أن يتحف القراء بفصول منها ، مبالغة فى التهكم والنقد والايذاء ..

وعندي أن لو مدّ الله في عمر الرافعي لعمد الى هذه الفصول مستخرجاً النقد العلمي الوثيق ، مطرحاً تلك الاستطرادات والعواطف ،.. إذ لو تجرد الكتاب منها لكان نقداً لا يبقى لطه ولا يذر ،.. ولكن هكذا كان فالدكتور طه حسين

رجل محظوظ حقاً كما يقول الرافعي ،..

وعسى أن نتمكن من توزيع بعض مقالات الكتاب على أبواب (وحي القلم) التي تهمّ بها بإذن الله ،.. ليكون كل شيء عند موضوعه؟

٩ ـ السحاب الأحمر

بضعة وثلاثون ومئة صفحة من القطع الكبير ـ وقد طبع عدة مرات قدم له بما شفّ فيه عن قصة حبه التي حاول عرضها في « رسائل الاحزان» وأرخ لعهد من شبابه بعد أن رقّت سنه ،.. فأعطى الأدب الحديث روحاً من البيان ، ومده بدفقات من المعاني ولوحات من الصور ، وآيات من الفن .

ثم إنه عاد يستمطر « السحاب الاحمر » معاني أخرى ، يستوفي فيها الكلام عن الحب ، ويستمد الالهام من أرواح أخرى غير الروح التي أملت عليه الاحزان ،.. فكان في هذه الارواح الحبيب الحلو ، والبغيض القبيح ، والصديق المؤمن ، والمنافق الأثيم ، والمظلوم والظالم لنفسه ويستمد كذلك ممن عقله وقلبه ، ومن حبه منفعته ،.. حتى ليشهد أنه في بعض فصوله كان يحامي عن الحب أن ينتقص فيدير الكلام على ذلك فيلتوي ،.. ثم يراه لا ينقاد ولا يتابع إلا على خلاف ما يريد .. حتى جأر بالشكوى :

من للمحب ومن يعينه والحبُّ أهنؤه حزينُه

أنا ما عرفت سوى قسا وته ، فقولوا كيف لينه

قلبي يحب وإنما أخلاقه فيه ودينه

.. وفي كلمة سبق بها فصول الكتاب اكتشف حقيقة علميا حين يضجر أهل الخيال من الخيال فلا يصلحهم إلا الحب ، لأنه ناموس التطور للقوة المتخيلة ،

فالمرأة تلد الانسان ، ولكن حبها النابغة .

ويعقد الفصل الأول للقمر الطالع، ويستهله بآية النور الكهربائي التي يكتب على ضوئها وقد طارت منه نظرة رأى فيها حسناً ، كأنما تتناثر ضباباً من بخار الذهب ،.. وراءه أن ينقلب النور متضرماً ثم يعود لجة من « السحاب الأحمر» كالحب المتوهج يملأ فراغ القلب .

ثم إذا بالسحاب الأحمر يمطر عليه بالخواطر والكلمات ، فتعود بـه الذاكرة الى فتاة عرفها فى ربوة من لبنان ، كانت روحها عطرة تنفح نفح المسك إذا تشامّت الأرواح الغزلة بالحاسة الشعرية » ص ٢٤ .

وقد تخذ فتاته تلك المثال ، فما نظر الى النساء حولها إلا وجد من الفرق بينها وبينهن ما يتضاعف ، . فهو يعقد المقارنة بينها وبين من أذاقته عمراً من الأحزان .. بعد بضعة عشر عاماً ،.. فينازعه الحبُّ في قلبه .

« إن من المرأة ما يحب الى أن يلحق بالايمان ،.. ومن المرأة ما يكره الى أن يلتحق بالكفر !.. » ص ٢٩ .

وفي الفصل التالي تنثال الخواطر عليه فيرسلها ـ النجمة الهاوية ـ في طائفة من النساء يدرك بعدها أن « في المرأة حقيقة ، لا تعرفها إلا بفكر رجل ،.. وإلا أساءت الى حقيقتها » ص ٣٣ .

« يا هذه لا أدري ما تقولين ، ولكن الحقيقة التي أعرفها أن نفس المرأة إذا اتسخت كان كلامها فى حاجة الى أن يغسل بالماء والصابون .. وهيهات .

وهناك فصل « السجين » الذي يعد من أروع فصول الأدب الانساني الذي يتسامى فكرياً بمعالجة مشكلة اجتماعية خطيرة ، وقـد عرض لمأساة بعينها ،

وصور فيها السجين وهو يودع ذويه من وراء شباك الحافلة ،.

« .. أما اهل الرجل فتهالكوا وراء العربة ، فالشباب يخطف عدوه خطفاً منكراً ، كأن قربه منها يوصل بعض أنفاس الحرية الى أخيه ،.. والنسوة يهتلكن في جريهن ،.. وكلما أبعدت الحافلة علا صراخهن ليبلغ السجين منهن شيء ما ،.. أما الطفلان وجدتهما فوقفوا من الضعف كأنما وقفت قلوبهم ،.. أما الرضيع هذا اليتيم في حياة أبيه ، الذي تدق فيه مسامير الفقر واليتم والضياع ،.. فكان وحده دليلا على الامل الانساني في رحمة الله .. إذ فتح عينيه للنور وابتسم !..

ما الفراق إلا أن تشعر الارواح المفارقة أحبتها بمس الفناء ، لأن أرواحاً أخرى فارقتها » .

وفي فصل يتحدث عن طاعون الزواج في جنس من النساء تكون زوجة ولا كالزوجة نفسها ،.. فهي البغي ـ الربيطة ـ التي بأجر او بعقد مدني او متعة (زواج عرفي) في بيت رجل!.. وقد أجهز فيه على واردات أوربة ونقلة رذائل مدنيتها ، ممن اضافوا لرذائل الشعوبية تاريخاً حضارياً آخر .

وعقد فصلاً ممتعاً حقاً للمنافق فقد حسبه فيه « سياسي الحب والصداقة يضع المنفعة بين عينيه ثم تتوزع على جوارحه كل اساليب الكلام والعاطفة » .

ثم يقسم أنه ما رأى كالمنافق رجلاً « إلا ذلك الواقف يدير وجهه بين مرائي عن يمينه وشماله ومن ورائه وبين يديه ، فله في كل واحدة وجه ، ويتعدد الرجل وهو شيء واحد » !.

ويخيل إلي أنه كان يصف فيه مجموعة الساسة في تلك الأيام ـ وهو يستمده معاني الحب في نفسه ، وكيف تتبدل القيم الأنسانية العليا عندهم.

أما الصغيران من أبناء الأديب المدمن ، فقد شغلاه عاطفة ، وانفجر قلبه آلاماً وسروراً ورحمة لهما في ساعة واحدة ،.. وقد أضحكه منهما اصطحابهما وأمهما لأبيهما السكير من سقطته في ساقية المدينة .

ثم تطل عليه روح الشيخ علي الجناحي فيستلهمها فيضاً من الأفكار في الحب والمرأة ، وشهوات الناس ، وأمزجة الأمم .

أما صفيه الشيخ أحمد الرافعي فكان حزن الرافعي عليه عظيماً ملأ عليه الفصل الثامن كله « فقد كان دينه غضاً كعهد الدين بأيام الوحي ، لا تزال تحفه رقة قلب المؤمن ، وفوقه رفّة جناح الملك يخالط نوره القلوب » ص ١١٧ .

« آه لو عرف الحق أحد لما عرف كيف ينطق بكلمة تسيء ، ولو عرف الحب أحدٌ لما عرف كيف يسكت عن كلمة تُسرّ ،.. ولا يكون الصديق صديقاً إلا إذا عرف لك الحق وعرف لك الحب » .

وحين تألق بسحابه على روح الشيخ محمد عبده كان يشعر وكأنه « مرتقي في صعداء مطلبها طويل بعيد ،.. فلا يخطو خطوة إلا مدافعاً جاذبية الارض» ص١٥.

فقد كان للشيخ الإمام عقل لو وُزن في رجحانه لعُدّ بين العقول من موازين التاريخ ، وقلب إن يكن في جنبيه كالقلوب التي وُضعت على منحدر المعاني الارضية فانه كان دون القلوب على مهبط السماوات ..

وهكذا يستلهم هؤلاء جميعاً معاني الحب ، وفكراً في النساء ، وخواطر للناس ، وحكماً وروائع في الحضارة والحياة ، وآراء ونظرات فى الاجتماع الانساني بصورة من البيان ، تدق أحياناً حتى لتستغلق ، وتصفو حتى تتصل باللوح !.

وقد عقب على ملاحظات المقتطف بما كشف فيه شيئاً من هدفه القومي في هذا النحو الممتاز من الفن البياني ، والادب الاعتقادي البار ؟

* * *

١٠ ـ على السفود

نقد تحليلي ـ الجزء الاول ـ دار العصور ـ كانون الاول ـ ديسمبر ١٩٣١ م .

كانت للرافعي يد على الفتى الأسواني ـ عباس محمود العقاد (١) ولكنه ما كاد يشب عن الطوق ، ويتعلق بأذيال السياسة يتشبث بها متسلقاً بالكتابة والترجمة لصحفها ،.. حتى تنكر لجيل من أدباء العصر ، بصورة من التصدي والمكابرة والانتقاد المؤذي ،.. ونال الرافعي فيمن نالهم قلمه السليط (٢).

وقد أهمله الرافعي فى باديء الامر ، حتى لجَّ في التحرش ، وحاول الخصومة غير مرة (٣) وكان آخرتها رأيه في الرافعي وكتابه إعجاز القرآن ، التي كان منها سقطته العلمية التي لم يستطع القيام منها حتى إخراجه « الفلسفة القرآنية » .. وكانت فرصة اهتبلها الرافعي لينال منه نقداً وإيذاءً ، ويجهز عليه من ثم ،.. فعرض عليه المرحوم اسماعيل مظهر أن ينشر مقالات نقدية فيها تحليل

---

(١) راجع البدري ـ رد على تعقيب الأقلام ـ الجزء الأول ـ ١٩٦٧ م .

(٢) أنظر العقاد ـ الديوان ـ الجزء الثاني ـ أبو عمرو .

(٣) حاول مرة أن يدس أنفه بين الرافعي وسلامة موشي عام ١٩٢٣م ، وأخرى بينه وبين طه حسين في موضوعة « الشعر الجاهل » .

وتدقيق يتناول العقاد وديوانه بمنهاج علمي يعمل فيه على هدمه جملةً وتفصيلاً .

وحين اجتمعت هذه المقالات فى « العصور » على دورة العام أخرجها ، متغافلا عن مكانة العقاد من حزب الوفد !.. وقد وسمها بصورة شيخ غليظ القلب ، وضع طفلا في سُفّود ـ سيخ ـ يقلبه على النار والشواظ كالذي يشويه:

وللسفود نار لو تلقت بجاحمها حديداً ظُن شحما
ويشوي الصخر يتركه رماداً فكيف وقد رميتك فيه لحما؟!

إمام من أئمة الأدب

ويبالغ في السخرية والتهكم فيجتزيء كلاماً للعقاد نفسه كان قد نشره فى جريدة مصر عام ١٩٢٩ م يتخذ منه كالمقدمة للكتاب ، ايدور بفصوله من حولها ، حيث يقول العقاد :

« وفي الغرب طائفة من أدعياء الفكر ـ مثل العقاد ـ يسمونهم (انتلجنبزيا) ويعنون بها المتحذلقين والمتفيقهين ،.. وهذه الطائفة على شيء من بريق الذكاء ، وقدرة على التلفيق والانتحال ،.. يغترّ بها من ينخدع بشقشقة اللسان وسمات الوقار ،.. فهي سطحية ، لا تنفذ الى قرار ، ولا تحيط بفكرة ، ولا تفهم شيئاً على استقامته الطبيعية ، لأن الفهم عمل يشترك فيه الادراك والذكاء والذوق ، والفطرة والبصيرة ،.. وليس عند هذه الطائفة من هـذه غير وميض الذكاء والتلفيق ـ دون الاستيعاب .

إن أنانية هؤلاء المجرمين عمياء ، لا تدرك أن الإحراق يؤلم ، حتى تحرقها النار ـ نار السفود ـ وترمضها أيما إرماض ،.. الخ » .

وبعد أن يعرض الرافعي لمعنى السفود ، ويسبب استعارته فى النقد

« لأن بعض المغرورين من أدباء هذا الزمن لا يصلح فيهم من النقد ،٠٠ إلا ما ينتظمهم ناراً كنار اللحم يشوى عليها ،٠٠ فقد أُعينوا من الصفاقة والدعوى والخداع ولؤم الطبع والعُجب بما لا تدبير فيه إلا حال كتلك » ٠

ويعرف مظهر بالكتاب فيقول : « أن السبب الذي حدا بنا الى نشر (على السفود) أن نرضي ضمائرنا ،٠٠ بأن نفسح لعلم من أعلام الأدب ، وحجة ثبت من رجات العصر أن يعبّر فى صراحة عن رأيه في أديب تميز بشيء من الصلف عرف به ، وبقدر من الزهو والاغراب في تقدير الذات » ٠

إذ « من الأسف أن الطريقة التي اتبعتها الصحف في المدح والذم هي لمجرد النفع المادى ، فسمي النقد تقريظاً ، والاستجداء تقديراً ، والتمسح تقويماً،.. لهذا أردنا تحرير النقد من عبادة الأشخاص ، ذلك الداء الذى كان سبباً في تأخر الشرق » ٠

وفى مقدمة هذه المقالات ـ التي هي عند الرافعي مُثُل وعينات تؤول الى حقيقة هذا الأديب من كل نواحيه ،٠٠ يرجو أن تكون قد وجهت النقد فى الأدب العربي ، وأقامته على الطريق السوية ،٠٠

والرافعي يبدو وكأنه يتوثق منهاجاً علمياً في النقد كالذي يجده عند (جول لمتر) وشعوره النبيل القائم على الفهم ،٠٠ وما يقابله عند العقاد ،٠٠ فيعرض لأخلاق السوقة عنده ، ولطبعه الجلف ، وسفاهته ، وكيف يخاطب الأدباء بحماقاته وكلماته ٠٠ وكيف أن الرافعي أراد أن يواجهه بلؤمه في مجلس المقتطف ، فكأنما ألقى بحجر في ماء آسن ؛ حيث ثار العقاد في وجهه ، وكتب

له بخط يده يجبه بنعوب الوقاحة والبذاءات الاخرى ..

فيذهب الرافعي مع (سنت بوف) في تحليل كلماته هذه مع آثاره الادبية مستعيناً بها على أحواله العصبية وما في داخله الذي يصنع ما في خارجه ..

ومع ذلك فإنه يقف قليلا ليقول : إن العقاد لو رضي أن يقال عنه أنه (مترجم) لأنصف نفسه ،.. ولكنه يزعم أنه لا عبقري غيره ، وهو من أجهل الناس في اللغة العربية وأسرارها ، في علومها ،.. فيعود به الى(الانتلجينزيا)!.

ثم يتناول ديوانه بأجزائه الاربعة وطبعتها الثانية .. فيعرض لفنون ونماذج من سرقات العقاد المترجمة ، التي يخفق في استيباب المعاني فيها فيظهر كالمتلبس بها في الضحى ،..

والاخرى التي يأخذها عن شعراء العرب ، فيكشف عن اضطرابه في النقل ، ويظهر سطوه غير الموفق ، بأن يتنقل في المعني الواحد من شاعر الى آخر بأوسع ما في هذا الباب الذي ما غادره النقاد منذ أيام علوم البلاغة ، وكيف كانت تجري المعاني سائلة على السنة الشعراء الاقدمين وكأنها لا تغادر متردماً ،..

ولعل من أغرب ما في الكتاب تصديه لمعاني مترجمة عن آداب الامم الأخرى ، مما يدل بوضوح على أن هناك من يعين الرافعي عليها ،.. من أصدقاء العقاد نفسه !!..

والكتاب بعد فريد في باب النقد الأدبي الحديث ، ولولا أن العقاد كان بادئاً بالتصدي والشتم والإيذاء ،.. لخلص من ظلم الرافعي له بعبارات كان فيها بعض جواب على كلمات العقاد في الورقات، والصحف ،.. ولو ترفع

الرافعي عنها وعفّ .. لهدم العقاد حقاً !.. ولا سيما في ملاحقته له في أفكاره نفسها ، ومسلماته وآرائه !..

ويقول المرحوم العريان أن الرافعي لم يتصد للعقاد بهذه القسوة .. إلا بعد أن تجاوزت تحرشات العقاد حد الخصومة الأدبية واللياقة !..

* * *

ولقد تابع الرافعي نقده للعقاد في آثاره بعد هذا الكتاب ، تصدى فيها لكتابه عن ابن الرومي ، ولديوانه (وحي الاربعين) .. ولكن العقاد لم يستطع الثبات أمامه ففرّ من المعركة ناجياً بجلده بعد أن أضحى (أحمق دولة) وقد اجتمعت لدي هذه المقالات جميعاً ، وعسى أن أتمكن من إخراجها فى كتاب على حدة ، ليقف التاريخ الأدبي على حقيقته فلا يستطيع أن يطمسها مرجف ولا منافق ؟

* * *

١١ ـ أوراق الورد

رسائلها ورسائله

ثلاثمئة و بضع عشرة صفحة ـ المطبعة السلفية ١٣٤٩ هـ ـ ١٩٣١ م وأُعيد طبعه مرات .

كتاب فريد في العربية ، يؤلف ديوانًا من الرسائل تطارحها شاعر فيلسوف روحاني ، وشاعرة فيلسوفة روحانية ،..

صدّره بتاريخ آخر جعله تكملة على كتابيه : رسائل الأحزان والسحاب الأحمر ، وقال: إن فيها جملة آرائه فى فلسفة الجمال والحب ،..

وما عرف أدب العربية رسالة كتبت من هذا الطراز ، على كثرة كتّابها وكتبها ،.. وقد دار الرافعي دورته المعروفة فى تاريخه لآداب العرب يستقصي،.. فما وقف على اسم كتاب أفراد لرسائل الحب ،٠٠ ومرّ على نتف ومستظرفات لا تسمى رسائل حب ، . وإن حفل التاريخ برسائل الاخوان والوجدان والديوان .

وهكذا انطوى على محجوبة من هـــذا الفن بقيت في الغيب الى عهده الذي رجا فيه أن تكون كتبه قد أظهرتها واستعلنت بها ، وأن تقول العربية « هاؤم اقرؤا كتابية » ص ٢٨ ٠

وعرض لتاريخ الحب عند صاحب الرسائل الذي « كان من نمائه وجماله وطهره كأنما أزهرت بـه روضة لا امرأة من النساء ، وكان من مساغه وحلاوته ولذاته البريئة ، كأنما أثمرت به شجرة خضراء تعتصر الحلاوة فى أثمارها أصابع النور ، فأنت لا تجد فى هذه الرسائل معاني النساء متمثلة في امرأة تتصبى رجلا ،.. ولكن معاني الحب والجمال متألهة في إنسانية تستوحي من إنسانية أو توحي لهـا » ص ٣٢ ٠

« والحب الصحيح إذا سلمت فيه دواعي الصدر ، واعتدلت بـه نوازي الكبد وتوثـق فيه عقد النية ، واستوى غيبه ومشهده ،٠٠ كان أشبه بقوة سماوية : تعمل لتبدع في الانسانية شعراً أسمى من حقائقها » ٠

والكتاب بعد « خالص للجمال بذاته ، دافع من الحب فى خاصّ معانيه » ص ٣٦ ٠

يستهل الديوان بنظرته اليها :

تالله لو جددوا للبدر تسمية لأعطي اسمك يا من تعشق المقل

كلا كما الحسن فتاناً بصورته وزدت أنك أنت الحب والغزل

ويراها في بعض ساعات قلبه تظهر له وكأن سراً من الكون يتجلى بها ، ويقول له من عينيها : إلمسني وانظرني فيها » ص ٤١ .

ويرى العطر الذي أهداه لها « سيعلم حين تسكبه على جسمها الفاتن أنه رجع الى أجمل من أزهاره ، وأنه كالمؤمنين تركوا الدنيا ، ولكنهم نالوا الجنة ونعيمها ص ٤٥ .

ويوم بعثت اليه برسمها كتب يقول :

« وهل في الحسن أحسن من هذا الوجه الذي يرف على القلب بأندائه ، ويتلألأ بنضرته ، حتى لكأنه خلق من نور الفجر ، وكأن علامة الفجر فيه إنما هي هذا الروح الذي يحيط القلب من وجهك ، بمعان كنسمات الصبح ، عليلة من شدة الرقة ذابلة من فرط الجمال ، مملوءة من روح الندى بما يجعلها حول النفس كأنها جو من شعور حي فرح لا نسمات في الجو » ص ٤٨ .

وعلى أن هذه الرسالة جواب على رسالتها فى ٢١ ـ ٦ ـ ١٩٢٤ ، فإن الهلال حين نشرتها ، رمزت لها بصورة تشبه « مي » الى حد كبير .

ومن وراء البحر تتحدث اليه بحروفه ، وتحسب أن سعادة الفكر المتصل بها منه ، تخفف عنها بعض ما تجد ، فتقطع المسافة المتراخية بقوة الأحلام وتتنهد :

« الحياة مادة يا صديقي ، فاذا لم أقل كلمة واسمع ردها أو أخط سطراً وأقرأ مثله ، فإن الفكر الذي يسعدني في كل شيء هو نفسه الذي يعذبني بك حتى لا أراك » .

فيجيبها : أما والله إن فى دون هذا للبلاغة ،.. فكلامك بيان مشرق

كإشراق الضحى ، بل لا أراك تجمعين ضميري وضميرك معاً في كلمة ٠٠ إلا أحسست أنه لقاء بيننا فى لفظ !٠٠

الحياة مادة ، فأين أنت يا مادة الروح المنسكبة في روحي ؟! ص ٥٧

ويعود الى دمه الكريم يعتصر عروقه السماوية ليتضرم بالشعاع القدسي من أقصى التاريخ فيكون سراً من خلافة خليفة وملك ملك ص ٦٣ (١) ٠

ليت شعري ! أتقوم العاصفة الهوجاء من خطرات مروحة الحبيبة ؟! ويقع الزلزال المدمر من رجرجة كلمة مِن فيها ؟! لا أدري ٠٠ ولكن ربما ٠٠

ولا يكاد يصور معنى من المعاني في حالتي الصد والهجران ، حتى يردفه بمعاني من الرضا والوصال ،٠٠ وكأنه يقارن بين اثنيهما :

« تلك التي يستمد من لينها وسماحتها وذكرياتها السعيدة (ا) معاني الحب التي تملأ النفس بأفراح الحياة ،٠٠ وهذه يستوحيها معاني الكبرياء والصد والقطيعة وذكريات الحب الذي أشرق في خواطره بالشعر وأفعم قلبه بالألم »(٢)٠

فهو حين يرى القمر « طابع الله على أسرار الليل في صورة وجه فاتن ، كما أن كل وجه معشوق هو طابع الله على أسرار القلب الذي أحبه » ٠٠ تهيجه الأشواق فيداريها ويتأمل القمر (٣) :

---

(١) هكذا يعتقد بنسبه الكريم الذي ينتهي بالإمام العادل عمر الخطاب (رض) كما مر بنا .

(٢) راجع العريان ـ حياة الرافعي ص ١٠٤ .

(٣) جواباً على رسالتها في ٢٠ شباط ١٩٢٥ م وقد حدثته عن « مي » التي جرحته ليخرج عصارة الأحزان !..

يقول للعاشق المهجور مبتسماً   خذني خيالاً أتى ممن تسمّيها

.. أما أنا فأتاني البدر مزدهيا   وقال جئت بمعنى من معانيها

وبعد أن يسائله عما جاء به - وهو صامت - .

كن مثلها لي جذباً في دمي وهوى   أو كن دلالاً وكن سحراً وكن تيها

فقال وهو حزين-ما استطعت سوى   أني اختطفت ابتساماً لاح من فيها

ولا يكاد يتحدث عن « نظراتها » حتى يقول :

« لو سألتني من هو العاشق لأجبتك : من أحس أنه قذف به في الابتسامات والنظرات مرة واحدة الى مهبط السموات ، فيشعر أن نعيمه أهنأ من نعيم أهل الأرض ، وأن عذابه أشد ،.. وكأنه إذ يتنعم لم يصب أسباب النعيم ، بل أسباب الخلود في الجنة ،.. وإذ يتألم يجد مادة نارية خالدة على قلبه » ص ٨٢ .

أما ألم الحب فذاك « حين يأتي على اللحم والدم معنى ، لو تجسم لكان هو الذي يصهر الحديد في موج من لهب النار ، ويحطم الصخر في زلزلة من ضربات المعاول ، وهو الألم المدمر الذي يهدم ويبني ،.. وأعظمه لأعاظم الحكماء والشعراء » ص ٩٠ .

حقيقة الحب فيها .. ثم تظهر لي   كأنني عالق منها بأوهام

ويظهر أن « مي » كانت تشبهه بنابغة فرنسي ولد في الحياة مراراً ،.. فيطرب لذلك ويرى « أن الشاعر العظيم تلد أمه منه الجزء الأرضي ،.. أما الأجزاء الروحية فهذه تلدها الحبيبات ومصائب الدنيا » ص ٩٧ .

وحين تجذبه فتنتها اليها يقول : « .. ومع جاذبية الألوان والعطور

في ثيابك وحلاك ».. جاذبية أعطر وأزهى في ملبس معانيك من العواطف، وفي ملبس روحك من الدلال ولا يمدلك في هـــذه الفتنة الكاسية إلا السماء في فتنتها للرجال الإلهيين حين تلبس حرائقها من شفق الصبح » ص ١٢١ .

وفي نار الكلمة يتساءل : أيكون الحب تنقيحاً في معاني الكون بالنفس وخيالاتها ؟! أم في معاني النفس بالكون ؟! أم في كليهما ؟!

وحين تضيق من بعض ظنه يقول لها « لا تزال حقيقتك وراء آلاف من ظنوني كأن لها معنى اختباء الوحش في ألفاف الغابة وأشجارها ».. ويستعير بعض كلامها ليقول : « فإذا رضيت فإنك جذابة بل متوحشة في الجاذبية » ويقابل بينها وبين الثقيلة (مي) فيحسبها واحدة « .. وإن هجرت فانك في الهجر بلا رحمة ولا شفقة .. متوحشة متوحشة » ص ١٤٨ .

وحين تكتب اليه « أنا مقصرة ، أنا مذنبة ، فسامح التقصير ، وأعف عن الذنب وأنظر الى العاطفة التي تأبى إلا أن تحترمك ، وأن تبقيك على عرشك الذي ملكته باستحقاق » (١) يسارع فيعقب :

أما قبل .. فقد اجتمعت عندك بالحب ، وكشف لي عن مخلوقات الكون الشعري الذي تملؤه ذاتي فلا ينقص أبداً ،..

ورأيتك يا فجري وربيعي وشبابي وحبي .. فلن أنساك أبداً » ص ١٥٥ وهكذا يمضي ، يصوغ هذا الآيات الفريدة في رسائل ، يمزج قلمها بقلمه ويحول لغتها الى لغته حتى يشرف على الغاية ،..

ولا تكاد (مي) تهديه كتابها « ظلمات وأشعة » حتى يلقف فيها رسالتها ،

---

(١) رسالتها في ٢٧ كانون الأول ١٩٢٥ م .

التي تنتهي بقولها :

في أعماق نفسي يتصاعد الك الشكر بخوراً لأنك أوحيت إليّ ما عجز دونه الآخرون أتعلم ؟! انت الذي لا أريد أن تعلم » ص ١٦١ .

وهكذا يمضي في الموازنة بينهما ، في رسائل غاديات رائحات ،.. يضم اليها فكراً وخواطر مما يتناثر بين معانيه ،..

ومن بينها رسالة في العتاب ، كان قد بعث بها إلى جريدة « السياسة » فرأى فيها طه حسين أسلوبا لا يليق بالعصر ، فيناوشه الرافعي بمعركة الأسلوب . التي يجهز فيها على التراجمة ممن ارتضخوا رطانة العجمة الجديدة (١) ولكن رسالة العتاب تبقى فناً بلاغياً لا يستطيل الى مثاله هؤلاء .

تبلغ به الظنون حالة يريد فيها أن يسلو فلا يستطيع غير أن يهرع الى شجرات له عند النهر يقيم عندها « صلوات في المحراب الأخضر » ويبتهل بمثل قوله :

«يا من خلقني إنساناً ، ولكنه قضى عليّ أن اقطع الحياة كلّها أتعلم كيف أكون إنساناً» ص ٢٠٢ .

ولا يكاد يعودهن شتاه حتى يبتدر القول :

لهفي لأشجار المحبـــة	مرّ فصـــل ربيعهـا
جدّ الهوى في غرسها	ليجدّ فى تقطيعهـــا

ولا يكاد يحاول النسيان ويسدل الستار على الذكريات ،.. حتى يقتحم عليه طيف الحبيبة زائراً ، يهدم جدار النسيان الذي رفعته بينها وبينه :

(١) راجع أنور الجندي ــ المعارك الأدبية .

حيا وسلّم ثم غادر تاركاً   يده على الكبد التي أدماها
ودنا ليعترف الهوى فتهالكت   أسراره فرمت به فرماها

.. فيجثم على ظلمة الصد بألوان من النهار بموت قبل أن يولد النهار ص ٢٢١ ولا يكاد يستجيب لندائها فيكتب في معاني التنهدات لتنظمها شعراً بالفرنسية ، حتى تعود اليه تلك المعاني بحروفه ، ولكن بخط يدها !! فيتأوه ويتلوى ونجده محبا « يشعر أحياناً من شدة القلق والاضطراب أن فكره يعدو بين الأشياء والحوادث وراء الاطمئنان الذي فرّ من قلبه ص ٢٦٤ .

ويأخذ قبضة من سطور قلمها ، ونثاراً من أحاديثها ، يجعل منها فصلين ممتعين غاية من الأخذ والتوزيع الفني ،.. ويلاحظ عليه إبقاء كلامها على حروفه من غير تعديل ولا تبديل بخلاف الرسائل المتقدمة .

وهكذا حتى استطاع سد المكان الخالي في الأدب العربي بما يقابل بل يفوق ما في اللغات الأخرى ، بعمل فصل فيه النزاع بين القديم والجديد ، بتطهير فكرة الحب وتهذيب معانيه في نفوس الشبان والبنات .. لتسمو بها النفس فلا تسقط ، بتصوير العواطف وتحليلها (١) .

° ✻ °

١٣ ـ رسالة الحج

فلسفته وأسراره

بضعة وخمسون صفحة من القطع المتوسط ـ مطبعة المستقبل بالاسكندرية .

رسالة قيمة في الفريضة الاسلامية الخامسة التي عليها تمام الأركان الخمسة ،

---

(١) رسائل الرافعي ص ١٩٤ .

كما يتم الانسان برجولته الناضجة »..

فلفظة الحج العربية من أدق الألفاظ : تتسع لكل معنى في توجه الانسانية نحو مركزها . وقد كان « الحج عند عرب الجاهلية رمزاً نفسياً الى استجماع الأرواح كلها في معنى إنسانيتها تبطل المنازعات فى أشهره وتسقط الشهوات » ص ١٢ .

وبعد أن أتى على الفرائض الأربعة من الشهادة والصلاة والصوم والزكاة ، تحدث عن المساواة في الاسلام ، ومقاصد الحج ، وقارن بينه وبين أنظمة الفتوة والكشافة ، وبين العلاقة بينه وبين الجهاد ، وعرض المنافع الحج التي وردت في الآية الكريمة فأبان عن سر من إعجازها ، . الذي صرح بإنسانية الفريضة قبل أن تكون عبادة .

وتحدث عن مناسك الحج بتفسير جديد ،.. ثم أورد مقترحات عملية لتنظيم هذه الفريضة ، واغتنامها فرصة لمؤتمر السياسة والاجتماع والاقتصاد بشكليه العلمي والدولي ، وتنظيم هيئة مؤتمر الحج في كل قطر .. الخ .

وقد نسب الكتاب في طبعته الأولى الى الأستاذ حافظ عامر - رح - قنصل مصر فى جدة والعراق وصديق الرافعي .

ولكن العريان - الذي كاد لا يسميه فى الطبعة الأولى من حياة الرافعي ، عاد في الثانية فسماه واعتبره من المقالات المنحولة (١) وعقب على رسالة حسين نصيف من أن أصل الرسالة بالأردية ، نقلت عن ترجمة انجليزية مخطوطة ،.. فعد عمل الرافعي فيها عمل المنشيء وصاحب البيان لفكرة زعم صديقة أنها فكرته » .

---

(١) العريان - حياة الرافعي ص ٣٢١ .

ولكن ما جاء في رسالة الرافعي نفسه وهو يقدمها لصديقه وقوله :

« رسالة الحج يتكلم الحج نفسه فيها حتى لو أوحيت لما جاءت إلا هكذا ، ولما أشبه مؤلفها بالجندي المجهول ـ تأمل ـ يجتمع التقديس عليه فيصبح في الحقيقة هو القائد المجهول ليس له فخر النصر ،.. ولكن له المجد » (١) .

يكشف عن الحقيقة أكثر ، وأسلوب الرافعي معروف فى المقالات المنحولة (٢) .

على أن فكرة تجديد معاني الحج قديمة قِدم الحج نفسه ،.. وقد ألحّت على الأمة العربية ـ الاسلامية بعد ذهاب وحدتها ،.. والحج بعد هو المؤتمر القومي الأعظم لقوى الأمة الذي أريد به الاجتماع لا التفريق ، والقوة لا الضعف والسياسة النفسية القوية لا الاهواء والمفارقات ،.. فلا بدع أن يكون الرافعي في بيانه العالي من أوائل الملبّين لهذه الفكرة ؟

* * *

١٣ ـ وحي القلم

الجزء الأول في ٣٩٤ صفحة من القطع الكبير ، والثاني في ٤١٤ صفحة من القطع الكبير أيضاً صدرا عام ١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦ م عن مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة . وأعيد طبعها مرات مع الجزء الثالث الذي أخرجه العريان : ٤٨٠ صفحة عن مطبعة الإستقامة .

كان المقالة البيانية التي ظهر بها الرافعي وقع خاص فى نفوس الادباء والنقاد معاً ، . وهي التي ميزته على سائر معاصريه ،.. بما كان يحتفل لها من

---

(١) رسالة الحج ط٢ ص٣٥ . (٢) العريان ـ حياة الرافعي ص ٣٢١ .

فنون الكتابة وأساليبها التي طوّعها لقلمه البليغ ، وأدبه الاعتقادي العالي .

وكان لقهره خصومه بقوته العلمية ، وتحدياته السافرة ، والانتصار الادبي الذي حققه فى خماسيته الانشائية الفريدة ، مما دعا الاستاذ لطفي جمعه أن يصرح عقب صدور كتابه الاخير « .. وجدنا الأستاذ صادق الرافعي قد قطع شوطاً بعيداً في التجديد من حيث لا يدري » (١) وبذلك أظهر قوله « أنه لا يوجد في العربية قديم وجديد ، ولكن يوجد أسلوب واحد فصيح ، من ذاق حلاوته ، ووصل القدرة على احتلال ناصيته .. لا يسلوه ، ولا يستطيع التخلي عنه مهما أُعطي من المزايا » حيث قرر الرافعي بعدها : أن البيان في العربية أسمى وأدق وأظرف من البيان في لغة باريس ولندن وبرلين وسواها .

ومن هنا نشأت فكرة الكتاب الذي يضع الادب العربي الحديث على جادة المسؤولية الاعتقادية للفكر فى وضوح وجلاء ، فتارة يدعوه « بالادبيات » ، وأخرى « بالورقات » وثالثة « قول معروف » ورابعة « الكتاب النبوي »(٢) وأخيراً « وحي القلم » حيث جرى على لسان احد الادباء الشبان فكتب اليه يطلب التنازل له عن الاسم ، او يبحث له عن اسم سواه (٣) .

وقد طلب الى الشيخ محمود أبي رية وسعيد العريان وأمين شرف وغيرهم من محبيه وتلامذته أن يبعثوا له بنماذج من مقالاته الادبية ، او يدلوه عليها

---

(١) لطفي جمعة - المساء ١٩ نيسان - ابريل ١٩٣١ م .

(٢) راجع الرافعي في رسائله للشيخ أبي رية ، وقد جرت التسمية الأخيرة على لسان العريان .

(٣) من رسالة لأديب « عيسى متولي » ..

في مكانها من أنهر الصحف وأجزاء المجلات فتوفر له اكثر من مئة مقالة وحديث، انتقى منها ما أخرج بـه الجزءين الاولين ، وابقى الاخريات لينتظمها جزء ثالث او كتاب آخر .

وعلى ذلك جرى ترتيب الكتاب لا على سبيل الابواب والفصول ، وإنما على ما عنّ له من فكرة الجمع والضم في وقتها ، ولو مد الله في عمره ، لأعاد ترتيبها بالشكل الآخر الذي حدث الشيخ ابا رية والمرحوم العريان عنه ، والذي اهتمَّ الآن بالإعداد له ، ولا سيما ان العريان (رح) لم يأت بجميع المقالات الباقية في الجزء الثالث ، وإنما بقيت هنالك احاديث وتعقيبات وكلمات تؤلف جزءً وآخر .

وقد صدّر الكتاب بمقدمة بليغة تحت عنوان « البيان » فيها القول الفصل في القدامى والمحدثين وما انتهت إليه معركتهم ، وفيها تعريض بخصومه حيث يقول :

« في الكتاب الفضلاء باحثون مفكرون تأتي ألفاظهم فناً عقلياً غايته صحة الأداء وسلامة النسق ، فيكون البيان فيهم على ندرةٍ كوخز الخضرة في الشجرة اليابسة هنا وهنا .. ولـكن الفن البياني يرتفع على ذلك بأن غايته قوة الأداء مع الصحة ، وسمو التعبير مع الدقة ، وإبداع الصورة زائداً جمال الصورة »

اولئك في الـكتابة كالطير له جناح يجري به ، ويدفُّ ولا يطير ، .. وهؤلاء كالطير الآخر له جناح يطير بـه ويجري ، .. ولو كتب الفريقان في معنى واحد لرأيت المنطق في أحـد الأسلوبين وكأنه يقول : أنا هنا في معان والفاظ ، وترى الإلهام في الأسلوب الآخر أنه هنا في جلال وجمال

وفي صور وألوان » .

وكأنما يدرك موقف هؤلاء من أدبه بالذات ، فيعرف بالكتابة المفيدة التي هي مثـــل الوجهين في خلق النـاس « ففي كل الوجوه تركيب تام تقوم به منفعة الحياة ، ولكن الوجه المنفرد يجمع الى تمام الخلق جمال الخَـلق ، ويزيد على منفعة الحياة لذة الحياة ، وهو لذلك وبذلك يُرى ويؤثر ويُعشق » .

ثم يصل بيت القصيد فيدافع عن أدبه وفنه بمثل قوله :

« ربما عابوا السمو الأدبي بأنه قليل ، ولكن الخير كذلك ،.. وبأنه مخالف ، ولكن الحق كذلك ، . وبأنه محيِّر ، ولكن الحسن كذلك ،.. وبأنه كثير التكاليف ، ولكن الحرية كذلك » ص ٨ .

وبعد ذلك تأتي أحاديث الكتاب ومقالاته متتابعة ، فيها القصة التاريخية « اليمامتان » والفتح العربي لمصر ، وخبر مارية القبطية ونشيد اليمامة ،.. ويجتلي العيد ، ثم يبحث عن المعنى السياسي فيه الذي لا يراه « إلا إبراز الكتلة الاجتماعية للأمة متميزة بطابعها الشعبي ، مفصولة من الأجانب ، لابسة من عمل أيديهـا ، معلقة بعيدها استقلالين في وجودها وصناعتها ، ظاهرة بقوتين فى إيمانها وطبيعتها مبتهجة بفرحتين في دورها وأسواقها ،.. فكأن العيد يومٌ يفرح فيه الشعب كله بخصائصه » ص ٢٧ ويشهد « الربيع » ليدرك أن الحياة إذا لم تفسدها جاءتك هداياها ،.. وإذا آمنت لم تعد بمقدار نفسك ولكن بمقدار القوة التي أنت بهـا مؤمن » ص ٣٢ .

وتعرس ابنته « وهيبة » وينتظم لها « عرش الورد » ليلة زفافها فيحلق بدعاء :

(يا نسمات الليل الصافية صفاء الخير ، أسأل الله أن تنبع هذه الحياة المقبلة في جمالها وأثرها وبركتها من مثل الورد المبهج ، والعطر المنعش ، والضوء المحيي ، فإن هذه العروس الممتلية عرش الورد .. هي ابنتي) ص ٣٧ . ويحتدم الصيف فيذهب الى الربيع المائي عند البحر ، ويرسل من هنالك خواطره :

« ما أجمل الأرض على حاشية الأزرقين البحر والسماء ، لا يكاد الجالس هنا يظن نفسه مرسوماً في صورة إلهية وتأخذه « طفولتان » بمعناها الاجتماعي ، فيتحدث عن فساد النظام الاداري وتخلف القوة الشعبية ، وضياع الأحلام في القصر وبنت « الباشا » والزبال الفيلسوف .. وكأنما طارت منه « ورقة ورد » فلاحقها في (اللطائف المصورة) حيث جعلته يرى الابتسامة الجميلة أقوى حكومة فى الأرض .

ويعود الى التاريخ ليشهد (سمو الحب) فى قصة عبد الرحمن القس وسلامة ، ويفلسف المهر في الشريعة السمحاء في قصة زواج ابنة سعيد بن المسيب من تلميذه الذي فضله على ابن عبد الملك بن مروان خليفة المسلمين كله !.. ثم يقص خبر زوجه إمام فيفسر بعض الحديث النبوي في صور من أخلاق التابعين ومزاياهم .

ثم ينتقل الى موضوعة المرأة فى العصر ودعوة (تحريرها وتحويرها وتجريرها .. الخ) في (الطائشة وفلسفتها ودموعها والتربية اللؤلؤية .. « ومذهبنا دائماً وجوب كشف الحقيقة ، وإذا أردت أن تأخذ الصواب فخذه عمن أخطأ » ص ٢٠٥ ، وينعطف نحو تلامذته وقد جمعتهم صفة العزوبة ، فيبحث عن عللها ويحاول حل معضلاتها حيثما استنوق الجمل أو كان (أرملة حكومة) .

ثم يعود الى القصص ليتحدث عن أبي خالد الأحول الزاهد فى

(رؤيا في السماء) وعن أبي يحيي مالك بن دينار و « ابنته الصغيرة » .. لينقلب الى « الأجنبية » التي تقتحم بوجودها أخلاقنا ، وتبور بسببها نساؤنا ، وتدس في دمائنا جريمة إجتماعية ، وتمكّن للأجنبي من بيوتنا ص ٢٧٤ .

ويحذر الشرقية من عُري البحر « يا لحوم البحر سلخك من جلدك جزار » حتى يأتي على « الجمال البائس » وقصته الانسانية الخطيرة ، التي حدثنا العريان بخبرها .. ثم مشكلة تلميذه الأديب كامل محمود حبيب .. وهكذا تتابع أحاديث الكتاب وقصصه ومقالاته في أجزائه الثلاثة ..

وفي رأيي أن بقاء « وحي القـلم » على هذه الصورة من الجمع والخلط في الموضوعات يقلل من خطورته الأدبية وأهميته البيانية ، وروحه الاعتقادية ،.. ولو وزع حسب الموضوعات ـ وهذا ما أميل اليه ـ لجاء وحياً آخر فيه من قوة الإبصار ووضوح الرؤية وحسن التوجيه ،.. ما يُلهم ويأتي بالخوارق المرجوة من فوائد الأدب الرافعي الاعتقادي .

وعلى ذلك نكتفي بتعريف الجزء الأول حسب ، ونرجيء الحديث عن الآخرين حتى نعرف بآثاره النثرية الأخرى غير المطبوعة .

* * *

١٥ ـ تاريخ آداب العرب

الجزء الثالث ـ تاريخ الشعر ومذاهبه والفنون المستحدثة منه .. الخ

أخرجه المرحوم محمد سعيد العريان ـ عن مطبعة الاستقامة عام ١٣٦٠ هـ ـ ١٩٤١ م

مرّ بنا في تعريف الجزء الأول ، أن الرافعي حين همّ بوضع مؤلفه الفريد

في تاريخ الآداب العربية إنقطع لذلك من أواسط عام ١٩٠٩ م ،.. وبعد أن توفر له جمع المادة العلمية وتصنيفها وتوزيعها بحسب موضوعاتها ،.. اختط لنفسه ذلك المنهاج الواضح الذي يجمع ولا يفرق ،.. بعيداً عن محاولات المستشرقين وتابعيهم في تلفيق « الأدبيات » .

وقد ظهر له أن ذلك يستغرق تأليفاً في اثني عشر باباً ،.. ما كاد يصدر الجزءين الأول والثاني وفيها ثلاثة أبواب فقط حتى بدأ عظم المشروع !..

وعلى هذا الأساس فإن الأبواب التسعة الباقية كانت ستستوعب أجزاء أخرى لا تقل عن ثلاثة ، فيما لو استمر على منهجه ومذهبه في التأليف .

ولكن حدثت له أمور صرفته عن أدب التأليف والتأريخ الى النقد والانشاء وتعجيز شانئيه وخصومه الكثر .

وبالرغم من إلحاح محبيه من رفاقه ورفيقاته وتلامذته ، واهتمامه هو بالذات ، فانه لم يجد الوقت الكافي الذي يستطيع فيه العودة الى ذلك الفن من العلمية الموفقة .

ولم يكد يلحق بالرفيق الأعلى حتى ألحّت على العريان جهات تستنجزه الوعد في إخراج بقايا التاريخ التي كان يحسبها تامة التأليف والتبويب ،.. ولكنه عانى الأمرين في الوقوف على أصولها ، وجمعها وإخراجها بهذا الشكل الذي جاءت تتم الكتاب بجزء ثالث فقط !..

تحدث في الباب الرابع عن تاريخ الشعر العربي ، فعقد لنشأة الشعر عندهم فصلاً مهماً ، أتى فيه على ما للعلماء من تحقيقات في أولية الشعر العربي ، . ورجح هذه الأولية بالمئات السابقة للبعثة المحمدية ،.. وهو ترجيح له وجهته في وقته ،

وإن كان لا يقف أمام المنطق العلمي إلا إذا تحول الى المئات السابقة الميلاد العيسوي ..

وفى الفصل نفسه درس الباعث الفني والنفسي على اختراع الشعر ،.. وفرق بين الرجز والقصيد وتكلم عن الأبيات المرسلة الخ ..

ثم استرسل في الحديث الى أول من قصد القصائد واعتبره غير امرىء القيس والمهلهل ،.. ثم تحدث عن الشعر فى قبائل العرب ، ومكانة الشعراء عندهم ،. لينتهي الى بيوتات الشعر والمعروفون فيه .

والفصل الثاني عقده لسيما الشعراء ، فعرض لألقابهم ، وحالات الانشاد كما مرّ بمقليهم ومكثريهم ، وحالاتهم النفسية في الارتجال والبديهة والرويّة .

ثم نظر في النبوغ وألقابه في الشعراء ، وفرّق بين الاختراع والاتباع وأنواعه ،.. وبعد أن عرض لشياطين الشعراء ، تحدث عن طبقاتهم عند الرواة والمصنفين . وأفرد موضوعاً خاصاً عن الشاعرات عندهم .

وفى الفصل الثالث أرّخ لفنون الشعر العربي وتنوعها على مدى الأيام ، فلم يستنكر الهجاء عليهم ، وعدّه من قبيل التهذيب النفسي والاجتماعي لقيمهم وأخلاقهم فعرض الأثرة فى القبائل والشعراء وأشهر الهجائين .

وكذلك رأى المديح سمواً في الاعتبار النفسي عندهم ،.. ولم ينس الأخلاق الطارئة على المادحين من أثر الكدية الساسانية .

وهكذا مضى يتحدث عن الفنون الباقية في الفخر والحماسة والرثاء ، والغزل والنسيب والوصف ، وفات العريان أن يقف منها على شعر الترقيص .

ثم تكلم عن الشعر الأخلاقي والمبادىء الاجتماعية عندهم ، التي وجدها

من أرقى وأسمى ما وصلت اليه الفلسفات الانسانية المعاصرة .

وبعد أن عرض للحكمة ، والنضج العقلي في تجارب الحياة ، والشعر الإلهي ، والملحمي والعرفانى - الصوفي ، .. تكلم عن هزة النفس فى الشعر الهزلي والقصصي ، وكذلك نظر في المنظومات العلمية .

وبعد ذلك انتقل الى تاريخ الفنون المحدثة في الموشح وسبب اختراعه ، والملحون فيه ، وأنواعه ، وأشهر الوشاحين وكتب التوشيح ، مما لا يزال الحديث عن هذا الفن لا يزيد عما جاء بـه الرافعي بحال .

وكذلك عرض للصناعات التي أولع بها المتأخرون كالدوبيت والمواليا ، والزجل والفنون العامية الأخرى .

وفى الباب السادس فصـل القول في حقيقة المعلقات ، وتحدث عن امرىء القيس وشاعريته وشهرته ، وقارن بين معلقته وقصيدة علقمة ، ونظر في طرفة بن العبد ومذهبه الشعري ، وكذلك وقف مع حكيم الشعراء زهير بن أبى سلمى ، ليصف من ثم خشونة الشعر الجاهلي .

وجعل الباب السابع للعربية وآدابها في الاندلس ، وهو يؤلف كتاباً قائماً بذاته تحدث فيه عن عروبة الاندلس وحضارتهم فيها ومبلغ عنايتهم بالعلم والادب فى القرون : الثالث والرابع والخامس .. وما بعد السادس .

فتكلم عن أدباء ملوك الاندلس ، وعصر الوزراء ، ونكبة ابن رشـد ، وأدباء الاندلس وعلماؤها ، والعلوم الفلسفية ومقاومتها وانتشارها ثم آخرتها !.. حتى مصرع العربية في الاندلس ، وتنصرها وترجمتها في أوربة وديوان التفتيش .. الخ .

أما الباب العاشر ففي التأليف وتاريخه عند العرب ،.. حيث عرض لكتب الطبقات والتراجم ، والمختارات والحماسات .. الخ .

والباب الحادي عشر في الصناعات اللفظية التي أولع فيها المتأخرون من لزوم ما لا يلزم ، والقوافي المشتركة والمعراة .. والتخميس والتشطير .. الخ .

ولا تكاد تنتهي من المطبوع حتى يبلغ بك الحزن مدى غير قريب ،.. لضياع بقية الأبواب والفصول ،.. وعدم وجود « رافعي » آخر يتولى استكمال ذلك ليخرج المصنف الفريد هذا بصورته التي أرادها له رحمه الله ؟

° * *

١٦ ـ رسائل الرافعي

٣٠٠ صفحة من القطع الكبير أخرجها الشيخ محمود أبو رية ـ مطبعة الحلبي بالقاهرة ـ ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٠ م .

من الخصال الحميدة التي اتصف بها الرافعي علاقاته مع القراء ،.. فقد كانت ترتقي أبداً حتى تنمو وتتحول الى صداقة ورفقة ومحبة ، . ومن هنا لم يكن يهمل رسالة ولا سؤالاً يتوجه اليه به قاريء او سائل حتى يجيب عليه ويفيه حقه .

وفي مطلع العقد الرابع من القرن الرابع عشر الحالي كان هنالك شاب يملأ قلبه حب الأدب ، ويتوسل اليه الوسائل ،.. فكتب يستطلع رأي الكاتب العثماني الكبير ـ الأمير شكيب أرسلان (رح) ـ في أحسن كتب الأدب ،.. وكان الرافعي يومها قد أخرج الجزء الأول من كتابه « تاريخ آداب العرب » ، وقد حظي بالاستقبال العلمي الكبير ،.. فأشار الأمير على أبي رية بأن يعكف عليه .

ولما كان طموح الشباب أكبر من أن يكتفي بذلك فقد كتب أبو رية الى الرافعي نفسه يسأله عن كتب العربية ، وكيف يمتلك ناصية الأدب ،.. حيث ردّ عليه الرافعي بجواب ثمين فيه توجيه وفيه دراية علمية عاملة .

ولم يكتف أبو رية بالجواب فتابع رسائله اليه ، وتلقى أجوبتها السديدة وارتفع بها الى مصاف الحواريين من تلامذة الرافعي ومحبيه ، وتوطدت أسباب الصداقة والمحبة بينهما ثلث قرن من الزمن تلقى فيها عن الرافعي جملة صالحة من الرسائل فيها أدب وعلم ومعرفة ، وتسجل إثباتاً للتاريخ فى تلك الأيام .

فلما رأى الشيخ أبو رية ما رأى من إهمال الرافعي بعد موته ، واطراح لأدبه ، والتجني عليه بزعم ملفقات تاريخية ، وأخرى أدبية ، وثالثة تزعم النقد عمد الى ما كان قد تلقاه من « رسائل الرافعي » فأخرجها وفاءً لذكراه ، ولم يحجب منها غير عبارات قليلة جداً لم يجد من اللياقة أن تكون فيها ، ورسالة او اثنين كما حدثني .

وفى هذه الرسائل يبدو الرافعي على سجيته إنساناً أديباً ، متمكناً من فنه ، يصون نفسه فلا يذلها ، ويرتفع فوق العصر وأسوائه ومرذولاته .. بقيم عليا ومثل وروائع خلقية وعلمية .

وفيها أخبار توفيقه الأدبي وتزوده بالمعرفة الواسعة ، وصفحات من أيامه وحياته ، وحديث كتبه وتأليفه وتصنيفه ، بما مرّ بنا في هذه الدراسة شأنه .

وفيها أيضاً أخبار علاقاته الأدبية والخاصة برجال جيله ، من زعماء السياسة ، والأدباء والفنانين والناس الآخرين .

ومن صفحاتها نستجلي الكثير من الوقائع والاحداث بتوثيق آخر ليست

منه شهوات التلفيق والاجتراء التي يعمد اليها خصومه ومناوئوه !..

وقد مهد لها الشيخ أبو رية بما كشف فيه عن علاقاته هاتيك وأشار الى طرف من قصة حبه ، وكيف أنه أراد أن يرتفع بعلاقته مع « مي » الى ما فوق مستوى الشبهات من السمو بالعاطفة والاشراق الوجداني ، والانتظام الروحي في صفو وخيلاء .. ولكنه لم يشر الى عقوق « مي » في هذه الناحية ،.. وإن غمزها بقوله : ليتها جاذبته جل المراسلة !..

وخلاصة القول أن هذه الرسائل وثائق تاريخية قيمة ، قد لا نعد لها مثل الروايات التي تدخلها وجهات النظر والعواطف .

ولو تفضل أصدقاء الرافعي وتلامذته ممن تلقوا عنه مثل هذه الرسائل وسواها ، فأقدموا على إخراجها وفاءً ، أو تقدموا بها إلينا فألزمونا ذلك واجباً ، لقدموا خدمة للأدب والفن والتاريخ لا تعدلها الدراسات !..

عسى أن يصل صوتي إليهم .. في أسماعهم ، أو آذان ذويهم وأبنائهم وتلامذتهم ودارسيهم ،.. قبل أن أسميهم بأسمائهم فأطلب اليهم ذلك ؟

آثاره النثرية غير المطبوعة

كان الرافعي غزير الانتاج يشكل يبعث على الاعجاب والاكبار معاً ، وحين يقف المرء على ثبت مؤلفاته المطبوعة وحدها ويبصر فى قيمتها الأدبية والحضارية يدهش لتوفره على أسبابها مع ما كان عليه من همّ الوظيفة ، التي استهلكت منه زهرة النهار أربعين سنة ، والانحراف الغالب على صحته الذي لم يكن يترك له العافية يتهنأ فيها إلا لماماً ، بالاضافة الى همّ الاسرة والاولاد والعيال الآخرين الذين كان يلزم نفسه بإطعامهم وكسوتهم ، وتربيتهم وتأديبهم على ما مر بنا بعض خبره .

وعلى أن ما طبع له من مؤلفاته بعد وفاته لم يكن يتعدى جزء من « وحي القلم » وآخر من « تاريخ آداب العرب » ، فان له مؤلفات نثرية أخرى ما وجدت يد العناية التي تهتم باخراجها الى اليوم ومنها :

١ ـ موعظة الشباب

هي قصة تمثيلية ورواية في آن واحد ، كتبها شعراً ونثراً ونشر في الجزء الثالث من ديوانه شيئاً منها ، كما أعلن عنها بأن روح الشعر تنبع في كل فصل من فصولها .

وقد وقفت على رسالة للمرحوم سلامة حجازي يطلبها منه اليه ، كي يتمكن من عرضها وتمثيلها ، ويظهر أن المنية قد تخطفته قبل أن ينظر فيها ، وربما بقيت ضمن مخلفاته ، وكم يكون جميلا لو أن من عُنوا بآثار الحجازي قد وقفوا عليها فأعادوها الى أهله ، لنتمكن من إخراجها .

وكان صاحب الأعلام الشرقية قد نسب اليه رواية سماها « حسام الدين » حسبها الأستاذ أنور الجندي أنها هي ! ولكن لا أستطيع أن أقع يقول فيهما ما لم أرهما ، ولعلها لرافعي آخر سواه .

* * *

٢ ـ ملكة الانشاء

يخيل إلي أن الرافعي لو تهيأ له أن يكون معلماً في مدرسة أو أستاذ جامعة لأثمر في تلامذته وأولاده ثمار البلاغة والبيان العربي بأعرس ما كان يحتفل له بنفسه .

.. فهو منذ صباه اهتم بصياغة الجملة العربية ، ليرتفع بها عن العامية وصيغها المبتذلة ، والترجمة وعباراتها المرذولة ،.. والعجمة ورطانتها الشعوبية والصليبية ، سمواً باللسان العربي الى الوحدة اللغوية التي هي قوام الوحدة الفكرية التي تنشيء الجيل المستقل .

ومنذ أوائل القرن شرع في كتابة موضوعات يجعل منها كالنماذج لتربية ملكة الانشاء ،.. ومنها ما نشره في الجزء الثالث من الديوان ، ومنها ما نشره في الجزء الأول من ديوان النظرات عن « الحسن المصنوع » .

ولكن العريان ـ رحمه الله ـ لم يقف على بقية فصول هذا الكتاب ، ويحسب أن الرافعي قد استعاض عنه بكتابه « حديث القمر » .

* * *

٣ ـ شعراء العصر وطبقاتهم

قد يكون اهتمام الرافعي بالشعر والشعراء أكثر من اهتمام سائر معاصريه من الأدباء والنقاد ،.. فهو منذ استطالته الى شاعرية الحسن .. الى نقده لشعراء

جيله ، وسعيه وراء إمارته ،٠٠ وإيذائه للعقاد وشوقي وسواهما ٠٠ كان يهتم بتقويم الشعر العربي الحديث ليأخذ مكانته في الشعر الانساني ،٠٠

وهكذا عقد النية على وضع كتاب خاص فى هذا الشأن ، وقد جاءت الإشارة اليه في إحدى هوامش « حديث القمر » ٠٠ ولكن لم يقف العريان على أصول خاصة له فى ملف أو نحوه ٠٠

ولكني أحسب أن معظم فصوله منشور له في الصحف والمجلات ، وقد توفرت عندي بما يؤلف هذا الكتاب بشكل أو آخر ،٠٠ وربما أخرجته جزءً خاصاً من « وحي القلم » يضم اليه بضعة وعشرين فصلاً ومقالة ، فيها نقد وتعقيب وترتيب ، وفيها جملة رأي الرافعي في الشعر والشعراء المعاصرين ٠

* * *

٤ ـ فصح الكلام

« كتاب في اللغة يجمع اليه فصح الكلام مما ورد في الكتب المختلفة » كان فى عام ١٩٢٨ م أوراقاً غير مرتبة ولا كاملة ،٠٠ وقد ترك العمل فيه من زمن ،٠٠ فقد أدرك أنه يحتاج لإتمامه الى مطالعة سنة أو سنتين ، ثم أنه يحتاج بعد ذلك فى ترتيبه الى وقت وتعب ٠٠ »

ولم يطلع الرافعي عليه أحداً ، حيث آثر أن يتمه أولا ، إذ ليس من عادته أن يتحدث عن أعماله أو يريها أحداً قبل تمامها (١) .

ولا أدري إن كانت تلك الأوراق مما لا يزال في مكتبه الى الآن أما أنها لحقت مأساة تلك المكتبة ؟!.

---

(١) أنظر رسائل الرافعي ص ١٣٧ .

٥ ـ أسرار الاعجاز

كان للتوفيق الذي حالف الرافعي فى تاريخه للقرآن الكريم وإظهاره لوجوه إعجازه ، ولا سيما فى القيمة الأدبية والناحية البيانية التي غفل عنها سابقوه ،٠٠ وإعادة طبع الكتاب غير مرة ،٠٠ ولكون فصوله وهوامشه لم تعد تحتمل زيادة البسط والايضاح والزيادة ،٠٠ فقد عزم ـ رحمه الله ـ على أن يضع كتاب البلاغة الجديد في « أسرار الاعجاز » . فكان « مشغول الفكر بـه دائماً » ولا سيما حين اكتشف أن « الناس متهيئون للايمان ، ولكن ينقصهم من يكشف لهم عن أماكنه » وهذا كله يجعله لا يستريح إلا إذا أخرج لهم « أسرار الاعجاز » (١) .

ولما جاءت كلمة يوسف حنا أنه المختار لحراسة لغة القرآن ، حسبها إنباء من الغيب (٢) فقد ازداد همة في « كتاب يوضع ايقاوم التاريخ المندفع بالناس الى المنحدر » ٠

وكانت طريقته تجتمع فى « التفكير المستمر قبل الاقدام على العمل لأنها أنفع وأفضل » (٣) وكان يعتدُّ بهذا الكتاب اعتداداً كبيراً ٠

وبعد وفاته ـ رح ـ كان الكتاب يكاد يكون تاماً في أبوابه وكثير من فصوله ،٠٠ وفصول أخرى أجمل فكرتها فى كلمات على أوراق ، أو أشار الى مصادرها ٠

وقد اطلع العريان على فصول منه وذكر نهجه في تأليفه الذي لخصه بما يلي:

---

(١) رسائل الرافعي ص ١٩٠ .

(٢) « « ص ١٩٣ .

(٣) « « ص ٢٢٣ .

أ ـ يتحدث في صدر الكتاب عن البلاغة العربية فيردها الى أصول غير الأصول التي اصطلح عليها علماؤها منذ كانت ، ويضع لها قواعد جديدة وأصولا أخرى .

ب ـ ويتحدث فى الباب الثاني عن بلاغة القرآن وأسرار إعجازه مسترشداً في ذلك بما قدم فى الباب السابق من قواعد .

ج ـ يتناول في الباب الأخير آيات من القرآن على أسلوب من التفسير يبين سرّ إعجازها فى اللفظ والمعنى والفكرة العامة .

ويعتبر هذا الباب صُلب الكتاب وأساسه ، وقد أتم الى آخر يوم كان العريان معه بضعاً وثمانين آية على هذا النسق (١) .

وقد نشر بعضها في « كوكب الشرق » والمقتطف وضمّن تفسير البعض الآخر أقاصيصه التي كان ينشرها فى « الرسالة » ،٠٠ والتي اجتمع بعضها في وحي القلم .

على أن ما وقفت عليه من خبر الكتاب أنه كتب على الآلة ، وأودع كلا من العريان ـ رح ـ والشيخ محمود محمد شاكر والدكتور محمد ولده ، بعد توالي نداءات القراء لإخراجه ،٠٠ ولكن الايام ما زالت تفلت من أيدي هؤلاء جميعاً فلم يرَ النور حتى اليوم ؟

* * *

---

(١) العريان ـ حياة الرافعي ص ٣٥٢ .

(٢) أنظر الرافعي ـ كوكب الشرق ـ ٤ نوفمبر ١٩٢٩ ، يناير ١٩٣١م ، والمقتطف ـ يناير وفبراير ١٩٢٩ م .

٦ ـ الكتاب النبوي

لقد بلغ الرافعي بأدب الانشاء ، غاية لم يدر كها قبله أديب في تاريخ العربية كلّه ،.. وأوفى عليها بما عرف عنه من النظرة الخارقة في التفسير والتحليل العلمي،.. والوصول الى حقائق ودقائق في كثير من الموضوعات التي يتصدى لها.

ويوم انتهى من خماسيته في « أوراق الورد » ووضع الحد الفاصل بين زعم التجديد والاثمار الحق فيه ،. كان كالذي أحس أن هنالك من ينتظر منه البناء بعد الانتصار .

وتوالت رسائل القوم عليه تستحثه على الكتابة التي يجدون فيها أنفسهم مصورة فى أفكارهم وما يتطلعون اليه من مغانم المعرفة ، وأبعاد الاعتقاد ، وأفواف الأدب وروائع الفن ، وثمار القرائح !..

وكان للاستاذ كمال الدين الطائي السبق في هذا الحث ، ولا سيما حين راح يلحف عليه بالطلب للكتابة فى الموضوعات النبوية عند ذكرى المولد .

وقد مرّ بنا أن الرافعي كان قد أرخ للبلاغة النبوية في القسم الثاني من كتابه « اعجاز القرآن » ولكن بقيت معاني أخرى لم يتصدّ لها حداً للتاريخ ،.. وإن كان حرصه عليها أكبر وأشد ،..

ولما وجد في كتابة طه حسين « على هامش السيرة » لوناً من التهكم الصريح (١) أراد أن يكون له أسلوبه الذي ينفرد به في هذا الشأن فيكون كالرد الحاسم على هذا وأمثاله ممن يتاجرون بالسيرة المطرة !..

وكانت للرافعي توسلاته بصاحب الشفاعة العظمى في مطلع حياته الشعرية

---

(١) رسائل الرافعي ص ٢٦٩ ، وقد مر بنا خبر ترجمتها !!

ومنها قوله :

رعاك الله هـل مثلي محبّ   وقـد أمسى محمد لي حبيبا

.. وسواها مما يظهر لنا الأساس الاعتقادي الذي يصدر عنـه بأدبه النبوي ..

وهكذا عاد فكتب في السمو الروحي الأعظم ، والجمال الفني فى البلاغة النبوية ،.. وكان كالذي يفجر فى الحديث النبوي طاقات ذرية هائلة تكشف عن قوة الاعتقاد ومكانة الرسالة من الأمة ،..

وفى الوقت الذي كان يكتب فيـه فصولاً من « أسرار الاعجاز » وتتكشف له الحقائق فى تفسير الآيات القرآنية ، ويتوصل الى أسرار جديدة في إعجازها لم يدركها سابقوه ،.. كان من الناحية الثانية ينظر أثر التربية القرآنية في السيرة النبوية العطرة ،.. ويتسامى في جـوّ روحاني خاص يتهيأ للأعمـال الأدبية فيه (١) .

وما كاد يكتب عن « الاشراق الإلهي » ويصور روح الفلسفة الاسلامية حتى بادر يقول : « هذه المقالات هي النمط الذي كنت أريد كتابة السيرة به »(٢).

فلما كتب بضعة مقالات منها وهمّ أن يخرج كتاباً أدبياً آخر جرت على فم المرحوم العريان تسميته بـ « الكتاب النبوي » فاستحسنها وعدهـا إلهاماً وفاتحة بشرى .

« ولا بد من الصبر عليه وإيقافه لخدمة النبي (صلى الله عليه وسلم) تكون شيئاً ،.. ولعل الله يتقبلها ويكتبها عنده حسنة فى سيأتي الكثيرة » (٣) .

(١) الرسائل ص ٢٦٩ .   (٢) الرسائل ص ٢٧٣ .

(٣) « ص ٢٧٥ .

وما زال كذلك يكتب في « وحي الهجرة » و « حقيقة المسلم » .
ويدرك « الحقيقة أن الشباب الاسلامي في حاجة شديدة الى كتابة من هذا النوع وفى كل وقت أتمنى أن يوفقني الله له » .

ولكنه بعد المعاناة في التأمل ، وإغراقه فى إيذاء نفسه وعافيته فى الصياغة الفنية لهذا الأدب النبوي .. وجد أنه صعب جداً .. وليس في العربية مقال واحد منه (١) .

ثم ظهر له أن (الكتاب النبوي) كلما كان صغيراً كان أقوى فى تأثيره وكان اجمل وأبلغ (٢)، فبعد ان همّ بكتابة اثنتي عشرة مقالة من هذا النوع(٣) عاد حين ادرك انه يلحُ على نفسه بالأذى وهو يعتصر المعاني « .. لهذا سأتمه مقالات بأربع اخرى .. ثم مقدمة صغيرة فيجيء في حجم« السحاب الأحمر» .

ولكنه حين همّ بإخراج « وحي القلم » جعل من تلك المقالات أول الجزء الثاني ، وجعل العريان إحداها أول الجزء الثالث .

ولكني أجد من الصواب الأجدى أن تعود هذه المقالات مع تاريخ البلاغة فتنتظم « الكتاب النبوي » وتكون جزءً خاصاً من وحي القلم ، .. وعلى هذا الأساس أفردنا التعريف بها :

في مقالة « الإشراق الالهي وفلسفة الاسلام » يتحدث عن النبوة في الفكر الانساني ويعقد المقارنة بينها وبين الأنواء ، فالنبي إشراق إلهي على

---

(١) الرسائل ص ٢٧٧ .

(٢) الرسائل ص ٢٧٨ .

(٣) » ص ٢٧٣ .

الانسانية يقوّمها في فلكها الأخلاقي ، ويجذبهـــا الى الكمال في نظام هو بعينه صورة لقانون الجاذبية في الـكواكب ، ويجيء النبي فتجيء الحقيقة الالهية معه في مثل بلاغة الفن البياني لتكون أقوى أثراً ، وأيسر فهماً وأبدع تمثيلا » .

ثم يمضي في هذا الموضوع يفلسف فكراً جديداً الدين الاسلامي ، ويجعل النبي العظيم مثله الأعلى الذي يعيش معـــه مسلماً ، ويذكره كل حين كأنه بين يديه ليكون دائماً ابن المعجزة .

وفي « حقيقة المسلم » يستهل الحديث بقوله :

« لا يعرف التاريخ غير محمد (ص) رجلا أفرغ الله وجوده في الوجود الانساني كله ، كما تنصب المادة في المادة لتمتزج بها ، فتحولها فتحدث منها الجديد ،.. فاذا الانسانية تتحول به وتنمو ، وإذا هو (ص) وجود سار فيها فما تبرح تنمو به وتتحول » .

وما الاســلام عنـده إلا « مبدأ إنكار الذات و (إسلامها) طائعة على المنشط والمكره لفروضها وواجباتها ،.. كأن المسلم ينكر ذاته فيسلمها الى الانسانية تصرّفها وتعتملها في كمالها ومعاليها » .

وعلى هـــذه الحقيقة المسلمة يمضي في تفسير العبادات والفروض بفلسفة جديدة ٤٠ .

وفي « وحي الهجرة » يجد أن « تاريخ ما قبل الهجرة وضعه الله كالمقدمة لتاريخ الاسلام في الارض » فقـد « بدأ الاسلام في رجـل وامرأة وغلام ثم زاد حراً وعبـداً ،.. أليست هـــذه الخمس هي كلّ اطـوار البشرية في وجودها؟! » .

وفي « فلسفة قصة » يفسر قصـة انفراد النبي (ص) بعد موت زوجـه خديجة الصديقة وعمه أبي طالب ، حيث وصل القوم من أذاه أن حثوا التراب على رأسه ،.. فكانت إحدى بناته تغسل عنه التراب وهي تبكي .. فيقول لهـا النبي : يا بنية لا تبكي فإن الله مانع أباك » ، فيمضي في تحليل هذا القول الآبد ، ويعجب لرموز القدر في هذه القصة .

« ألا ما أكمل هذه الانسانية التي تثبت أن قوة الخُـلق هي درجة أرفع من الخلق نفسه فهذا فن الصبر لا الصبر وحده ، وفن الحلم لا الحلم وحده » .

و « فوق الآدمية » يعرض لقصة « الاسراء والمعراج » التي يضطرب فى تفسير واقعها وحقيقتها كثرة من فقهاء المسلمين أنفسهم ،.. فيرى في كثير مما وصل اليه العلم من الاختراع والاكتشاف فى المادة والنفس بعض تفسير لتلك الواقعة ، فهو على الرأي الذي عليه الجمهور من أن الاسراء والمعراج كانا بالجسم والروح معاً ، فيكشف عن أسرار الاعجاز في الآيـة « ما زاغ البصر وما طغى » وقوله تعالى « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنـة للناس » فيثبت أن الطبيعة الآدمية كانت فيه كالنائمة عن حياتها الارضية بحقيقتها،.. إذ من الممكن أن تتحول الأجسام الى حالتها الأثيرية في بعض الاحوال الخارقة .. الخ .

وفي « الانسانية العليا » يجمع أوصاف النبي (ص) من روايات مختلفة ويجعلها كالحديث الواحـد .. فيكشف به عما يدهشه من مجموع صفاته بأن يتبين فيها « دليلاً بيناً على أنـه مخلوق خلقة متميزة بنفسها كخلقة القلب الانسـاني نظامه حياته ، وحياته نظامه .. فلا يزال يمـد أعضاء الجسم بمدد لا ينفد من القوة والبصر » .

وفى « سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم » يقول :

« ليس هناك خبز الشعير ، ولا الجوع ، ولا رهن الدرع عند اليهودي ، كلا .. كلا ، .. بل هناك حقيقة نفسية عقلية ثابتة متزنة قائمة بعناصرها السامية : من اليقين والعقل والحكمة ، .. الى الرفق والحلم والتواضع تخبز هذه الدنيا العلمية الفلسفية المفكرة أن ذلك النبي العظيم هو الرجل الاجتماعي التام بأخلاقه وفضائله ، .. وهو الذي بعث لتنقيح غريزة التنازع من أجل البقاء وكسر هذه الحيوانية ، وقمع نزواتها وإماتة دواعيها ، والسمو بخواطرها ، فهو بنفسه صورة الكمال الذي بعث لتحقيقه وإثبات أنه الممكن لا الممتنع والحقيقي لا الخيالي » .

وفي « درس من النبوة » يفسر قوله تعالى « يا أيها النبي قل لأزواجك : إن كنتنّ تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرّحكن سراحاً جميلا » .

.. ليقول من ثم « ليست قصة التخيير هذه مسألة الغنى والفقر في معاني المادة ولكنها من مسائل الكمال والنقص في معاني الروح ، فهي صريحة أن النبي (ص) أستاذ الانسانية كلها ، واجبه أن يكون فضيلة حية في كل حياة ، وأن يكون عزاء في كل فقر ، وأن يكون تهذيباً في كل غني ، ومن ثم فهو في شخصه وسيرته القانون الأدبي للجميع » .

وفي « السمو الروحي الاعظم والجمال الفني للبلاغة النبوية » نظرة تفسيرية جديدة أخرى في الحديث النبوي الشريف غير التي تحدث عنها في « البلاغة النبوية » مع الاعجاز ، .. فيحلل حديث السفينة ، وحديث الغار ،

وما يلحق بهما من أحاديث أخرى ، ويكشف عن أسرارها بتأمله ؛ ليقول من ثم :

« إن كلام نبينا (ص) يجب ان يترجم بفلسفة عصرنا وآدابه ، فستراه حيناً كأنما قيل مرة أخرى من فم النبوة ، وستراه في شرحه الفلسفي كالأزهار الناضرة : حياتها بشاشتها فى النور ،.. وتعرفه إنسانية قائمة بذاتها تصحح أغلاط الزمن في أهله ، وأغلاط الناس في زمنهم ، وتجده يرف على البشرية المسكينة بحنان كحنان الأم على أطفالها ،.. والناس الآن كالأطفال غابت أمهم فهم في تنافر صبياني ، فحنان قلب الأم الكبير هو القانون لكل قضايا القلوب الصغيرة » .

وهكذا كان ـ رحمه الله ـ يسعى لكتابة صور من السيرة العطرة ،.. ولكن بدا له أن ذلك الأسلوب عسر الهضم ، وفيه اعتصار لروحه يؤذيه في جميع أحيانه فانصرف عنه الى موضوعات أخرى لم يكن يخليها من خلق نبوي أبداً .

وهذا الكتاب كالخلاصة لأدب الرافعي وفنه ، وما كتبه فى فنون البلاغة والانشاء جميعاً ؟

... وآثار أخرى

كان العريان - رح - قد عرض لجانب من حياة الرافعي الفكرية ، كان فيه يعين ذوي المواهب الأدبية على أعمالهم ،.. وأن ذلك العون يتعدى حدود الأدلاء والمنهجة الى الـكتابة والتصنيف ، ونحل بعض مقالاته وكتبه لهؤلاء وأولئك من اصدقائه وتلامذته ومحبيه ،..

وأشار الى بعض أحاديثه التي كان يكتبها لمجـلة البيان بخاصة ، او يمليها على محرري الصحافة الأدبية أمثال يوسف حنا وأسعد حسني والعريان نفسه وسواهم كثير ..

وقد كشف العريان النقاب عن حقيقة « رسالة الحج » التي قدمنا التعريف بها ،.. ولكنه أشار بحياء الى « شرح ديوان المتنبي » وسواه من المصنفات المنسوبة الى صهره الشيخ عبد الرحمن البرقوقي .

وكان قد حدثني يوماً عن « المقتطف » وجزئه الخاص بالمتنبي ، الذي كتبه الشيخ محمود شاكر وكيف أعانه عليه ،..

ويوم استوضحته عما يذهب اليه الأستاذ أنور الجندي من أن الرافعي كانت له اليـد الأولى فى اخراج المـكتبة الأزهرية لبعض الكتب الجليلة ، وبراعتـه في التحقيق ،.. لم يزد العريان - رح - عن القول « كان ذلك فى مطلع حياته الأدبية » وربما بريء منها لو نسبت له فيما بعد ، لأنها لم تكن على الصورة المرجوة التي كان يتوخاها !..

على أن - حفيد الشيخ محمد سعيد الرافعي - ينسب الى جده طول الباع فى تحقيق هاتيك الكتب .

فهناك تراث آخر يحتاج الى عنـاية خاصة فى التحقيق والنسبة ، وإن كان بعضه معروفاً له ،.. ومنه :

١ ـ إفتتاحيات مجلة البيان ـ او معظمها ـ ومقالات في النقد تناول فيهـا شعراء العصر وأدباءه وآثارهم ، بغـير قليل من التحليل والتصويب وربمـا الايذاء .. ومنها ما يؤلف فصولاً من كتابه « شعراء العصر » الذي عرفنا به آنفاً .

٢ـ شرح ديوان : المتنبي وقد صرح العريان بنسبة مقدمته اليه ، وتغاضى عن يده في الشرح والمفردات والفوائد والتخريجات .. وما يزال معروفاً أنـــه للشيخ عبد الرحمن البرقوقي .

٣ ـ المتنبي : جزء خاص من المقتطف كتبه الاستاذ محمود محمد شاكر ، بعد أن خرج على كلية الآداب وأستاذ الأدب فيها . وكأن الرافعي أراد بهذا الكتاب فتح جبهة اخرى على الدكتور طه حسين والجامعة ،..

وقد وردت إشارته في قوله « لست أغلو إذا قلت إن روح المتنبي قد أظهرت كبرياءها ، فاعتزلت المشهورين ولزمت صديقنا المتواضع محمود محمد شاكر مدة كتابته هذا البحث النفيس ، حيث كتب تاريخ المتنبي ولم ينقله . وقد وضع لشعره تفسيراً جديداً من المتنبي .. الى أن قال« من أعجب ما كشفه من أسرار المتنبي سرُّ حبه ، فليس من احد يعلم هذا السر او يظنه ،.. والأدلة التي جاء بها تقف الباحث المدقق بين الاثبات والنفي .. وهذا حسبه فوزاً » .. وهي كما

ترى تشبه إشاراته الى مضمون رسالة الحج .

٤ ـ شرح ديوان حسان بن ثابت : وهو المعروف للشيخ البرقوقي أيضاً .

٥ ـ شرح أدب الكاتب لابن قتيبة :

كتبه الجوالبقي ، وعرضه المقدسي على الرافعي لتحقيقه وإخراجه ، ثم اختلفا فأصدره الكتبي بمقدمة الرافعي ، وفيها رأي جديد في كتب الأدب القديمة من ابرع وأدق ما كتب في توثيق النصوص .

٦ ـ أمير الشعر في العصر القديم :

وضعه الاستاذ محمد صالح سمك ، وكتب الرافعي مقدمته ، وفيها ما يشف عن انه كان وراءه في منهاج البحث ومصادره ومراجعه .

٧ ـ الفاروق ـ عمر بن الخطاب ـ :

كتبه الاستاذ محمد ذياب ، وطلب الى الرافعي كتابة مقدمته التي لم تشر الى الكتاب من قريب ولا بعيد .

٨ ـ أعجب العجب من احوال العرب :

منظومة شعرية وضعها المرحوم عبد الحق الأعظمي الاستاذ بجامعة علي الأغر (عليكر) في الهند .

وقد كتب الرافعي لها مقدمة قومية رائعة ، بعد مراجعته لها في ابوابها وأبياتها ومعانيها .

... وهناك بحوث ومقالات في جريدة الأخبار ، والسياسة والمقطم والبلاغ وكوكب الشرق وسواها ، غفل من التوقيع او مستعارة الإمضاء ، او منحولة لأدباء وكتاب وغير هؤلاء من مرتزقة الصحافة الآخرين ، .. هي الأخرى تحتاج العناية الخاصة لجمعها وتصنيفها وإخراجها بشكل او آخر ..



الخاتمة

.. أما قبل

فهـذه هي الدراسة المنهجية الاولى في حياة الامام مصطفى صادق الرافعي وآثاره ، تدل على أدبه وفنـه ، وتسهم في جلاء الكثير مما انبهم من أمره ، وتنصفه من أيامه في زمان تنكر له ولفنه ، وتعرض لمجالي من حياته الخـاصة وروحه الشاعرة .

لقد قرأت الرافعي شاعراً وتغنيت معه ، وأديباً فحلقت في آفاق خيـاله ، وآمنت بآيات فنه ، وانتصرت له بحماسة وعاطفة بعد أن ملأ عليَّ آفاق الأخذ العلمي ، والعطاء الأدبي ، والاشراق البيـاني ، والمذهب الاعتقادي في رسـالة العروبة الفكرية ، وحفظت له العهد والوداد .

ثم عدت اليه دارساً جوانب من حياته الشاعرة ، وروحه الثائرة ، أجول معـه في أيامه الحائرة ، ونزواته العاثرة ، وانطلاقاته الكاثرة والسادرة ، ومجـالي عصره في فنونه وآدابه ، ومرامي وجدانه ، وآيات إلهامه ، فأسوت لحياته غير المعافاة ، وحاولت أن أنصفه من أيامه في تاريخ الأدب الحديث ، بصفحات من تاريخه أجلوها لأول مرة ، أو أوضح منها بعض ما يغمض او ينبهم ، او يلتبس مع الأنواء !

ثم وقفت معه أمام جيـل يصارعه ، ويعاديه ، ولايحاول دراسته او فهم

مذهبه ، وحاورت رفقة ما وفته حقه من عرفان الجميل ، وعاتبت تلمذة ما برت به ، وتناست ذكراه .

وقد حاولت في ذلك كله أن يتحدث هو عن نفسه ويجلو بعض ما فات على معاصريه فهمه من جوانب أدبه ، وخطرات شعره ، وسرحات بيانه بما بثثته في ثنايا الدراسة من شواهد كلمه ، وأبيات نظمه ، ونثير قلمه ، ودقة نقده ، وفريد رأيه وفلسفته .

ولم ينس في غمرة هذه الدراسة المضنية أن أقف معه لحظات في مناقشة هادئة ، ومحاورة عائدة ، ومحاولة تستهدف الإصابة في الهدف ، ورد الخطل في الاتجاه ، وتصحيح ما ينغمر في وجهات النظر ، ويلتبس بالمفهومات المخالفة .

وما سمحت لنفسي أن أدافع عنه بحماسة العاطفة ... وإنما تركت ذلك كله لبعض أحاديثه وأحكامه نفسها تجتمع له في حيثيات ، وتنتظم في مفهوم ، أو تفترق عنه في دلائل فتخذله في بينات أو تتعلق عليه بشواهد !.. حتى تسعفه آراء بعض معاصريه فيه ومحاولاتهم تقويم أفكاره وتثمين أحكامه بلفتات دراسية مبثوثة هنا وهناك .

في عصر الرافعي ، الذي وافى بخمسة فصول تناول الأول منها صدراً من تاريخ الحال السياسية في نصف القرن الأخير ، فعرضه من جديد بمناقشة علمية قد تشتد أحياناً وهي تقف على خلط بعض المؤرخين وغفلتهم ... ووقف على حيثيات جديدة فيها إعادة النظر في كثير من القضايا المعلقة .

وكان الفصل الثاني في البيئة الاجتماعية استعراضاً آخر يكشف عن مآس ، ويفضح مغالطات .

أما الحياة الثقافية والفكرية فقد كان لها تاريخ آخر فيه ميزات من التثبت ورد الاعتبارات وتقويم الآراء .

وكذلك الحال مع الحركة الأدبية ، ويمث الشعر العربي الحديث ،..

فقد أسهمت في الكشف عن كثير من خبايا الإدعاءات العريضة ، ورددت بعض الأصول الى مظانها من التاريخ الأدبي بصورتيه العربية والأخرى المترجمة عن آداب الامم الاخرى ، ما تيسر لي ذلك .

أما الباب الثاني فهو في خمسة فصول أيضاً ، أرخ الاول منها للرافعي والرافعيين وترجم لأشهر علمائهم ، وتحدث الثاني عن سيرة الرافعي وحياته في الوظيفة والبيت ودنيا الأدب والفن .

وعرض الثالث لصودته الخلقية والنفسية كما اهتم فصل بثقافته وروافدها في الوقت الذي عرض الآخر لقصة حبه التي وثقها بجديد الكتب والرسائل لتوافي القراء بأضواء أخرى على هذا الخانب الذي اضطرب فيه ذوو الآراء وأصحاب وجهات النظر ، والقلقون على مصائر بعض العواطف !.

كل أولئك وسواها من القضايا والافكار حتى يظهر لنا الرافعي متفاعلا مع عصره ، ومرتفعاً على هذا العصر بعبقرية خارقة ، وذكاء نفاذ وقوة وثبات .

وكان هنالك باب ثالث لآثار الرافعي ،.. فيه تعريف ونقد ، وتقويم بعد مناقشات وردود على بعض معاصريه ..

ولكن ظهر لي أنه يستوعب كتاباً برأسه ، .. فآثرت اختصاره وإلحاقه بالبابين السابقين مقتصراً على التعريف وشيء من المناقشة ، مرجئاً التفصيل لطبعة تالية .

في الوقت الذي أرجو أن أكون قد أديت بعض الواجب الذي ألزمت عنقي به أمام الامة تجاه الرافعي وآثاره .

.. وكم هو جميل أن يمد لي أدباء العربية يد العون ، فيبعثوا لي بما يعرفونه أو يلقونه من آثار الرافعي الأخرى ولا سيما رسائله وتعقيباته ، ولو بصورة منها ، أو يشيرون اليها في مظانها من خزانات كتب الأصدقاء والمعارف أو الصحف .

وعسى الله أن يفتح علينا بها جميعاً إنه هو الفتاح العليم ؟

دائرة اللغة العربية ـ جامعة بغداد

مصطفى نعمان حسين البدري



ثبت بأهم المصادر والمراجع

١ ـ المصادر الأصلية ـ

مؤلفات الرافعي حسب تسلسها التاريخي

(أ) المطبوعة

١ ـ ديوان الرافعي ثلاثة أجزاء

٢ ـ ديوان النظرات ..

٣ ـ تاريخ آداب العرب ثلاثة أخزاء

٤ ـ إعجاز القرآن

٥ ـ حديث القمر

٦ ـ المساكين

٧ ـ النشيد الوطني

٨ ـ نشيد سعد زغلول

٩ ـ رسائل الاحزان

١٠ ـ المعركة تحت راية القرآن

١١ ـ السحاب الاحمر

١٢ ـ على السفود

١٣ ـ أوراق الورد

١٤ ـ وحي القلم ـ ثلاثة أجزاء

١٥ ـ رسائل الرافعي

(ب) المخطوطة ـ التي جهزت للطبع الآن

١ ـ النظرات ـ الجزء الثاني

٢ ـ أغاريد الرافعي

٣ ـ بقايا ديوان الرافعي

٤ ـ الفؤاديات (المدائح الملكية)

٥ ـ شعراء العصر

٦ ـ أسرار الاعجاز

٧ ـ الكتاب النبوي

٨ ـ قصص الرافعي

٢ ـ المؤلفات الخاصة

جميل جبر ـ مي في حياتها المضطربة

عبد السلام هاشم حافظ ـ الرافعي ومي

محمد سعيد العريان ـ حياة الرافعي

نعمات أحمد فؤاد ـ دراسة في أدب الرافعي

٣ ـ الفهارس والمعاجم

أحمد أدهم الجندي ـ أعلام الأدب والفن .

خير الدين الزركلي ـ الأعلام

حاجي خليفة ـ كشف الظنون

الحسيني ـ طبقات الشافعية

السبكي ـ » »

زكي محمد مجاهد ـ الاعلام الشرقية فى القرن الرابع عشر (أربعة جزاء)

عمر رضا كحالة ـ معجم المؤلفين

محمد فريد وجدي ـ دائرة معارف القرن العشرين

يوسف أسعد داغر ـ مصـــادر الدراسة الأدبية ـ جزءان

يوسف إلياس سركيس ـ معجم المطبوعات العربية

٤ ـ الكتب والدراسات القومية

أمجد الطرايلسي ـ شعراء الحماسة والعروبة في الشام

ساطع الحصري ـ القومية العربية

محمد عزة دروزة ـ الوحدة العربية

صديق شيبوب ـ القومية العربية

حمدي طربين ـ الوحدة »

مصطفى الشهابي ـ القومية »

مصطفى الخالدي وعمر فروخ ـ التبشير والاستعمار

محمد سعيد العريان ـ أحاديث قومية

عبد القديم زلوم ـ كيف هدمت الخلافة

جواد رفعة ـ الخطر المحيط بالاسلام

عمر أبو النصر – جهاد فلسطين العربية

عبد العزيز الرفاعي – أصول الوعي القومي

محمد زغلول – القومية العربية في الأدب الحديث

محمود كامل – عروبتنا

٥ – التاريخ العام والمذكرات :

أحمد جمال باشا (السفاح) – مذكرات

أسعد طلس – تاريخ الأمة العربية – الجزء الأول

أسعد طلس – مصر والشام فى الغابر والحاضر

اسحق موسى الحسيني – الاخوان المسلمون – كبرى الحركات الاسلامية

أمين سعيد – ثورات العرب فى القرن العشرين

توفيق علي برو – العرب والاتراك

حسين مؤنس – الشرق الاسلامي فى العصر الحديث

جورج أنطونيوس – ترجمة علي حيدر الركابي ، وترجمة إحسان عباس – يقظة العرب

ذبيح الله – مآثر الكبراء في تاريخ سامراء (ثلاثة أجزاء)

ساطع الحصري – الدولة العثمانية والبلاد العربية

– محاضرات في نشوء الفكرة القومية

– يوم ميسلون .

عبد الرحمن الجبرتي – عجائب الآثار فى التراجم والأخبار

عبد الرحمن الرافعي – أحمد عرابي

– الثورة العرابية

– ثورة ١٩١٩

– عصر اسماعيل

– محمد فريد

عبد الرحمن الرافعي ـ مذكراتي
مصطفى كامل
مقدمات الثورة

عبد الرزاق الحسني ـ تاريخ العراق الحديث (ثلاثة اجزاء) .

عبد الرزاق الظـــاهر ـ الاقطاع والديون في العراق .

عبد العزيز عرابي ـ الثورة العرابية (ترجمة) .

كمال رفعة ـ الاستعمار والصهيونية .

كرومر ـ مصر الحديثة (ترجمة) .

محمد رشيد رضا ـ تاريخ الامام محمد عبده (ثلاثة اجزاء) .

محمد رفعة ـ تاريخ مصر السياسي

محمد صبيح ـ قصة الأرض فى مصر

محمد عبد الله عنان ـ مأساة مايرلنج

محمـــد مهدي كبة ـ مذكراتي في صميم الأحداث .

محمـــد ناجي القشطيني ـ تاريخ المدرسة الحميدية (مخطوط) .

وليم ثل ـ ترجمة عجاج نويهض ـ حاضر العالم الاسلامي (تعليق الامير شكيب ارسلان) .

٦ ـ مصنفات عامة

اسماعيل عبد الحميد ـ الأدباء الخمسة

اسماعل اليوسف ـ وحي الأدباء ـ منشورات بيروت

أنور الجندي
ـ أضواء على حياة الأدباء .
ـ الحب والمجد
ـ الشعر المعاصر
ـ المعارك الأدبية
ـ نساء فى حياة الأدباء

جورج زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية (اربعة أجزاء)

سعد ميخائيل ـ آداب العصر في

شعراء الشام والعراق ومصر
عبد السميع المصري ـ في موكب الخالدين
عمر الدسوقي ـ فى الأدب الحديث
ـ نشأة النـــثر الحديث وتطـــوره
ـ المسرحية
محمد سليمان ـ آداب العصر
محمد صبري ـ شعراء العصر
محمود ابراهيم وبدوي طبانة ـ تاريخ الأدب الحديث ـ بغداد
مصطفى لطفي المنفلوطي ـ مختارات المنفلوطي .

٧ ـ كتب التراجم والدراسات الأدبية والنقدية

ابراهيم عبـــد القادر المازني ـ مع العقاد ـ الديوان جزءان
احسان عباس ـ فن السيرة ، فن الشعر ، فن المقالة
أحمد حسن الزيات ـ في أصول الأدب ـ دفاع عن البلاغة
أحمد الشايب ـ الأسلوب
أحمد الشرباصي ـ شكيب أرسلان (جزءان)
أحمد عبد الستار الجواري ـ نشأة الحب العذري
أحمد الحوفي ـ اللغـــة والوطن فى الأدب العربي
ـ شوقي وشعره الاسلامي
إسحق موسي الحسيني ـ محاضرات الموسم الثقافي في الكويت
إسماعيل أدهم ـ خليل مطران
ـ توفيق الحكيم
اليزابث درو ـ ترجمة محمد ابراهيم الشوشي ـ الشعر كيف نفهمه ونتذوقه
أنيس المقدسي ـ الاتجاهات الادبية الحديثة ـ جزءان
حسين المرصفي ـ الوسيلة الادبية ـ جزءان

جميل جبر ـ مي في حياتها المضطربة
زكي مبارك ـ الموازنة بين الشعراء
ستانلن هايمن ـ ترجمة احسان
عباس ـ النقد الادبي ـ جزءان
سلامة موسى ـ البلاغة المصرية
شكيب أرسلان ـ شوقي ـ أو
صداقة أربعين عاماً
شوقي ضيف
ـ دراسات في الشعر المعاصر
ـ شوقي شاعر العصر الحديث
ـ مع العقاد
طـــه حسين ـ حديث الاربعاء ـ
ثلاثة اجزاء
ـ مستقبل الثقافة في مصر
طاهر الطناحي ـ الساعات الاخيرة
من حياتهم
عادل الغضبان ـ نجيب الحداد
عباس محمود العقاد ـ حياة قلم ..
ـ ساعات بين الكتب ..
ـ شعراء مصر في الجيل الماضي
عبد العزيز البشري ـ المختار ـ جزءان
عبد اللطيف حمزة ـ الصحـــافة
والادب في مصر
عز الدين الامين ـ نشأة النقـــد
عمر الدسوقي ـ فى الادب الحديث
ـ جزءان
ـ الفتوة عند العرب
ـ محمود سامي البارودي
ـ النابغة الذبياني
ـ مذكرات فى مناهج البحث
(أمالي)
ـ نشأة النثر الحديث وتطوره
ـ تطور المقالة ـ بحث خاص
مرسل الى جامعات امريكا
ماري زيادة (مي) ـ ظلمات وأشعة
ـ عائشة التيمورية

محمد خليفة التونسي ـ فصول من النقد عند العقاد
محمد حسين هيكل ـ ثورة الادب
ـ في أوقات الفراغ
محمد رشيد الرافعي ـ عبد القادر الرافعي ـ الثاني
محمد صادق عنبر ـ ذكرى أمين الرافعي
محمد صالح سمك ـ أمير الشعر في العصر القديم
محمد صبري ـ أدب وتاريخ
محمد عبد الغني حسن
ـ الفلاح في الأدب العربي
ـ مي أديبة الشرق
محمد مهدي البصير ـ الموشح
محمد يوسف نجم وآخرون ـ
ـ الادب العربي في آثار الدارسين
محمود محمد صادق ـ من أدب الثورات القومية
مصطفى عبد اللطيف السحرتي ـ الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث
مصطفى ابو طالب ـ تراجم علماء طرابلس
نعمات أحمد فؤاد ـ أدب المازني
» » » ـ دراسة في أدب الرافعي
نجيب جمال الدين ـ خليل مطران شاعر العصر
يوبيل عبد الحميد الرافعي
مهرجان الخليل
مهرجان البارودي

٨ ـ كتب في علم النفس والادب

حامد عبد القادر ـ العلاج النفسي
محمد خلف الله أحمد ـ من الوجهة النفسية في دراسة الادب
مصطفى سويف ـ الاسس النفسية للابداع الفني ـ في الشعر خاصة
يوسف مراد ـ شفاء النفس

٩ - الصحف والدوريات

١ - أبولو
٢- الاحسان - السورية
٣- الأخبار - الرافعية
٤ - آخر ساعة
٥ - الاخوان المسلمون
٦ - الآداب البيروتية
٧ - الأسبوع
٨ - الانصار
٩ - الاشاعة
١٠ - الاهرام
١١ - البصير
١٢- البعث - السورية
١٣ - البلاغ
١٤- البيان - البرقوقي
١٥ - التربية الاسلامية - البغدادية
١٦ - الثريا
١٧ - الثقافة
١٨ - الثقافة الاسلامية - البغدادية
١٩- الجامعة
٢٠ - الجمهور اللبنانية
٢١- الجمهورية البغدادية
٢٢ - الجواب
٢٣ - الحارس البغدادية
٢٤ - الحال
٢٥ - الحديث
٢٦ - الحرية
٢٧ - الدنيا المصورة
٢٨ - الرابطة العربية
٢٩ - الرسالة
٣٠- الزهراء
٣١ - الزهور
٣٢ - سركيس
٣٣ - السفور
٣٤ - السياسة الأسبوعية
٣٥- السيدات والرجال
٣٦ - الشباب
٣٧ - الشعب
٣٨ - الضياء
٣٩ - صوت الاسلام - البغدادية
٤٠ - الظاهر
٤١ - العمل التونسية
٤٢ - العربي
٤٣ - فتاة الشرق
٤٤ - الفتح
٤٥ - الفكر المعاصر
٤٦ - الكاتب المصري
٤٧ - الكتاب
٤٨ - كل شيء
٤٩ - المسلمون
٥٠ - المقتبس الدمشقية
٥١ - المقتطف
٥٢ - المقطم